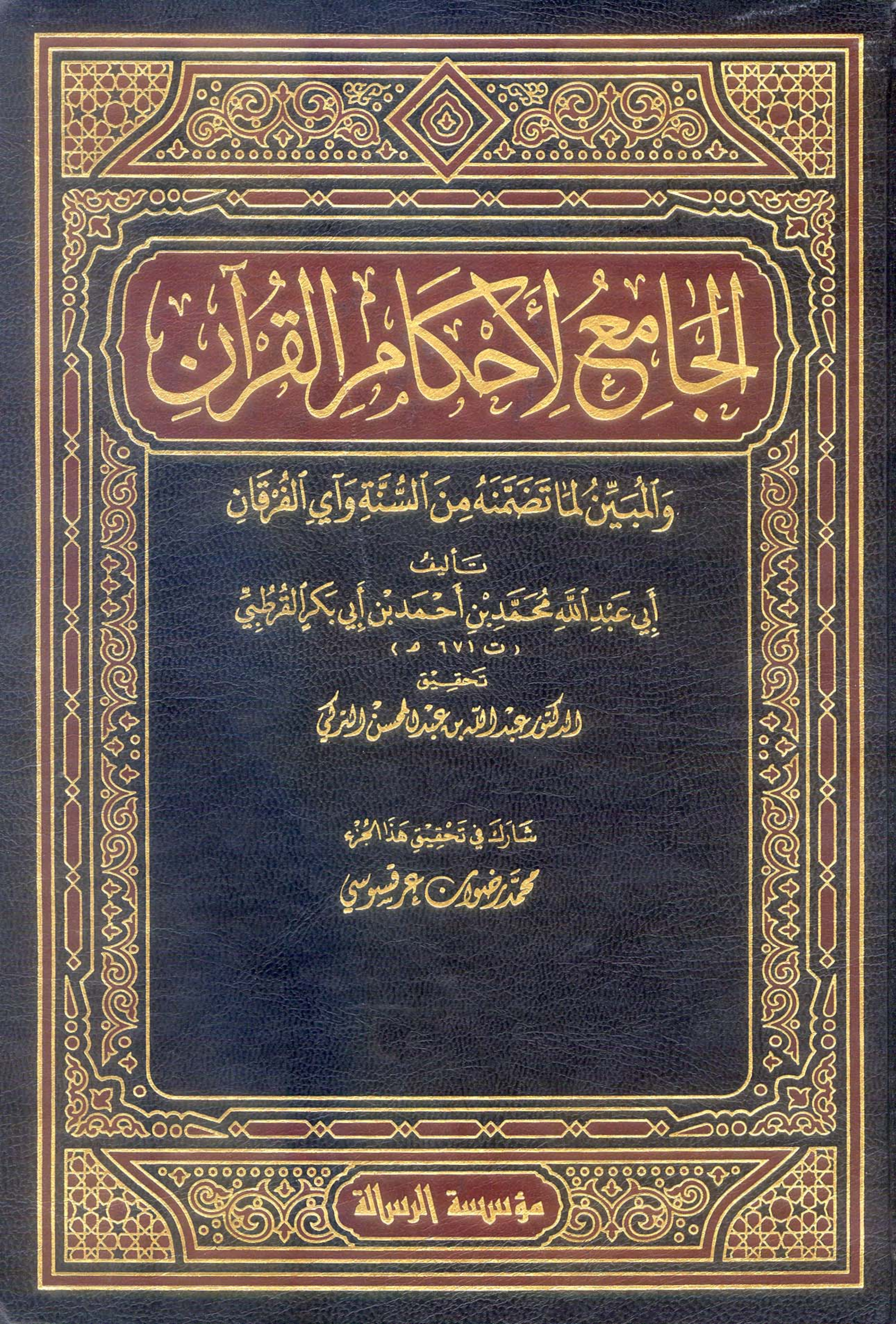

الجامع لأحكام القرآن
والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان
تأليف
أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي
(ت ٦٧١ هـ)
تحقيق
الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي
شارك في تحقيق هذا الجزء
محمد رضوان عرقسوسي
مؤسسة الرسالة

الجامع لأحكام القرآن

والمبيّن لما تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان

تأليف

أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي　　غياث الحاج أحمد

الجزء الحادي عشر

مؤسسة الرسالة

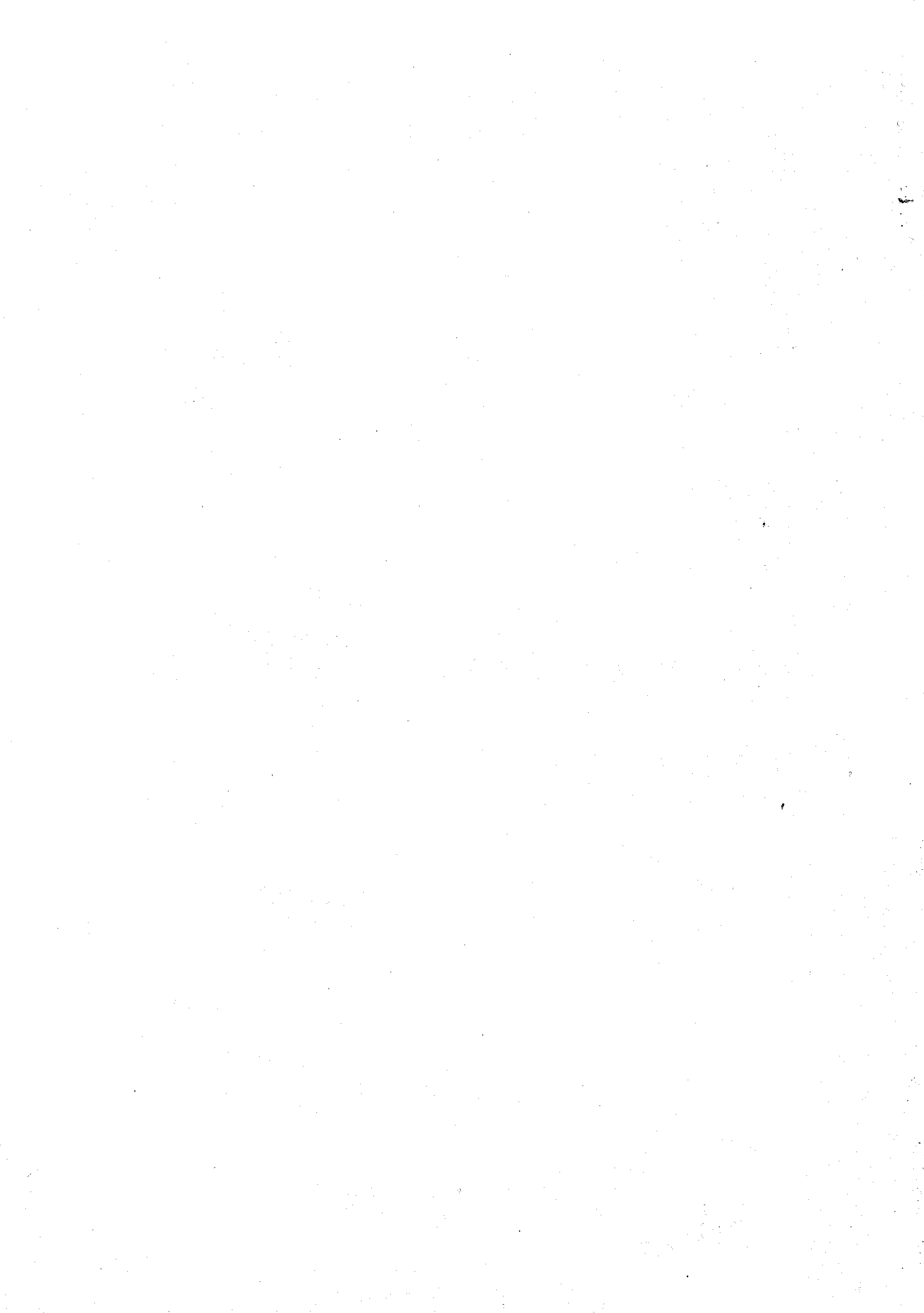
جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت-لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩-٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ يكون المعنى: ولكلِّ أُمَّة رسولٌ شاهدٌ عليهم، فإذا جاء رسولُهم يومَ القيامة قُضيَ بينهم، مثل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[1] [النساء: ٤١]. وقال ابن عباس: تُنكر الكفَّارُ غداً مجيءَ الرُّسُل إليهم، فيُؤتَى بالرَّسول فيقول: قد أبلغتُكُم[2] الرِّسالة، فحينئذ يُقضَى عليهم بالعذاب، دليلُه قولُه: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويجوز أنْ يكونَ المعنى: أنَّهم لا يُعذَّبون في الدنيا حتى يُرسَلَ إليهم، فمن آمنَ فازَ ونجا، ومَن لم يؤمن هلكَ وعُذِّب، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3] [الإسراء: ١٥]. والقِسْطُ: العدل. «وهم لا يُظلَمُونَ» أي: لا يُعذَّبون بغيرِ ذنبٍ، ولا يُؤاخذون بغيرِ حُجَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يُريد كفارَ مكةَ؛ لفرطِ إنكارِهم، واستعجالِهم العذاب، أي: متى العقابُ، أو متى القيامةُ التي يَعِدُنا محمد. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أُمَّةٍ كذَّبت رسولَها[5].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.

(٢) في (ز) و(ظ) و(ف): أبلغتهم.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٦.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٧.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ لمَّا استعجلوا النَّبيَّ ﷺ بالعذاب قال الله له: قُلْ لهم يا محمد: لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعاً، أي: ليس ذلك لي ولا لغيري. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أنْ أمْلكَه وأقدِرَ عليه، فكيف أَقدِرُ أنْ أملكَ ما استعجلتم؟! فلا تستعجلوا[1]. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ أي: لهلاكهم وعذابهم وقتٌ معلوم في عِلْمه سبحانه. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أي: وقتُ انقضاء أَجَلهم. ﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ أي: لا يُمكنُهم أن يستأخروا ساعةً باقين في الدنيا، ولا يتقدَّمون فيؤخّرون.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ ظرفان، وهو جوابٌ لقولهم: «متى هذا الوعدُ»، وتسفيهٌ لآرائهم في استعجالهم العذاب، أي: إنْ أتاكم العذابُ؛ فما نَفْعُكم فيه؟ ولا ينفعكم الإيمانُ حينئذ. ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظمَ ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلبُ أمراً يَستوخِمُ عاقبتَه: ماذا تجني على نفسك[2]؟ والضمير في «منه» قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى.

قال النحاس[3]: إنْ جعلتَ الهاء في «منه» تعود على العذاب؛ كان لك في «ماذا» تقديران: أحدُهما: أن يكون «ما» في موضع رَفْع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبر «ما»، والعائد محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون «ماذا» اسماً واحداً في موضع

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٠١.

(٢) الكلام بنحوه في الوسيط ٢/ ٥٥٠.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

رَفْع بالابتداء، والخبر في الجملة؛ قاله الزجاج[١]. وإن جعلتَ الهاء في «منه» تعود على اسم الله تعالى جعلتَ «ما»، و«ذا» شيئاً واحداً، وكانت[٢] في موضع نصب بـ «يستعجل»؛ والمعنى: أيَّ شيء يستعجل[٣] المجرمون من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ﴾ في الكلام حذفٌ، والتقدير: أتأمنون أن ينزِلَ بكم العذابُ، ثم يقال لكم إذا حلَّ: الآن آمنتُم به[٤]؟ قيل: هو مِن قول الملائكة استهزاءً بهم. وقيل: هو مِن قول الله تعالى.

ودخلت ألفُ الاستفهام على «ثم»، والمعنى: التقرير والتوبيخ، وليدلَّ على أن معنى الجُملة الثانية بعد الأُولى.

وقيل: إنَّ «ثم» هاهنا بمعنى: «ثَمّ» بفتح الثاء، فتكون ظرفاً، والمعنى: أهنالك، وهو مذهب الطبري[٥]، وحينئذٍ لا يكون فيه معنى الاستفهام.

و«الآن» قيل: أصلُه [: آنَ] فعل مبنيٌّ مثل: حان، والألفُ واللام لِتحويله إلى الاسم. الخليل: بُنِيَتْ[٦] لالتقاء الساكنين، والألفُ واللّام للعهد والإشارة إلى الوقت، وهو حَدُّ الزّمانين[٧]. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس: وإن جعلت الهاء في «منه» تعود على اسم الله جلَّ وعزَّ، وجعلت «ماذا» شيئاً واحداً، كانت. . . .

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني الزجاج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ١٩٠ - ١٩١. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤: وما ادَّعاه الطبري غير معروف.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨، والكلام فيه بنحوه، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) يعني حدّ الزمان الماضي من آخره وحدّ الزمان المستقبل من أوله. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩٨.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: تقول لهم خزنةُ جهنم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الذي لا ينقطع. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء كُفركم[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيامِ الساعة: ﴿أَحَقٌّ﴾ ابتداء. ﴿هُوَ﴾ [فاعل] سدَّ مَسَدَّ الخبر، وهذا قولُ سيبويه. ويجوز أن يكون «هو» مبتدأ، و«أحقٌّ» خبره[٢].

﴿قُلْ إِى﴾ «إي» كلمةُ تحقيقٍ وإيجابٍ وتأكيد بمعنى: نعم. ﴿وَرَبِّىٓ﴾ قَسَمٌ. ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ جوابُه، أي: كائن لا شكَّ فيه. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين عن عذابه ومُجازاته[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركتْ وكفرتْ. ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِلكاً. ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: من عذاب الله، يعني: ولا يُقبل منها[٤]، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَخْفَوْها، يعني رؤساءهم، أي: أَخْفَوْا

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٠١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٢.

ندامتَهم عن أتباعهم. ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النار أَلْهَتْهم النارُ عن التصنُّع، بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦]. فبيَّن أنهم لا يَكْتُمون ما بهم. وقيل: «أسَرُّوا»: أظهروا، والكلمة من الأضداد، ويدلُّ عليه أنَّ الآخرةَ ليست دارَ تَجلُّد وتَصبُّر[١]. وقيل: وجدوا أَلَمَ الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامةَ لا يُمكن إظهارُها. قال كُثَيِّر:

فأسررتُ الندامةَ يومَ نادى بردِّ جِمال غاضرةَ المُنادي[٢]

وذكر المبرّد فيه وجهاً ثالثاً[٣]: أنه بَدَتْ بالندامة أسِرَّةُ وجوههم، وهي تكاسيرُ الجبهة، واحدها سِرَار. والنَّدامة: الحسرةُ لوقوع شيء أو فَوْت شيء، وأصلُها اللُّزوم، ومنه: النديم لأنه يُلازم المجالس. وفلان نادمٌ سادمٌ. والسَّدَم: اللَّهَج بالشيء. ونَدِم وتندّم[٤] بالشيء، أي: اهتمّ به. قال الجوهري[٥]: السَّدَم ـ بالتحريك ـ الندم والحزن؛ وقد سَدِم بالكسر، أي: اهتمَّ وحَزِن، ورجل نادمٌ سادمٌ، وندمانُ سَدْمانُ، وقيل: هو إتباع. وما له همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك. وقيل: النَّدم مقلوبُ الدَّمْن[٦]، والدّمْن: اللُّزوم، ومنه فلان مُدْمن الخمر. والدِّمْن: ما اجتمع في الدار وتلبَّد من الأبوال والأبعار، سُمِّيَ به لِلُزومه. والدِّمْنة: الحقد الملازم للصدر، والجمع دِمَن. وقد دَمِنَتْ قلوبُهم؛ بالكسر، يقال: دَمِنْتُ على فلان، أي: ضَغِنتُ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بين الرؤساء والسُّفَّل؛ بالعدل[٧]. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٥٧، وتفسير الرازي ١٧/ ١١١ - ١١٢.

(٢) ديوان كُثَيِّر عزَّة ص١٣٧، وقوله: غاضرة: اسم امرأة.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٣٨.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): سدم.

(٥) في الصحاح (سدم) و(ندم) و(دمن).

(٦) في الصحاح (ندم): المنادمة مقلوبة من المدامنة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٢.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

«ألَا» كلمةُ تنبيهٍ للسامع، تُزاد في أوّل الكلام، أي: انتبهوا لِما أقولُ لكم: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: له مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، فلا مانعَ يمنعُه مِن إنفاذِ ما وعدَه[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني: قريشاً. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: وعظٌ. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآنَ، فيه مواعظُ وحِكَم[3]. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مِن الشكِّ والنفاقِ والخلافِ والشِّقاق. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ لمن اتَّبعه. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمةٌ. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّهم؛ لأنَّهم المنتفِعون بالإيمان، والكلُّ صفاتُ القرآن، والعطفُ لتأكيدِ المدح. قال الشاعر:

إلى المَلِك القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكَتيبةِ في المُزْدَحَمْ[4]

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال أبو سعيد الخُدريّ وابن عباس رضي الله عنهما: فضلُ الله القرآن، ورحمتُه الإسلام. وعنهما أيضاً: فضلُ الله القرآن،

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩.

(٢) ١/ ٣٧٣ وما بعدها.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٠.

(٤) سلف ٢/ ٨٥، وقوله: القرم: السيد.

ورحمتُه أنْ جعلَكم مِن أهله. وعن الحسن والضحَّاك ومجاهد وقتادة: فضلُ الله الإيمان، ورحمتُه القرآن، على العكس مِن القَولِ الأوَّل[١]. وقيل غيرُ هذا.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ إشارةٌ إلى الفضلِ والرحمة. والعربُ تأتي «بذلك» للواحدِ والاثنين والجميع. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قرأ: «فبذلك فَلْتَفْرَحُوا» بالتاء، وهي قراءةُ يزيد بن القَعْقاع[٢] ويعقوب[٣] وغيرهما، وفي الحديث: «لِتَأخذوا مصافَّكُم»[٤].

والفرحُ لذَّةٌ في القلب بإدراك المَحبُوب. وقد ذُمَّ الفرحُ في مواضع، كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، ولكنَّه مطلقٌ. فإذا قُيِّد الفرحُ لم يكن ذمًّا؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهاهنا قال تبارك وتعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي: بالقرآن والإسلام فليفرحوا، فقيَّد[٥].

قال هارون: وفي حرف أُبَيّ: «فبِذلِك فافرحوا»[٦]. قال النحاس[٧]: سبيلُ الأمر أنْ يكونَ باللام؛ ليكونَ معه حرفٌ جازم كما أنَّ مع النَّهي حرفاً؛ إلَّا أنَّهم يحذِفون مِن الأمر للمخاطَب استغناءً بمخاطبته، وربما جاؤوا به على الأصل، منه: «فبذلك فَلْتفرحوا».

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ١٩٥ - ١٩٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠ - ٤١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ . وقراءة يزيد بن القعقاع (وهو أبو جعفر) المشهورة عنه: «فليفرحوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وهي قراءة ابن عامر، كما سيرد.

(٣) في رواية رُويس عنه . النشر ٢/ ٢٨٥ .

(٤) أورده بهذا اللفظ الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠ في سياق كلامه على قراءة أُبيّ الآتي ذكرها. وهو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ عند أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مَصَافِّكم كما أنتم»، وحينئذ فلا شاهد فيه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٦ .

(٦) المحتسب ١/ ٣١٣ . وهارون: هو ابن موسى بن شريك التغلبي، الأخفش، أبو عبد الله، الإمام الكبير، مقرئ دمشق، له تصانيف في القراءات والعربية. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩ ، وما قبله منه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: في الدنيا. وقراءةُ العامّة بالياء في الفعلَين، ورُويَ عن ابن عامر أنَّه قرأ: «فَلْيَفرحوا» بالياء، «تجمعون» بالتاء[1]، خطاباً للكافرين. ورُويَ عن الحسن أنَّه قرأ بالتاء في الأوَّل، و«يجمعون» بالياء على العكس[2]. وروى أبان عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن هداه اللهُ للإسلام، وعلَّمه القرآنَ، ثم شكا الفاقةَ، كتبَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنيه إلى يوم يَلقاه. ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾»[3].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يُخاطب كفَّارَ مكة[4]. ﴿مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أرأيتم»، وقال الزجَّاج[5]: في موضعِ نصبٍ بـ«أنزل». «وأَنْزَلَ» بمعنى: خلقَ، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فيجوزُ أنْ يُعبّر عن الخَلْق بالإنزال؛ لأنَّ الذي في الأرض مِن الرزقِ إنَّما هو بما يَنزلُ مِن السماء مِن المطر[6].

---

(١) السبعة ص٣٢٧ - ٣٢٨، والتيسير ص١٢٢.

(٢) ينظر المحتسب ١/ ٣١٣.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٣٩. وأخرجه أبو القاسم بن بشران في أماليه كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٩. وأبان: هو ابن أبي عيّاش فيروز، أبو إسماعيل البصري. قال أحمد ويحيى بن معين: متروك. ميزان الاعتدال ١/ ١٠.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩.

(٦) تفسير الرازي ١٧/ ١٢٠.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ قال مجاهد: هو ما حَكموا به مِن تحريم البَحِيرة والسَّائبة والوصِيلة والحام[1]. وقال الضحَّاك: هو قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أي: في التَّحليلِ والتَّحريم. ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ «أم» بمعنى: بل. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ هو قولُهم: إنَّ اللهَ أمرَنا بها[2].

الثانية: استدلَّ بهذه الآية مَن نفَى القياس، وهذا بعيد؛ فإنَّ القياسَ دليلُ اللهِ تعالى، فيكونُ التَّحليلُ والتحريمُ مِن الله تعالى عند وجودِ دلالةٍ نصَبها الله تعالى على الحُكم، فإنْ خالفَ في كونِ القياس دليلاً لله تعالى فهو خروجٌ عن هذا الغرضِ ورجوعٌ إلى غيره[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ «يوم» منصوبٌ على الظرف، أو بالظنّ، نحو ما ظنُّك زيداً[4]، والمعنى: أيحسبون أنَّ اللهَ لا يُؤاخذهم به[5]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: في التأخيرِ والإمهال. وقيل: أرادَ أهلَ مكةَ حين جعلَهم في حَرَمٍ آمن. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني الكفارَ. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نعمِه، ولا في تأخيرِ العذابِ عنهم. وقيل: «لا يشكرون»: لا يُوحِّدون[6].

---

(١) سلف شرحها ٨/ ٢٣٧ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨ ، وأخرج قولي مجاهد والضحاك الطبريُّ ١٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ٢٢٣ ، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٦٣ .

(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨ .

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ١/ ٣٧١ ، والوجيز له (بهامش مراح لبيد) ١/ ٣٧١ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ «ما» للجحد، أي: لست في شأن، يعني: من عبادةٍ أو غيرها إلا والرَّبُّ مُطَّلعٌ عليك. والشأن: الخَطْب والأمر، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنْتُ شَأْنَه، أي: ما عملتُ عَمَلَه[1].

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ قال الفرّاء والزجَّاج: الهاء في «منه» تعود على الشأن، أي: تُحدِث شأناً فَيُتلى من أجله القرآن؛ فيعلم كيف حُكمه، أو ينزل فيه قرآنٌ فَيُتلى[2]. وقال الطبري[3]: «منه» أي: من كتاب الله تعالى مِن قُرآنٍ؛ أعاد تفخيماً، كقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يُخاطب النبيَّ ﷺ والأُمَّة. وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ خِطابٌ له، والمراد هو وأُمَّته، وقد يُخاطَب الرسول والمُراد هو وأتباعُه[4]. وقيل: المُراد كفارُ قريش. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: نَعْلمُه[5]، ونظيرُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون فيه[6]، والهاء عائدةٌ على العمل[7]، يقال: أفاضَ فلانٌ في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. قال الراعي:

فأَفَضْنَ بعدَ كُظُومِهِنَّ بجِرَّةٍ   مِن ذِي الأباطح إذْ رَعَيْنَ حَقِيلا[8]

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ١٧/ ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٦ .

(٣) في تفسيره ١٢/ ٢٠٤ . وينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢ .

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٢ .

(٥) في (ز) و(ظ): بعلمه.

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٧.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ .

(٨) ديوان الراعي ص٢٢٤ ، وسلف ٥/ ٣١٨ ، فينظر شرح غريبه ثمَّة، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٧٨ .

ابنُ عباس: «تُفِيضُونَ فِيهِ»: تفعلونه[١]. الأخفش: تتكلَّمون. ابن زيد: تخوضون. ابن كَيسان: تنشُرون القول. وقال الضحاك: الهاء عائدةٌ على القرآن، المعنى: إذ تُشيعون في القرآن الكذب[٢].

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يغيب[٣]. وقال أبو رَوق: يَبعُدُ. وقال ابن كَيسان: يذهب.

وقرأ الكسائيّ: «يعزِب» بكسر الزاي حيث وقع؛ وضمَّ الباقون[٤]، وهما لغتان فصيحتان، نحو يَعْرِش ويَعْرُش[٥]. ﴿مِن مِّثۡقَالِ﴾ «من» صلة؛ أي: وما يَعزُب عن ربِّك مِثقال ﴿ذَرَّةٖ﴾، أي: وزن ذرَّة، أي: نُمَيْلة حمراء صغيرة، وقد تقدَّم في «النساء»[٦]. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ عطف على لفظ «مِثقال»، وإنْ شئتَ على «ذرَّة». وقرأ يعقوبُ وحمزةُ بِرفع الراء فيهما[٧] عطفاً على موضع «مِثقال»؛ لأن «من» زائدة للتأكيد. وقال الزجَّاج: ويجوزُ الرفع على الابتداء[٨]. وخبره: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[٩] يعني: اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به.

قال الجُرْجاني: «إلا» بمعنى واو النَّسق، أي: وهو في كتاب مُبين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١] أي: ومن ظلم. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: والذين ظلموا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٨ .

(٤) السبعة ص٣٢٨ ، والتيسر ص١٢٢ - ١٢٣ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٠ .

(٦) ٦/ ٣٢١ - ٣٢٢ . وينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٢٥٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ .

(٧) السبعة ص٣٢٨ ، والتيسير ص١٢٣ ، والنشر ٢/ ٢٨٥ .

(٨) ينظر معاني القرآن له ٣/ ٢٦ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

منهم(١). فـ «إلا» بمعنى واو النسق. وأضمر «هو» بعده، كقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] أي: هي حِطَّة، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ [النساء:١٧١] أي: هم ثلاثة. ونظيرُ ما نحن فيه: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: وهو في كتاب مُبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لفقد الدنيا. وقيل: لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أي: مَن تولَّاه الله تعالى وتولَّى حِفْظَه وحِياطتَه ورَضِيَ عنه فلا يخاف يومَ القيامة ولا يحزن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾ أي: عن جهنم ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾(٢) [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

وروى سعيد بنُ جُبير أن رسول الله ﷺ سُئل: مَن أولياء الله؟ فقال: «الذين يُذكَر اللهُ برؤيتهم»(٣).

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِن عبادِ الله عباداً ما هُم بأنبياءَ ولا شهداءَ؛ تَغْبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامة لِمَكانهم من الله تعالى». قيل: يا رسولَ الله، خبِّرنا مَن هُم، وما أعمالُهم، فلعلّنا نحبُّهم؟. قال: «هم قومٌ تحابّوا في الله على غيرِ أرحامٍ بينهم ولا أموالٍ يتعاطَون بها، فواللهِ إنَّ وجوهَهم لَنورٌ، وإنهم على منابرَ من نورٍ، لا يخافون إذا خافَ الناسُ، ولا يحزَنون إذا حَزِن الناسُ» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾(٤).

---

(١) قال الرازي في تفسيره ١/ ١٢٤ : هذا الوجه في غاية التعسُّف، وقال أبو حيان في البحر ٥/ ١٧٥ : وهذا قول ضعيف، ولم يثبت من لسان العرب وضع «إلا» موضع الواو.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٩ ، وهو مرسل. وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧١)، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٥)، والبزار (٣٦٢٦) (زوائد) عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧)، والطبري ١٢/ ٢١١ - ٢١٢ ، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧٢)، والطبري ١٢/ ٢١١ ، وصححه ابن حبان (٥٧٣).

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: أولياءُ اللهِ قومٌ صُفْرُ الوجوه من السَّهر، عُمْشُ العيون من العِبَر، خُمْصُ البطون من الجوع، يُبْسُ الشِّفاه من الذَّوِيّ[١].

وقيل: «لا خَوْفٌ عليهم» في ذُرِّيَّتهم؛ لأنَّ الله يتولَّاهم. «ولا هم يَحزنُونَ» على دنياهم؛ لتعويضِ الله إيَّاهم في أُولاهم وأُخراهم؛ لأنه وَليُّهم ومولاهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذه صفةُ أولياء الله تعالى، فيكون: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع نَصْبٍ على البدل من اسم «إنّ» وهو «أولياء». وإنْ شئتَ على أعني. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٢]، فيكون مقطوعاً مما قبلَه. أي: يتَّقون الشِّرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن أبي الدّرداء قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «ما سألني أحدٌ عنها غيرُك منذ أُنزِلتْ، هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلمُ أو تُرَى له». خرَّجه الترمذي في «جامعه»[٣]. وقال الزُّهريّ وعطاء وقتادة: هي البِشارة التي تُبشِّر بها الملائكةُ المؤمنَ في الدنيا عند الموت[٤].

وعن محمد بن كعب القُرَظِيّ قال: إذا استنقعتْ نفسُ العبدِ المؤمن[٥]؛ جاءه

---

(١) نسبه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٨ للثعلبي، وهو ضعيف. قوله: الذويّ، أي: الذُّبول.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠.

(٣) الحديث (٣١٠٦)، وهو في مسند أحمد (٢٧٥٢٠) مختصر، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وعبادة ابن الصامت ﷺ عند أحمد (٧٠٤٤) و(٢٢٦٨٨).

(٤) أخرج قول الزُّهري وقتادة الطبري ١٢/ ٢٢٤، وذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٦٠ عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أي: إذا اجتمعت فيه تريد الخروج، كما يستنقع الماء في قراره. وأراد بالنفس الروح. النهاية (نقع).

مَلك الموت فقال: السلامُ عليكَ يا وليَّ الله، اللهُ يُقرئك السلام. ثم نزع بهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢] ذكره ابن المبارك(١).

وقال قتادة والضحَّاك: هي أن يعلمَ أين هو من قبلِ أن يموتَ(٢). وقال الحسن: هي ما يُبَشِّرهم اللهُ تعالى في كتابه من جنَّته وكريمِ ثوابه؛ لقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا خُلف لمواعيده، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماته.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قيل: بالجنة إذا خرجوا مِن قبورهم. وقيل: إذا خرجتِ الروحُ بُشِّرتْ برِضوان الله(٣).

وذكر أبو إسحاق الثعلبي: سمعتُ أبا بكر محمدَ بن عبد الله الجَوْزَقيّ(٤) يقول: رأيتُ أبا عبد الله الحافظ في المنام راكباً بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعِمامة، فسلَّمتُ عليه وقلت له: أهلاً بك، إنا لا نزالُ نذكُرك ونذكُر محاسِنَك، فقال: ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الثناء الحسن، وأشار بيده.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا خُلف لوعده. وقيل: لا تبديلَ لأخباره، أي: لا يَنْسَخُها بشيء، ولا تكون إلا كما قال. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ما يصيرُ إليه أولياؤه فهو الفوزُ العظيم.

---

(١) في الزهد (٤٤٢).

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤١، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٢٥ عن الضحاك.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٣ - ٥٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٠، وفيهما قول الحسن السالف.

(٤) الخراساني، الحافظ، المجوّد، له كتاب الصحيح المخرَّج على كتاب مسلم، والمتَّفق الكبير، يكون في ثلاث مئة جزء. توفي سنة (٣٨٨هـ). وجَوْزَق من قرى نيسابور. السير ١٦/ ٤٩٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تمَّ الكلام، أي: لا يَحزنْك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أي: القوّة الكاملة، والغلبة الشاملة، والقدرة التامَّة لله وحدَه؛ فهو ناصرُك ومُعينك ومانِعُك.

﴿جَمِيعًا﴾ نَصْبٌ على الحال[1]، ولا يُعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فإنَّ كلَّ عزَّة بالله فهي كلُّها لله، قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميعُ لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: يحكم فيهم بما يُريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ «ما» للنفي، أي: لا يتَّبعون شركاءَ على الحقيقة، بل يَظنُّون أنها تشفع أو تنفع. وقيل: «ما» استفهام، أي: أيَّ شيء يتَّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ؟! تقبيحاً لفعلهم[2]، ثم أجاب فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحدِسُون ويكذبون، وقد تقدَّم[3].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦١ ، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣١ .

(٣) ٩/ ٧ . وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦ .

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بيَّن أنَّ الواجب عبادةُ من يَقدِر على خَلْق الليل والنهار؛ لا عبادةُ من لا يقدرُ على شيء. «لِتَسْكُنُوا فيه» أي: مع أزواجكم وأولادكم ليزولَ التَّعبُ والكَلالُ بكم. والسكون: الهدوء عن الاضطراب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً لِتَهتدوا به في حوائجكم. والمُبصِر: الذي يُبصر، والنهار يُبْصر فيه. وقال: «مُبْصِراً»؛ تجوُّزاً وتوسعاً على عادة العرب في قولهم: ليلٌ قائم ونهارٌ صائم. وقال جرير:

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائم[1]

وقال قُطْرُب: يقال: أظلمَ الليلُ، أي: صار ذا ظُلمة، وأضاء النهار وأبصرَ، أي: صار ذا ضياء وبَصَر[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ أي: علامات ودَلالات. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماعَ اعتبار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: الكفار. وقد تقدَّم[3]. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ نَزَّه نفسَه عن الصاحبةِ والأولاد، وعن الشُّركاء والأنداد. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم أخبر بغناهُ المُطْلَق، وأنَّ له ما في السماواتِ والأرضِ مُلْكاً وخَلْقاً وعبداً، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩٣، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦.

(٢) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٧٧.

(٣) ٢/ ٣٣٣.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ﴾ أي: ما عندكم من حُجَّة بهذا. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن إثباتِ الولد له، والولدُ يَقتضي المُجانسة والمُشابهة، والله تعالى لا يُجانس شيئاً ولا يُشابِهُ شيئاً[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يَختلقون. ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون ولا يأمنون، وتمَّ الكلام. ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ذلك متاعٌ، أو هو متاعٌ في الدنيا، قاله الكسائي[٢]. وقال الأخفش: لهم متاعٌ في الدنيا[٣]. قال أبو إسحاق[٤]: ويجوز النصبُ في غير القرآن على معنى: يتمتَّعون متاعاً. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: رُجوعهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: الغليظ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أمَرَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذكِّرَهم أقاصيصَ المتقدِّمين، ويُخوِّفَهم العذابَ الأليم على كُفرهم. وحُذفت الواو من «ٱتْلُ»؛ لأنه أمرٌ، أي: اقرأ عليهم خبرَ نوح. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ «إذ» في موضع نصب[٥].

---

(١) في (ز) و(ظ) و(ف): ولا يشبهه شيء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣١، ولم ينسبه لأحد.

(٤) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٢٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١.

﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ أي: عَظُم وثقُل عليكم. ﴿مَّقَامِى﴾ المَقام؛ بفتح الميم: الموضع الذي يقوم فيه. والمُقام ـ بالضم ـ: الإقامة. ولم يُقرأ به فيما عَلِمتُ[1]، أي: إنْ طال عليكم لُبْثي فيكم. ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إيَّاكم، وتخويفي لكم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وعَزَمْتُم على قَتْلي وطَرْدي. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ. وهذا هو جوابُ الشرط، ولم يزل عليه الصلاة والسلام متوكِّلاً على الله في كل حال، ولكن بيَّن أنه متوكِّل في هذا على الخصوص؛ ليعرفَ قومُه أنَّ الله يَكفيه أمرَهم، أي: إنْ لم تنصروني فإني أتوكَّل على مَن يَنْصُرني[2].

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قراءة العامَّة[3]: «فَأَجْمِعُوا» بقطع الألف، «شُرَكاءكم» بالنصب. وقرأ عاصمٌ الجَحْدريُّ: «فاجْمَعُوا» بوصل الألف وفتح الميم؛ مِن جَمع يجْمَع، «شركاءَكم» بالنصب. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب: «فأَجمِعوا» بقطع الألف «شركاؤكم» بالرفع[4].

فأمَّا القراءة الأولى، مِن: أجمع على الشيء: إذا عزم عليه. وقال الفرَّاء: أجمع الشيءَ: أعدَّه[5]. وقال المُؤرِّج: أجمعتُ الأمرَ، أَفْصحُ مِن: أجمعتُ عليه. وأنشد:

يا ليتَ شعري والمُنَى لا تنفعُ ... هل أَغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ[6]

قال النحاس[7]: وفي نصب الشُّرَكاء على هذه القراءة ثلاثةُ أوجه: قال الكسائي

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٣١ . وفي الصحاح (قوم): وقد يكون كل واحد منهما (المَقام والمُقام) بمعنى الإقامة، ويكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن: قام يقوم، فمفتوح، وإن جعلته من: أقام يُقيم، فمضموم.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٧/ ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) في (ز) و(ظ) و(ف): الأئمة.

(٤) يعقوب من العشرة. وينظر النشر ٢/ ٢٨٦ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ ، والمحتسب ١/ ٣١٤ .

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١-٢٦٢ . وما قبله منه.

(٦) زاد المسير ٤/ ٤٧ - ٤٨ . والبيت في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونوادر أبي زيد ص١٣٣ ، وإصلاح المنطق ص٢٩٣ دون نسبة.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

والفراء[١]: هو بمعنى: وادعوا شُركاءَكم لِنُصرتكم. وهو منصوبٌ عندهما على إضمار هذا الفعل. وقال محمد بن يزيد: هو معطوفٌ على المعنى، كما قال:

يا ليت زوجَكِ في الوَغَى متقلِّداً سَيفاً ورُمحاً[٢]

والرُّمح لا يُتقلَّد، إلا أنه محمولٌ كالسيف.

وقال أبو إسحاق الزجاج[٣]: المعنى: مع شُركائكم على تناصركم؛ كما يقال: التقى الماءُ والخشبةَ.

والقراءة الثانية من الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]. قال أبو معاذ[٤]: ويجوز أن يكون جَمَعَ وأجْمع بمعنًى واحد[٥]، «وشُركاءكم» على هذه القراءة عطف على «أمْرَكم»، أو على معنى: فاجمعوا أمرَكم واجمعوا شركاءَكم، وإن شئت بمعنى: مع. قال أبو جعفر النحاس[٦]: وسمعت أبا إسحاق يُجيز: قام زيد وعمراً.

والقراءة الثالثة: على أنْ يَعطِفَ الشُّرَكاء على المُضمر المرفوع في «أجمعوا»، وحَسُن ذلك؛ لأنَّ الكلامَ قد طال. قال النحاس[٧] وغيره: وهذه القراءة تبعدُ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تُكتب بالواو، ولم يُرَ في المصاحف واو في قوله: «وشُركاءكم»، وأيضاً فإنَّ شركاءهم الأصنام، والأصنامُ لا تصنع شيئاً، ولا فعل لها حتى تُجْمِع.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٧٣ .

(٢) قائله عبد الله بن الزبعرى، وهو في ديوانه ص٣٢ ، وفيه: قد غدا، بدل: في الوغى. وسلف البيت ١/ ٢٩١ . وينظر الكامل لمحمد بن يزيد المبرد ١/ ٤٣٢ و ٢/ ٨٣٦ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٤) لعله أبو معاذ النحوي المروزي المقرئ اللغوي، له كتاب في القراءات. إنباه الرواة ٤/ ١٧٩ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ دون نسبة.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ ، وما قبله فيه بنحوه، وأبو إسحاق الآتي ذكره هو الزجّاج.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

قال المهدويُّ: ويجوز أنْ يرتفعَ الشُّركاءُ بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: وشركاؤكم لِيُجمعوا أمرَهم[١]، ونُسب ذلك إلى الشُّركاء ـ وهي لا تسمعُ ولا تُبصر ولا تُميِّز ـ على جهةِ التوبيخ لمن عَبَدَها.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ اسم «يكن» وخبرها. وغُمَّةٌ وغَمٌّ سواء، ومعناه التغطية، مِن قولهم: غُمَّ الهلال: إذا استتر، أي: لِيكن أمرُكم ظاهراً مُنكشِفاً تتمكَّنون فيه مما شئتم[٢]؛ لا كمن يَخفَى أمرُه فلا يقدِر على ما يُريد. قال طَرَفَة:

لعمرك ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ[٣]

الزجَّاج: ﴿غُمَّةً﴾: ذا غَمٍّ، والغَمُّ والغُمَّة، كالكَرْب والكُرْبة. وقيل: إن الغُمَّة ضِيق الأمر الذي يُوجب الغمّ[٤]، فلا يتبيَّن صاحبه لأمره مَصْدراً لينفرجَ عنه ما يغمُّه. وفي «الصحاح»: والغُمَّة: الكُرْبة. قال العجَّاج:

بل لو شَهِدتَ الناسَ إذ تُكُمُّوا بغُمَّة لو لم تُفرَّج غُمُّوا[٥]

يقال: أمْرٌ غُمَّة، أي: مُبْهَم مُلتبِس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾. قال أبو عُبيدة[٦]: مجازُها ظُلمة وضِيق. والغُمَّة أيضاً: قَعْر النِّحْي وغيره[٧]. قال

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٢ دون نسبة.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ . وتهذيب اللغة ١٦/ ١١٥ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٣ .

(٥) ديوان العجاج ص٣٧٤ ، وقوله: تُكُمُّوا، أي: أغميَ عليهم، وغُطُّوا. القاموس المحيط (كمم). والرجز أورده المصنف كما في الصحاح (غمم)، والذي في الديوان:

بل لو شهدت الناسَ إذ تُكُمُّوا بِقَدَرٍ حُمَّ لهم وحُمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تُفرَّج غُمُّوا إذ زعمت ربيعة القِشْعَمُ

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٢٧٩ .

(٧) الصحاح (غمم)، والنِّحي: الزِّقُّ، أو ما كان للسَّمن خاصة. القاموس المحيط (نحي).

غيره: وأصلُ هذا كلِّه مشتقٌّ من الغَمامة[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ألف «اِقضُوا» ألفُ وصل، مِن: قضَى يَقضي. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦] أي: أنهيناه إليه، وأبلغناه إيَّاه. ورُوي عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ قال: اِمضُوا إليَّ ولا تؤخِّرون[٢]. قال النحاس[٣]: هذا قولٌ صحيح في اللغة، ومنه: قَضَى الميتُ، أي: مضى. وأَعلمهم بهذا أنهم لا يَصِلون إليه، وهذا من دلائل النبوّات.

وحكى الفرَّاء عن بعض القُرَّاء: «ثم أَفضوا إليَّ»؛ بالفاء وقَطْع الألف[٤]، أي: توجَّهوا، يقال: أفضت الخلافة إلى فلان، وأفضى إليَّ الوجع.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن نبيِّه نوح عليه السلام أنه كان بنصرِ الله واثقاً، ومِن كيدهم غيرَ خائف، علماً منه بأنهم وآلهتَهم لا ينفعون ولا يضرُّون[٥]. وهو تعزيةٌ لنبيِّه ﷺ وتقويةٌ لقلبه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: فإنْ أعرضتُم عما جِئتكم به؛ فليس ذلك لأني سألتُكم أجراً فيثقُلَ عليكم مكافأتي[٦]. ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٠ (١٠٤٨٧).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢، ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٧ وابن جني في المحتسب ١/ ٣١٥ إلى السَّري ابن يَنْعُم.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣، والنكت والعيون ٢/ ٤٤٣.

تبليغ رسالته. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحِّدين لله تعالى.

فَتَح أهلُ المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياءَ «أجريَ» حيث وقع، وأسكن الباقون[1].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني نوحاً. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: من المؤمنين. ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، وسيأتي ذكرها[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: سكانَ الأرض وخَلَفاً ممن غَرِق[3]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يعني آخر أمرِ الذين أنذرهم الرُّسلُ فلم يؤمنوا[4].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشُعيب وغيرهم[5]. ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمُعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ التقدير: بما كذَّب به قومُ نوح مِن قَبْل[6]. وقيل: «بِمَا كَذَّبُوا به مِنْ قَبْلُ» أي: مِن يوم[7] الذَّر، فإنه كان فيهم من كذَّب بقلبه، وإنْ قال الجميع: بلى.

---

(١) التيسير ص٦٥ - ٦٦، والنشر ٢/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) في تفسير الآية (٣٨) من سورة هود.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٤٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٦، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٥.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٣.

(٧) في (ف) و(م): من قبل يوم.

قال النحاس[١]: ومِن أحسن ما قيل في هذا: إنه لِقومٍ بأعيانهم، مثل: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي: نَختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكُفر والتكذيب، فلا يؤمنوا. وهذا يردُّ على القَدَريَّة قولَهم كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعدِ الرُّسل والأُمَم. ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدَّم ذكرها[٢]. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: عن الحقّ. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يريد فرعونَ وقومَه. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ حملوا المعجزاتِ على السحر. قال لهم موسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ قيل: في الكلام حذفٌ، المعنى: أتقولون للحقّ: هذا سحرٌ؟ فـ «أتقولون» إنكارٌ، وقولُهم محذوف، أي: هذا سحرٌ، ثم استأنف إنكاراً آخر مِن قِبَله فقال: أسحر هذا؟! فحذف قولهم الأوَّل اكتفاء بالثاني من قوله[٣] مُنكِراً على فرعونَ وملئِه.

وقال الأخفش[٤]: هو مِن قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهم قالوا:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣ .

(٢) ٢/ ٢٥٤ ، ٩/ ٣٠٩ .

(٣) في (د) و(م): من قولهم. والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٢/ ٢٣٨ - ٢٣٩ ، وتفسير الرازي ١٧/ ١٤١ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣ .

أسحرٌ هذا. فقيل لهم: أتقولون للحقّ لما جاءكم: أَسحرٌ هذا[١]. ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي: لا يُفلح مَن أتى به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفَنا وتَلْوِيَنا، يقال: لَفَتَه يَلفِتُه لَفْتاً: إذا لواه وصَرَفه[٢]. قال الشاعر:

تَلَفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى رأيتُني وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعَا[٣]

ومن هذا: التفتَ، إنما هو عدلَ عن الجهة التي بين يديه[٤]. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريد من عبادة الأصنام. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمةُ والمُلْك والسلطان. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُريد أرضَ مصر[٥]. ويقال للمُلْك: الكِبرياء، لأنه أعظمُ ما يُطلَب في الدنيا[٦]. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرُهما: «ويكون» بالياء[٧]؛ لأنه تأنيثٌ غيرُ حقيقي، وقد فُصِلَ بينهما. وحكى سيبويه: حضر القاضيَ اليومَ امرأتان[٨].

---

(١) وقع في النسخ بعدها عبارة: ورُوي عن الحسن. وهو وهم من المصنف رحمه الله، لأن هذه العبارة قد ذكرها النحاس (والكلام منه) من أجل قراءة الحسن: «ويكون لكما الكبرياء» بالياء، وستأتي في الآية التالية.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥.

(٣) قائله الصمة بن عبد الله القشيري، وهو في ديوانه ص٩٤، وفيه: وجدتُني، بدل: رأيتُني. وقوله: الإصغاء: أي: الإمالة. واللِّيت: صفحة العُنق. القاموس المحيط (ليت). والأخدع: عِرْق في جانب العُنق. اللسان (خدع).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٧.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٣.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٧-٥٨.

(٨) الكتاب ٢/ ٣٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾

إنما قاله لَمَّا رأى العصا واليدَ البيضاء، واعتقدَ أنهما سحرٌ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن وَثَّاب والأعمش: «سَحَّار»[١]. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ فيهما[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾

أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من حِبالكم وعِصِيِّكم. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ في هذا مستوفًى[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء، والخبر «جئتم به»، والتقدير: أيُّ شيء جِئْتُمْ به؟ على التوبيخ والتصغير[٤] لِمَا جاؤوا به من السحر.

وقراءةُ أبي عمرو: «آلسِّحْرُ» على الاستفهام على إضمار مبتدأ، والتقدير: أهو السحر؟ ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبرُ محذوف، التقدير: آلسحرُ جئتم به[٥]. ولا تكون «ما» على قراءة مَن استفهم بمعنى الذي، إذ لا خبرَ لها[٦].

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٢٨٩ ، والتيسير ص١١٢ ، وقراءة ابن وثَّاب في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥ ، ولم نقف على من نسبها للأعمش.

(٢) ٩/ ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) ٩/ ٢٩٦ وما بعدها .

(٤) في (ز) و (ظ) و (ف) وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣ (والكلام منه): والتقصير. والمثبت من (د) و (م).

(٥) ذكر مكيّ في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١ الوجه الأول، وذكر العكبري في الإملاء ٣/ ٢٤٥ الوجهين، وقدَّر الثاني بلفظ: السحر هو؟ قال السمين في الدر المصون ٦/ ٢٤٩ : وفيهما بُعدٌ.

(٦) هذا قول مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١ ، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٦/ ٢٥٠ : ليس كما ذكر ، بل خبرها الجملة المقدَّر أحد جُزأيها.

وقرأ الباقون: «السِّحْرُ» على الخبر[١]، ودليلُ هذه القراءة قراءةُ ابن مسعود: «مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ». وقراءةُ أُبيٍّ: «ما أتيتُم به سحرٌ»؛ فـ«ما» بمعنى الذي، و«جئتم به» الصلة، وموضعُ «ما» رفع بالابتداء، والسحر خبر الابتداء. ولا تكون «ما» إذا جعلتها بمعنى الذي نصباً؛ لأن الصلة لا تعمل في الموصول[٢].

وأجاز الفرَّاء[٣] نَصْبَ «السحر» بـ«جِئْتُم»، وتكون «ما» للشرط، و«جئتم» في موضع جزم بـ«ما»، والفاء محذوفة؛ التقدير: فإن الله سيُبْطلُه.

ويجوز أن يُنصب «السحر» على المصدر، أي: ما جئتُم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاجُ على هذا التقدير إلى حذفِ الفاء. واختار هذا القول النحاس[٤]، وقال: حذفُ الفاء في المُجازاة لا يُجيزه كثيرٌ من النَّحْويين إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرها[٥]

بل ربَّما قال بعضُهم: إنه لا يجوز البتَّة. وسمعت عليَّ بنَ سليمان يقول: حدثني محمد بن يزيد قال: حدثني المازنيُّ قال: سمعتُ الأصمعيَّ يقول: غيَّر النَّحْويون هذا البيت، وإنما الرواية:

مَن يفعلِ الخيرَ فالرحمنُ يشكره[٦]

وسمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: حذفُ الفاء في المجازاة جائز. قال: والدليل

---

(١) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣.

(٢) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٥٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٥) صدر بيت، اختلف في قائله، وعجزُه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مِثْلان، وسلف ٣/ ٩٢.

(٦) خزانة الأدب ٢/ ٣٦٥.

على ذلك ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾ قراءتان مشهورتان معروفتان[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يعني السحر. قال ابن عباس: مَن أخذ مضجعه من الليل، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾لم يَضُرَّه كيدُ ساحر، ولا تُكتب على مسحور إلَّا دَفَع اللهُ عنه السِّحر[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يُبيِّنُه ويوضِّحُه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بكلامه وحُجَجه وبَراهينه[٣]. وقيل: بعِدَاته بالنصر. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ من آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ الهاء عائدة على موسى. قال مجاهد: أي: لم يُؤمن منهم أحدٌ، وإنما آمنَ أولادُ مَن أُرسل موسى إليهم مِن بني إسرائيل، لِطُول الزمان هَلَك الآباءُ وبَقي الأبناءُ فآمنوا، وهذا اختيارُ الطبري[٤].

والذُّرِّيَّة: أعقابُ الإنسان، وقد تَكْثُر. وقيل: أراد بالذُّرِّيَّة مؤمني بني إسرائيل[٥].

قال ابن عباس: كانوا ستَّ مئة ألف، وذلك أنَّ يعقوبَ عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصرَ حتى بلغوا ستَّ مئة ألف[٦]. وقال ابن عباس

---

(١) القراءة الأولى قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، والقراءة الثانية قرأ بها نافع وابن عامر. السبعة ص٥٨١، والتيسير ص١٩٥. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) لم نقف عليه. وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٤ نحوَه من قول ليث بن أبي سليم.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٤) في تفسيره ١٢/ ٢٤٧، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠١ من قول الربيع بن أنس.

أيضاً: «مِن قَوْمه» يعني: من قوم فرعون، منهم مؤمنُ آل فرعون، وخازنُ فرعون، وامرأتُه، وماشِطةُ ابنته، وامرأةُ خازنه[١].

وقيل: هم أقوامٌ آباؤهم من القِبْط، وأمهاتُهم من بني إسرائيلَ، فسُمُّوا ذُرِّيةً كما يُسمَّى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلادِ العرب الأبناء؛ لأن أُمَّهاتِهم من غير جنس آبائهم؛ قاله الفراء[٢]. وعلى هذا فالكناية[٣] في «قَوْمِهِ» ترجع إلى موسى للقَرابة من جِهة الأُمَّهات، وإلى فرعونَ إذ[٤] كانوا من القِبْط.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنه كان مُسلَّطاً عليهم عاتياً. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولم يقل: ومَلَئه. وعنه ستةُ أجوبة: أحدُها: أنَّ فرعونَ لمَّا كان جبَّاراً أَخبر عنه بفعل الجميع. الثاني: أن فرعون لمَّا ذُكِر عُلِم أنَّ معه غيرَه، فعاد الضميرُ عليه وعليهم، وهذا أحدُ قَوْلي الفرّاء[٥]. الثالث: أنْ تكونَ الجماعةُ سُمِّيت بفرعون مثل ثمود. الرابع: أن يكون التقدير: على خوف مِن آل فرعون، فيكون من باب حذف المضاف مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]، وهو القولُ الثاني للفرَّاء[٦]. وهذا الجوابُ على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما: قامتْ هند، وأنت تريد غلامها. الخامس: مذهب الأخفشِ سعيدٍ[٧] أن يكون الضميرُ يعود على الذُّرِّيَّة، أي: ملأ الذرِّية، وهو اختيارُ الطبري[٨]. السادس: أن يكون الضميرُ يعود على «قومه». قال النحاس[٩]: وهذا الجوابُ كأنه أبلغُها.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٤٦ دون ذكر ماشطة ابنة فرعون.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٣) في (ظ): فالهاء.

(٤) في (د) و (ز) و (م): إذا، والمثبت من (ظ).

(٥) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٨) في تفسيره ١٢/ ٢٤٩.

(٩) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وحَّد «يَفْتِنَهُمْ» على الإخبار عن فرعون[١] ، أي: يَصْرِفَهم عن دينهم بالعُقوبات، وهو في موضع خفض على أنه بدلُ اشتمال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ «خَوْفٍ». ولم ينصرفْ فرعونُ؛ لأنه اسمٌ أعجميٌّ، وهو معرفة[٢] .

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عاتٍ مُتكبِّرٌ.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكفر؛ لأنه كان عبداً، فادَّعى الرُّبوبية[٣] .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم﴾ أي: صدَّقتم ﴿بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي: اعتمدوا. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ كَرَّر الشرط تأكيداً، وبيَّن أنَّ كمالَ الإيمان بتفويض الأمر إلى الله. ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: أسلمنا أمورَنا إليه، ورَضِينا بقضائه وقَدَره، وانتهينا إلى أمره[٤] .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تنصرْهم علينا فيكونَ ذلك فتنةً لنا عن الدين، أو لا تمتحنَّا[٥] بأن تعذِّبنا على أيديهم. وقال مجاهد: المعنى: لا تُهلِكْنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذِّبنا بعذاب مِن عندك فيقولَ أعداؤنا: لو كانوا على حقٍّ لم نُسَلَّط عليهم، فَيُفتنوا[٦]. وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحى: يعني: لا تُظهرهم علينا، فيرَوا أنهم خيرٌ منَّا، فيزدادوا طُغياناً[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٥٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦ .

(٥) في (ظ): ولا تمتحنا .

(٦) في (ز) و (ظ) : فيفتتنوا.

(٧) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٢٥١ - ٢٥٢ . وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥ .

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلِّصنا ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: من فرعونَ وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقَّة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: اتَّخِذا. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: بوَّأت زيداً مكاناً، وبوَّأت لزيد مكاناً. والمبوَّأ: المَنْزِل الملزوم، ومنه: بوَّأه اللهُ مَنْزِلاً، أي: ألزمه إياه وأسكنه، ومنه الحديث: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[1] قال الراجز:

نحن بنو عدنانَ ليس شكُّ تبوَّأ المجدُ بنا والملكُ[2]

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية؛ في قول مجاهد[3]. وقال الضحاك: إنه البلد المسمَّى مصر[4]، ومصرُ ما بين البحر إلى أُسْوان، والإسكندريةُ من أرض مصر[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في مساجدهم وكنائِسهم، وكانت ظاهرةً، فلمَّا أُرسل موسى أَمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرِّبت كلُّها، ومُنعوا من الصلاة، فأوحى اللهُ إلى موسى وهارون أن اتخِذا وتخيَّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، أي: مساجد، ولم يُرِد

---

(١) سلف ١/ ٥٧.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٩.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨.

المنازلَ المسكونة. هذا قول إبراهيم وابنِ زيد والرَّبيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم[١].

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أنَّ المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابُل بعضُها بعضاً[٢].

والقولُ الأولُ أصحّ أي: اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة، قيل[٣]: بيت المَقْدِس، وهي قبلةُ اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر[٤]. وقيل: الكعبة. عن ابن عباس[٥] قال: وكانت الكعبة قِبلةَ موسى ومَن معه.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام، ولم تَخْلُ الصلاةُ عن شرطِ الطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة؛ فإنَّ ذلك أبلغُ في التكليف وأَوْقَرُ للعبادة[٦].

وقيل: المراد صلُّوا في بيوتكم سرًّا لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعونُ، فأمِروا بالصبر واتخاذِ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاءِ إلى أنْ ينجِز اللهُ وعدَه، وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف:١٢٨] الآية. وكان من دينهم أنَّهم لا يصلُّون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمنٍ، فإذا خافوا فقد أُذن لهم أن يصلُّوا في بيوتهم. قال ابن العربيّ: والأوَّلُ أظْهَرُ القولين؛ لأنَّ الثانيَ دعوى[٧].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٥ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٠ عن سعيد بن جبير، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧ (١٠٥٣٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في (ظ): قبل.

(٤) ذكره عن ابن بحر بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٧ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٦) في النسخ: وأوفر للعبادة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٣ ، والكلام منه.

(٧) أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ ، ويعني بالأول: بيت المقدس، فقد ذكره ابن العربي قبل هذا القول.

قلت: قوله: دعوى، صحيح؛ فإن في الصحيح قولَه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[١]. وهذا ممَّا خُصَّ به دون الأنبياء، فنحن بحمدِ اللهِ نصلِّي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة، إلا أنَّ النافلة في المنازل أفضلُ منها في المساجد، حتى الركوعَ قبل الجمعة وبعدها، وقبل الصَّلَوات المفروضات وبعدها؛ إذ النوافلُ يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلَص العمل من الرياء كان أَوْزَنَ وأَزْلَفَ عند الله سبحانه وتعالى.

روى مسلم[٢] عن عبد الله بن شقيق قال: سألتُ عائشةَ عن صلاة رسول اللهِ ﷺ، عن تطوُّعه؛ قالت: كان يصلِّي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلِّي بالناس، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، وكان يُصلِّي بالناس المغرِبَ، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلِّي ركعتين...» الحديث.

وعن ابن عمر قال: صلَّيت مع النبيِّ ﷺ قبل الظهر سجدتين، وبعدها سجدتين، وبعد المغرب سجدتين [وبعد العشاء سجدتين، وبعد الجمعة سجدتين]. فأمَّا المغربُ والعشاء والجمعة فصلَّيت مع النبيِّ ﷺ في بيته[٣].

وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة: أنَّ النبيَّ ﷺ أتى مسجدَ بني [عبد] الأشهل فصلَّى فيه المغرب، فلمَّا قَضَوْا صلاتَهم؛ رآهم يسبِّحون بعدها، فقال: «هذه صلاةُ البيوت»[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٢٦٣)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر ﷺ، وسلف ٢/٢٨٣.

(٢) في صحيحه (٧٣٠)، وهو عند أحمد (٢٤٠١٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٢٩)، وهو عند البخاري (١١٧٢) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٥٠٦).

(٤) سنن أبي داود (١٣٠٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٦٠٤)، والنسائي في المجتبى ٣/١٩٨، وما بين حاصرتين من المصادر. وأخرج نحوه أحمد (٢٣٦٢٤) من حديث محمود بن لبيد ﷺ قوله: يسبّحون بعدها، أي: يصلون النافلة بعد المغرب.

الثالثة: واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان، هل إيقاعُه في البيت أفضلُ، أو في المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضلُ لمن قَوِيَ عليه، وبه قال أبو يوسفَ وبعضُ أصحاب الشافعي. وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعضُ أصحاب الشافعيّ إلى أنَّ حضورها في الجماعة أفضل. وقال الليث: لو قام الناسُ في بيوتهم ولم يقم أحدٌ في المسجد لَانْبَغَى[1] أن يخرجوا إليه.

والحجة لمالك ـ ومَن قال بقوله ـ قولُه ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنَّ خيرَ صلاة المرء في بيته إلا المكتوبةَ» خرجه البخاريُّ[2].

احتجَّ المخالفُ بأنَّ النبيَّ ﷺ قد صلَّاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منعه من[3] الدوام على ذلك، وهو خشية أنْ تُفرض عليهم، فلذلك قال لهم: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم». ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزَاعاً متفرقين، إلى أن جمعَهم عمر على قارئ واحدٍ، فاستقرَّ الأمرُ على ذلك وثبت سُنَّةً.

الرابعة: وإذا تنزَّلْنا على أنه كان أُبيح لهم أن يصلُّوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم، فيُستدلُّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة.

والعذرُ الذي يبيح له ذلك كالمرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوف جورِ السلطان في مالٍ أو بدنٍ دون القضاءِ عليه بحق. والمطرُ الوابِلُ مع الوَحْلِ عذرٌ إن لم ينقطع، ومَن له وليٌّ حميم قد حضرته الوفاةُ ولم يكن عنده من يمرِّضه، وقد فعل ذلك ابن عمر[4].

---

(١) وقع في النسخ والمفهم ٢/ ٣٨٨ (والكلام منه): لا ينبغي، والمثبت من إكمال المعلم ٣/ ١١٢ ، وهو الصواب. وذكر قول الليث أيضاً الجصاص في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٣ ، وابن عبد البر في التمهيد ٨/ ١١٧ ولفظه عندهما: لو أنَّ الناس في رمضان قاموا لأنفسهم ولأهليهم كلِّهم حتى يُترك المسجد لا يقوم فيه أحد، لكان ينبغي أن يخرجوا من بيوتهم إلى المسجد حتى يقوموا فيه...

(٢) في صحيحه (٦١١٣) مطولاً، وسلف ٤/ ٣٥٩ .

(٣) في النسخ: منع منه بدل: منعه منه، والمثبت من المفهم.

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٥٢ وقد ذكر هذا الكلام في التخلف عن صلاة الجمعة، وينظر المفهم ٢/ ٣٣٩ . وخبر ابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٣ وفيه أن ابناً لسعيد بن زيد بن نفيل كان بأرض له بالعقيق على رأس أميال من المدينة، فأتى ابن عمر غداة يوم الجمعة فذكر له شكواه، فانطلق إليه وترك الجمعة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الخطاب لمحمدٍ ﷺ. وقيل: لموسى عليه السلام، وهو أظهَرُ، أي: بشِّرْ بني إسرائيل بأن الله سيُظهرهم على عدوِّهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ «آتَيْتَ» أي: أعطيت. ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مال الدنيا، وكان لهم من فُسطاط مِصر إلى أرض الحبشة جبالٌ فيها معادن الذهب والفضة والزَّبَرْجَد والزُّمرُّد والياقوت[1].

قوله تعالى: ﴿ربَّنا لِيَضلُّوا عن سبيلكَ﴾ اختلف في هذه اللام، وأصحُّ ما قيل فيها ـ وهو قول الخليل وسيبويه ـ أنها لامُ العاقبة والصَّيرورة[2]، وفي الخبر: «إنَّ لِلهِ تعالى مَلَكاً ينادي كلَّ يومٍ: لِدُوا للموت، وابنوا للخراب»[3]. أي: لمَّا كان عاقبةُ أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليَضِلُّوا.

وقيل: هي لامُ كي، أي: أعطيتَهم لكي يَضِلُّوا ويَبْطَروا ويتكبَّروا[4].

وقيل: هي لامُ أَجْل[5]، أي: أعطيتَهم لأجْل إعراضِهم عنك؛ فلم يخافوا أن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٥٧ ، والزمخشري ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥١٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٠) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو يعلى (٦٨٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣١) من حديث الزبير ﷺ. قال ملا علي القاري في الأسرار المرفوعة ص٢٧٦ : قال الإمام أحمد: هو مما يدور في الأسواق، ولا أصل له. وينظر كشف الخفاء ٢/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٢ ، وهذا قول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٤٧٧ وقال البغوي ٢/ ٣٦٥ : هي كقوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۞ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

(٥) زاد المسير ٤/ ٥٦ .

تُعرض عنهم.

وزعم قوم أن المعنى: أعطيتَهم ذلك لئلَّا يَضِلُّوا، فحذفت لا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦] والمعنى: لأن لا تضلوا. قال النحاس[١]: ظاهِرُ هذا الجوابِ حسنٌ، إلا أنَّ العرب لا تَحذف «لا» إلا مع أنْ؛ فموَّه صاحبُ هذا الجوابِ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَضِلُّوا۟﴾.

وقيل: اللام للدعاء، أي: ابتَلِهم بالضلال عن سبيلك؛ لأنَّ بعده: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾[٢].

وقيل: الفعل معنى المصدر، أي: إضلالهم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥][٣].

وقرأ الكوفيون: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ بضم الياء من الإِضلال، وفتَحَها الباقون[٤].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: عاقِبْهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. قال الزجاج[٥]: طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته.

قال ابن عباس ومحمدُ بن كعب: صارت أموالُهم ودراهِمُهم حجارةً منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً[٦]، ولم يبق لهم معدنٌ إلا طَمَس اللهُ عليه، فلم ينتفع به أحدٌ بعدُ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٦ ، وما قبله منه.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٦ ، ومجمع البيان ١١/ ٨٧ ، وقال الطبرسي: المعنى: ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال. وينظر الكشاف ٢/ ٢٥٠ .

(٣) أي: لإعراضكم عنهم، وهم لم يحلفوا لكي تُعرضوا. ويكون المعنى على هذا القول: آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم. وهذا قول أبي العباس أحمد بن يحيى كما في اللسان (لوم). وذكره الطبري ١٢/ ٢٦٢-٢٦٣ .

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء، والباقون بفتحها. السبعة ص٢٦٧ ، والتيسير ص١٠٦ ، والنشر ٢/ ٢٦٢ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣١ .

(٦) ذكره البغوي ٢/ ٣٦٦ عن ابن عباس وحده، وذكر عن محمد بن كعب قولاً آخر، وسيأتي.

وقال قتادة: بلغَنا أنَّ أموالهم وزروعَهم صارت حجارة[١].

وقال مجاهد وعطية: أهْلِكْها حتى لا تُرَى؛ يقال: عين مطموسة، وطَمس الموضع: إذا عفا ودرَس[٢].

وقال ابن زيد: صارت دنانيرهم ودراهِمُهم وفُرُشُهم وكلُّ شيء لهم حجارةً[٣].

محمد بن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين[٤]؛ قال: وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرتُ ذلك له، فدعا بخريطةٍ أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكه والدراهمَ والدنانير وإنها لحجارة[٥].

وقال السُّدِّيُّ: وكانت إحدى الآياتِ التسع[٦].

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: امنعهم الإيمانَ[٧]. وقيل: قَسِّها واطْبَعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان؛ والمعنى واحد[٨].

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ قيل: هو عطفٌ على قوله: «لِيَضِلُّوا» أي: آتيتهم النعم لِيَضِلُّوا ولا يؤمنوا؛ قاله الزجَّاج والمبرد[٩]. وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء. وقولُه: «رَبَّنَا اطْمسْ» «وَاشْدُدْ» كلامٌ معتَرِض.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٥ .

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٧ ، وينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٨ . وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٧ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦ .

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني ١١/ ١٧٣ : هذا مما لا يكاد يصح أصلاً وليس في الآية ما يشير إليه بوجه. وعندي أن أخبار تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهن، فلا يعوّل عليها.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٣). والخريطة: وعاء من أدم وغيره. معجم متن اللغة (خرط).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ .

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٧ .

(٨) ينظر الوسيط ٢/ ٥٥٧ ، وأخرج الطبري ١٢/ ٢٦٧ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٦) عن ابن عباس قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: واطبع على قلوبهم.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١ وقد نقله الزجاج عن المبرد.

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء، فهو في موضع جزم عندهم؛ أي: اللهم فلا يؤمنوا، أي: فلا آمنوا[(١)]. ومنه قول الأعشى:

فلا يَنْبَسِطْ من بين عينَيْكَ ما انزوَى ولا تَـلْـقَـنـي إلَّا وأنـفُـك راغِـمُ

أي: لا انبسط[(٢)]. ومَن قال: «لِيَضِلُّوا» دعاء ـ أي: ابتلهم بالضلال ـ قال: عُطف عليه «فلا يُؤْمِنُوا».

وقيل: هو في موضع نصبٍ لأنه جواب الأمر، أي: واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا. وهذا قول الأخفش والفراء أيضاً، وأنشد الفراء:

يـا نـاقُ سـيـري عَـنَـقـاً فـسـيـحـا إلـى سـلـيـمـانَ فـنَـسْـتَـريـحـا[(٣)]

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق[(٤)].

وقد استَشْكَل بعضُ الناس هذه الآيةَ فقال: كيف دعا عليهم، وحُكْمُ الرسل استدعاءُ إيمانِ قومهم؟

فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعوَ نبيٌّ على قومه إلا بإذنٍ من الله، وإعلامٍ أنه ليس فيهم مَن يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم مَن يؤمن، دليلُه: قولُه لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٥٧، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٨١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وزاد المسير ٤/ ٥٧، والبيت في ديوان الأعشى ص١٢٩، وسلف ٨/ ١٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٣. والرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٨٢، والكتاب ٣/ ٣٥. والعَنَق: ضَرْبٌ من السير. والفسيح: الواسع المكين، وأراد: سليمان بن عبد الملك، والشاهد فيه نصب ما بعد الفاء على جواب الأمر. تحصيل عين الذهب ص٣٩٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية: دعا موسى وأمَّن هارون؛ فسمي هارون ـ وقد أمَّن على الدعاء ـ داعياً. والتأمين على الدعاء أن يقول: آمين، فقولك: آمين؛ دعاء، أي: يا رب استجب لي[١].

وقيل: دعا هارون مع موسى أيضاً[٢].

وقال أهل المعاني: ربما خاطبت العربُ الواحدَ بخطاب الاثنين[٣]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لصاحبي لا تُعْجِلانا بنَزْعِ أصولِه فاجتزَّ شِيحا[٤]

وهذا على أنَّ آمين ليس بدعاء، وأنَّ هارون لم يَدْعُ.

قال النحاس[٥]: سمعت عليَّ بن سليمان يقول: الدليل على أنَّ الدعاء لهما قولُ موسى عليه السلام: «ربَّنا»، ولم يقل: ربّ.

وقرأ عليٌّ والسُّلَميُّ: «دعواتُكما» بالجمع[٦]. وقرأ ابن السَّمَيفَع: «أجبتُ دعوتَكما»[٧] خبراً عن اللهِ تعالى، ونصب «دعوة» بعده.

---

(١) النكت والعيون ٢/٤٤٨، وأخرج قول أبي العالية الطبري ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٢٧١، والصحاح (جزز).

(٤) نسبه الجوهري في الصحاح (جزز) ليزيد بن الطَّثرية، ونُسب لمُفَرِّس بن رِبْعيٍّ الأسدي كما في شرح شواهد الشافية ٤/ ٤٨١، واللسان (جزز). وذكر دون نسبة في تأويل مشكل القرآن ص٢٢٤، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٧١. ووقع في المصادر عدا تفسير الطبري: لا تَحْبِسانا، بدل: لا تُعجلانا. وذكر صاحب اللسان روايةً أخرى وهي: لا تَحْبِسَنَّا. وقال في شرح البيت: يقول: لا تَحبِسْنا عن شَيِّ اللحم بنزع أصول الشجر، بل خذ ما تيسَّر من قضبانه وعيدانه. اهـ والشِّيح: نبت معروف. القاموس (شيح).

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٧.

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحتسب ١/ ٣١٦.

(٧) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٧.

وتقدَّم القول في «آمين» في آخِر الفاتحة[١] مستوفًى. وهو مما خُصَّ به نبيُّنا محمدٌ ﷺ وهارونُ وموسى عليهما السلام؛ روى أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله قد أَعْطى أمَّتي ثلاثاً لم تُعْطَ أحداً قبلَهم: السلامُ، وهي تحيةُ أهل الجنة، وصفوفُ الملائكة، وآمين، إلا ما كان من موسى وهارون» ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»، وقد تقدَّم في الفاتحة[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ قال الفرَّاء[٣] وغيره: أمْرٌ بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه؛ من دعاء فرعون وقومِه إلى الإيمان؛ إلى أن يأتيَهما تأويلُ الإجابة.

قال محمد بن عليٍّ وابنُ جريج: مَكَثَ فرعون وقومُه بعد هذه الإجابة أربعين سنةً ثم أُهلكوا[٤].

وقيل: «استقيما» أي: على الدعاء، والاستقامةُ في الدعاء تركُ الاستعجال في حصول المقصود، ولا يَسقط الاستعجالُ من القلب إلا باستِقامة السكينةِ فيه، ولا تكون تلك السكينةُ إلا بالرضا الحسنِ لجميع ما يبدو من الغيب[٥].

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بتشديد النون في موضعِ جزمٍ على النهي، والنونُ للتوكيد وحُركت لالتقاء الساكنَيْن، واختير لها الكسرُ لأنها أَشْبَهتْ نونَ الاثنين[٦].

وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفي[٧]. وقيل: هو حالٌ من «استقيما»،

---

(١) ١/ ١٩٥.

(٢) ١/ ٢٠١ وذكرنا ثمة أن في إسناده زربي بن عبد الله الأزدي، وهو منكر الحديث. وهو في نوادر الأصول ص١٨٥.

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٧٨.

(٤) أخرجه عن ابن جريج الطبري ١٢/ ٢٧٣، وعن محمد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٠ (١٠٥٥٢).

(٥) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ١١٣، وفيه: بوِجْدان السكينة، بدل: باستقامة السكينة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١.

(٧) السبعة ص٣٢٩، والتيسير ص١٢٣ ورواية ابن ذكوان عن ابن عامر الشامي. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢: فيكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي.

أي: استقيما غيرَ متَّبِعَين[١].

والمعنى: لا تسلكا طريقَ مَن لا يَعلم حقيقةَ وَعْدي ووَعِيدي.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[٢] [الآية: ٥٠]. وقرأ الحسن: «وجوَّزنا»[٣]، وهما لغتان. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال: تَبِع وأَتْبع؛ بمعنًى واحد: إذا لَحِقَه وأدركه. واتَّبع؛ بالتشديد: إذا سار خلفه[٤].

وقال الأصمعي: يقال: أَتْبعه؛ بقطع الألف: إذا لَحِقَه وأدركه، واتَّبعه؛ بوصل الألف: إذا اتَّبع أثره، أدركه أو لم يُدْركه. وكذلك قال أبو زيد.

وقرأ قتادة: «فاتَّبعهم» بوصل الألف[٥].

وقيل: «اتَّبعه» ـ بوصل الألف ـ في الأمر: اقتدى به. وأتبعه ـ بقطع الألف ـ خيراً أو شرًّا؛ هذا قول أبي عمرو. وقد قيل: هما بمعنًى واحد[٦].

فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستُّ مئة ألف وعشرون ألفاً، وتَبِعه فرعون مُصْبِحاً في ألفي ألف وستِّ مئة ألف. وقد تقدَّم[٧].

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢.

(٢) ٢/ ٨٩ وما بعدها.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦.

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٨ للحسن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣.

(٧) ٢/ ٩٢، وذكر المصنف رحمه الله ثمة أن عدَّة قوم فرعون ألف ألف ومئتا ألف.

﴿بَغْيًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَدْوًا﴾ معطوف عليه؛ أي: في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم، يقال: عَدَا يَعدو عَدْواً، مثلُ: غَزَا يَغزو غَزْواً. وقرأ الحسن: «وعُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو[١]، مثلُ: علا يعلو عُلُوًّا. وقال المفسرون: «بغياً» طلباً للاستعلاء بغير حق في القول، «وعَدْواً» في الفعل[٢]، فهما نصبٌ على المفعول له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: ناله ووَصَله. ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ أي: صدَّقت. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: بأنه[٣]، فلمَّا حُذِف الخافض، تعدَّى الفعلُ فنصَبَ. وقُرِئ بالكسر[٤]، أي: صِرتُ مؤمناً، ثم استأنف. وزعم أبو حاتم أن القول محذوفٌ[٥]، أي: آمنت فقلت: إنه، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس، وأمَّا بعدها وبعد المخالطة، فلا تُقبل، حَسَبَ ما تقدَّم في «النساء» بيانُه[٦].

ويقال: إن فرعون هاب دخول البحر، وكان على حصان أدهمَ، ولم يكن في خيل فرعونَ فرسٌ أنثى، فجاء جبريلُ على فرس وَدِيق - أي: شَهيٍّ - في صورة هامان وقال له: تقدَّم، ثم خاض البحر، فتبعها حصان فرعون، وميكائيلُ يسوقهم لا يشُذُّ منهم أحد، فلما صار آخِرهم في البحر وهَمَّ أوَّلهم أن يخرج، انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ، فقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل؛ فدَسَّ جبريل في فمه حال البحر[٧].

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا أغرق الله فرعون، قال: آمنْتُ أنه لا إله إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد، فلو رأيتَني وأنا

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ .

(٣) بعدها في (د) و(م): لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

(٤) قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٠ ، والتيسير ص١٢٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧ .

(٦) ٦/ ١٥٢ - ١٥٤ .

(٧) أخرجه الطبري ١/ ٦٥٥ - ٦٦٠ بنحوه عن عبد الله بن شداد بن الهاد وابن عباس ﷺ، والحال: الطين الأسود.

آخذ مِن حال البحر فأدسُّه في فيه مَخافةَ أن تُدرِكَه الرحمة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[١]. حالُ البحر: الطِّين الأسود الذي يكون في أرضه؛ قاله أهل اللغة[٢].

وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه ذكر: «أن جبريل جعل يدُسُّ في في فرعونَ الطِّينَ خشيةَ أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يرحَمه». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[٣].

وقال عَون بن عبد الله: بلغني أن جبريل قال للنبيِّ ﷺ: ما وَلَدُ إبليسَ أبغَضَ إليَّ من فرعون، وإنه لمَّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فخشِيت أن يقولها فيُرحم، فأخذت تُربة ـ أو طِينة ـ فحشوتُها في فيه. وقيل: إنما فَعَل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتي[٤].

وقال كعبُ الأحبار: أمسك الله نِيل مصرَ عن الجَرْي في زمانه، فقالت له القِبْط: إن كنت ربَّنا، فأجْرِ لنا الماء؛ فركب وأمر بجنوده قائداً قائداً، وجعلوا يقفون على درجاتهم، وقعد[٥] حيث لا يرونه، ونزل عن دابته، ولبس ثياباً له أخرى، وسجد، وتضرَّع لله تعالى، فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مُسْتَفْتٍ وقال: ما يقول: الأمير في رجل له عبد، قد نشأ في نعمته لا سندَ[٦] له غيرُه،

(١) سنن الترمذي (٣١٠٧)، وهو عند أحمد (٢٨٢٠). وفيه: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، ويوسف بن مهران، وهو لين الحديث، لم يرو عنه إلا ابن جُدعان. تقريب التهذيب ص٣٤٠ و ٥٤١ .

(٢) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥ ، والصحاح (حول).

(٣) سنن الترمذي (٣١٠٨)، وهو عند أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في تفسيره (٢٥٨) والحاكم ٢/ ٣٤٠ ، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، ووافقه الذهبي في التلخيص. وأخرج الموقوف أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في التفسير (٢٥٨) قال الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٦ : هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضباً عليه، الجواب: الأقرب أنه لا يصح. اهـ وانظر تتمة كلامه، وينظر كلام الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٨٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤ .

(٥) في (م): وقفز.

(٦) في (ز) و(ف): لا سيد.

فكفر نِعَمَه، وجَحَدَ حقَّه، وادَّعى السيادةَ دونه؛ فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليدُ بنُ مصعب بنِ الريَّان: جزاؤه أن يُغَرَّق في البحر، فأخذه جبريل ومرَّ، فلمَّا أدركه الغرق، ناوله جبريل عليه السلام خطَّه[1]. وقد مضى هذا في «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابنِ عباس مُسنَداً؛ وكان هذا في يوم عاشوراء على ما تقدَّم بيانُه في «البقرة» أيضاً، فلا معنى للإعادة[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من الموحِّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾

قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل[3]. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرِهما من الملائكة[4] صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعونَ في نفسه، ولم يكن ثَمَّ قولٌ باللسان بل وقع ذلك في قلبه، فقال في نفسه ما قال، حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، أثنى عليهم الربُّ بما في ضميرهم، لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقيُّ كلامُ القلب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض[5]. وذلك أن بني إسرائيل لم يصدِّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا: هو أعظم شأناً مِن ذلك،

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وأورد هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٥١ مختصرة، ولم ينسبها.

(٢) ٢/ ٩٣ - ٩٤ ، وقد تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقط، ولم نقف على حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٦ .

(٤) بعدها في (ف) و(م): له.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ .

فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أي: مكانٍ مرتفِع من الأرض[١] حتى شاهدوه. قال أوس بنُ حَجَر يصف مطراً:

فمَنْ بِعَقْوَته كمن بِنَجْوَته والْمُسْتَكِنُّ كمنْ يَمْشي بِقِرْواحِ[٢]

وقرأ اليزيديُّ وابن السَّمَيْفَع: «نُنَحِّيك» بالحاء؛ من التنحية[٣]، وحكاها علقمة عن ابن مسعود، أي: تكون على ناحية من البحر[٤]. قال ابن جُريج: فرُميَ به على ساحلِ البحر حتى رآه بنو إسرائيل، وكان قصيراً أحمرَ كأنه ثور[٥].

وحكى علقمة عن عبد الله أنه قرأ: «بندائك» من النداء[٦]. قال أبو بكر الأنباري: وليس بمخالِف لهجاء مصحفنا، إذ سبيلُه أن يكتب بياء وكاف بعد الدال؛ لأن الألف تسقط من ندائك في ترتيب خط المصحف كما سقط من «الظلمات» و«السماوات»، فإذا وقع بها الحذف؛ استوى هجاء بدنك وندائك، على أنَّ هذه القراءة مرغوبٌ عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامَّةُ المسلمين، والقراءة سُنّة يأخذها آخِرٌ عن أوَّل، وفي معناها نقصٌ عن تأويل قراءتنا، إذ ليس فيها للدِّرع ذِكرٌ، الذي تتابعت الآثار بأن بني إسرائيلَ اختلفوا في غَرَق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يُريَهم إياه غريقاً، فألقاه[٧] على نَجوة من الأرض ببدنه، وهو درعُه التي كان[٨] يلبَسها في الحروب. قال ابن عباس ومحمد بنُ كعبٍ القُرَظي: وكانت درعه من لؤلؤ منظوم.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) وم): البحر، والمثبت من (ظ). وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) سلف ٧/ ١٢٤ ، وجاء الشطر الأول: فمن بنجوته كمن بعقوته. وقوله: بعقوته، أي: الساحة وما حول الدار والمحلة. وقِرْواح: البارز الذي ليس يستره من السماء شيء.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٦ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ . وينظر القراءات الشاذة ص٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨ ، والبحر المحيط ٥/ ١٨٩ .

(٧) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فألقوه، والمثبت من (ظ).

(٨) لفظة: كان، ليست في (د) و(ز) و(م).

وقيل: مِن الذهب وكان يُعرف بها[١]. وقيل: من حديد؛ قاله أبو صخر[٢]. والبَدَن: الدِّرع القصيرة. وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وبيضاءَ كالنِّهْيِ مَوْضُونةً ... لها قَوْنَسٌ فوق جَيْبِ البَدَنْ[٣]

وأنشد أيضاً لعمرو بن معد يكرب:

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ ... جَدْلَاءَ سابغةٍ وبالأبدانِ[٤]

وقال كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغَاتٍ ... على الأبطال واليَلَب الحصِينا[٥]

أراد بالأبدان الدُّروع، واليَلَب: الدُّروع اليمانية، كانت تُتَّخذ من الجلود؛ يُخرز بعضها إلى بعض، وهو اسم جنس، الواحد: يَلَبة. قال عمرو بن كُلثوم:

علينا البَيضُ واليَلَبُ اليماني ... وأسيافٌ يُقَمن ويَنْحَنِينا[٦]

وقيل: «ببدنك»: بجسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد[٧].

قال الأخفش[٨]: وأمَّا قولُ مَن قال: بدرعك، فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم

---

(١) أورد هذا القول الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٤ (١٠٥٧١) وأبو صخر: هو حميد بن زياد ابن أبي المُخَارق الخرَّاط، مدني، سكن مصر، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يهم، مات سنة (١٨٩هـ).

(٣) ديوان الأعشى الكبير ص٧٥ ، والنِّهْي: الغدير، أو شبهه. والموضونة: الدِّرع المنسوجة حلقتين حلقتين، أو بالجواهر. والقونس: أعلى بيضة الحديد. القاموس المحيط (نهى) و(وضن) و(قنس).

(٤) ديوان عمرو بن معد يكرب ص١٧٣ . وقوله: مفاضة: المفاضة من الدروع: الواسعة. وجدلاء: الجدلاء من الدروع: المحكمة.

(٥) ديوان كعب ص٢١٧ ، ونسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٥٤ لضرار بن الخطاب بن مرداس.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم ص١٠٢ . قال شارحها ابن كيسان: البيض: بيض الحديد.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٨١ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨ .

لمَّا ضَرَعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعونَ غريقاً، أبرزه لهم، فرأوا جسداً لا روح فيه، فلمَّا رأته بنو إسرائيل قالوا: نعم يا موسى، هذا فرعون وقد غرِق، فخرج الشكُّ من قلوبهم، وابتلع البحر فرعونَ كما كان[١].

فعلى هذا ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ احتمل معنيين: أحدهما: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض.

والثاني: نُظْهر جسدك الذي لا روح فيه.

والقراءة الشاذة «بندائك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة، لأن النداء يُفسَّر تفسيرين:

أحدهما: نُلْقيك بصياحك بكلمة التوبة، وقولِك ـ بعد أن أُغلق بابُها ومضى وقتُ قبولها ـ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على موضع رفيع.

والآخَر: فاليوم نعزلك عن غامض البحر بندائك لمَّا قلت: أنا ربكم الأعلى، فكانت تَنْجيتُه بالبدن معاقبةً من ربِّ العالمين له على ما فرَّط من كُفره الذي منه نداؤه بالذي[٢] افترى فيه وبَهت، وادَّعى القدرة والأمر الذي يَعلم أنه كاذب فيه، وعاجزٌ عنه، وغير مستحِق له.

قال أبو بكر الأنباري: فقراءتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزيد عليها.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لبني إسرائيلَ، ولمن بقيَ من قوم فرعون ممن لم يُدْركه الغرق، ولم ينته إليه هذا الخبر. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: معرِضون عن تأمُّل آياتنا والتفكُّر فيها.

وقُرِئ: «لمن خَلَفك» ـ بفتح اللام ـ؛ أي: لمن بقيَ بعدك يخلفُك في أرضك.

---

(١) ينظر ياقوتة الصراط لمحمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ص٢٥٨ .

(٢) في (م): الذي.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب: «لمن خلقك» بالقاف، أي: تكون آية لخالقك[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مَنزِلَ صدقٍ محمودٍ مختار، يعني مصر. وقيل: الأُرْدُنّ وفِلسطين. وقال الضحَّاك: هي مصر والشام[٢]. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمار وغيرها. وقال ابن عباس: يعني: قُريظةَ والنَّضير وأهلَ عصر النبيِّ ﷺ من بني إسرائيل[٣]، فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لمَّا خرج حسدوه؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: في أمر محمد ﷺ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: القرآنُ ومحمد ﷺ[٤]. والعلم بمعنى المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قاله ابن جريرٍ الطبري[٥]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم بينهم ويفصِل. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد غيرُه[٦]، أي: لستَ في شكٍّ ولكنَّ غيرَك شكَّ. قال أبو عمر محمد بنُ عبد الواحد الزاهد[٧]:

---

(١) ذكر هاتين القراءتين أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٨٩ بلا نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٧، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٤.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٥٩، والرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٩.

(٤) زاد المسير ٤/ ٦٣.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) الوسيط ٢/ ٥٥٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٨.

(٧) في ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٥٨ - ٢٥٩.

سمعت الإمامين ثعلباً والمبرّد يقولان: معنى ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أي: قل: يا محمدُ للكافر: فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك[١]. ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يا عابدَ الوثن، إن كنت في شك من القرآن، فاسأل مَن أسلم من اليهود، يعني: عبدَ الله بن سَلَام وأمثالَه؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يُقِرُّون لليهود أنهم أعلم منهم مِن أجل أنهم أصحاب كتاب، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا مَن يُقِرُّون بأنهم أعلم منهم: هل يبعث الله برسول مِن بعد موسى؟.

وقال القُتَبي: هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ، بل كان في شك[٢].

وقيل: المراد بالخطاب النبيُّ ﷺ لا غيرُه، والمعنى: لو كنت ممن[٣] يَلْحقك الشكُّ فيما أخبرناك به، فسألت أهل الكتاب، لأزالوا عنك الشك[٤].

وقيل: الشكُّ ضِيق الصدر، أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرؤون الكتاب مِن قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبياءِ مِن قبلك على أذى قومهم، وكيف عاقبةُ أمرهم.

والشك في اللغة، أصله: الضِّيق؛ يقال: شكَّ الثوبَ، أي: ضَمَّه بخِلال[٥] حتى يصير كالوعاء. وكذلك السُّفرة تُمدُّ[٦] علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر ويضمُّه[٧] حتى يضيق.

وقال الحسين بن الفضل: الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تُثْبِته، والدليل

---

(١) قوله: مما أنزلنا إليك، من (م).
(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن له ص٥٨ و ٢٠٩ .
(٣) لفظة: ممن، ليست في (م).
(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٠ .
(٥) الخلال: العود الذي يُتخلَّل به ، وما يُخلُّ به الثوب أيضاً. الصحاح (خلل).
(٦) كذا في النسخ الخطية، والظاهر أنها: تُشك.
(٧) في (ز) و(ظ): ويغمه.

عليه ما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمَّا نزلت هذه الآية: «والله لا أشك [ولا أسأل][(١)]».

ثم استأنف الكلام فقال ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين المرتابين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والخطاب في هاتين الآيتين للنبيِّ ﷺ والمراد غيره[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في هذه السورة[(٣)]. قال قتادة: أي: الذين حقَّ عليهم غضبُ اللهِ وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون[(٤)]. ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أنَّث «كلًّا» على المعنى، أي: ولو جاءتهم الآياتُ[(٥)]. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فحينئذٍ يؤمنون ولا ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ قال الأخفش والكسائي: أي: فهلّا. وفي مصحف أبيٍّ وابن مسعود: «فهلا»، وأصلُ «لولا» في الكلام التحضيضُ، أو الدلالة على منع أمرٍ لوجود غيره.

ومفهومٌ من معنى الآية نفيُ إيمانِ أهل القُرى، ثم استثنى قومَ يونس، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وهو بحسب المعنى متصل؛ لأن تقديرَه: ما آمن أهلُ قرية إلا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٩٨، والطبري ١٢/٢٨٨ عن قتادة، وهو مرسل وما بين حاصرتين منهما.

(٢) تفسير البغوي ٢/٣٦٨.

(٣) ١٠/٤٩٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/٢٩٠.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٦٨.

قوم يونس. والنصبُ في «قوم» هو الوجه، وكذلك أدخله سيبويه في: باب ما لا يكون إلّا منصوباً[١].

قال النحاس[٢]: «إلا قومَ يونس» نصب؛ لأنه استثناءٌ ليس من الأوّل، أي: لكنَّ قومَ يونس؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفرّاء[٣]. ويجوز: «إلا قومُ يونس» بالرفع، ومن أحسنِ ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج[٤] قال: يكون المعنى: غيرُ قومِ يونس، فلما جاء بـ«إلا»؛ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب «غير» كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مُـــفـــارِقُـــه أخـــوه لَـعَـمْـرُ أبِـيـك إلا الـفَـرْقَـدانِ[٥]

ورُوي في قصة قومِ يونس عن جماعة من المفسرين: أنَّ قوم يونس كانوا بِنِيْنَوى من أرض المَوْصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل اللهُ إليهم يونسَ عليه السلام يدعُوهم إلى الإسلام وتَرْكِ ما هم عليه فأبَوْا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسعَ سنين، فيئس من إيمانهم؛ فقيل له: أخبرهم أنَّ العذابَ مُصبِّحهم إلى ثلاثٍ ففعل، وقالوا: هو رَجلٌ لا يكذب، فارقُبوه، فإنْ أقام معكم وبين أظهرِكم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزولُ العذاب لا شك، فلما كان الليلُ تزوَّد يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا اللهَ، ولَبِسوا المُسوحَ، وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد من الناس والبهائم، وردُّوا المظالمَ في تلك الحالة[٦].

وقال ابن مسعود: وكان الرجلُ يأتي الحجرَ قد وُضِع عليه أساسُ بُنيانه، فيقتلعه

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٢٥، وعنوان الباب فيه: هذا باب ما لا يكون إلا على معنى ولكنَّ. اهـ. وهذا الكلام وما قبله من المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٩.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٩، وجواز الرفع المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٥) نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٣٤، والمبرد في الكامل ٣/ ١٤٤٤ لعمرو بن معدي كرب، ونسبه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص١١٦ لحضرميّ بن عامر. وينظر الخزانة ٣/ ٤٢١ و ٤٢٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٣ عن قتادة بنحوه، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، وزاد المسير ٤/ ٦٥.

فيردُّه[١]، والعذابُ منهم فيما رُوي عن ابن عباس على ثُلثي ميل. ورُوي على مِيل[٢]. وعن ابن عباس أنهم غَشِيَتْهم ظُلَّةٌ وفيها حُمرة، فلم تزلْ تدنو حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم[٣]. وقال ابن جُبير: غَشِيَهم العذابُ كما يُغشي الثوب القبر، فلما صحَّت توبتُهم رفعَ اللهُ عنهم العذاب[٤].

وقال الطبريُّ[٥]: خُصَّ قومُ يونس من بين سائر الأُمَم بأن تِيْبَ عليهم بعد معاينة العذاب. وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج[٦]: إنهم لم يَقَع بهم العذاب، وإنما رأَوا العلامةَ التي تدلُّ على العذاب، ولو رأوا عينَ العذاب لمَا نفعهم الإيمانُ.

قلت: قولُ الزجاج حَسَنٌ، فإنَّ المعاينةَ التي لا تنفع التوبةُ معها هي التلبُّس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصةِ فرعون؛ لأنه آمَنَ حين رأى العذابَ فلم ينفعه ذلك، وقومُ يونس تابوا قبل ذلك[٧]. ويَعْضُد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ يقبل توبةَ العبدِ ما لم يُغَرغِرْ»[٨]. والغرغرةُ: الحَشْرَجَة، وذلك هو حالُ التلبُّس بالموت، وأما قبلَ ذلك فلا. واللهُ أعلم.

وقد رُويَ معنى ما قلناه عن ابن مسعود، وأنَّ يونسَ لمَّا وَعدهم العذابَ إلى ثلاثة أيام خرجَ عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد[٩].

---

(١) عرائس المجالس ص٤١٢.

(٢) عرائس المجالس ص٤١١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٤.

(٣) ذكره بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٥، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٩١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٤.

(٧) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٨) سلف ٥/ ١٩٧.

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٦، وسلف نحوه قريباً.

وهذا يدلُّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب. وسيأتي مسنداً مبيَّناً في سورة الصافات إن شاء اللهُ تعالى[١]. ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي: العذابَ الذي وعدَهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنَّهم رأوه عِياناً ولا مُخايلةً، وعلى هذا لا إشكالَ ولا تعارضَ ولا خُصوصَ، واللهُ أعلم.

وبالجملة؛ فكان أهل نِيْنَوى في سابق العلم من السُّعداء.

ورُويَ عن عليٍّ ﷺ أنه قال: إنَّ الحَذَرَ لا يردُّ القَدَرَ، وإنَّ الدعاء لَيردُّ القدرَ. وذلك أن اللهَ تعالى يقول: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. قال عليٌّ ﷺ: وذلك يومَ عاشوراء[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى أجلهم، قاله السُّدِّيُّ وقيل: إلى أن يَصيروا إلى الجنة أو إلى النار، قاله ابن عباس[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لاضطرَّهم إليه. «كلُّهم» تأكيد لـ «من». «جميعاً» عند سيبويه نصب على الحال[٤]. وقال الأخفش[٥]: جاء بقوله: «جميعاً» بعد «كل» تأكيداً، كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ

---

(١) في تفسير الآيات ١٣٩ - ١٤٨ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٥٢ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٨٧ و ١٩٨٨ ، وأخرج القسم الأول منه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢١٢).

(٣) أخرجهما ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٩ - ١٩٩٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٩ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤ .

حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره اللهُ تعالى أنه لا يُؤمن إلا من سبقتْ له السعادةُ في الذِّكر الأوّل، ولا يَضلُّ إلا من سبقتْ له الشَّقاوة في الذِّكر الأوّل[١].
وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب، وهو عن ابن عباس أيضاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ «ما» نفي، أي: ما ينبغي أن تؤمنَ نفسٌ إلا بقضائه وقَدَره ومشيئته وإرادته[٣]. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمُفضَّل: «ونَجعلُ» بالنون على التعظيم[٤].

والرِّجس: العذاب، بضم الراء وكسرها، لغتان[٥]. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أَمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَهْيَه[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظرِ في المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال[٧]. وقد تقدَّم القول في هذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٨ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يَرَهُ.

(٢) ذكره أبو الليث ٢/ ١١٢ دون نسبة.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٢ .

(٤) قراءة أبي بكر ـ يعني عن عاصم ـ من السبعة، ولم نقف على من نسبها للحسن أو المفضّل. وينظر السبعة ص٣٣٠ ، والتيسير ص١٢٣ .

(٥) في معاجم اللغة: الرِّجس، بكسر الراء فقط. والرّجز، بكسر الراء وضمِّها. والرجس والرجز معناهما واحد. ينظر اللسان (رجس) و(رجز).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥ .

المعنى في غير موضع مستوفًى[١]. ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ «ما» نفي، أي: ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير: أيُّ شيء تُغني؟[٢] ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾ أي: الدَّلالات. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرُّسل، جمعُ نذير، وهو الرسول. ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: عمَّن سبق له في علم الله أنه لا يُؤمن[٣].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ الأيامُ هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالمٌ بأيام العرب، أي: بوقائعهم. قال قتادة: يعني وقائع اللهِ في قوم نوحٍ وعاد وثمود وغيرِهم. والعربُ تُسمِّي العذابَ أياماً والنِّعم أياماً، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. وكلُّ ما مضى لك من خيرٍ أو شرٍّ فهو أيام[٤]. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا﴾ أي: تربَّصوا. وهذا تهديدٌ ووعيد. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: المُتربِّصين لموعد ربي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من سُنَّتنا إذا أنزلنا بقومٍ عذاباً أخرجنا من بينهم الرُّسلَ والمؤمنين، و«ثُمَّ» معناه: ثم اعلموا أنَّا نُنجي رُسلَنا[٥]. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجباً علينا؛ لأنه أخبر، ولا خُلف في خبره. وقرأ يعقوب: «ثم نُنْجي» مُخفَّفاً[٦]. وقرأ الكسائيُّ وحفص ويعقوب: «نُنْجي المؤمنين»

---

(١) ينظر ٩/٣٩٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، والكشاف ٢/ ٢٥٥.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/١١٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٦) النشر ٢/٢٨٧.

مُخففاً، وشدَّد الباقون[١]، وهما لغتان فصيحتان: أنجى يُنْجِي إنجاء، ونَجَّى يُنَجِّي تَنْجيةً، بمعنًى واحد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يريد كُفَّارَ مكة. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: في رَيب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان التي لا تَعقِل. ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: يُميتكم ويقبض أرواحكم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المُصدِّقين بآيات ربِّهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ «أنْ» عطفٌ على «أنْ أكونَ»[٤] أي: قيل لي: كن من المؤمنين، وأَقِمْ وجهَك. قال ابن عباس: عَمَلك[٥]، وقيل: نَفْسَك، أي: استقم بإقبالك على ما أُمِرتَ به من الدِّين. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: قَويماً به مائلاً عن كل دِين[٦]. قال حمزةُ بن عبد المطلب ﷺ:

حَمِدتُ اللهَ حين هَدَى فؤادي ... من الإشراك للدِّين الحَنيفِ[٧]

---

(١) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣، وقراءة يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٨٧.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٣، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٤.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٦.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٥٣.

وقد مضى في «الأنعام» اشتقاقُه[1]، والحمدُ لله.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: لا تُشرك، والخِطاب له، والمرادُ غيره، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لا تعبد. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ عَبدْتَه. ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إنْ عَصَيْتَه. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: عبدتَ غيرَ الله. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الواضعين العبادةَ في غيرِ موضعها[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يُصِبْكَ به ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أي: لا دافعَ ﴿لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: يُصِبْكَ برخَاءٍ ونعمة ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بكل ما أراد من الخير والشرِّ. ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخَطاياهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه في الآخرة[3].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ أي: القرآنُ. وقيل: الرسولُ ﷺ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي: صدَّق محمداً وآمنَ بما جاء به[4]. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي: لخلاص نفسه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: تَرَكَ الرَّسولَ والقرآن، واتَّبع الأصنامَ والأوثان[5]. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: وبالُ ذلك على نفسه. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

---

(١) سلف اشتقاق «حنيفاً» في سورة البقرة ٢/ ٤١٤ - ٤١٥، أما في «الأنعام» ٨/ ٤٤٢ فذكر المصنف رحمه الله معناه فقط.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٥.

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٤.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٦.

أي: بحفيظٍ أحفظُ أعمالَكم؛ إنَّما أنا رسولٌ. قال ابن عباس: نسختها آيةُ السيف[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ قيل: نُسِخَ بآية القتال[٢]. وقيل: ليس منسوخاً[٣]، ومعناه: اِصْبِر على الطاعة وعن المعصية.

وقال ابن عباس: لمَّا نزلتْ؛ جمعَ النبيُّ ﷺ الأنصارَ، ولم يجمعْ معهم غيرَهم فقال: «إنَّكم ستجدون بعدي أَثَرَةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوني على الحوض». وعن أنس بمثل ذلك، ثم قال أنس: فلم يَصْبِروا[٤].

فأمرهم بالصبر كما أمره اللهُ تعالى. وفي ذلك يقول عبدُ الرحمن بن حسان[٥]:

ألا أبلِغْ معاويةَ بن حربٍ أميرَ المؤمنين نَثا كلامي

بأنَّا صابرون ومُنظِروكم إلى يومِ التغابن والخِصامِ[٦]

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ابتداءٌ وخبر، لأنه عزَّ وجلَّ لا يحكم إلا بالحقِّ[٧].

تمت سورة يونس، والحمد لله وحده.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٤/ ٧١.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧١، وقال: إنما نسخ منها الصبر عليهم.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٧١.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج حديث أنس ـ دون ذكر أنه ﷺ جمعهم لما نزلت الآية ـ أحمد (١٢٦٩٦)، والبخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) وهو في قصة إعطاء النبي ﷺ رجالاً من قريش من أموال هوازن. وفي الباب عن عبد الله بن زيد ﷺ عند أحمد (١٦٤٧٠)، والبخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٥) ابن ثابت الأنصاري، المدني، الشاعر ابن الشاعر، وأمه سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ، قيل: وُلد في حياة النبي ﷺ. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٥/ ٦٤.

(٦) الاستيعاب ١٠/ ١٤٧، وذكر ابن عبد البر قصة في هذين البيتين. وقوله: نثا: جاء في القاموس (نثو): نثا الحديث: حدّث به وأشاعه، والنثا: ما أخبرت به عن الرجل من حَسَن أو سيِّئ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٠.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود عليه السَّلام

مكيةٌ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابنُ عباس وقتادة: إلَّا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[1] [هود: ١١٤].

وأسند أبو محمد الدَّارمي في «مسنده» عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورةَ هودٍ يومَ الجمعة»[2].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وَ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾». قال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب. وقد رُوِيَ شيءٌ من هذا مرسلاً[3].

وأخرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»: حدّثنا سفيانُ بن وكيع قال: حدّثنا محمد بن بِشر، عن عليّ بن صالح، عن أبي إسحاق، عن أبي

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥.

(٢) سنن الدارمي (٣٤٠٤)، وأخرجه أبو داود في المراسيل (٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٨). وكعب: هو بن ماتع، المعروف بكعب الأحبار، والحديث مرسل.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٩٧) من طريق أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبي بكر، به. وأخرجه سعيد بنَ منصور في سننه (التفسير) (١١١٠)، وأبو يعلى في مسنده (١٠٧) (١٠٨) من طريق عكرمة، عن أبي بكر، به. وعكرمة لم يدرك أبا بكر. وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه ٢/ ١١٠ : مرسل أصح. اهـ. والحديث اختلف فيه على أبي إسحاق اختلافاً كثيراً، ينظر ما سيأتي من رواية أبي ميسرة وأبي جحيفة، وما أورده الدارقطني في العلل ١/ ١٩٣ وما بعدها. وعبارة الترمذي: وقد روي عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة شيءٌ من هذا مرسلاً. اهـ.

وقد أخرجه المروزي في مسند أبي بكر الصديق (٣٢) عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرةَ، عن أبي بكر، وليس فيه ذكر: المرسلات.

جُحَيْفة قال: قالوا يا رسول الله، نراكَ قد شِبتَ! قال: «شَيَّبتني هودٌ وأخواتها»[(١)].

قال أبو عبد الله: فالفزعُ يورثُ الشَّيب؛ وذلك أنَّ الفزعَ يَذْهَل النفسَ، فيَنْشَفُ رطوبةَ الجسد، وتحت كلِّ شعرةٍ مَنْبع، ومنه يَعْرَق، فإذا انتَشَفَ[(٢)] الفزعُ رطوبتَه، يبِست المنابع، فيَبِس الشعرُ وابيضَّ؛ كما يُرى الزرعُ أخضرَ[(٣)] بسقياه[(٤)]، فإذا ذهب سقياه[(٥)] يبِسَ فابيضَّ؛ وإنَّما يبيضُّ شعرُ الشيخ لذهاب رطوبته ويَبْسِ جلده، فالنفْسُ تَذْهل بِوَعيد الله[(٦)]، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله؛ فتَذْبُل، ويَنْشَفُ ماءَها ذلك الوعيدُ والهول[(٧)] الذي جاء به؛ فمنه تَشيب، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧]، فإنَّما شابوا من الفزع.

---

(١) نوادر الأصول ١/ ٢٢٤ دون إسناد، وأخرجه بهذا الإسناد الترمذي في الشمائل (٤١)، ومن طريقه البغوي في شرح السنة (٤١٧٦).
وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٨٨٠)، والطبراني في الكبير ٢٢/ (٣١٨)، والدارقطني في العلل ٢٠٦/٢ وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٥٠ من طريق محمد بن عبد الله بن نمير، عن محمد بن بشر، به.
وأورد الرازي في العلل ٢/ ١٣٣ الحديث السالف ثم قال: ورواه شيبان عن أبي إسحاق، عن عكرمة، أن أبا بكر قال للنبي ﷺ، وهذا أشبههما بالصواب، والله أعلم.
وأخرجه الدارقطني في العلل ١/ ٢٠٧ من طريق محمد بن مهاجر وشهاب بن عباد، عن محمد بن بشر، عن علي بن صالح، عن أبي إسحاق، عن أبي جحيفة، قال: قال أبو بكر الصديق، به. فذكرا فيه أبا بكر الصديق.
وأورده الحافظ ابن حجر في النكت على كتاب ابن الصلاح ٢/ ٧٧٤ مثالاً للحديث المضطرب وأبو جحيفة هو وهب بن عبد الله السوائي، صحابي، توفي سنة أربع وسبعين. السير ٣/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) في (د) و(ز): أنشف، وفي (ظ): نشف، والمثبت من (ف) و(م). وهو الموافق لنوادر الأصول.

(٣) في (م): كما ترى الزرع الأخضر. والمثبت من (ظ) و(ف)، وسقطت هذه العبارة من (ز) و(د).

(٤) في (م) و(د): بسقائه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لمطبوع نوادر الأصول.

(٥) في (م): سقاؤه. والمثبت من (ظ) و(ف). وهو الموافق لمطبوع نوادر الأصول.

(٦) في (د) و(ز): بوعد الله، وفي (ظ): لوعد الله، وفي نوادر الأصول: لوعيد الله. والمثبت من (ف) و(م).

(٧) في (د) و(ز): والخوف.

وأمّا سورة هود فإنَّما فيها ذكر الأمم[١]، وما حَلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى، فأهلُ اليقين إذا تَلَوها تَراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحَظَاته البطشُ بأعدائه، فلو ماتوا من الفزع لَحُقَّ لهم، ولكنَّ الله تبارك وتعالى اسمُه يَلطُف[٢] بهم في تلك الأحايين حتى يقرؤوا كلامه.

وأمَّا أخواتُها؛ فما أشبهَها من السُّور؛ مثلُ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، و﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، ففي تلاوة هذه السُّور ما يَكْشفُ لقلوب العارفين سلطانَه وبطشَه؛ فتذهَلُ منه النفوس، وتَشيبُ منه الرؤوس[٣].

قلت: وقد قيل: إنَّ الذي شيَّب النبيَّ ﷺ من سورة هود، قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الآية: ١١٢] على ما يأتي بيانه إنْ شاء الله تعالى.

وقال يزيدُ بن أبان: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في منامي، فقرأتُ عليه سورة هود، فلما ختمتُها[٤]، قال: «يا يزيد، هذه القراءةُ، فأين البكاء؟»[٥].

قال علماؤنا: وقال أبو جعفر النحاس[٦]: يقال: هذه هودُ فاعلم؛ بغير تنوين على أنَّه اسمٌ للسورة؛ لأنَّك لو سمَّيتَ امرأةً بزيدٍ لم تَصْرِف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه[٧]. وعيسى بن عمر يقول: هذه هودٌ [فاعلمْ]؛ بالتنوين على أنَّه اسمٌ للسورة؛

---

(١) في (م): فلما ذكر الأمم، وفي (ف): فإنما ذكر للأمم، وفي (د) و(ز): فإنما ذكر الأمم، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز) و(ف): تلطف، والمثبت من (ظ) و(م) وهو الموافق لنوادر الأصول ١/ ٢٢٤ والكلام منه بنحوه.

(٣) نوادر الأصول ١/ ٢٢٤ .

(٤) في (د) و(ز): حققتها.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٥/ ٨٣ - ٨٤ ، والمزي في تهذيب الكمال ٣٢/ ٧٠ وليس فيهما تسمية السورة ويزيد بن أبان: هو الرقاشيّ، من زهّاد أهل البصرة، قال أحمد: كان يزيدُ منكرَ الحديث... وكان قاصاً. تهذيب الكمال ٣٢/ ٦٤ وما بعدها، وميزان الاعتدال ٤/ ٤١٨ .

(٦) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧١ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) في الكتاب ٣/ ٢٤٢ .

وكذا إنْ سمَّى امرأةً بزيد؛ لأنَّه لمَّا سكن وسطه خفَّ فصُرِف، فإنْ أردتَ الحذف؛ صرفت على قول الجميع، فقلت: هذه هودٌ [فاعلمْ]؛ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه[1]: والدليلُ على هذا أنَّك تقول: هذه الرحمن، فلولا أنَّك تريد: هذه سورةُ الرحمن؛ ما قلتَ: هذه.

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ تقدَّم القول فيه[2].

﴿كِتَٰبٌ﴾ بمعنى: هذا كتاب.

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في موضع رفع نعتٌ لكتاب. وأحسن ما قيل في معنى «أُحْكِمَتْ آيَاتُه» قول قَتادة: أي: جُعلت محكمةً كلُّها، لا خَلَل فيها ولا باطل[3].

والإحكامُ: منع القول من الفساد، أي: نُظمت نظماً مُحْكَماً؛ لا يلحقها تناقضٌ ولا خَلَل[4].

وقال ابن عباس: أي: لم ينسخها كتاب، بخلاف التوراة والإنجيل[5]. وعلى هذا فالمعنى: أُحكم بعضُ آياته؛ بأنْ جُعِل ناسخاً غير منسوخ. وقد تقدَّم القول فيه[6].

وقد يقعُ اسم الجنس على النوع؛ فيقال: أكلتُ طعام زيد، أي: بعضَ طعامه[7].

---

(١) في الكتاب ٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) في مطلع سورة يونس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧١ ، ومعاني القرآن له ٣/ ٣٢٨ . وأخرج قول قتادة الطبري ١٢/ ٣١٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٧/ ١٧٨ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٧٢ .

(٦) ٥/ ١٧ .

(٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٧٤ : أحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس، فأوقع العموم =

وقال الحسن وأبو العالية: «أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ» بالأمر والنهي[١].

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب[٢]. وقال قتادة: أحكَمها الله من الباطل، ثمَّ فصَّلها بالحلال والحرام[٣]. مجاهد: أُحكمت جملةً، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع ما يحتاج إليه من الدَّليل على التوحيد والنبوّة والبعث وغيرها[٤]. وقيل: جُمِعت في اللوح المحفوظ، ثم فُصِّلت في التنزيل[٥]. وقيل: «فُصِّلت»: أنزلت نَجْماً نَجْماً لتُتَدبَّر[٦].

وقرأ عكرمة: «فَصَلَتْ» مخففاً، أي: حَكَمت بالحق[٧].

﴿مِن لَّدُنْ﴾ أي: من عند ﴿حَكِيمٍ﴾أي: مُحكِمٍ للأمور ﴿خَبِيرٍ﴾ بكلِّ كائنٍ وغير كائن.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الكسائيُّ والفرّاء: أي: بأنْ لا[٨]، أي: أُحكِمت ثم فُصِّلت[٩] بألَّا تعبدوا إلَّا الله. وقال الزَّجَّاج[١٠]: لئلَّا؛ أي: أُحكِمت ثمَّ فُصِّلت لئلَّا تعبدوا إلَّا الله. قيل: أمر رسولَه أنْ يقولَ للنَّاس ألَّا تعبدوا إلا الله[١١].

= على معنى الخصوص، كما تقول العرب: قد أكلت طعام زيد، يعنون بعض طعامه.

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥ ، وزاد المسير ٤/ ٧٣ ، وأخرج قول الحسن الطبريُّ ١٢/ ٣٠٩ ، وابنُ أبي حاتم ٦/ ١٩٩٤ (١٠٦٣٥).

(٢) زاد المسير ٤/ ٧٤ ونسبه للحسن. وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٩ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٥ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٠ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٥ (١٠٦٣٦ ، ١٠٦٣٩).

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧ ، وزاد المسير ٤/ ٧٤ .

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٦ ، وزاد المسير ٤/ ٧٤ .

(٦) في (د) و(ز): لينذر، وفي (ظ): ليتدبروا، والمثبت من (ف) و(م). وتنظر المراجع السابقة.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٩ ، والمحتسب ١/ ٣١٨ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣ .

(٩) قوله: ثم فصلت. من (م) و(د).

(١٠) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ .

(١١) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦ .

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: مُخوِّف من عذابه وسَطْوته لمن عصاه ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالرِّضوان والجنَّة لمن أطاعه.

وقيل: هو من قول الله أوّلاً وآخراً؛ أي: لا تعبدوا إلَّا الله إنني لكم منه نذير ـ أي: الله نذيرٌ لكم[١] ـ من عبادة غيره، كما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطفٌ على الأوّل.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة والعبادة. وقال الفرّاء: «ثمَّ» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه؛ لأنَّ الاستغفارَ هو التوبة، والتوبةُ هي الاستغفار[٢].

وقيل: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنَفِ متى وقعتْ منكم. قالَ بعض الصلحاء: الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكَذَّابين[٣]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «آل عمران» مستوفًى[٤]. وفي «البقرة» عند قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [الآية: ٢٣١][٥].

وقيل: إنَّما قدَّم ذكرَ الاستغفار لأنَّ المغفرة هي الغرضُ المطلوب، والتوبةُ هي السبب إليها؛ فالمغفرةُ أوَّلٌ في المطلوب وآخِرٌ في السبب. ويحتمل أنْ يكون المعنى: استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر[٦].

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ هذه ثمرةُ الاستغفار والتوبة، أي: يمتِّعكم بالمنافع من سَعَة الرِّزق ورَغَد العيش، ولا يستأصِلُكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلَكم[٧]. وقيل:

---

(١) قوله: أي: الله نذير لكم. ليس في (ظ).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٧٥.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

(٤) ٥/ ٣٢٤.

(٥) ٤/ ١٠١ - ١٠٢.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨. والنكت والعيون ٢/ ٤٥٦.

﴿يُمَتِّعْكُم﴾: يعمِّركم؛ وأصلُ الإمتاع: الإطالة، ومنه: أمتع اللهُ بك، ومَتَّع[١]. وقال سهلُ بن عبد الله: المتاع الحسن: تركُ الخَلْق، والإقبالُ على الحق[٢]. وقيل: هو القناعةُ بالموجود، وتركُ الحزنِ على المفقود[٣].

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: هو الموت. وقيل: القيامة[٤]. وقيل: دخول الجنة. والمتاعُ الحسن على هذا: وقاية كل مكروه وأمرٍ مَخُوف، ممَّا يكون في القبر وغيره من أهوال يوم[٥] القيامة وكُرَبها. والأوَّل أظهر؛ لقوله في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٢]. وهذا ينقطع بالموت، وهو الأجلُ المسمَّى. والله أعلم.

قال مقاتل: فأبَوا فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ، فابتُلُوا بالقَحْط سبعَ سنين، حتَّى أكلوا العظامَ المحرَّقة والقَذَر والجيفَ والكلاب[٦].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: يؤتِ كلَّ ذي عملٍ من الأعمال الصالحات جزاءَ عمله[٧]. وقيل: ويؤتِ كلَّ من فَضَلت حسناته على سيئاته «فَضْلَهُ»، أي: الجنة، وهي فضلُ الله[٨]. فالكناية في قوله: «فَضْلَهُ» ترجع إلى الله تعالى[٩]. وقال مجاهد: هو ما يحتسبُه الإنسان من كلامٍ يقوله بلسانه، أو عملٍ يعملُه بيده أو رجله، أو ما

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٠١، ومعاني القرآن للنحاس ٣/٣٢٨.

(٢) النكت والعيون ٢/٤٥٦.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢/٤٥٦، وتفسير البغوي ٢/٣٧٣.

(٤) النكت والعيون ٢/٤٥٦، وزاد المسير ٤/٧٥.

(٥) لفظ: يوم. من (ظ).

(٦) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/١١٦، وذكر نحوه المصنف في تفسير الآية (١٦) من سورة الجن، ولم ينسبه.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/١١٦ ونسبه للضحاك.

(٨) الوجيز للواحدي ١/٣٧٩.

(٩) زاد المسير ٤/٧٥.

تطوَّع به من ماله، فهو فضلُ الله يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إنْ كان كافراً[١].

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي: يومَ القيامة، وهو كبيرٌ لمَا فيه من الأهوال. وقيل: اليومُ الكبير: هو يوم بدر وغيره. و«تَوَلَّوْا» يجوز أنْ يكون ماضياً ويكون المعنى: وإن تولّوا فقل لهم: إنِّي أخافُ عليكم. ويجوز أنْ يكون مستقبلاً حُذِفت منه إحدى التاءين والمعنى: قل لهم: إنْ تتولَّوا فإني أخافُ عليكم[٢].

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: بعد الموت. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ثوابٍ وعقاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ أخبر عن معاداةِ المشركين للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، ويظنُّون أنَّه تخفى على الله أحوالهم. «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» أي: يطوونَها على عداوة المسلمين، ففيه هذا الحذف، قال ابن عباس: يُخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعَداوة، ويظهرون خلافه، نزلت في الأخنسِ بن شُريق، وكان رجلاً حُلوَ الكلام حُلو المنظر[٣]، يلقى رسولَ الله ﷺ بما يحبّ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء[٤]. وقال مجاهد: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾: شكًّا وامتراءً[٥]. وقال الحسن: يثنونَها على ما فيها من الكفر[٦].

وقيل: نزلتْ في بعض المنافقين، كان إذا مرَّ بالنبيِّ ﷺ ثَنى صدره وظهره، وطأطأ

---

(١) ينظر تفسير مجاهد ١/ ٢٩٩، وتفسير الطبري ١٢/ ٣١٤.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٠.

(٣) في النسخ: المنطق. والمثبت من المصادر الآتية.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣. وأسباب النزول للواحدي ص٢٦٨ وعند الواحدي: يطوي. بدل: ينطوي.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٩، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٩ (١٠٦٥٨).

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٥٧، وزاد المسير ٤/ ٧٧، ونسب فيهما إلى مجاهد بدل الحسن.

رأسَه وغطَّى وجهه، كي لا يراه النبيُّ ﷺ فيدعوَه إلى الإيمان. حُكي معناه عن عبد الله ابن شدَّاد[١]، فالهاء في «مِنْهُ» تعودُ على النبيِّ ﷺ.

وقيل: قال المنافقون: إذا أغلقنا أبوابنا، واستغشينا ثيابَنا، وثَنَينا صدورَنا على عداوة محمدٍ؛ فمن يعلم بنا؟ فنزلت الآية[٢].

وقيل: إنَّ قوماً من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بسَتر أبدانهم، ولا يكشفونَها تحت السماء، فبيَّن الله تعالى أنَّ التَّنَسُّك ما اشتملت عليه قلوبهم من معتقد، وأظهروه من قولٍ وعمل[٣].

ورَوى ابنُ جريج[٤] عن محمد بن عبَّاد بن جعفر قال: سمعتُ ابنَ عباس رضي الله عنهما يقول: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ»[٥] قال: كانوا لا يجامعون النساء، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء، فنزلت هذه الآية.

وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس: «أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِ صُدُورُهُمْ» كالأوَّل، وهو بغير ياء[٦]؛ ومعنى «تَثْنَوْنِ»[٧] والقراءتين الأُخريين متقارب؛ لأنها لا تَثْنَوني

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٧٦. وأخرجه سعيد بن منصور (١٠٧٨ - تفسير)، والطبري ١٢/ ٣١٦ - ٣١٧، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٩ (١٠٦٥٩).

(٢) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٨ - ٣٩، والواحدي في الوسيط ٢/ ٥٦٤، والبغوي ٢/ ٣٧٣، والرَّازي في تفسيره ١٧/ ١٨٥. وبنحوه أخرجه الطبري ١٢/ ٣١٩ عن قتادة. (وفي بعضها ذكر: المشركون، بدل: المنافقون).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٨.

(٤) في (م): ابن جرير، وهو خطأ.

(٥) وقع في النسخ الخطية: تثنوي صدورهم ـ بغير نون بعد الواو في وزن تنطوي ـ ليستخفوا منه...الخ. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢، والكلام منه، وهو الموافق لما في صحيح البخاري (٤٦٨١) (٤٦٨٢)، وتفسير الطبري ١٢/ ٣٢٠.

(٦) في (م) ونسخة كما في حاشية إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢: «ألا إنهم تثنوي صدورهم» بغير نون بعد الواو، في وزن تنطوي (وهي رواية شاذة أيضاً) والمثبت من النسخ الخطية وهو المناسب لما في إعراب القرآن للنحاس. وقد رويت فيها ألفاظ أخرى شاذة، ينظر المحتسب ١/ ٣١٩، والدر المصون ٦/ ٢٨٤ - ٢٨٨.

(٧) في (م): تثنوِي.

حتى يَثْنُوها[1]، وقيل: كان بعضُهم ينحنِي على بعض ليُسارَّه[2] في الطّعن على المسلمين، وبلَغَ من جهلهم أنْ توهَّموا أنَّ ذلك يخفى على الله تعالى[3].

«لِيَسْتَخْفُوا» أي: ليتواروا عنه؛ أي: عن محمدٍ أو عن الله[4].

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يُغطُّون رؤوسهم بثيابهم. قال قَتادة: أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهرَه، واستغشى ثوبَه، وأضمرَ في نفسِه هَمَّه[5].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «ما» نفي، و«مِنْ» زائدةٌ، و«دَابَّةٍ» في موضع رفع؛ التقدير: وما دابةٌ[6].

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «على» بمعنى «مِن»؛ أي: من الله رزقُها؛ يدلُّ عليه قول مجاهد: كلُّ ما جاءها من رزقٍ فمن الله[7]. وقيل: «على الله» أي: فضلاً لا وجوباً[8]. وقيل: وعداً منه حقًّا ـ وقد تقدَّم بيانُ هذا المعنى في «النساء»[9] ـ وأنَّه سبحانه لا يَجب عليه شيء[10].

---

(١) في (ز) و(ظ): لأنها لا تنثوي حتى يثنونها، وفي (د) و(ف): لأنها تثنون حتى يثنونها. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في (ظ) و(م): يساره، والمثبت من (د) و(ز) و(ف) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ . والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٤ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٧٨ . وأخرجه الطبري ١٢/ ٣١٩ .

(٦) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٨٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ .

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٤ - ٥٦٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٣٢٤ .

(٨) زاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٩) ٦/ ٤٥٠ .

(١٠) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥١ .

«رِزْقُهَا» رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة[١]؛ وظاهرُ الآية العموم، ومعناها الخصوص؛ لأنَّ كثيراً من الدوابِّ هَلَك قبل أنْ يُرزق. وقيل: هي عامة في كُلِّ دابَّة[٢]، وكلُّ دابَّة لم تُرزق رزقاً تعيش به فقد رُزقت رُوحَها.

ووجه النظم بما قبلُ: أنَّه سبحانه أخبرَ برزق الجميع، وأنَّه لا يَغفُل عن تربيته، فكيف تَخفى عليه أحوالُكم يا معشرَ الكفَّار وهو يرزقكم[٣]؟!

والدَّابةُ: كلُّ حيوانٍ يَدِبُّ[٤].

والرزقُ حقيقته: ما يَتغذَّى به الحيُّ، ويكونُ فيه بقاءُ رُوحه، ونَماءُ جسده. ولا يجوز أنْ يكونَ الرِّزق بمعنى المِلك؛ لأنَّ البهائمَ تُرزق، وليس يصحُّ وصفُها بأنَّها مالكةٌ لعَلَفها؛ وهكذا الأطفالُ تُرزق اللّبنَ، ولا يقال: إنَّ اللّبن الذي في الثّدي مِلكٌ للطفل، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وليس لنَا في السماء مِلك؛ ولأنَّ الرِّزق لو كان مِلكاً، لكان إذا أكلَ الإنسان من مِلك غيره أنْ يكون قد أكل من رزق غيره، وذلك محالٌ؛ لأنَّ العبدَ لا يأكل إلَّا رزقَ نفسه. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[٥]، والحمد لله.

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ فقال: الذي خلق الرَّحى يَأْتيها بالطَّحين، والذي شَدقَ الأشداق هو خالق الأرزاق.

وقيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله، والحمد لله[٦]، والله أكبر! إنَّ الله[٧] يرزُق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد[٨]!.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ .

(٢) قوله: في كل دابة. من (د) و(م). وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥١ .

(٣) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٤ ، وزاد المسير ٤/ ٧٨ .

(٥) ١/ ٢٧٢ .

(٦) قوله: والحمد لله من (ظ).

(٧) قوله: إن الله. ليس في النسخ الخطية.

(٨) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٠٢ . وأبو أسيد هو الفزاري من زهاد أهل دمشق. تاريخ دمشق ٦٦/ ١٢ .

وقيل لحاتم الأصمّ[1]: من أين تأكل؟ فقال: من عند الله؛ فقيل له: الله يُنزل لك دنانير ودراهم من السماء؟! فقال: كأنْ ما لَه إلا السماء! يا هذا، الأرضُ له والسماءُ له؛ فإنْ لم يؤتني رزقي من السماء ساقَه لي من الأرض؛ وأنشد:

وكيف أخافُ الفقرَ والله رازقي ... ورازقُ هذا الخلقِ في العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهم ... وللضَبِّ في البَيْدا وللحُوتِ[2] في البحرِ[3]

وذكر التِّرمذيّ الحكيم في «نوادر الأصول»[4] بإسناده عن زيد بن أسلم: أنَّ الأشعريِّين - أبا موسى، وأبا مالك، وأبا عامر في نفرٍ منهم - لمَّا هاجروا قدموا[5] على رسول الله ﷺ في فُلْكٍ[6]، وقد أرْمَلوا من الزاد[7]، فأرسلوا رجلاً منهم إلى رسول الله ﷺ يسأله، فلما انتهى إلى باب رسول الله ﷺ سمعَه يقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فقال الرجل: ما الأشعريُّون بأهون الدوابِّ على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله ﷺ؛ فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغَوْث، ولا يظنون إلَّا أنَّه قد كلَّم رسولَ الله ﷺ فوعده؛ فبينا هم كذلك إذْ أتاهم رجلان يحملان قصعةً بينهما مملوءةً خبزاً ولحماً، فأكلوا منها ما شاؤوا، ثم قال بعضهم لبعض: لو أنَّا رَدَدْنا هذا الطعامَ إلى رسول الله ﷺ ليقضيَ به حاجته، فقالوا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله ﷺ فإنَّا قد قضينا

---

(١) هو أبو عبد الرحمن، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم. توفي سنة (٢٣٧هـ). السير ١١/ ٤٨٤ - ٤٨٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): والحوت.. والمثبت من (ظ).

(٣) أورد البيتين اليوسي في زهر الأكم في الأمثال والحكم ٢/ ٥١ .

(٤) ص٢٥٣ .

(٥) في (م): وقدموا. والمثبت من النسخ، وهو الموافق لنوادر الأصول.

(٦) في النسخ: ذلك. والمثبت من نوادر الأصول، وهو الأوفق مع قصة قدوم أبي موسى الأشعري وقومه من الحبشة إلى المدينة ينظر: صحيح مسلم (٢٥٠٢).

(٧) أرملوا: أي: نَفِدَ زادهم. وأصله من الرَّمْل، كأنهم لصقوا بالرَّمْل، كما قيل للفقير: التَّرِب. النهاية (رمل).

منه حاجتَنا، ثم إنَّهم أتَوا رسول الله ﷺ؛ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا طعاماً أكثرَ ولا أطيبَ من طعامٍ أرسلتَ به؛ قال: «ما أرسلتُ إليكم طعاماً». فأخبروه أنَّهم أرسلوا صاحبَهم، فسألَه رسولُ الله ﷺ، فأخبره ما صَنَع، وما قال لهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك شيءٌ رزقَكُمُوه الله».

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: من الأرض حيثُ تأوي إليه ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: الموضع الذي تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الربيع بن أنس: «مُسْتَقَرَّهَا»: أيام حياتها، «وَمُسْتَوْدَعَهَا»: حيث[1] تموت وحيث تُبعث. وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: «مُسْتَقَرَّهَا» في الرَّحِم، «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في الصلب[2]. وقيل: «يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا» في الجنة أو النار، «وَمُسْتَوْدَعَهَا» في القبر؛ يدلُّ عليه قوله تعالى في وصف أهل[3] الجنة وأهل النار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٧٦] و﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦] ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللَّوح المحفوظ[4].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[5] بيانه والحمد لله.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بيَّن أنَّ خَلْق العرش والماء قبل خلق الأرض

---

(١) في النسخ الخطية: حين، والمثبت من (م) وهو الموافق لتفسير الطبري.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٣٢٥، ٣٢٧، ٩/ ٤٣٨.

(٣) لفظة: أهل، من (م).

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٤.

(٥) ٩/ ٢٣٧.

والسماء. قال كعب: خلق الله ياقوتةً خضراء، فنظر إليها بالهيبة، فصارت ماءً يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإنْ كان ساكناً، ثمَّ خلق الرِّيحَ فجعل الماءَ على مَتْنها، ثُمَّ وَضَع العرشَ على الماء[١].

وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس: إنه سُئل عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فقال: على أيِّ شيءٍ كان الماء؟ قال: على مَتْن الرِّيح[٢].

ورَوى البخاريّ عن عِمْران بن حُصَين، قال: إني[٣] عند النبيّ ﷺ إذْ جاءه قومٌ من بني تميم، فقال: «اِقْبَلُوا البُشْرى يا بني تميمٍ» قالوا: بَشَّرْتَنَا فأعطِنا. فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال: «اِقْبلُوا البُشْرى يا أهل اليمن، إذْ لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قَبِلنا، جئنا لنتفقه في الدِّين، ولنسألك عن أولِ هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قبله[٤]، وكانَ عرشُه على الماء، ثمَّ خلق السماواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذِّكْر كلَّ شيء». ثم أتاني رجلٌ فقال: يا عِمران، أدركْ ناقتك فقد ذهبت، فانطلقتُ أطلُبُها؛ فإذا السَّرابُ ينقطع دونها[٥]؛ وايمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أنَّها قد ذهبتْ ولم أقُمْ[٦].

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلقَ ذلك لِيبتليَ عبادَه بالاعتبار والاستدلال على كمال قُدرته، وعلى البعث. وقال قَتَادة: معنى «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً»: أيُّكم أتمُّ عقلاً[٧]. وقال الحسن وسفيان الثَّوريّ: أيُّكم أزهدُ في الدنيا[٨].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٧٤ ، والخبر من الإسرائيليات التي يرويها كعب.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٣) في (م) و(د): كنت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في صحيح البخاري.

(٤) في (م): غيره.

(٥) وقع في (م): فإذا هي يقطع دونها السراب.

(٦) صحيح البخاري (٧٤١٨)، وهو عند أحمد (١٩٨٧٦).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٨).

(٨) زاد المسير ٤/ ٧٩ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٥٩ ، وأخرج قول سفيان ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٧) .

وذكر أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ برجلٍ نائم فقال: يا نائم، قُم فتعبَّدْ، فقال: يا رُوح الله قد تَعبَّدتُ، فقال: وما[1] تَعبَّدتَ؟ قال: قد تركتُ الدنيا لأهلِها. قال: نَمْ، فقد فُقْتَ العابدين[2].

الضَّحَّاك: أيُّكم أكثر شكراً[3]. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس: أيُّكم أعملُ بطاعة الله عزَّ وجلَّ[4].

ورُويَ عن ابن عمر أنَّ النبيَّ ﷺ تلا: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارم الله، وأسرعُ في طاعة الله»[5] فجمعَ الأقاويل كلَّها، وسيأتي في «الكهف» هذا أيضاً إنْ شاء الله تعالى[6]. وقد تقدَّم معنى الابتلاء[7].

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: دللتَ يا محمد على البعث ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ وذكرتَ ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر. وكُسِرت «إنّ» لأنَّها بعد القول مبتدأة. وحكى سيبويه الفتح[8].

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فُتِحت اللَّام [التي قبل النون] لأنَّه فعلٌ متقدِّم لا ضمير فيه، وبعده «لَيَقُولُنَّ» لأنَّ فيه ضميراً[9].

---

(١) في (م): وبم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٤٠٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٥٩ .

(٤) زاد المسير ٤/ ٧٩ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٣٥ ، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٥) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٨٣١) عن داود بن المحبَّر، عن عبد الواحد بن زياد، عن كليب بن وائل، عن ابن عمر، به. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٨٦ : داود ساقط.

(٦) عند تفسير الآية: ٧ منها.

(٧) ٢/ ٨٨ - ٨٩ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٣ . وما بين حاصرتين منه.

و﴿سِحْرٌ﴾ أي: غرورٌ باطل، لبطلان السحر عندهم[(١)]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ»[(٢)] كناية عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ اللام في «لَئِنْ» للقسم[(٣)]، والجواب: «لَيَقُولُنَّ». ومعنى «إِلَى أُمَّةٍ»: إلى أجلٍ معدود، وحينٍ معلوم؛ فالأُمَّة هنا المدَّة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقَتادة وجمهور المفسّرين[(٤)]. وأصلُ الأمَّة: الجماعة؛ فعبَّر عن الحين والسنين بالأُمَّة، لأنَّ الأمَّة تكون فيها[(٥)]. وقيل: هو على حذف المضاف؛ والمعنى: إلى مجيء أُمَّةٍ ليس فيها مَنْ يؤمن، فيستحقُّون الهلاكَ. أو: إلى انقراض أُمَّةٍ فيها مَنْ يؤمن، فلا يَبقى بعد انقراضها من يؤمن[(٦)].

والأُمَّة اسمٌ مشتركٌ يقال على ثمانية أوجه: فالأمَّة تكون: الجماعة؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص:٢٣]. والأمَّة أيضاً: أتباعُ الأنبياء عليهم السلام. والأمَّة: الرجلُ الجامع للخير، الذي يُقتدى به؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٠]. والأمَّة: الدِّين والمِلَّة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]. والأمَّة: الحينُ والزمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، والأمَّة: القامة، وهو طولُ الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠ .

(٢) السبعة ص٢٤٩ ، والتيسير ص١٠١ .

(٣) في (ز) و(ظ): لام القسم، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٣ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ ، وزاد المسير ٤/ ٨٠ .

فلانٌ حسن الأُمَّة، أي: القامة. والأمَّة: الرجلُ المنفرد بدينه وحدَه، لا يَشْرَكُه فيه أحدٌ؛ قال النبي ﷺ: «يُبعَث زيدُ بن عَمرو بن نُفَيْل أُمَّةً وحدَه»[١]. والأمَّة: الأمُّ؛ يقال: هذه أُمَّة زيد؛ يعني: أمّ زيد[٢].

﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يعني: العذاب؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالاً واستهزاء، أي: ما الذي يحبسه عنا[٣].

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل: هو قتلُ المشركين ببدر؛ وقتلُ جبريل المستهزئين على ما يأتي[٤].

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل وأحاط ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ ما كانوا به يستهزئون، والمضاف محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسانُ اسمٌ شائعٌ للجنس في جميع الكفار[٥]. ويقال: إنَّ الإنسان هنا: الوليدُ بن المغيرة، وفيه نزلت. وقيل: في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٦٤٨) من طريق نُفيل بن هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، عن أبيه، عن جده. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٤١٧ وقال: فيه المسعودي وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(٢) نزهة القلوب للسجستاني ص١١٣ .

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٠ .

(٤) عند تفسير الآية: ٩٥ من سورة الحجر.

(٥) قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١ : والإنسان اسم للجنس في معنى الناس اهـ. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٥٣ : وقال بعض الناس في هذه الآية ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إنما يراد به الكافر، وحملَه على ذلك لفظة ﴿كَفُورٌ﴾ وهذا عندي مردود، لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة «الإنسان».

عبد الله بن أبي[١] أميَّة المخزوميّ[٢]. «رَحْمَةً» أي: نعمة.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناه إياها ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ أي: آيسٌ[٣] من الرحمة ﴿كَفُورٌ﴾ للنعم؛ جاحدٌ لها؛ قاله ابن الأعرابيّ.

النحاس[٤]: «لَيَؤُوسٌ» من يَئِس يَيْأَس، وحكى سيبويه[٥]: يئس يَيْئِس على فَعِل يَفْعِل، ونظيره: حَسِب يَحْسِب، ونَعِم يَنْعِم، وبَئِس يَبْئِس[٦].وبعضهم يقول: يَئس يَيْئِسُ[٧]؛ لا يعرف في الكلام[٨] إلَّا هذه الأربعةُ الأحرف من السَّالم جاءت على فَعِل يفعِل[٩]؛ وفي واحد منها اختلاف. وهو يَئِسٌ، ويَؤُوسٌ على التكثير؛ كفخور، للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾ أي: صحةً ورَخاءً وسَعةً في الرزق ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: بعد ضُرٍّ وفقرٍ وشدَّة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: الخطايا التي

---

(١) لفظة: أبي، من (م)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي. وعبد الله بن أبي أمية المخزومي، أخو أم سلمة أم المؤمنين، كان شديداً على المسلمين قبل إسلامه، ثم أسلم فكانت له صحبة، ينظر الإصابة ٥/ ١١ .

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ .

(٣) في (م): يائس.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٥) في الكتاب ٤/ ٥٤ .

(٦) في النسخ: يئس ييئِس، بالياء، وهو تكرار، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وينظر أدب الكاتب ٤٨٣ والكامل للمبرد ٢/ ٧٥٤ .

(٧) كذا في النسخ، وفي إعراب القرآن للنحاس: يئِس ييأس. وليسا بمرادَيْنِ في هذا السياق. ولعل الصواب: يئسَ يئِسُ، فقد ذكره سيبويه في الكتاب ٤/ ٥٤ نقلاً عن بعض العرب قال: فحذفوا الياء من يفْعِل لاستثقال الياءات ههنا مع الكسرات. اهـ. أو أن الصواب: يئسَ ياءسُ، كما نقل الزَّبيدي في تاج العروس (يئس) عن المبرّد أن منهم من يُبدل في المستقبل من الياء الثانية ألفاً.

(٨) في (م): الكلام العربي.

(٩) وأورد ابن السِّيد في الاقتضاب ص٢٣٢ أيضاً: يَبِسَ يَيْبِسُ، وعلى هذا تكون الأفعال الشاذة من الصحيح من باب فعِل يفعَل ويفعِل: خمسة، كما ذكر.

تسوءُ صاحبَها من الضُّرّ والفقر[1].

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: يفرح ويفخر بما ناله من السَّعَة، وينسى شكر الله عليه؛ يقال: رجلٌ فاخرٌ: إذا افتخر، وفخورٌ للمبالغة.

قال يعقوب القارئ: وقرأ بعضُ أهل المدينة: «لَفَرُحٌ» بضمِّ الراء[2]، كما يقال: رجلٌ فَطُنٌ وحَذُرٌ ونَدُسٌ. ويجوز في كلتا اللغتين الإسكانُ لِثقل الضمَّة، والكسرة[3].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ يعني المؤمنين، مدحَهم بالصبر على الشدائد. وهو في موضع نصب. قال الأخفش[4]: هو استثناءٌ ليس من الأوَّل؛ أي: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والمحنة. وقال الفراء[5]: هو استثناءٌ من «وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ» أي: من «الإنسان»، فإنَّ الإنسان بمعنى النَّاس[6]، والناس: يشمل الكافر والمؤمن؛ فهو استثناءٌ متصل وهو حسن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَأَجۡرٞ﴾ معطوف ﴿كَبِيرٞ﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي: فلعلَّكَ لِعظيمِ ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهَّم أنَّهم يُزيلُونَك عن بعض ما أنت عليه[7].

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ .

(٢) القراءات الشاذة ص٥٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٥٧٥ . وهو قول الزجاج أيضاً في معاني القرآن له ٣/ ٤١ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٤ - ٥ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ ، وعنه نقل المصنف كلام الأخفش والفراء.

(٧) في (ز): فيه، وفي هامشها: ما أمرت به. وينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ ، وفيه: ما أنت عليه من أمر ربك.

وقيل: إنَّهم لمَّا قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ هَمَّ أن يَدَع سبَّ آلهتهم، فنزلت هذه الآية.

فالكلام معناه الاستفهام؛ أي: هل أنتَ تاركٌ ما فيه سبُّ آلهتهم، كما سألوك؟ وتأكّد عليه الأمرُ في الإبلاغ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعادٍ، أي: لا يكون منك ذلك، بل تُبلِّغهم كلَّ ما أُنزل إليك؛ وذلك أنَّ مشركي مكَّة قالوا للنبي ﷺ: لو أتيتنا بكتابٍ ليس فيه سبُّ آلهتنا لاتبعناك، فهَمَّ النبيُّ ﷺ أنْ يَدَع سبَّ آلهتهم؛ فنزلت[1].

قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ عطف على «تَارِكٌ»، و«صَدْرُكَ» مرفوعٌ به[2]، والهاء في «به» تعودُ على «ما»، أو على «بعض»[3]، أو على التبليغ، أو التكذيب[4]. وقال: «ضَائِقٌ» ولم يقل: ضيّق، ليشاكل «تَارِكٌ» الذي قبله؛ ولأنَّ الضّائقَ عارضٌ، والضّيقَ ألزمُ منه[5].

﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ في موضع نصب، أي: كراهيةَ أنْ يقولوا[6]؛ أو: لئلَّا يقولوا؛ كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لئلَّا تضلُّوا. أو: لأنْ يقولوا[7].

﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يُصدِّقه؛ قاله عبد الله بنُ

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٥٤ .

(٤) ينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٤ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٥٤ ، وفيه: لأنه وصف لازم.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٤ .

(٧) ينظر إملاء ما من به الرحمن (بحاشية الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٦١ ، والدر المصون ٦/ ٢٩٤ .

أبي أميَّة بن المغيرة المخزوميّ[١]؛ فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾: إنَّما عليك أنْ تُنذرهم، لا بأنْ تأتيَهم بما يقترحونه من الآيات[٢] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» بمعنى بل، وقد تقدَّم في «يونس»[٣]؛ أي: قد أزحتَ عِلَّتهم وإشكالَهم في نبوَّتكَ بهذا القرآن، وحَجَجْتَهم به، فإن قالوا: افتريتَه ـ أي: اختلقتَه ـ فليأتُوا بمثله مفترًى بزعمهم ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الكهنة والأعوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي: في المعارضة، ولم تتهيأ لهم، فقد قامت عليهم الحجَّة[٤]؛ إذْ هم اللُّسْنُ البلغاء، وأصحابُ الألسنِ الفُصحاء ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا صدقَ محمد ﷺ ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه الأمر[٥]. وقد تقدَّم القول في معنى هذه الآية، وأنَّ القرآن معجزٌ، في مقدمة الكتاب[٦]، والحمد لله.

وقال: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾ وبعده: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ ولم يقل: لك؛ فقيل: هو على تحويل المخاطبة من الإفراد إلى الجمع، تعظيماً وتفخيماً؛ وقد يُخاطب الرئيس بما يُخاطب به الجماعة[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١ والوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٦.

(٣) ٨/ ٣٤٤.

(٤) ينظر الوسيط ٢/ ٥٦٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧٦.

(٦) ١/ ١١٢.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥، وزاد المسير ٤/ ٨٣.

وقيل: الضميرُ في «لَكُمْ»، وفي «فَاعْلَمُوا» للجميع؛ أي: فليعلم الجميع ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ قاله مجاهد[١].

وقيل: الضمير في «لكم»، وفي «فاعلموا» للمشركين، والمعنى: فإنْ لم يستجبْ لكم من تدعونَه إلى المعاونة، ولا تهيّأتْ لكم المعارضة ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[٢].

وقيل: الضمير في «لكم» للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين، وفي «فاعلموا» للمشركين[٣].

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ كان زائدة، ولهذا جزم بالجواب فقال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفرَّاء[٤]. وقال الزَّجَّاج[٥]: «مَنْ كَانَ» في موضع جزم بالشرط، وجوابه: «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ» أي: من يَكُنْ يريد؛ والأوَّل في اللفظ ماضٍ، والثاني مستقبل، كما قال زهير:

وَمَنْ هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ[٦] ... ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ[٧]

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية: فقيل: نزلت في الكُفَّار؛ قاله الضحاك،

---

(١) لم نقف عليه، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٤٥ ، وتفسير الرازي ١٧/ ١٩٦ .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ١٢/ ٣٤٥ وقال: وذلك تأويلٌ بعيدٌ من المفهوم.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٥ . وقال في البحر المحيط ٥/ ٢١٠ : ولعله لا يصح، إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد»، وكان يكون مجزوماً. اهـ وينظر الدر المصون ٦/ ٢٩٦ .

(٥) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وهو في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥ .

(٦) في (م): ومن هاب أسباب المنية يلقها. والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٧) الشطر الثاني سقط من (ز) و(ظ)، والبيت في ديوان زهير ص٣٠ ، قال شارحه ثعلب: أي: من هاب أسباب المنية يلقها، وأسباب السماء: نواحيها ووجوهها. يقول: من اتقى الموت لقيه.

واختاره النحاس[١]؛ بدليل الآية التي بعدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾. أي: مَنْ أتى منهم بصلة رَحِمٍ أو صدقة، نكافئه به[٢] في الدنيا، بصحة الجسم، وكثرة الرزق، لكنْ لا حسنة له في الآخرة[٣]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»[٤] مستوفًى.

وقيل: المراد بالآية المؤمنون، أي: مَنْ أراد بعمله ثوابَ الدنيا؛ عُجِّل له الثوابُ، ولم يُنقص شيئاً في الدنيا، وله في الآخرة العذاب، لأنَّه جرَّد قَصدَه إلى الدنيا[٥]، وهذا كما قال ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[٦] فالعبدُ إنَّما يُعطَى على وجه قصده، وبحكم ضميره؛ وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه في الأمم بين كلِّ مِلَّة[٧].

وقيل: هو لأهل الرياء[٨]؛ وفي الخبر أنَّه يقال لأهل الرياء: صُمتُم، وصلَّيتُم، وتصدَّقتُم، وجاهدتُم، وقرأتُم، ليقالَ ذلك، فقد قيلَ ذلك، ثم قال: «إنَّ هؤلاء أولُ من تُسَعَّر بهم النار»، رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاءً شديداً، وقال: صَدَق رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتين، خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه» بمعناه، والترمذيّ أيضاً[٩].

وقيل: الآيةُ عامةٌ في كلِّ من ينوي بعمله[١٠] غير الله تعالى، كان معه أصلُ إيمانٍ،

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥ . وأخرج قول الضحاك الطبري ١٢/ ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(٢) في (م): بها.
(٣) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٨٤ .
(٤) ١٠/ ٢٣٦ .
(٥) أخرج الطبري نحوه ١٢/ ٣٤٨ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٤ عن ابن عباس.
(٦) سلف ٣/ ٢٧٠ .
(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .
(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٤ وقد نسب لمجاهد.
(٩) صحيح مسلم (١٩٠٥)، وجامع الترمذي (٢٣٨٢)، وقال: حسن غريب. وهو عند أحمد (٨٢٧٧).
(١٠) في (ز): بعلمه، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .

أو لم يكن[١]. قاله مجاهدٌ وميمون بن مِهْران، وإليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى.

وقال ميمون بن مِهْران: ليس أحدٌ يعمل حسنةً إلَّا وُفِّيَ ثوابَها؛ فإنْ كان مسلماً مخلصاً وُفِّيَ في الدنيا والآخرة، وإنْ كان كافراً وُفِّيَ في الدنيا.

وقيل: من كان يريد بغزوه مع النبي ﷺ [الغنيمة] وُفِّيها، أي: وُفِّيَ أجرَ الغَزاة ولم يُنقص منها[٢]؛ وهذا خصوص، والصحيح العموم.

الثانية: قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[٣]. وتدلُّكَ هذه الآية على أنَّ من صام في رمضان لا عن رمضان، لا يقع عن رمضان، وتدلُّ على أنَّ من توضأ للتبرُّدِ والتنظُّف، لا يَقع قُربةً عن جهة الصلاة[٤]، وهكذا كلُّ ما كان في معناه.

الثالثة: ذهبَ أكثر العلماء إلى أنَّ هذه الآيةَ مطلقة، وكذلك الآية التي في «الشورى» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ الآية [٢٠]، وكذلك ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيَّدَها وفسَّرها [بالآية] التي في «سبحان» ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾ [الآيات: ١٨-٢٠]. فأخبرَ سبحانه أنَّ العبدَ ينوي ويريد، والله سبحانه يحكُم ما يريد[٥].

ورَوى الضَّحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّها منسوخةٌ بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾[٦] [الإسراء: ١٨]. والصحيحُ ما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ وهو من قوله. وأما نسبته لمجاهد، ففيها خلاف: فقد نقل النحاس في إعرابه ٢/ ٢٧٥ عنه أنه قال: نوف إليه حسناته في الدنيا. ونقل ابن عطية في المحرر ٣/ ١٥٦ عنه: أنها في الكفرة وفي أهل الرياء ـ كالقول السالف ـ وهو الذي ذهب إليه معاوية ﷺ.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٥ وما بين حاصرتين منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٦) ذكره النحاس في الناسخ والمنسوخ (٦٢٥)، وأخرجه فيه (٧٨١). وينظر الدر المنثور ٣/ ٣٢٣ .

ذكرناه؛ وأنَّه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. فهذا ظاهرُه خبرٌ عن إجابة كلِّ داعٍ دائماً على كلِّ حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام:٤١].

والنسخ في الأخبار لا يجوز؛ لاستحالة تبدُّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى، فأما الأخبارُ عن الأحكام الشرعيَّة، فيجوزُ نسخُها على خلافٍ فيه، على ما هو مذكورٌ في الأصول[1]؛ ويأتي في «النحل» بيانه إنْ شاء الله تعالى[2].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ إشارةٌ إلى التّخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الآية [النساء:٤٨]، فهو محمولٌ على ما لو كانت موافاةُ هذا المُرائي على الكفر.

وقيل: المعنى ليس لهم إلا النَّار في أيامٍ معلومةٍ ثمَّ يخرج؛ إمَّا بالشفاعة، وإمَّا بالقَبْضة[3]. والآية تقتضي الوعيد بسَلْب الإيمان، وفي الحديث: المعاصي بريدُ[4]

(١) ينظر إحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي ص٣٩٩، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٤٠٥/١ و ٤٧٢/٢ - ٤٧٣، والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٢٥ لمكي، ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص٢٢.

(٢) عند تفسير الآية ٦٧ منها.

(٣) كما ورد في الحديث الذي أخرجه أحمد (١١٨٩٨)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري، أنه تعالى يقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حُمماً، فيلقيهم في أفواه الجنة.

(٤) في (ظ): العاصي يريد، وفي (م): الماضي يريد.

الكفر[1]، وخاصةً الرياء، إذْ هو شركٌ؛ على ما تقدَّم بيانه في «النساء»، ويأتي في آخر «الكهف»[2].

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر؛ قال أبو حاتم: وحَذَف الهاء؛ قال النحاس[3]: هذا لا يَحتاج إلى حذف؛ لأنَّه بمعنى المصدر، أي: وباطلٌ عمله. وفي حرف أُبيّ وعبدِ الله[4]: «وَبَاطِلاً مَا كَانُوا يَعْمَلُون» تكون[5] «ما» زائدة، أي: وكانوا يعملون باطلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ابتداءٌ، والخبر محذوف، أي: أفمن كان على بيِّنةٍ من ربِّه في اتِّباع النبيّ ﷺ، ومعه من الفضل ما يتبيَّن به؛ كغيره ممن يريد الحياةَ الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن[6]. وكذا قال ابن زيد: إنَّ الذي على بيِّنةٍ هو من اتبع النبيّ محمداً ﷺ[7].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٤٧ من قول أبي حفص النيسابوري. ونقل العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٢٧٨ عن ابن حجر المكي أنه قال: أظنه من قول السلف، وقيل: إنه حديث.

(٢) سلف ٧/ ١٩٠ - ١٩١ ، وسيرد عند تفسير الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٥ ، وما قبله منه.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٩ ، والمحتسب ١/ ٣٢٠ .

(٥) في (م): وتكون.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ .

(٧) أخرج الطبري ١٢/ ٣٥٥ - ٣٥٦ عن ابن زيد في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: رسول الله ﷺ كان على بينة من ربّه. وذكر الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٥ عن ابن زيد: أن البينة القرآن.

﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾: من الله، وهو النبيّ ﷺ. وقيل: المراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: النبيُّ ﷺ[١]، والكلامُ راجعٌ إلى قوله: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؛ أي: أفمن كان معه بيانٌ من الله، ومعجزةٌ كالقرآن، ومعه شاهد كجبريل ـ على ما يأتي[٢] ـ وقد بَشَّرت به الكتب السالفة، يَضيقُ صدره بالإبلاغ، وهو يعلم أنَّ الله لا يُسْلِمه. والهاء في «ربّه» تعود عليه.

وقوله: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ رَوى عِكرمة عن ابن عباس: أنَّه جبريل؛ وهو قول مجاهد والنَّخعِيِّ[٣]. والهاء في «منه» لله عزَّ وجلَّ، أي: ويتلو البيانَ والبرهانَ شاهدٌ من الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقال مجاهد: الشاهد ملَك من الله عزَّ وجلَّ يحفظُه ويُسدِّده[٥].

وقال الحسن البصري وقَتادة[٦]: الشاهدُ لسان رسول الله ﷺ. قال محمدُ بن علي ابنُ الحنفية: قلت لأبي: أنتَ الشاهد؟ فقال: وَدِدتُ أنْ أكون أنا هو، ولكنَّه لسانُ رسول الله ﷺ[٧].

وقيل: هو علي بن أبي طالب؛ روي عن ابن عباس أنَّه قال: هو علي بن أبي طالب[٨]؛ ورويَ عن عليٍّ أنَّه قال: ما من رجلٍ من قريشٍ إلَّا وقد أُنزِلت فيه الآية والآيتان، فقال له رجل: أيُّ شيءٍ نَزَل فيك؟ فقال عليّ: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾[٩].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، زاد المسير ٤/ ٨٦.

(٢) في (ز): أو علي على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦، والنكت والعيون ٢/ ٤٦١.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٠١ - ٣٠٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٠.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، وأخرج قولهما الطبري ١٢/ ٣٥٤.

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٤، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٤ (١٠٧٥٩) والطبراني في الأوسط (٦٨٢٤).

(٨) لم نقف عليه.

(٩) النكت والعيون ٢/ ٤٦١، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٥٦ وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥ (١٠٧٦٤). وقال ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١٢: هو ضعيف لا يثبت قائله.

وقيل: الشاهدُ: صورة رسول الله ﷺ ووجهُه ومخايلُهُ؛ لأنَّ من كان له فضلٌ وعقلٌ؛ فنظر إلى النبيِّ ﷺ؛ عَلِم أنَّه رسول الله ﷺ[1]؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ ﷺ، على قول ابن زيدٍ[2] وغيره.

وقيل: الشاهدُ: القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللَّفظ الواحد؛ قاله الحسين بن الفضل[3]؛ فالهاء في «منه» للقرآن.

وقال الفرَّاء[4]: قال بعضهم: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: الإنجيل، وإن كان قبلَه؛ فهو يتلو القرآن في التصديق[5]؛ والهاء في «منه» لله عزَّ وجلَّ.

وقيل: البيّنة: معرفةُ الله التي أشرقت لها القلوب، والشاهد الذي يتلوه: العقلُ الذي رُكِّب في دماغه، وأشرقَ صدرُه بنوره.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل الإنجيل. ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحاق الزجَّاج[6]: والمعنى: ويتلوه من قبله كتابُ موسى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ موصوفٌ في كتاب موسى؛ ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]. وحكى أبو حاتم عن بعضهم: أنَّه قرأ: «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى» بالنصب؛ وحكاها المهدويّ عن الكَلْبيّ[7]؛ يكون معطوفاً على الهاء في «يَتْلُوهُ»[8]، والمعنى: ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما[9]؛

---

(١) زاد المسير ٤/ ٨٦.

(٢) سلف قوله قريباً.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٧، وزاد المسير ٤/ ٨٦.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ وعنه نقل المصنف كلام الفراء.

(٦) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦.

(٧) القراءات الشاذة ص٥٩.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠١٥ (١٠٧٦٧).

المعنى: ومن قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى. ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضاً من هذا القول أن يُرفع «كتاب» على أن يكون المعنى: ومِن قبله كتابُ موسى كذلك[١]، أي: تلاه جبريلُ على موسى كما تلا القرآن على محمد.

﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال[٢]. ﴿وَرَحْمَةً﴾ معطوف.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى بني إسرائيل، أي: يؤمنون بما في التوراة من البِشارة بك؛ وإنَّما كفر بك هؤلاء المتأخرون[٣]، فهم الذين موعدُهم النار؛ حكاه القشيريّ.

والهاء في «به» يجوز أنْ تكون للقرآن، ويجوز أنْ تكون للنبيِّ ﷺ[٤].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أو بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني من الملل كلِّها؛ عن قَتَادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير[٥]: «الأحزاب»: أهلُ الأديان كلِّها؛ لأنَّهم يتحازبون. وقيل: قريشٌ وحلفاؤهم[٦].

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: هو من أهل النار؛ وأنشد حسان:

أوردتُموها حياضَ الموتِ ضاحيةً ... فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها[٧]

وفي «صحيح مسلم»[٨] من حديث أبي هريرة[٩] عن النبي ﷺ: «والذي نفسُ

---

(١) ينظر زاد المسير ٤/ ٨٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦.

(٣) في (د) و(ز): المفاخرون.

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٨٨. وذكر فيه وجهاً ثالثاً، وهو أن تكون للتوراة.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٢، وزاد المسير ٤/ ٨٨، وأخرج قوليهما الطبري ١٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٦) ذكره الماوردي ٢/ ٤٦٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٨٨ عن السُّدِّي.

(٧) ديوان حسان ص٢٥٩. وفيه: والقتل لاقيها، بدل: والموت لاقيها.
وضاحية: أي وقت الضحى، والضَّحاء: ارتفاع النهار واشتداد وقع الشمس. ينظر لسان العرب (ضحي).

(٨) (١٥٣)، وأخرجه أحمد (٨٦٠٩). وما سيرد بين حاصرتين منهما.

(٩) في (م): أبي يونس، وفي النسخ الخطية: أبي موسى. والمثبت من صحيح مسلم. وأما حديث أبي موسى فقد أخرجه أحمد (١٩٥٣٦) والنسائي في الكبرى (١١١٧٧) بغير هذه السياقة. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ١٥٨.

محمدٍ بيدِه، لَا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ؛ [ثم يموت] ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلَّا كان من أصحاب النار».

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن من الله؛ قاله مقاتل. وقال الكَلْبيّ: المعنى: فلا تكُ في مريةٍ في أنَّ الكافر في النار[١]. «إِنَّه الحَقُّ» أي: القولُ الحقُّ الكائن. والخطابُ للنبي ﷺ، والمرادُ جميع المكلَّفين[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ منهم لأنفسهم؛ لأنَّهم افترَوا على الله كذباً، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أنَّ له شريكاً وولداً[٣]، وقالوا للأصنام: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يحاسبُهم على أعمالهم.

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ يعني: الملائكة الحَفَظة؛ عن مجاهد[٤] وغيره؛ وقال سفيان: سألتُ الأعمش عن «الأَشْهَادُ» فقال: الملائكة[٥]. الضَّحاك: هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[٦] [النساء: ٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلَّغوا الرسالات.

---

(١) قول مقاتل والكلبي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٢، وزاد المسير ٤/ ٨٩.

(٢) قاله الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٢.

(٣) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٧٨، والمحرر الوجيز ٢/ ١٥٩.

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٠٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٧.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٨.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٨.

وقال قتادة: عنى الخلائق أجمع[١]. وفي «صحيح مسلم»[٢] من حديث صفوان بن مُحرِز، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، وفيه قال: «وأمَّا الكفَّارُ والمنافقون فينادَى بهم على رؤوس الخلَائق: هؤلاءِ الذين كَذَبوا على الله».

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بُعدُه وسُخْطه وإبعادُه من رحمته على الذين وضعوا العبادةَ في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أنْ تكون «الَّذِينَ» في موضع خفض نعتاً للظالمين، ويجوز أنْ تكون في موضع رفع، أي: هم الذين[٣]. وقيل: هو ابتداءُ خطاب من الله تعالى، أي: الذين[٤] يصدُّون أنفسهم وغيرَهم عن الإيمان والطاعة.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يعدلون بالنَّاس عنها إلى المعاصي والشرك ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أعاد لفظ «هم» تأكيداً[٥].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يُعجزوني أنْ آمر الأرض فتُخسف بهم[٦].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني: أنصاراً، و«مِنْ» زائدة. وقيل: «ما» بمعنى الذي[٧]، تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٦٧ .

(٢) (٢٧٦٨)، وأخرجه أحمد (٥٤٣٦)، والبخاري (٢٤٤١).

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٦٠ .

(٤) في (م): هم الذين.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٥ .

(٦) في (د) و(ف) و(م): فتنخسف. والمثبت من (ز)، وهو الموافق لما في زاد المسير ٤/ ٩٠ .

(٧) ينظر الدر المصون ٦/ ٣٠٢ .

أولياء من دون الله؛ وهو قولُ ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: على قدر كُفرهم ومعاصيهم ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ «ما» في موضع نصبٍ على أنْ يكون المعنى: بما كانوا يستطيعون السمع، وبما كانوا يبصرون، ولم يستعملوا ذلك في استماع الحقِّ وإبصاره. والعرب تقول: جزيتُهُ ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرَّةً ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه[1]:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعل ما أُمِرتَ بهِ فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون «ما» ظرفاً، والمعنى: يُضَاعف لهم العذاب[2] أبداً، أي: وقتَ استطاعتهم السَّمع والبصر، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبداً. ويجوز أنْ تكون «ما» نافيةً لا موضع لها؛ إذ الكلامُ قد تمَّ قبلها، والوقفُ على العذاب كافٍ؛ والمعنى: ما كانوا يستطيعون في الدنيا أنْ يسمعوا سمعاً ينتفعون به، ولا أنْ يُبصروا إبصارَ مهتد. قال الفرّاء[3]: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأنَّ الله أضلَّهم في اللوح المحفوظ. وقال الزجَّاج[4]: لِبُغضهم النبيَّ ﷺ وعداوتهم له، لا يستطيعون أنْ يسمعوا منه، ولا يفقهوا عنه. قال النحاس[5]: وهذا معروفٌ في كلام العرب؛ يقال: فلانٌ لا يستطيع أنْ ينظر إلى فلانٍ، إذا كان ذلك ثقيلاً عليه.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضَاعَ عنهم افتراؤُهم وتَلِف.

---

(١) في الكتاب ١/ ٣٧ . وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ والكلام منه، وسلف ٤/ ١٢٣ .

(٢) لفظ: العذاب. زيادة من (ظ) وهي موافقة لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٦ .

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٤٥ .

(٥) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٧ . وما قبله منه، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ .

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماء فيه أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه[١]: «لَا جَرَمَ» بمعنى: حَقٌّ، فـ «لا» و«جَرَمَ» عندهما كلمة واحدة، و«أنَّ» عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفرّاء[٢] ومحمد بن يزيد[٣]؛ حكاه النحّاس[٤].

قال المهدويّ: وعن الخليل أيضاً، أنَّ معناها: لابدَّ ولا محالة، وهو قول الفرَّاء[٥] أيضاً؛ ذكره الثعلبيّ.

وقال الزَّجّاج[٦]: «لا» هاهنا نفي، وهو ردٌّ لقولهم: إنَّ الأصنامَ تنفعُهم، كأنَّ المعنى: لا ينفعهم ذلك، و«جَرَمَ» بمعنى: كَسَب، أي: كَسَبَ ذلك الفعلُ لهم الخسران، وفاعل كسب مُضمر، و«أنَّ» منصوبةٌ بجَرَم[٧]، كما تقول: كَسَبَ جفاؤُك زيداً غضبَه عليك. وقال الشاعر:

نَصبنا رأسَه في رأس جِذْعٍ[٨] ... بما جَرَمَتْ يداه وما اعْتَدينا[٩]

أي: بما كسبت.

وقال الكسائيّ: معنى «لَا جَرَمَ»: لا صَدَّ ولا مَنْع عن أنَّهم[١٠].

وقيل: المعنى: لا قَطَعَ قاطعٌ، فحذفَ الفاعل حين كَثُر استعماله[١١].

---

(١) ذكره في الكتاب ٣/١٣٨ على أنه قول المفسرين.

(٢) في معاني القرآن له ٢/٨ .

(٣) هو المبرّد، وكلامه في المقتضب ٢/ ٣٥١ .

(٤) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٧ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/٨ .

(٦) في معاني القرآن له ٣/٤٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ . وما قبله منه.

(٨) في (م) و(ظ): والنكت والعيون ٢/ ٤٦٤ : نصبنا رأسه في جذع نخل. والمثبت من (ز) و(د) و(ف) وهو الموافق لما في المصادر الآتية.

(٩) ورد في الزاهر لابن الأنباري ١/ ٢٧٢ ، وأمالي المرتضى ١/ ١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٢٨٦ دون نسبة.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(١١) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٢٩ .

والجَرْم: القَطْع؛ وقد جَرَمَ النَّخْلَ واجترَمَه، أي: صَرَمه، فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّمٌ، وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة، أي: جززتُه، وقد جَرَمتُ منه: إذا أخذتَ منه؛ مثل: جَلَمْتُ الشيءَ جَلْماً، أي: قطعتُه[1]، وجَلَمتُ الجزورَ أجلِمُها جَلْماً: إذا أخذتَ ما على عظامها من اللَّحم، وأخذتُ الشيء بجَلْمتِه ـ ساكنة اللام ـ إذا أخذتَه أجمع، وهذه جَلَمة الجزور ـ بالتحريك ـ أي: لحمُها أجمع. قاله الجوهريّ[2].

قال النَّحاس[3]: وزعم الكسائيُّ أنَّ فيها أربعَ لغات: لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَم، ولا أنْ ذا جَرَم، قال: وناسٌ من فَزَارة يقولون: لا جَرَ أنَّهم، بغير ميم. وحكى الفرّاء فيه لغتين أُخريين قال: بنو عامرٍ يقولون: لا ذا جَرَمَ، قال: وناسٌ من العرب يقولون: لا جُرْم بضم الجيم[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ «الذين» اسمُ «إنَّ»، «آمَنُوا» صلة؛ أي: صدَّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصلة[5].

قال ابن عباس: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ﴾: أنابوا[6]. مجاهد: أطاعوا[7]. قَتَادة: خشَعوا

---

(١) في (ظ) و(م) قطعت، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح وسقط في (ز) من قوله: الشيء جلماً... إلى قوله قاله الجوهري.

(٢) في الصحاح (جرم) (جلم).

(٣) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٨ - ٩ ، وليس فيه القول الثاني، وحكى القولين عنه النحاس في إعراب ٢/ ٢٧٨ . وينظر أمالي المرتضى ١/ ١١٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٧٤ .

(٧) لم نقف على قول مجاهد بهذا اللفظ، والذي في تفسير مجاهد ١/ ٣٠٢ وتفسير الطبري ١٢/ ٣٧٥ وزاد المسير ٤/ ٩٣ : أخبتوا: اطمأنوا .

وخضَعوا[١]. مقاتل: أخلصوا[٢]. الحسن: الإخباتُ: الخشوعُ للمخافة الثابتة في القلب.

وأصلُ الإخبات: الاستواء، من الخَبْت، وهو الأرضُ المستوية الواسعة. فالإخباتُ: الخشوعُ أو الاطمئنان، أو: الإنابةُ إلى الله عزَّ وجلَّ، المستمرّة[٣]، وذلك[٤] على استِواء[٥].

«إِلَى رَبِّهِمْ» قال الفرّاء[٦]: إلى ربِّهم ولربِّهم، واحد، وقد يكون المعنى: وجَّهوا إخباتَهم إلى ربهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ خبر «إِنَّ»[٧].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداء، والخبر ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ﴾ وما بعده. قال الأخفش[٨]: أي: كمثل الأعمى.

النحاس[٩]: التقديرُ: مَثَلُ فريق الكافر كالأعمى والأصمّ، ومثلُ فريق المؤمن كالسميع والبصير، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردَّ إلى الفريقين وهما اثنان؛ رُوي معناه عن قَتادة وغيره[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٧٥.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٩٣.

(٣) في (ز) و(ظ): المستمر.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ذلك. والمثبت من (ظ).

(٥) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٣٤.

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٩ - ١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨.

(٧) قوله: «أصحاب الجنة» سقط من النسخ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٨.

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٥٧٦.

(٩) في إعراب القرآن له ٢/ ٢٧٨ وما قبله منه.

(١٠) في النسخ: مَثَلُ فريق الكافر كالأصم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

قال الضَّحَّاك: الأعمى والأصمُّ مثلٌ للكافر، والسميع والبصير مثلٌ للمؤمن[١].

وقيل: المعنى: هل يستوي الأعمى والبصير، وهل يستوي الأصمُّ والسميع؟ ﴿مَثَلًا﴾ منصوبٌ على التفسير[٢] ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ في الوصفين وتنظرون؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ذكَر سبحانَه قصصَ الأنبياء عليهم السلام للنبي ﷺ تنبيهاً له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أنْ يكفيَه اللهُ أمرَهم.

﴿إِنِّي﴾ أي: فقال: إني؛ لأنَّ في الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائيُّ: «أَنِّي» بفتح الهمزة[٣]، أي: أرسلناه بأني لكم نذيرٌ مبين[٤].

ولم يقل: «إنه»؛ لأنه رجع من الغَيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف:١٤٥][٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: اتركوا الأصنام فلا تعبدوها، وأطيعوا الله وحده. ومَن قرأ: «إنّي» بالكسر جعله معترِضاً في الكلام، والمعنى: أرسلناه بألَّا تعبدوا إلا الله[٦]. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١.

(٢) في (م): التمييز، وهما بمعنى. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٦٢.

(٣) السبعة ص٣٣٢، والتيسير ص١٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧٩ والكلام منه.

(٤) الحجة للفارسي ٤/ ٣١٥، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٥. قال مكي: لأن «أرسل» يتعدى إلى مفعولين، الثاني بحرف جر.

(٥) ينظر الحجة للفارسي ٤/ ٣١٥.

(٦) ينظر الحجة ٤/ ٣١٦، والبحر ٥/ ٢١٤.

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قال أبو إسحاقَ الزجَّاج: الملأ الرؤساء؛ أي: هم مليئون بما يقولون[١]. وقد تقدّم هذا في «البقرة»[٢] وغيرِها. ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ أي: آدميًا ﴿مِّثْلَنَا﴾ نصبٌ على الحال[٣]. و«مثلَنا» مضافٌ إلى معرفة، وهو نكرةٌ يقدَّرُ فيه التنوينُ[٤]، كما قال الشاعر:

يـا رُبَّ مِـثْـلِـكِ فـي الـنِّـسـاءِ غَـريـرَةٍ[٥]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أَراذل جمع أَرْذُل، وأَرْذُل جمع رَذْل، مثلُ كَلْب وأَكْلُب وأَكَالب[٦]. وقيل: الأراذل جمع الأَرْذَل[٧]، كأَسَاود جمع الأَسْوَد من الحيَّات. والرَّذْل: النَّذْل. أرادوا: اتَّبعك أَخِسَّاؤنا وسَقَطُنا[٨] وسَفِلَتُنا.

قال الزجَّاج[٩]: نَسَبوهم إلى الحِياكة [والحِجامة]، ولم يعلموا أنَّ الصناعاتِ لا

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩ . ووقع عند الزجاج: مَلاءٌ بالرأي وبما يُحتاج إليه منهم، بدل: مليئون بما يقولون.

(٢) ٤/ ٢٢٨ .

(٣) سياق الكلام عند المصنف رحمه الله قد يوهم أن المنصوب على الحال هو قوله: «مثلنا»، وإنما المنصوب على الحال هو قوله: «بشراً». وهذا على اعتبار أن الفعل من رؤية العين، ويجوز أن يكون الفعل من رؤية القلب، فيكون: «بشراً» المفعول الثاني. والأمر كذلك في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾. وأما قوله: «مثلنا»، فمنصوب على النعت. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ ، والإملاء للعكبري ٣/ ٢٦٧ (بهامش الفتوحات الإلهية)، وروح المعاني للآلوسي ١٢/ ٣٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ .

(٥) وعجزُه: بيضاء قد متَّعتُها بطلاق، والبيت لأبي محجن الثقفي كما في الكتاب ١/ ٤٢٧ و ٢/ ٢٨٦ ، وشرح الشواهد للشنتمري ص٢٤٢ و ٣٤٦ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ١٢٦ ، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ٢٨٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٩ . قال الشنتمري: الشاهد فيه إضافة رب إلى مثلك؛ لأنها نكرة وإن كانت بلفظ المعرفة. والغريرة: المغترة بلين العيش، الغافلة عن صروف الدهر.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٠ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٦٣ .

(٨) في (ظ): وسقطتنا.

(٩) في معاني القرآن ٤/ ٩٥ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أثرَ لها في الدِّيانة.

قال النحاس[١]: الأراذل همُ الفقراءُ، والذين لا حَسَبَ لهم، والخسيسو الصناعاتِ. وفي الحديث: «إنَّهم كانوا حاكَةً وحَجَّامين»[٢]. وكان هذا جهلاً منهم؛ لأنهم عابوا نبيَّ الله ﷺ بما لا عيبَ فيه؛ لأنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله وسلامُه عليهم إنما عليهم أنْ يأتُوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغييرُ الصُّورِ والهيئات، وهم يُرسَلونَ إلى الناس جميعاً، فإذا أسْلَمَ منهم الدَّنيءُ، لم يلْحَقْهم من ذلك نقصانٌ؛ لأنَّ عليهم أن يقبلوا إسلامَ كلِّ مَنْ أسلَمَ منهم.

قلت: الأراذلُ هنا هم الفقراءُ والضعفاء، كما قال هِرَقْلُ لأبي سفيانَ: أشرافُ الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤُهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباعُ الرسل[٣].

قال علماؤنا: إنَّما كان ذلك لاستيلاء الرياسةِ على الأشراف، وصعوبةِ الانفكاك عنها، والأَنَفةِ من الانقيادِ للغير؛ والفقيرُ خَلِيٌّ عن تلك الموانعِ، فهو سريعٌ إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالبُ أحوالِ أهل الدنيا[٤].

الثالثة: اختلف العلماء في تعيين السَّفِلَة على أقوال:

فذكر ابنُ المبارك عن سفيانَ: أنَّ السَّفِلَة هم الذين يَتَقلَّسون[٥]، ويأتون أبوابَ القضاةِ والسلاطين يطلبون الشهادات.

وقال ثعلبٌ عن ابن الأعرابي: السَّفِلَة: الذينَ يأكلونَ الدنيا بدينهم؛ قيل له: فَمَن

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٧٩ .

(٢) لم نقف عليه عند غير النحاس، وسيذكره المصنف في المسألة التالية عن ابن عباس قوله. ذكره الألوسي في روح المعاني ١٩/ ١٠٧ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المفهم ٣/ ٦٠٤ .

(٥) في (ظ): ينقلبون. والتقليس: استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو. اللسان (قلس)، والخبر في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار للزمخشري ٢/ ٤٦٧ .

سَفِلَةُ السَّفِلَة؟ قال: الذي يُصْلِحُ دنيا غيرِه بفسادِ دينه[١].

وسُئل عليٌّ ﷺ عن السَّفِلَة فقال: الذين إذا اجتمعوا غَلَبوا، وإذا تفرَّقوا لم يُعرَفُوا.
وقيل لمالكِ بنِ أنسٍ ﷺ: مَن السَّفِلَة؟ قال: الذي يَسُبُّ الصحابةَ[٢].

ورُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: الأرذلون: الحاكَةُ والحجَّامون.

يحيى بنُ أكْثَم: الدَّباغ والكنَّاس إذا كان من غير العرب[٣].

الرابعة: إذا قالت المرأة لزوجها: يا سَفِلةُ! فقال: إن كنتُ منهم فأنتِ طالق، فحكى النقاشُ أنَّ رجلاً جاء إلى التِّرمذيِّ فقال: إنَّ امرأتي قالت لي: يا سَفِلة، فقلت: إن كنتُ سَفِلةً فأنتِ طالقٌ. قال التِّرمذيُّ: ما صناعتُك؟ قال: سمَّاكٌ، قال: سَفِلةٌ واللهِ، سَفلةٌ والله.

قلت: وعلى ما ذكره ابنُ المبارك عن سفيانَ لا تَطْلُقُ، وكذلك على قول مالك وابنِ الأعرابيِّ لا يَلْزَمُه شيءٌ.

قوله تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾. أي: ظاهرَ الرأي، وباطِنُهم على خلافِ ذلك[٤].

يقال: بدا يبدو: إذا ظهر، كما قال:

فـالـيـوم حـيـن بَـدَوْنَ لـلـنُّـظَّـارِ[٥]

ويقال للبرِّية: باديةٌ؛ لظهورها. وبدا لي أنْ أفعلَ كذا، أي: ظهرَ لي رأيٌ غيرُ

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٤٦٧ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٩٣٣) عن مالك بن أنس أنه هو المسؤول.

(٢) ذكر الخبرين السالفين الزمخشري في ربيع الأبرار ٢/ ٤٨٧ و ٤٦٨ .

(٣) ربيع الأبرار ٢/ ٤٦٨ .

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ص٣٨٣ ، والمعنى: اتبعوك في ظاهر أمرهم، وعسى أن تكون بواطنهم ليست معك. البحر ٥/ ٢١٥ . وقال الفارسي في الحجة ٤/ ٣١٧ : المعنى: وما اتبعك إلا الأراذل فيما ظهر لهم من الرأي، أي: لم يتعقَّبوه بنظرٍ فيه ولا تبيُّنٍ له.

(٥) وصدره: قد كنَّ يَخْبَأْنَ الوجوهَ تَسَتُّراً، وقائله الربيع بن زياد كما في الأغاني ٧/ ١٩٦ ، والتعازي والمراثي للمبرد ص٢٨٠ ، وشروح سقط الزند ١/ ٥٢ ، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٢٦ ، وفيه: بَرَزْنَ، بدل: بَدَوْنَ.

الأول. وقال الأزهري[١]: معناه: فيما يبدو لنا من الرأي. ويجوز أن يكون «بَادِيَ الرَّأْي» من بدأ يبدأُ، وحذف الهمزةَ.

وحَقَّقَ أبو عمرو الهمزةَ فقرأ: «بَادِئَ الرأي»[٢] أي: أوَّلَ الرأي، أي: اتَّبعوك حين ابتدؤوا ينظرون، ولو أمْعَنوا النَّظَرَ والفِكْرَ لم يتَّبعوك. ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وتَركِ الهمز[٣]. وانتصبَ على حذف «في»، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥][٤].

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ أي: في اتِّباعه، وهذا جَحْدٌ منهم لنبوَّتِه ﷺ. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ الخطابُ لنوحٍ ومَن آمنَ معه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على يقين؛ قاله أبو عِمرانَ الجونيّ[٥]. وقيل: على معجزةٍ، وقد تقدَّم في «الأنعام» هذا المعنى[٦].

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/ ٢٠٣.

(٢) السبعة ص٣٣٢، والتيسير ص١٢٤.

(٣) وقال الفارسي في الحجة ٤/ ٣١٧ - ٣١٨: وابتداء الشيء يكون ظهوراً، وإن كان الظهور قد يكون ابتداءً وغيرَ ابتداءٍ، فلذلك تُستعمل كلُّ واحدة من الكلمتين في موضع الأخرى.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠.

(٥) أورده عنه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٥ بلفظ: على ثقة. بدل: على يقين. وكذا أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٣ (١٠٨١٧).

(٦) ٨/ ٣٩٨.

﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: نبوَّةً ورسالة؛ عن ابن عباس[١]؛ وهي رحمةٌ على الخلق. وقيل: الهدايةُ إلى الله بالبراهين. وقيل: الإيمان[٢] والإسلام.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عَمِيتْ عليكم الرسالةُ والهدايةُ فلم تفهموها. يقال: عَمِيتُ عن كذا، وعَمِيَ عليَّ كذا، أي: لم أفهمْه. والمعنى: فَعمِيت الرحمةُ. فقيل: هو مقلوبٌ؛ لأنَّ الرحمةَ لا تَعمَى إنَّما يُعمَى عنها، فهو كقولك: أدخلتُ القَلَنْسُوة في رأسي[٣]، ودخَلَ الخفُّ في رجلي.

وقرأها الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بضمِّ العين وتشديد الميم على ما لم يُسمَّ فاعِلُه[٤]، أي: فعمَّاها الله عليكم، وكذا في قراءة أُبيٍّ: «فعَمَّاها»؛ ذكرها الماوَرْديّ[٥].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ قيل: شهادةُ أن لا إله إلا الله. وقيل: الهاءُ تَرجِعُ إلى الرحمة. وقيل: إلى البيِّنة، أي: أنلزمُكم قَبولها، وأُوجبُها عليكم[٦]؟! وهو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: لا يُمكِنني أن أَضْطَرَّكم إلى المعرفة بها، وإنَّما قَصَدَ نوحٌ عليه السلام بهذا القولِ أن يردَّ عليهم.

وحكى الكسائيُّ والفرَّاءُ[٧]: «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفاً، وقد

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/٤٦٦ .

(٢) في (م): بالإيمان.

(٣) في (د) و(ف) و(م): أدخلت في القلنسوة رأسي، وفي (ظ): أدخلت القلنسوة رأسي، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من الحجة للفارسي ٤/ ٣٢٢ والكلام منه، والمحرر الوجيز ٣/ ١٦٤ ، والبحر ٥/ ٢١٦ ، والدر المصون ٦/ ٣١٤ . وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٧ : ويجوز أن يكون معنى «عَميت»: خَفِيَت، فلا يكون فيه قلب.

(٤) وهي قراءة عاصم من رواية حفص أيضاً. السبعة ص٣٣٢ ، والتيسير ص١٢٤ . وذكرها عن الأعمش الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ١٢ .

(٥) في النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ ، وذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٩ . وذكرها الطبري ١٢/ ٣٨٢ عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) ذكر هذا القول والذي قبله الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٦ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٢ ، ونقله المصنف عنه وعن الكسائي بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٠ .

أجاز مثلَ هذا سيبويهِ، وأنشد:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللهِ ولَا واغِلِ[(١)]

وقال النحاس[(٢)]: ويجوزُ على قول يونسَ [في غير القرآن]: أنلزِمْكُمْها، يُجري المضمَر مُجرَى المُظْهَر؛ كما تقول: أنلزمُكمْ ذلك.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي: لا يصِحُّ قَبولُكم لها معَ الكراهة عليها. قال قتادةُ: والله لو استطاع نبيُّ الله نوحٌ عليه السلام لألزمها قومَه، ولكنَّه لم يملكْ ذلك[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على التبليغِ، والدعاءِ إلى الله، والإيمانِ به، أجراً، أي: ﴿مَالًا﴾ فيثقلَ عليكم. ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ثوابي في تبليغِ الرسالة. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ سألوه أنْ يطردَ الأراذلَ الذين آمنوا به، كما سألت قريشٌ النبيَّ ﷺ أنْ يطرُدَ المواليَ والفقراءَ، حَسْبَ ما تقدَّمَ في «الأنعام» بيانُه[(٤)]. فأجابَهم بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ يَحتمِلُ أن يكون قال هذا على وجهِ الإعظامِ لهم بلقاء الله عزَّ وجلَّ، ويَحتمِلُ أن يكون قاله على وجهِ الاختصام، أي: لو فعلتُ ذلك لخاصموني عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازي مَن طردهم. ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في استرذالِكم لهم، وسؤالِكم طردَهم[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرَّاء[(٦)]: أي: يمنعني من عذابه. ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: لأجْل إيمانهم. ﴿أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ﴾ أُدغِمَت التاء في الذال. ويجوز

---

(١) الكتاب ٤/ ٢٠٤، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٢٢ برواية: فاليوم أُسقى. وسلف ٢/ ١١٢.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٦، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٣٨٣. وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٣ (١٠٨١٩).

(٤) ٨/ ٣٨٧ وما بعدها.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ١٣.

حذفُها فتقول: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلُّله وتواضُعِه لله عزَّ وجلَّ، وأنه لا يدَّعي ما ليس له من خزائن الله، وهي إنعامُه على مَن يشاء من عباده. وأنه لا يعلم الغيب؛ لأنَّ الغيبَ لا يعلمُه إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي: لا أقول إنَّ منزلتي عند الناس منزلةُ الملائكة. وقد قالت العلماءُ: الفائدةُ في الكلام: الدلالةُ على أنَّ الملائكةَ أفضلُ من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصالِ عبادتِهم إلى يوم القيامة، صلواتُ الله عليهم أجمعين[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[٣].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تستَقِلُّ[٤] وتحتقرُ أعينُكم، والأصلُ: تزدريهم، حُذِفت الهاءُ والميمُ لطول الاسم. والدَّالُ مبدلَةٌ من تاء؛ لأنَّ الأصلَ في تزدري: تَزْتَرِي، ولكنَّ التَّاءَ تُبْدَلُ بعدَ الزاي دالاً؛ لأنَّ الزَّايَ مَجْهورةٌ والتاءَ مهموسةٌ، فأُبدلَ من التاء حرفٌ مجهورٌ من مخرجها[٥]. ويقال: أَزْرَيتُ عليه: إذا عِبتَه، وزرَيتُ عليه: إذا حقَّرتَه[٦]. وأنشد الفرَّاء:

يُباعِدُه الصَّدِيقُ وتَزْدَريهِ حَليلتُه ويَنْهَرُه الصَّغيرُ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠ ، وقرأ «تَذَكَّرون» بتخفيف الذال حيث وقع إذ كان بالتاء، حفص وحمزة والكسائي، وشدَّدها الباقون. التيسير ص١٠٨ ، وينظر السبعة ص٢٧٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) ١/ ٤٣٠ وما بعدها.

(٤) في (م): تستثقل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ .

(٦) ينظر الكامل للمبرد ٢/ ٥٠٦ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٦٨ .

(٧) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٩١ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٤٢ ، والبيان والتبيين ١/ ٢٣٤ برواية: ويُقصَى في النَّديِّ وتزدريه...، وفي العقد الفريد ٣/ ٢٩ برواية: يباعده القريب...، وهو في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ موافق لرواية المصنف.

﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: ليس لاحتقاركم لهم تَبْطُلُ أجورُهم، أو يَنقُصُ ثوابُهم. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذُهم به. ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن قلتُ هذا الذي تقدَّمَ ذكرُه[١]. و«إذاً» ملغاةٌ؛ لأنها متوسطة[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: خاصمتَنا فأكثرت خصومتَنا وبالغتَ فيها. والجَدَلُ في كلام العرب: المبالغةُ في الخصومة، مشتقٌّ من الجَدْل، وهو شدَّةُ الفَتْل. ويقال للصقر أيضاً: أَجْدَلُ؛ لشدَّته في الطَّير[٣]، وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام»[٤] بأشبعَ من هذا. وقرأ ابن عباس: «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا». ذكره النحاس[٥].

والجَدَلُ في الدِّين محمود؛ ولهذا جادلَ نوحٌ والأنبياءُ قومَهم حتى يَظهرَ الحقُّ، فمَن قَبِله أَنْجحَ وأفْلَحَ، ومَن ردَّه خابَ وخَسِر. وأمَّا الجِدالُ لغير الحقِّ حتى يَظهرَ الباطلُ في صورةِ الحقِّ فمذمومٌ، وصاحبُه في الدَّارين مَلُوم.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: مِنَ العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٩ وفيه: لأنه من أشدّ الطير، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١ ، وعنه نقل المصنف.

(٤) ٩/ ١٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨١ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٢١ عن ابن عباس وأيوب السختياني.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي: إن أراد إهلاكَكُم عذَّبكم. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين[1]. وقيل: بغالبينَ بكَثْرَتكم؛ لأنهم أُعجبوا بذلك؛ كانوا مَلؤوا الأرضَ سهلاً وجبلاً على ما يأتي[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾ أي: إبلاغي واجتهادي في إيمانكم ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: لأنكم لا تَقبلون نُصحاً، وقد تقدَّم في «براءة»[3] معنى النُّصْحِ لغةً.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: يُضِلَّكم. وهذا مما يدلُّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَريَّة ومَن وافقهما؛ إذ زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يريدُ أن يَعصيَ العاصي، ولا يَكفرَ الكافرُ، ولا يَغوَى الغاوي، وأنه يفعلُ ذلك واللهُ لا يريد ذلك؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾. وقد مضى هذا المعنى في «الفاتحة» وغيرِها[4]. وقد أَكْذَبوا شيخَهم اللعينَ إبليسَ على ما بيَّنّاه في «الأعراف»[5] في إغواء الله تعالى إيّاه حيثُ قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف:١٦]، ولا محيصَ لهم عن قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، فأضاف إغواءَهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادي والمُضِلُّ، سبحانه عمَّا يقول الجاحدون والظالمون عُلُوًّا كبيراً.

وقيل: «أَنْ يُغْوِيَكُمْ»: يُهلكَكم؛ لأنَّ الإضلالَ يُفضي إلى الهلاك. الطَّبريّ[6]: «يُغْوِيَكُمْ»: يهلكَكم بعذابه؛ حُكي عن طيِّئ: أصبح فلانٌ غاوياً، أي: مريضاً، وأغويته: أهلكته، ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فإليه الإغواءُ، وإليه الهدايةُ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يَعنونَ النبيَّ ﷺ. افترى: افتعل، أي: اختلَقَ

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨١.

(٢) ص١١٠ من هذا الجزء.

(٣) ٨/ ٢٢٦.

(٤) ١/ ٢٣٠ و ٢٨٥، و ٥/ ٣١، وغيرها.

(٥) ٩/ ١٧١ - ١٧٢.

(٦) في تفسيره ١٢/ ٣٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٤٥.

القرآنَ من قِبَل نفسِه، وما أخبرَ به عن نوحٍ وقومِه؛ قاله مقاتل[١].

وقال ابن عباس: هو من محاورةِ نوحٍ لقومه[٢]. وهو أظهرُ؛ لأنه ليس قَبْلَه ولا بعدَه إلا ذِكْرُ نوحٍ وقومِه، فالخطابُ منهم ولهم.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ أي: اختلقتُه وافتعلتُه، يعني الوحيَ والرسالة. ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: عقابُ إجرامي. وإنْ كنتُ مُحِقًّا فيما أقولُه فعليكم عقابُ تكذيبي. والإجرامُ مصدرُ أَجْرَمَ؛ وهو اقترافُ السَّيئة. وقيل: المعنى: أي جزاءُ جُرْمي وكَسْبي. وجَرَم وأَجْرَم بمعنًى، عن النحاس وغيرِه[٣]. قال:

طَـريـدُ عَـشـيـرةٍ ورَهـيـنُ جُـرْمٍ بـمـا جَـرَمَـتْ يَـدِي وجَـنَـى لِـسَـانـي[٤]

ومَن قرأ: «أَجْرَامي» بفتحِ الهمزة؛ ذهبَ إلى أنه جمعُ جُرْم؛ وذكره النحاس أيضاً[٥]. ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ «أنه» في

---

(١) ذكره البغوي ٢/ ٣٨١، وقال بهذا القول أيضاً الطبري ١٢/ ٣٨٩، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨.

(٢) ذكره البغوي ٢/ ٣٨١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٩.

(٤) قائله الهَيْرُدَان السعديُّ كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٨٨ برواية: ورهين ذنب، وهو في النكت والعيون ٢/ ٤٦٨ دون نسبة موافق لرواية المصنف. وذكره أبو الفرج في الأغاني ٢/ ١٩١ عن الشاعر التَّوري برواية:

طـريـد عـشـيـرة وطـريـد حـرب بـمـا اجـتـرمـت يـدي...

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٦، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣، وللزجاج ٣/ ٤٩، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ عن الفراء.

موضع رفعٍ على أنه اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. ويجوزُ أنْ يكون في موضع نصب، ويكونُ التقديرُ: بأنه[(١)]. و«آمَنَ» في موضعِ نصبٍ بـ «يؤمن»[(٢)]. ومعنى الكلامِ الإياسُ من إيمانهم، واستدامةُ كفرهم، تحقيقاً لنزول الوعيد بهم. قال الضحَّاك: فدعا عليهم لمَّا أُخْبِرَ بهذا فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيتين [نوح:٢٦-٢٧][(٣)].

وقيل: إنَّ رجلاً من قوم نوحٍ حمَلَ ابنَه على كتفه، فلمَّا رأى الصبيُّ نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً؛ فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلامُ فأدماه؛ فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[(٤)].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي فلا تغتَمَّ بهلاكِهم حتى تكونَ بائساً، أي: حزيناً. والبؤسُ: الحزنُ، ومنه قولُ الشاعر:

وكم مِن خليلٍ أو حميمٍ رُزِئتُه ... فلم أبتئسْ والرُّزْءُ فيه جَلِيلُ[(٥)]

يقال: ابتأسَ الرجلُ: إذا بلغَه شيءٌ يكرهُه. والابتئاسُ: حُزْنٌ في استكانة.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: اعمل السفينةَ لتركبَها أنتَ ومَن آمَنَ معك. «بِأَعْيُنِنَا» أي: بمرأى منَّا وحيثُ نراك[(٦)]. وقال الرَّبيع بنُ أنس: بحفظِنا، [والتأويل: بحفظنا] إياكَ حِفظَ مَن يَراك[(٧)]. وقال ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ .

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والواقع أن قوله: «آمن»، صلة الموصول، وقوله: «مَنْ قد آمن» في موضع رفع بـ«يؤمن». ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦١ ، وإملاء العكبري ٣/ ٢٧٣ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وأخرج خبر الضحاك الطبري ١٢/ ٣٩١ .

(٤) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٦ ، والبغوي ٢/ ٣٨٢ ، وابن الجوزي ٤/ ١٠١ قصة بمعنى هذه القصة، ولم نقف عليها بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وذكره أبو حيان ٥/ ٢٢٠ برواية: نبتئس، بدل: أبتئس.

(٦) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٢ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ١٦٦ : يريد: بمرأى منا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ.

(٧) الوسيط ٢/ ٥٧٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر خبر الربيع أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٠١ .

بحراستنا، والمعنى واحد.

فعبَّر عن الرؤيةِ بالأعين؛ لأنَّ الرؤيةَ تكونُ بها[١]. ويكون جمعُ الأعينِ للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣] ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]. وقد رجع[٢] معنى الأعينِ في هذه الآيةِ وغيرِها إلى معنى عين؛ كما قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، وذلك كلُّه عبارةٌ عن الإدراكِ والإحاطةِ، وهو سبحانه منزَّه عن الحواسِّ والتشبيه والتكييف، لا ربَّ غيرُه.

وقيل: المعنى: «بِأَعْيُنِنَا»، أي: بأعينِ ملائكتِنا الذين جعلناهم عيوناً على حِفظك ومعونتك، فيكونُ الجمعُ على هذا التكثير على بابه.

وقيل: «بِأَعْيُنِنَا» أي: بعلمنا؛ قاله مقاتل[٣]. وقال الضَّحَّاك وسفيان: «بِأَعْيُنِنَا»: بأمرنا. وقيل: بوَحْيِنا. وقيل: بمعونتِنا لك على صُنْعها. «وَوَحْيِنَا» أي: على ما أوحينا إليك مِن صنعتها. ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: لا تطلبْ إمهالَهم فإنِّي مُغْرِقُهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي: وَطفِقَ يصنعُ. قال زيدُ بنُ أسلم: مكَثَ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٦٩ ، وحقُّ هذا الكلام أن يذكر إثر أول قول ذكره المصنف، وهو قوله: بمرأى منا، وكذا ذكره الماوردي.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): وقد يرجع، والمثبت من (ظ). ووقع في المحرر الوجيز ٣/ ١٦٩ (والكلام منه): فرجع.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٢ .

نوحٌ ﷺ مئةَ سنةٍ يَغرِسُ الشَّجرَ ويَقطعُها ويُيبِّسها، ومئةَ سنةً يعملُها[١].

وروَى ابنُ القاسم عن ابنِ أشرسَ عن مالكٍ قال: بلغني أنَّ قومَ نوحٍ مَلَؤوا الأرضَ، حتى مَلَؤوا السّهلَ والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يصعدوا إلى هؤلاء، فمكث نوحٌ يَغرس الشجرَ مئة عامٍ لعمل السَّفينة، ثم جمعها يُيبِّسُها مئةَ عام، وقومُه يسخَرون، وذلك لما رأَوه يصنعُ من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان[٢].

ورُوِيَ عن عمرو بنِ الحارث قال: عملَ نوحٌ سفينته ببقاعِ دمشقَ، وقطَع خشبَها من جبل لبنانَ[٣].

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ: لمَّا استنقذ الله سبحانَه وتعالى مَن في الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحَى الله إليه: أنه لن يؤمنَ مِن قومك إلّا مَنْ قد آمنَ، فاصنع الفُلك. قال: يا ربِّ! ما أنا بنجَّار. قال: بلى، فإنَّ ذلك بعيني. فأخذ القَدُوم فجعلَه بيده، وجعلتْ يدُه لا تُخطئ، فجعلوا يمرُّون به ويقولون: هذا الذي يزعمُ أنه نبيٌّ صار نجَّاراً؛ فعَمِلَها في أربعين سنة[٤].

وحكى الثَّعلبيُّ وأبو نصر القُشَيريُّ عن ابن عباس قال: اتخذَ نوحٌ السفينةَ في سنتين[٥]. زاد الثَّعلبيُّ: وذلك لأنه لم يعلمْ كيف صنعةُ الفُلْك، فأوحى الله إليه أن اصنعها كجُؤْجُؤ الطائر[٦]. وقال كعب[٧]: بناها في ثلاثين سنة، واللهُ أعْلَمُ. المَهْدَويُّ: وجاء في الخبر أنَّ الملائكةَ كانت تُعلِّمه كيف يصنعُها.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٧٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٦ (١٠٨٤٦).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٥ - ١٠٤٦ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٦ . وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٧ (١٠٨٤٧) عن كعب الأحبار.

(٥) ذكره البغوي ٢/ ٣٨٢ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٢ ، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٥ (١٠٨٣٣). والجؤجؤ: الصدر. النهاية (جؤجؤ).

(٧) هو كعب الأحبار، وكلامه في تفسير البغوي ٢/ ٣٨٣ .

واختلفوا في طولها وعرضها؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان طولُها ثلاثَ مئة ذراع، وعرضُها خمسون، وسمكُها ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب السَّاج[1]. وكذا قال الكَلْبيُّ وقَتادةُ وعِكْرمةُ: كان طولها ثلاثَ مئة ذراع. والذِّراعُ إلى المَنْكِب؛ قاله سلمانُ الفارسيّ[2].

وقال الحسنُ البصريُّ: إنَّ طولَ السَّفينةِ ألفُ ذراعٍ ومئتا ذراع، وعرضَها ستُّ مئة ذراع[3].

وحكى[4] الثّعلبيُّ في كتاب «العرائس»[5]: روَى عليُّ بنُ زيدٍ، عن يوسفَ بن مِهرانَ، عن ابن عباس قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: لو بعَثْتَ لنا رجلاً شهدَ السفينةَ يحدِّثنا عنها. فانطلقَ بهم حتى انتهى إلى كَثِيبٍ من ترابٍ، فأخذَ كفًّا من ذلك التراب، قال: أتدرونَ ما هذا؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ! قال: هذا قبر سامِ بنِ نوح[6]، قال: فضربَ الكثيبَ بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائمٌ ينفضُ التراب عن رأسه وقد شابَ[7]، فقال له عيسى: أهكذا هلكْتَ؟ قال: لا، بل مِتُّ وأنا شابٌّ، ولكنني ظننتُ أنها الساعةُ، فمن ثَمَّ شِبتُ. قال: أَخبرْنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولُها ألفَ ذراع ومئتي ذراع، وعرضُها ستَّ مئة ذراع، وكانت ثلاثَ طبقات؛ طبقة فيها الدوابُّ والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. وذَكَر باقيَ الخبرِ

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٤ عن قتادة. والساج: شجر يعظم جدًّا، ويذهب طولاً وعرضاً، يتغطى الرجل بورقة منه فتكنه من المطر. اللسان (سوج).

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٥.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف) و(م): وحكاه، والمثبت من (د).

(٥) ص٦٠، وأخرجه الطبري في التفسير ١٢/ ٣٩٥، وفي التاريخ ١/ ١٨١.

(٦) في العرائس: هذا سام بن نوح، وفي تفسير الطبري: هذا كعب حام بن نوح، وفي التاريخ: هذا قبر حام بن نوح.

(٧) في النسخ الخطية: وقد شاخ، والمثبت من (م) والمصادر.

على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى[١].

وقال الكَلْبيُّ فيما حكاه النقاش: ودخل الماءُ فيها أربعةَ أذرُع، وكان لها ثلاثةُ أبواب؛ بابٌ فيه السِّبَاع والطير، وبابٌ فيه الوحش، وبابٌ فيه الرجال والنساء.

ابن عباس: جعلها ثلاثَ بطون؛ البطنُ الأسفلُ للوحوش والسباع والدوابّ، والأوسَطُ للطعام والشراب، ورَكِبَ هو في البطن الأعلى، وحمل معه جسَدَ آدمَ عليه السلامُ معترِضاً بينَ الرجال والنساء[٢]، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدِس، وكان إبليسُ معهم في الكَوْثَل[٣].

وقيل: جاءت الحيَّةُ والعقربُ لدخول السفينة، فقال نوح: لا أحملُكما؛ لأنكما سببُ الضَّررِ والبلاء، فقالتا: احملنا فنحن نضمن لك ألّا نَضُرَّ أحداً ذَكَرك. فَمَن قرأ حينَ يخاف مَضَرَّتهما: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] لم تضرَّاه[٤]؛ ذكره القشيريُّ وغيرُه.

وذكر الحافظُ ابن عساكر في «التاريخ» له مرفوعاً من حديث أبي أُمامةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال حين يُمسي: صلَّى الله على نوح، وعلى نوحٍ السلامُ، لم تلدغه عقربٌ تلك الليلة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ ظرفٌ ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ قال الأخفشُ

---

(١) ص١٢١ من هذا الجزء. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٢١ : اختلفوا في هيئتها من التربيع والطول، وفي مقدار مدة عملها، وفي المكان الذي عملت فيه، ومقدار طولها وعرضها، على أقوال متعارضة لم يصح منها شيء. وقال الرازي ١٧/ ٢٢٤ : اعلم أن أمثال هذه المباحث لا تعجبني؛ لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها البتة، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلاً.

(٢) قوله: وحمل معه جسد آدم...، جزء من خبر أخرجه الطبري في التاريخ ١/ ١٨٥ عن طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس، وما قبله ذكره عن ابن عباس البغوي ٢/ ٣٨٣ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧١ . والكوثل: مؤخَّر السفينة. اللسان (كثل).

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ .

(٥) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٦ ، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠ ، وفيه بشر بن نمير، قال فيه الحافظ في التقريب: متروك متهم.

والكِسائيُّ يقال: سَخِرْتُ به ومنه[١].

وفي سخريتهم منه قولان: أحدُهما: أنهم كانوا يرَونه يبني سفينةً في البَرّ، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوحُ، صرتَ بعد النبوَّة نجاراً.

الثاني: لمَّا رَأَوْه يبني السفينةَ ولم يشاهدوا قبلَها سفينةً بُنيتْ قالوا: يا نوحُ ما تصنعُ؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء. فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: ولم يكنْ في الأرضِ قبلَ الطُّوفان نهرٌ ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه، ومياهُ البحار هي بقيةُ الطوفان[٢].

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ أي: من فِعْلِنا اليومَ عند بناء السفينة ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ غداً عند الغرق. والمرادُ بالسخريةِ هنا: الاستجهالُ؛ ومعناه: إنْ تَسْتَجْهِلونا فإنَّا نستجهلُكم كما تستجهلونا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ تهديدٌ، و«مَنْ» متَّصلةٌ بـ «سوف تعلمون»، و«تعلمون» هنا من باب التعدية إلى مفعول، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه العذابُ. ويجوز أن تكونَ «مَن» استفهاميةً؛ أي: أيُّنا يأتيه العذابُ؟ وقيل: «مَن» في موضعِ رفعٍ بالابتداء[٤]، و«يأتيهِ» الخبر، و«يُخْزِيه» صفةٌ لـ «عذاب».

وحكى الكسائيُّ: أنَّ أناساً من أهل الحجاز يقولون: سَوْ تعلمون، وقال: مَن قال: «ستعلمون» أسقَطَ الواوَ والفاءَ جميعاً. وحكى الكوفيُّونَ: سَفَ تعلمونَ، ولا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢ .

(٢) كذا نقل المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧١ ، وهو مخالف لصريح النقل، وفي نسبته لابن عباس نظر.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧١ ، وذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧١ وقال: إلا أن التصريف يضعفه.

(٤) كذا وقع في النسخ، والواقع أن «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، وذلك على أنها استفهامية، فلعل الصواب حذف لفظة «قيل» في قوله: وقيل: «من» في موضع رفع... وتكون العبارة: و«من» في موضع رفع... ينظر تفسير الرازي ١٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥ ، والبحر المحيط ٥/ ٢٢٢ .

يعرفُ البصريونَ إلا سوفَ تفعلُ، وستفعلُ، لغتان ليست إحداهما من الأخرى[١].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي: يجبُ عليه وينزلُ به. ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائمٌ، يريدُ عذابَ الآخرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختُلِفَ في التنُّور على أقوالٍ سبعة:

الأول: أنه وجهُ الأرضِ، والعربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ تنُّوراً؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ والزُّهريُّ وابنُ عُيَيْنةَ، وذلك أنه قيل له: إذا رأيتَ الماءَ على وجه الأرض فاركبْ أنت ومَن معك[٢].

الثاني: أنه تنُّورُ الخبز الذي يُخْبَزُ فيه، وكان تنُّوراً من حجارة، وكان لحوَّاءَ حتى صار لنوح، فقيل له: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنُّور؛ فاركب أنت وأصحابُك. وأَنْبَعَ اللهُ الماءَ من التنُّور، فعلمتْ به امرأتُه، فقالت: يا نوحُ، فار الماءُ من التنُّور، فقال: جاء وعدُ ربي حقًّا. هذا قول الحسن، وقاله مجاهدٌ، وعطيةُ عن ابن عباس[٣].

الثالث: أنه موضعُ اجتماع الماءِ في السفينة؛ عن الحسن أيضاً[٤].

الرابع: أنه طلوعُ الفجر، ونورُ الصبح؛ من قولهم: نوَّرَ الفجرُ تنويراً؛ قاله عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ﷺ[٥].

الخامس: أنه مسجدُ الكوفة؛ قاله عليّ بن أبي طالب أيضاً[٦]، وقاله مجاهد.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٢، وينظر الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٦٤٦ - ٦٤٧.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه عن ابن عباس وعكرمة الطبري ١٢/ ٤٠١ - ٤٠٢، وذكره عن الزهري البغويُّ ٢/ ٣٨٣.

(٣) أخرج هذه الأخبار الطبري ١٢/ ٤٠٤ - ٤٠٥، وعطية هو العوفي.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧١.

(٥) أورده النحاس في معاني القرآن ٣/ ٣٤٨، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٦) أورده أبو الليث ٢/ ١٢٦، والماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٧٢، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٦ عن الشعبي. وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٨ (١٠٨٥٦) عن محمد بن علي.

قال مجاهد: كان ناحيةُ التنُّور بالكوفة. وقال: اتخذَ نوحٌ السفينةَ في جوف مسجدِ الكوفةِ، وكان التنورُ على يمين الدَّاخل مما يلي كِندةَ. وكان فَوَرانُ الماء منه عَلَماً لنوح، ودليلاً على هلاك قومه[١]. قال الشاعرُ وهو أمية:

فـار تـنُّـورُهـم وجـاشَ بـمـاءٍ ... صار فوق الجبالِ حتى عَلَاها[٢]

السادس: أنه أعالي الأرض، والمواضعُ المرتفعةُ منها؛ قاله قتادة[٣].

السابع: أنه العينُ التي بالجزيرة «عين الوردة» رواه عِكرمة[٤]. وقال مقاتل: كان ذلك تنُّورَ آدمَ، وإنما كان بالشام بموضع يقال له: «عينُ وَرْدَة»[٥]. وقال ابن عباس أيضاً: فارَ تنُّورُ آدمَ بالهند[٦].

قال النحاس[٧]: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبرنا أنَّ الماء جاء من السماء والأرض؛ قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١، ١٢]. فهذه الأقوالُ تجتمعُ في أنَّ ذلك كان علامةً.

والفَوَرانُ: الغَلَيَانُ[٨]. والتنُّور اسمٌ أعجميٌّ عرَّبتْه العربُ، وهو على بناء فَعَّل؛ لأنَّ أصْلَ بنائه: تَنَّرَ، وليس في كلام العرب نونٌ قبل راء[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، وعرائس المجالس ص٥٧ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢ ، وأمية هو ابن أبي الصلت، والبيت في ديوانه ص١٤٩ برواية: طمَّ، بدل: صار.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٤ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٢ وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٩ (١٠٨٩٥) من طريق عكرمة عن ابن عباس. وعين الوردة: هو رأسُ عين، المدينةُ المشهورة بالجزيرة. وبقربها يقع جبل طورزيتا عند قنطرة الخابور. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٧ و ١٨٠ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ . وعرائس المجالس ص٥٧ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٠٨ بلفظ: فار التنور بالهند.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٨) عرائس المجالس ص٥٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ .

(٩) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ومقاييس اللغة ٣/ ٢٨ .

وقيل: معنى: «فَارَ التَّنُّورُ»: التمثيلُ لحضور العذاب، كقولهم: حَمِيَ الوطيسُ: إذا اشتدَّت الحرب. والوطيسُ: التنُّور. ويقال: فارت قِدرُ القومِ: إذا اشتدَّ حربُهم[١]؛ قال شاعرهم:

تـركـتُـم قِـدْرَكـم لا شـيءَ فـيـهـا وقِـدْرُ الـقـوم حـامـيـةٌ تَـفُـورُ[٢]

قوله تعالى: ﴿قلنا احْمِلْ فيها مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني ذكراً وأنثى؛ لبقاء أصل النَّسْل بعد الطوفان. وقرأ حفصٌ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بتنوينِ «كلٍّ» أي: من كلِّ شيءٍ زوجين[٣]. والقراءتان ترجعان إلى معنى: واحدٌ[٤] معه آخَرُ لا يَستغنِي عنه[٥]. ويقال للاثنين: هما زوجان، في كلِّ اثنين لا يَستغني أحدُهما عن صاحبه؛ فإنَّ العربَ تسمِّي كلَّ واحدٍ منهما زوجاً[٦]. يقال: له زوجا نعلٍ، إذا كان له نعلان. وكذلك: عنده زوجا حمامٍ، وعليه زوجا قُيود، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥][٧]. ويقال للمرأة: هي زوجُ الرجل، وللرجل: هو زوجُها.

وقد يقال للاثنين: هما زوجٌ[٨]. وقد يكون الزوجانِ بمعنى الضَّرْبين، والصِّنفين، وكلُّ ضَرْبٍ يُدْعَى زوجاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧١ ، ومجمع البيان ١٢/ ١٥٧ . وقوله: حميَ الوطيس، أولُ مَن قال هذه الكلمة رسول الله ﷺ في غزوة حنين، قال: «هذا حين حمي الوطيس» أخرجه مطولاً أحمد (١٧٧٥)، ومسلم (١٧٧٥). قال أبو العباس في المفهم ٣/ ٦١٧ : وهذه الاستعارة عجيبة لا يُعرف مَن تكلَّم بها قبل النبي ﷺ من العرب، ومنه تُلُقِّيَتْ فصُيِّرت مثلاً في الأمر إذا اشتد.

(٢) قائله جبل بن جوَّال الثعلبي كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣ .

(٣) السبعة ص٣٣٣ ، والتيسير ص١٢٤ . قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥١ : والمعنى واحدٌ في الزوجين أَضَفْتَ أم لم تُضِفْ.

(٤) بعدها في (م): شيء.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ .

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٤٠٨ . وذكره بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين.

(٨) الحجة للفارسي ٤/ ٣٢٥ ، وذكره عن أبي الحسن الأخفش.

أي: من كلِّ لونٍ وصنف[١]. وقال الأعشى:

وكُلُّ زوجٍ من الدِّيباجِ يَلبَسُهُ أبو قُدامةَ مَحْبُوٌّ بذاك مَعَا[٢]

أراد: كلَّ ضربٍ ولون.

و﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ في موضع نصبٍ بـ «احمل»[٣]. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيد ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحملْ أهلَك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ «مَن» في موضع نصبٍ بالاستثناء[٤]. ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم، أي: بالهلاك، وهو ابنُه كنعانُ وامرأتُه وَاعِلَةُ؛ كانا كافرَيْن[٥]. ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ قال الضحَّاك وابن جُريج: أي: احمل مَن آمن بي، أي: مَن صدَّقك، فـ «مَن» في موضع نصبٍ بـ «احمل».

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: آمنَ مِن قومِه ثمانونَ إنساناً[٦]. منهم ثلاثةٌ من بنيه: سامٌ وحامٌ ويافث، وثلاثُ كنائنَ له[٧]. ولمَّا خرجوا من السفينة بنَوْا قريةً وهي اليوم تُدْعَى قريةَ الثمانين بناحيةِ الموصلِ[٨].

وورد في الخبر: أنه كان في السفينة ثمانيةُ أنفُس؛ نوحٌ وزوجتُه غيرُ التي عوقبت، وبنوه الثلاثةُ وزوجاتُهم. وهو قولُ قتادةَ والحَكَم بنِ عُتَيْبَةَ وابنِ جريجٍ

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/٤٠٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧١.

(٢) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص١٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٠٩ وهو فيهما برواية وفيهما: محبوًّا، والبيت من قصيدة في مدح هوذة بن علي، وهو أبو قدامة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٢ وفيه: والعة، بدل: واعلة. وقال ابن عطية: وقيل: هو عموم في مَن لم يؤمن من قوم نوح وعشيرته.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١٢.

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٤١١، وعرائس المجالس ص٥٨، وتفسير البغوي ٢/ ٣٨٤.

(٨) هي بليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل. معجم البلدان ٢/ ٨٤، والخبر أخرجه مطولاً ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٢ (١٠٨٨٢). عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومحمد بنِ كعب[١]. فأصاب حامٌ امرأتَه في السفينة، فدعا نوحٌ اللهَ أنْ يُغيِّرَ نطفتَه فجاء بالسُّودان[٢]. قال عطاء: ودعا نوحٌ على حام ألَّا يَعْدُوَ شَعْرُ أولادِه آذانَهم، وأنَّهم حيثُما كان ولدُه يكونون عبيداً لولد سام ويافث[٣].

وقال الأعمش: كانوا سبعةً: نوحٌ، وثلاثُ كنائنَ، وثلاثةُ بنينَ[٤]، وأسقط امرأةَ نوح. وقال ابنُ إسحاق: كانوا عشرةً سوى نسائِهم: نوحٌ وبنوه سام وحام ويافث، وستةُ أناس ممن كان آمَن به، وأزواجُهم جميعاً[٥].

و«قَلِيلٌ» رفع بـ«آمَنَ»، ولا يجوزُ نصبُه على الاستثناء؛ لأنَّ الكلامَ قبلَه لم يتمَّ، إلَّا أنَّ الفائدةَ في دخولِ «إلَّا» و«مَا»؛ أنك[٦] لو قلتَ: آمنَ معَه فلانٌ وفلانٌ جازَ أن يكونَ غيرُهم قد آمن؛ فإذا جئت بما وإلَّا، أوجبتَ لمَا بعدَ إلَّا، ونفيتَ عن غيرِهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ أمرٌ بالركوب؛ ويَحتمِل أن يكونَ من الله تعالى،

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤ دون ذكر الحكم، وأخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٢/ ٤١٠ - ٤١١. وأخرج عن الحكم قوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: نوح، وثلاثة بنيه، وأربع كنائنه.

(٢) هذا تتمة خبر ابن جريج ـ المذكور في التعليق السابق ـ عند الطبري ١٢/ ٤١١.

(٣) عرائس المجالس ص٦٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١١.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٤.

(٦) في النسخ: لأنك، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣.

ويحتملُ أن يكون مِن نوحٍ لقومه. والركوبُ: العلوُّ على ظهر الشيء. ويقال: ركبه الدَّيْن. وفي الكلام حذف، أي: اركبوا الماءَ في السفينة. وقيل: المعنى: اركبوها، و«في» للتأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣][1] وفائدة «في»: أنَّهم أُمروا أن يكونوا في جوفها لا على ظهرها[2].

قال عِكرمة: رَكِب نوحٌ عليه السلام في الفُلْك لعشرٍ خلَوْنَ من رجب، واستوت على الجُوديِّ لعشرٍ خلَون من المحرم، فذلك ستةُ أشهر. وقاله قَتَادةُ وزاد: وهو يومُ عاشوراء، فقال لمن كان معه: مَن كان صائماً فلْيتمَّ صومَه، ومَن لم يكن صائماً فليصُمْه[3].

وذكر الطبريُّ في هذا حديثاً عن النبيِّ ﷺ: أنَّ نوحاً ركب في السفينة أوَّلَ يومٍ من رجب، وصام الشهرَ أجمعَ، وجرت بهم السفينةُ إلى يومِ عاشوراء، ففيه أرسَتْ على الجوديِّ، فصامه نوح ومَن معه[4].

وذكر الطبريُّ عن ابن إسحاقَ ما يقتضي أنه أقام على الماء نحوَ السنة[5]. ومرَّت بالبيت فطافت به سبعاً، وقد رفعه الله عن الغرق فلم يَنَلْه غرقٌ، ثم مضتْ إلى اليمن، ورجعت إلى الجوديِّ فاستوت عليه[6].

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قراءةُ أهل الحرمين وأهلِ البصرة بضم

---

(١) أي: إن كنتم تعبُرون الرؤيا، فاللام صلة. ينظر المدهش لابن الجوزي ص٣٣، وتاج العروس (عبر)، والبحر ٥/ ٣١٢.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٧/ ٢٢٨، والبحر ٥/ ٢٢٤، والدر المصون ٦/ ٣٢٤.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧٣ عن قتادة، وأخرجه عنه الطبري ١٢/ ٤٢٠، ولم نقف عليه عن عكرمة.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤١٩ - ٤٢٠ من طريق عبد العزيز بن عبد الغفور، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ، وذكره. قال الحافظ في الإصابة ٧/ ٣٢٦: وهذا مقلوب وفيه انقطاع، والصواب رواية عبد الغفور، عن أبيه عبد العزيز، عن أبيه سعيد. هذا من حيث السند، وإلا فرجالُه ما بين ضعيف ومجهول.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٥.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٠ عن ابن جريج.

الميم فيهما إلا مَن شذّ [منهم] على معنًى: بسم الله إجراؤها وإرساؤها، فمُجْراها ومُرساها في موضع رفعٍ بالابتداء، ويجوز أن تكونَ في موضع نصب، ويكونُ التقدير: بسم الله وقتَ إجرائها، ثم حُذِفَ وقت، وأُقيمَ «مُجراها» مُقامه[١].

وقرأ الأعمش وحمزةُ والكسائي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا﴾ بفتح الميم[٢]. ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضم الميم.

وروى يحيى بنُ عيسى، عن الأعمش، عن يحيى بن وثّاب: «بسم الله مَجْرَاها وَمَرْساها» بفتح الميم فيهما، على المصدر من جَرت تَجري جرياً ومَجرًى، ورَست رُسُوًّا ومَرْسًى: إذا ثبتَتْ[٣].

وقرأ مجاهدٌ ومسلم[٤] بنُ جُنْدُب وعاصم الجَحْدَريُّ وأبو رَجاء العُطَارِدِيُّ: «بسم الله مُجْرِيها ومُرْسِيها» نعتٌ لله عزَّ وجلَّ في موضعِ جرّ. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هو مُجريها ومُرسيها. ويجوز النصب على الحال[٥].

وقال الضحَّاك: كان نوح عليه السلام إذا قال: بسم الله مَجراها، جرت. وإذا قال: بسم الله مَرساها، رست[٦].

وروى مروان بن سالم، عن طلحةَ بنِ عبيد الله بن كَرِيز، عن الحسين بن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ قال: أَمَانٌ لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك: بسم الله الرحمن الرحيم:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ . وما بين حاصرتين منه، وذكر النحاس أنه يجوز أيضاً أن يكون التقدير: باسم الله موضعَ إجرائها، ثم حُذف موضع، وأقيم مجراها مقامه.

(٢) السبعة ص٣٣٣ ، والتيسير ص١٢٤ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ .

(٤) في النسخ: وسليمان، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وهو الصواب. وينظر معرفة القراء الكبار ١/ ١٨٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٣ - ٢٨٤ ، وذكر القراءة عن مجاهد والجحدري ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ .

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤١٦ .

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وفي هذه الآية دليلٌ على ذكر البسملة عند ابتداء كلِّ فعلٍ، على ما بيَّنّاه في البسملة[2]، والحمد له. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لأهل السفينة.

ورُوي عن ابن عباس قال: لمَّا كثُرت الأرْواثُ والأقذار أوحى الله إلى نوح: اغمِزْ ذَنَب الفيل، فوقع منه خنزيرٌ وخنزيرةٌ، فأقبلا على الرَّوث، فقال نوح: لو غمزتُ ذنبَ هذا الخنزير! ففعل، فخرج منه فأرٌ وفأرة، فلمَّا وقعا أقبلا على السفينة وحبالِها تقرضها، وتقرِضُ الأمتعةَ والأزواد، حتى خافوا على حبال السفينة، فأوحى الله إلى نوحٍ أن امسح جبهةَ الأسد، فمسحَها، فخرج منها سِنَّورانِ فأكلا الفِئْرة[3].

ولمَّا حَمل الأسدَ في السفينة قال: يا ربِّ من أين أُطعمُه؟ قال: سوف أُشغلُه، فأخذَتْه الحُمَّى، فهو الدهرَ محمومٌ[4].

قال ابن عباس[5]: وأوَّل ما حمل نوحٌ من البهائم في الفلك حَملَ الإوزَّةَ[6]، وآخِرُ ما حملَ حملَ الحمارَ، قال: وتعلَّق إبليسُ بذنبه، ويداه قد دخلَتا في السفينة،

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٧٨١)، وابن السُّنِّي في عمل اليوم والليلة (٥٠٠) وابن عدي ٧/ ٢٦٥٥ - ٢٦٥٦، وفي إسناده يحيى بن العلاء الرازي، قال أحمد: كذاب يضع الحديث. وقال الدارقطني: متروك. وضعفه ابن معين وجماعة. الميزان ٤/ ٣٩٧، وينظر فيض القدير ٢/ ١٨٢.

(٢) ١/ ١٥١.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٥ - ٣٩٦ و ٤٠٠، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٦٠، وقد سلفت قطعة منه ص١١١ من هذا الجزء. وهذا الخبر وما بعده من الأخبار الإسرائيلية التي لا أساس لها.

(٤) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٣٠ - ٢٠٣١ (١٠٨٦٩) و(١٠٨٧٠) و(١٠٨٧١)، وعرائس المجالس ص٥٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٨، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٨، والبغوي ٢/ ٣٨٤.

(٦) كذا في النسخ، وعند الطبري والبغوي: الدُّرة، وهي الببغاء. حياة الحيوان للدميري ١/ ٣٣٦. وفي عرائس المجالس: الذَّرَّة، وهي مفرد الذَّر: وهو النمل الأحمر الصغير. حياة الحيوان ١/ ٣٥٦.

ورجلاه خارجةٌ بعدُ، فجعل الحمارُ يَضطربُ ولا يستطيع أن يدخلَ، فصاح به نوح: ادخل ويلك! فجعل يضطرب، فقال: ادخلْ ويلَك! وإن كان معك الشيطانُ؛ كلمةٌ زلَّتْ على لسانه، فدخل، ووثَب الشيطانُ فدخل. ثم إن نوحاً رآه يغنِّي[١] في السفينة، فقال له: يا لعينُ، ما أَدْخلَكَ بيتي؟! قال: أنتَ أَذِنْتَ لي، فذكَر له، فقال له: قم فاخرجْ. قال: ما لكَ بدٌّ في أن تحملني معك، فكان فيما يزعمُون في ظهر الفُلْك.

وكان مع نوحٍ عليه السلام خَرَزتانِ مضيئتان، واحدةٌ مكانَ الشمس، والأخرى مكانَ القمر. ابن عباس: إحداهما بيضاءُ كبياض النهار، والأخرى سوداءُ كسواد الليل، فكان يعرفُ بهما مواقيتَ الصلاة، فإذا أمسَوْا غَلَبَ سوادُ هذه بياضَ هذه، وإذا أصبحوا غلب بياضُ هذه سوادَ هذه، على قَدْرِ الساعات[٢].

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ الموجُ جمع موجةٍ، وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثيرِ عند اشتداد الريح. والكاف للتشبيه، وهي في موضعِ خفضٍ نعتٍ للموج. وجاء في التفسير أنَّ الماء جاوز كلَّ شيء بخمسةَ عشرَ ذراعاً[٣].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ قيل: كان كافراً واسمُه كنعانُ. وقيل: يام[٤]. ويجوز على قول سيبويه: «ونادى نوحُ ابنَه» بحذف الواو من «ابنه» في اللفظ[٥]، وأنشد:

لَـهُ زَجَـلٌ كَـأَنَّـهُ صَـوتُ حَـادٍ[٦]

---

(١) في (د) و(ز): يتغنى، وفي (ظ): يتعشى.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٣ ، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٥٩ عن ابن عباس: أن الماء ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٠٩ ، ومجمع البيان ١١/ ١٥٨ .

(٥) أي: بالضم والاختلاس من غير إشباع، وهي قراءة أبي جعفر محمد بن علي كما في القراءات الشاذة ص٦٠ ، ونقل المصنف كلام سيبويه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٦) صدر بيت للشماخ، وعجزه: إذا طلب الوسيقةَ أو زَميرُ، وهو في ديوانه ١٥٥ ، والكتاب ١/ ٣٠ ، وسلف ١/ ٤٨٥ . قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٦٤ : أراد: كأنهو، فحذف الواو ضرورة.

فأمَّا: «ونَادَى نُوحٌ ابْنَهَ وكان» فقراءةٌ شاذَّة، وهي مَرْوِيَّةٌ عن عليِّ بنِ أبي طالب كرم الله وجهَه، وعروةَ بنِ الزبير[١]. وزعم أبو حاتمٍ أنها تجوز على أنه يريدُ: «ابنها» فحذفَ الألفَ كما تقول: «ابنه» فتحذفُ الواو. وقال النحاس[٢]: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهبِ سيبويه؛ لأنَّ الألفَ خفيفةٌ فلا يجوز حذفُها، والواوَ ثقيلةٌ يجوز حذفها.

﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: من دِين أبيه. وقيل: عن السفينة[٣]. وقيل: إنَّ نوحاً لم يعلم أنَّ ابنه كان كافراً، وأنه ظنَّ أنه مؤمنٌ؛ ولذلك قال له: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وسيأتي[٤]. وكان هذا النداء من قبلِ أن يستيقنَ القومُ الغرقَ، وقبلَ رؤية اليأسِ، بل كان في أوَّل ما فار التنُّور، وظهَرَت العلامةُ لنوح.

وقرأ عاصم: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ بفتح الياء، والباقون بكسرها[٥]. وأصل «يا بنيَّ» أن تكون بثلاث ياءات: ياءِ التصغير، وياءِ الفعل[٦]، وياءِ الإضافة، فأُدغمت ياءُ التصغير في لام الفعل، وكُسرت لامُ الفعلِ من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياءُ الإضافة لوقوعها موقعَ التنوين، أو لسكونها وسكونِ الراء في هذا الموضع. هذا أصْلُ قراءةِ مَن كَسَر الياء. وهو أيضاً أصلُ قراءة مَنْ فتح؛ لأنه قلَبَ ياءَ الإضافة أَلِفاً لخفَّةِ الألف، ثم حذَفَ الألفَ لكونها عِوَضاً من حرفٍ يُحذَف، أو لسكونها وسكونِ الراء[٧].

---

(١) ذكرها عن علي ﷺ وعروة الطبرسي في مجمع البيان ١١/ ١٥١ ، وأبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٦ ، وهي في الكشاف ٢/ ٢٧٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ١٧/ ٢٣١ عن عروة وجعفر بن محمد. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ عن هشام بن عروة. وسيأتي عن علي قراءة: «ابنها» بفتح الهاء وألف.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ ، وما قبله منه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٤ ، وقال الزجاج عن القول الثاني: وهو أشبه.

(٤) ص١٣٣ من هذا الجزء.

(٥) السبعة ص٣٣٤ ، والتيسير ص١٢٤ .

(٦) وهي لامُه؛ لأن أصل «ابن»: بنى، على فَعَل. ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٩ .

(٧) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٩ - ٥٣٠ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٧٤ .

قال النحاس[١]: أمَّا قراءةُ عاصمٍ فمشْكِلَةٌ. قال أبو حاتم: يريد: يا بُنَيَّاه، ثم يَحذِف[٢]؛ قال النحاس: رأيتُ عليَّ بنَ سليمانَ يذهب إلى أنَّ هذا لا يجوز؛ لأن الألفَ خفيفةٌ. قال أبو جعفر النحاس: ما علمتُ أنَّ أحداً من النَّحْويين جوَّزَ الكلامَ في هذا إلا أبا إسحاق[٣]؛ فإنه زعَمَ أنَّ الفتح من جهتين، والكسرَ من جهتين؛ فالفتحُ على أنه يبدلُ من الياء ألفاً، قال الله عزَّ وجلَّ إخباراً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ [الفرقان:٢٨] وكما قال الشاعر:

فيا عجبًا مِن رَحْلِها المتحمَّلِ[٤]

فيريد: يا بنيَّا، ثم حذَفَ الألفَ لالتقاء الساكنين، كما تقول: جاءني عبدَ[٥] الله في التثنية. والجهة الأخرى أن تَحذفَ الألف؛ لأن النداءَ موضعُ حذفٍ. والكسرُ على أن تحذفَ الياء للنداء. والجهةُ الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ أي: أرجعُ وأنضمُّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾ أي: يمنعني ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ فلا أغرق ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا مانعَ؛ فإنه يومٌ حقَّ فيه العذابُ على الكفار. وانتصب «عاصم» على التبرئة[٦]. ويجوزُ: «لا عاصمٌ اليوم» تكون «لا» بمعنى «ليس»[٧].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في موضعِ نصبِ استثناءٍ ليس من الأوَّل؛ أي: لكنْ مَن رحمَه اللهُ فهو يعصمه؛ قاله الزجَّاج[٨]. ويجوزُ أن يكون في موضع رفع، على أنَّ عاصماً

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٤ .

(٢) في إعراب القرآن للنحاس: ثم حذف.

(٣) هو الزجاج وينظر معاني القرآن له ٣/ ٥٤ .

(٤) وصدره: ويوم عقرتُ للعذارى مطيتي، وقائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ١١ ، وسلف ٨/٣٥٨ .

(٥) في (م): عبدا.

(٦) أي: النافية للجنس. ينظر أمالي ابن الشجري ٢/ ٥٢٧ - ٥٣٠ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٥ ، وجواز تنوين الرفع، يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٥٤ .

بمعنى معصوم، مثل: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] أي: مدفوق[١]، فالاستثناء على هذا متَّصِل؛ قال الشاعر:

بَطِيءُ القِيامِ رخيمُ الكلا ... مِ أَمْسَى فؤادي بهِ فاتِنا[٢]

أي: مفتوناً. وقال آخر:

دَعِ المكارِمَ لا تَنهضْ لبغيتِها ... واقعدْ فإنَّك أنتَ الطاعمُ الكَاسِي[٣]

أي: المَطْعومُ المَكْسوّ.

قال النحاس[٤]: ومن أحسنِ ما قيل فيه أن تكون «مَن» في موضع رفع؛ بمعنى: لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحِمُ، أي: إلا الله ـ وهذا اختيارُ الطَّبَريّ[٥] ـ ويَحسُنُ هذا لأنك لم تجعلْ عاصماً بمعنى معصوم فتخرجَه من بابه، ولا «إلَّا» بمعنى «لكن».

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ يعني بين نوحٍ وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ قيل: إنه كان راكباً على فرسٍ قد بَطِرَ بنفسه، وأُعجب بها، فلما رأى الماءَ جاء قال: يا أبت، فار التنُّور! فقال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ فما استَتمَّ المراجعةَ حتى جاءت مَوْجةٌ عظيمةٌ فالتقمَتْه هو وفرسَه، وحِيلَ بينه وبين نوح فغرق.

وقيل: إنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصَّنُ فيه من الماء، فلما فار التنُّور دخل فيه وأقفله عليه من داخلٍ، فلم يزل يتغوَّط فيه ويبولُ حتى غرق بذلك[٦].

وقيل: إنَّ الجبل الذي آوى إليه «طورُ زيتا»[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٥ .

(٢) الصحاح واللسان (فتن) برواية رخيم الكلام قطيع القيام...

(٣) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٨٤ برواية: لا ترحل لبغيتها.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٥ .

(٥) في تفسيره ٢/١٨/ ٤١٨ .

(٦) لطائف الإشارات ٢/ ١٣٩ .

(٧) في (م): طور سينا، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٢/ ٤٧٣ ، والكلام منه. وطور زيتا علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور. معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ هذا مجازٌ لأنها مَوَات. وقيل: جعل فيها ما تُميِّز به. والذي قال: إنه مجاز، قال: لو فُتِّش كلامُ العرب والعجم ما وُجِدَ فيه مثلُ هذه الآية على حسن نَظْمِها، وبلاغةِ وصْفِها، واشتمالِ المعاني فيها[١].

وفي الأثر: إنَّ الله تعالى لا يُخلي الأرضَ من مطر في عام أو عامين[٢]، وإنه ما نزل من السماء ماءٌ قطُّ إلا بحفظِ مَلَكٍ موكَّل به، إلا ما كان من ماء الطُّوفان؛ فإنه خرج منه ما لا يحفظُه الملَك. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

فجرت بهم السَّفينةُ إلى أنْ تناهى الأمر، فأمَرَ الله الماءَ المنهمِرَ من السماء بالإمساك، وأمر اللهُ الأرضَ بالابتلاع. يقال: بلَع الماءَ يبلَعه؛ مثل: مَنَع يمنَع، وبَلِع يبلَع؛ مثل: حمِد يحمَد، لغتانِ حكاهما الكسائيُّ والفرَّاء[٣]. والبالُوعةُ: الموضعُ الذي يشرَبُ الماء[٤].

قال ابن العربي:[٥] التقى الماءان على أمرٍ قد قُدِر، ما كان في الأرض وما نزل من السماء، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصَّ الأرضُ منه قَطْرةً، وأَمَر الأرضَ بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾.

وقيل: ميَّز الله بين الماءين، فما كان من ماء الأرض أَمَرها فبلَعته، وصار ماءُ السماء بحاراً.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ .

(٢) وقع في مطبوع أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠ (والكلام منه): في عامر أو غامر.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤١٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ . وتهذيب اللغة ٢/ ٤١١ .

(٤) ينظر تهذيب اللغة ٢/ ٤١١ - ٤١٢ ، ومقاييس اللغة ١/ ٣٠١ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٠ - ١٣٠١ .

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: نَقَصَ؛ يقال: غاض الشيءُ، وغِضتُه أنا، كما يقال: نَقَص بنفسه ونَقَصه غيرُه، ويجوز: «غُيض» بضم الغين[1]. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: أُحكمَ وفُرِغ منه؛ يعني: أهلك قوم نوح على تمامٍ وإحكام.

ويقال: إنَّ الله تعالى أعقمَ أرحامَهم، أي: أرحامَ نسائهم قبل الغرق بأربعين سنةً، فلم يكن فيمَن هَلَكَ صغير[2]. والصحيحُ أنه أهلك الوِلدانَ بِالطُّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرقُ عقوبةً للصبيان والبهائمِ والطير، بل ماتوا بآجالهم[3].

وحُكي أنه لمَّا كَثُر الماءُ في السّكك خشيتْ أمُّ صبيٍّ عليه، وكانت تحبُّه حبًّا شديداً، فخرجتْ به إلى الجبل حتى بلغتْ ثُلُثَه، فلمَّا بلَغها الماءُ خرجتْ حتى بلغتْ ثُلُثَيه، فلمَّا بلغها الماءُ استوت على الجبل، فلمَّا بلَغ الماءُ رقبتَها رفعتْ يديها بابنها حتى ذهب بها الماء، فلو رَحِم الله منهم أحداً لرحم أمَّ الصبي[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم. الجُوديُّ: جبلٌ بقرب الْمَوْصِل[5]، استوتْ عليه في العاشر من المحرَّم يومَ عاشوراءَ، فصامه نوح وأمر جميعَ مَن معه من الناس والوحش والطير والدوابِّ وغيرِها فصاموه شكراً لله تعالى، وقد تقدَّم هذا المعنى[6]. وقيل: كان ذلك يومَ الجمعة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦، وقرأ الكسائي وهشام: «قيل» و«غيض» و«جيء» بإشمام الضم لأول ذلك حيث وقع، والباقون بإخلاص كسره. التيسير ص٧٢، وينظر السبعة ص١٤١ - ١٤٢.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٤٩، وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٩٦ - ٣٩٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٤ - ٤٢٥ عن الضحاك.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٥، وهذه قطعة من حديث أخرجه الطبري ١٢/ ٣٩٤، والحاكم ٢/ ٣٤٢ عن عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده: موسى بن يعقوب. قال الذهبي في التلخيص: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك.

(٥) قال ياقوت في معجم البلدان ٢/ ١٧٩: هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة، من أعمال الموصل.

(٦) ص١١٩ من هذا الجزء.

ورُوي أنَّ الله تعالى أوحى إلى الجبال أنَّ السفينةَ تُرسي على واحدٍ منها فتطاولت، وبقيَ الجُوديُّ لم يتطاولْ تواضُعاً لله، فاستوت السَّفينة عليه، وبقيتْ عليه أعوادُها[١]. وفي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لقد بقي منها شيءٌ أدركَه أوائلُ هذه الأمة»[٢].

وقال مجاهد: تشامختِ الجبالُ وتطاولت لئلَّا ينالَها الغرقُ، فعلا الماءُ فوقها خمسةَ عشرَ ذراعاً، وتطامنَ الجوديُّ، وتَواضَعَ لأمر الله تعالى فلم يغرقْ، ورستِ السفينةُ عليه[٣].

وقد قيل: إنَّ الجوديَّ اسمٌ لكلِّ جبل[٤]، ومنه قولُ زيدِ بن عمرو بنِ نُفَيل:

سُبحانَه ثُمَّ سُبحاناً يَعودُ له وقَبْلَنا سَبَّحَ الجُوديُّ والجُمُدُ[٥]

ويقال: إن الجُوديَّ من جبال الجنة[٦]؛ فلهذا استوت عليه.

ويقال: أكرم الله ثلاثةَ جبال بثلاثةِ نفَر: الجوديَّ بنوح، وطورَ سيناء بموسى، وحِراءَ بمحمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

مسألة: لمَّا تواضَعَ الجوديُّ وخضَع عزَّ، ولمَّا ارتفع غيرُه واستعلى ذَلَّ، وهذه سُنَّةُ الله في خَلْقه، يرفعُ مَن تخشَّعَ، ويضَعُ مَن ترفَّع، ولقد أَحسن القائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٦ ، وسيأتي نحوه عن مجاهد، وينظر تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٧٦ ، ولم نقف عليه مرفوعاً، وعلقه البخاري قبل الحديث (٤٨٦٩) عن قتادة قوله، ووصله عبد الرزاق في التفسير ٣/ ٢٥٨ ، والطبري ٢٢/ ١٢٨ .

(٣) عرائس المجالس ص٥٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٧٤ .

(٥) نُسب البيت لزيد في مجاز القرآن ١/ ٢٩٠ ، وشرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ١٩٤ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٧٤ ، ونسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٢٦ لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوان أمية ص١٦١ باختلاف يسير. ونسب لورقة بن نوفل كما في الأغاني ٣/ ١٢١ ، والخزانة ٣/ ٣٨٨ . قوله: الجُمُد: هو جبل لبني نصر بنجد. معجم البلدان ٢/ ١٦١ .

(٦) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٢ .

وإذا تـذلـلَّـتِ الـرِّقـابُ تَـخـشُّـعـاً مِـنَّـا إلـيـكَ فـعِـزُّهـا فـي ذُلِّـهـا[١]

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنسِ بن مالك قال: كانت ناقةٌ للنبيِّ ﷺ تُسمَّى العَضْباءَ، وكانت لا تُسبق، فجاء أعرابيٌّ على قَعودٍ له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِقتِ العضباءُ! فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ حقًّا على الله ألَّا يَرفعَ شيئاً من الدنيا إلا وضَعه»[٢].

وخرَّج مسلمٌ[٣] عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزًّا، وما تَوَاضَعَ أحدٌ لله إلَّا رَفَعه الله».

وقال ﷺ: «إنَّ الله أَوحى إليَّ أنْ تَواضَعوا حتى لا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَفخرَ أحدٌ على أحد». خرَّجه البخاريّ[٤].

مسألة: نذكر فيها من قصة نوح مع قومه وبعضَ ذِكْر السفينة.

ذكر الحافظ ابنُ عساكرَ في «التاريخ»[٥] له عن الحسن: أنَّ نوحاً أوّلُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. وكان قد كَثُرت فيهم المعاصي، وكَثُرت الجبابرةُ وعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً، وكان نوحٌ يدعوهم ليلاً ونهاراً، سرًّا وعلانية، وكان صبوراً حليماً، ولم يلقَ أحدٌ من الأنبياء أشدَّ مما لقيَ نوح، فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وَقِيذاً[٦]، ويضربونه في المجالس ويُطْردَ، وكان لا يَدَعُ على ما

---

(١) هو لأبي إسحاق الصابي كما في يتيمة الدهر ٢/ ٣٢٥ برواية: تقرُّباً منها إليك، بدل: تخشعاً منا إليك.

(٢) صحيح البخاري (٢٨٧٢)، وهو عند أحمد (١٢٠١٠)، ولم نقف عليه عند مسلم. قوله: على قعود، القعود من الإبل: ما أمكن أن يُركب، وأدناه يكون له سنتان. النهاية (قعد).

(٣) في صحيحه (٢٥٨٨)، وهو عند أحمد (٩٠٠٨).

(٤) في الأدب المفرد (٤٢٦) و(٤٢٨)، وهو عند مسلم (٢٨٦٥): (٦٤) وهو من حديث عياض بن حمار ﷺ.

(٥) ٦٢/ ٢٤٤ .

(٦) الوقيذ: الذي يغشى عليه؛ لا يُدرى أميت أم لا. اللسان (وقذ).

يُصنع به أنْ يدعوَهم[1]، ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». فكان لا يزيدُهم ذلك إلا فراراً منه، حتى إنه لَيُكلِّمُ الرجلَ منهم فيلفُّ رأسَه بثوبه، ويجعلُ أُصْبُعَيه في أذنيه لكيلا يَسمع شيئاً من كلامه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧].

وقال مجاهدٌ وعُبيدُ بن عمير: كانوا يضربونه حتى يُغشَى عليه، فإذا أفاق قال: رَبِّ اغْفِرْ لقَوْمي فإنَّهم لا يَعْلَمُون[2].

وقال ابن عباس: إنَّ نوحاً كان يُضرَبُ، ثم يُلفُّ في لِبْد[3] فيُلْقى في بيته، يُرَونَ أنه قد مات، ثم يخرجُ فيدعوهم؛ حتى إذا يَئِسَ من إيمان قومه جاءه رجلٌ ومعه ابنُه، وهو يتوكَّأ على عصاً، فقال: يا بُنيَّ، انظر هذا الشيخَ لا يغرَّنَّك، قال: يا أبتِ، أمكنِّي من العصا، فأمكنَه، فأخذ العصا ثم قال: ضَعْني في الأرض، فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجَّه شجَّةً مُوضِحة[4] في رأسه، وسالت الدماء، فقال نوح: ربِّ قد ترى ما يفعلُ بي عبادُك، فإن يكُ لك في عبادك خيريَّةٌ فاهدِهم، وإن يكُ غيرُ ذلك فصبِّرني إلى أن تحكم، وأنت خيرُ الحاكمين. فأوحى الله إليه وآيَسَه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبقَ في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن، قال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن عليهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ قال: يا ربِّ، وأين الخشبُ؟ قال: اغرسِ الشجر. قال: فَغرسَ السَّاج عشرين سنةً، وكفَّ عن الدعاء، وكفُّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه، فلما أدرك الشجرُ؛ أمَره ربُّه فقطعَها وجفَّفها، فقال: يا ربِّ، كيف أتَّخذُ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاثِ صُوَر؛ رأسُه كرأس الدِّيك، وجؤجؤُه

(١) في (م): وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٦٢/٢٤٧، وأخرجه الطبري ١٢/٣٩٦ عن عبيد بن عمير مطولاً.

(٣) اللبد: من البسط معروف. اللسان (لبد).

(٤) الموضحة من الشجاج: التي بلغت العظم فأوضحت عنه. اللسان (وضح).

كجؤجؤ الطير، وذنَبه كذنَب الديك؛ واجعلها مطبَّقةً، واجعل لها أبواباً في جَنْبها، وشُدَّها بدُسُرٍ، يعني مساميرَ الحديد. وبعث الله جبريلَ فعلَّمه صَنْعةَ السفينة، وجعلت يدُه لا تخطئ[1].

قال ابن عباس: كانت دارُ نوح عليه السلام دمشقَ، وأنشأ سفينتَه من خشب لبنانَ بين زمزمَ وبين الركن والمقام، فلمَّا كَمَلَتْ حَملَ فيها السباعَ والدوابَّ في الباب الأوّل، وجعل الوحشَ والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما، وجعلَ أولادَ آدمَ أربعينَ رجلاً وأربعين امرأةً في الباب الأعلى، وأطبق عليهم، وجعل الذَّرَّ معه في الباب الأعلى لضَعْفها؛ ألَّا تَطَأَها الدوابّ[2].

قال الزُّهريُّ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعثَ ريحاً، فحمل إليه من كلّ زوجين اثنين، من السباع والطير والوحش والبهائم[3].

وقال جعفرُ بن محمد: بعث الله جبريلَ فحشرهم، فجعل يضربُ بيديه على الزوجين، فتقعُ يده اليمنى على الذكر، واليسرى على الأنثى، فيُدخله السفينة.

وقال زيدُ بن ثابت: استصعبتْ على نوحٍ الماعزةُ أنْ تدخلَ السفينةَ، فدفعها بيده في ذنبَها؛ فمن ثَمَّ انكسر ذنبُها فصار مَعْقوفاً وبدا حَياؤها. ومضتِ النعجةُ حتى دخلتْ، فمسح على ذنبها فسُتِرَ حياؤها[4].

قال إسحاق: أخبرنا رجلٌ من أهل العلم: أنَّ نوحاً حَمَلَ أهلَ السفينة، وجعل فيها من كلّ زوجين اثنين، وحمل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدةُ في السفينة قبل أن تَظهرَ الأرضُ، فحملها الهدهدُ فطاف بها الدنيا ليصيبَ لها مكاناً، فلم يجد طيناً ولا تراباً، فرحمه ربُّه فحفر لها في قفاه قبراً فدفنها فيه، فذلك الريشُ الناتئ في قفا

---

(١) أخرجه ابن عساكر ٦٢/٢٤٨ - ٢٤٩ من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وذكره الثعلبي في العرائس ص٥٦ - ٥٧ مطولاً، والخبر من الإسرائيليات.

(٢) ينظر تاريخ ابن عساكر ٦٢/٢٤١ و ٢٤٩ .

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٥ .

(٤) أخرجهما ابن عساكر ٦٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣ و ٢٥٥ ، وهما من الأخبار التالفة.

الهدهد موضعُ القبر؛ فلذلك نَتَأَت أقفيةُ الهداهد[١].

وقال رسول الله ﷺ: «كان حمل نوحٌ معه في السفينة من جميع الشجر، وكانت العَجْوةُ من الجنة مع نوح في السفينة»[٢].

وذكَرَ صاحبُ كتاب «العروس»[٣] وغيرُه: أنَّ نوحاً عليه السلام لمَّا أراد أن يبعثَ مَن يأتيه بخبر الأرض قال الدَّجاج: أنا، فأخذها وختَمَ على جناحها وقال لها: أنتِ مختومةٌ بخاتَمي، لا تطيري أبداً، أنتِ ينتفعُ بكِ أمتي. فبعث الغرابَ، فأصاب جِيفةً فوقع عليها فاحتبس، فلعنه، ولذلك يُقتلُ في الحِلّ والحَرَم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يَألَفُ البيوت. وبعث الحمامةَ فلم تجد قراراً فوقَعتْ على شجرة بأرض سَبأ[٤]، فحملتْ ورقةَ زيتونةٍ، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكنْ من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادي الحرَم، فإذا الماءُ قد نَضَبَ من مواضعِ الكعبة، وكانت طينتُها حمراءَ، فاختضبتْ رجلاها، ثم جاءت إلى نوح عليه السلام فقالت: بُشْرايَ منكَ أنْ تهبَ لي الطَّوْقَ في عنقي، والخِضابَ في رجلي، وأسكن الحَرَم، فمسح يدَه على عنقها وطوَّقها، ووهبَ لها الحمرةَ في رجليها، ودعا لها ولذرِّيتها بالبركة.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦١ . وإسحاق هو ابن بشر. قال الدارقطني: كذاب متروك. ميزان الاعتدال ١/ ١٨٤ .

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٢/ ٢٦١ من حديث علي ﷺ. وقوله: «العجوة من الجنة». أخرجه أحمد (٨٠٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، و(١١٤٥٣) من حديث جابر وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، و(١٥٥٠٨) من حديث رافع بن عمرو المزني، و(١١٩٣٨) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ. والخبر في تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) كتاب العروس لجعفر بن محمد، قال الملا علي القاري في المصنوع ص٢٥١ : وقال الديلمي: أسانيد كتاب العروس لأبي الفضل جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي الحسيني واهية لا يعتمد عليها، وأحاديثه منكرة. والخبر ذكره ابن عساكر ٦٢/ ٢٦٣ - ٢٦٤ . وكان من الأَولى بالمصنف أن ينزه كتابه عن أمثال هذه القصص التالفة.

(٤) في (د) و(م): سيناء.

وذكر الثعلبيّ أنه بعث بعد الغراب التُّدْرُج[١] وكان من جنس الدَّجاج، وقال: إياك أنْ تعتذرَ، فأصاب الخُضْرةَ والفُرْجَةَ فلم يرجعْ، وأخذ أولادَه عنده رهناً إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أي: دعاه. ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: من أهلي الذين وعدتَهم أنْ تُنجيَهم من الغرق؛ ففي الكلام حذفٌ. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الصدقَ.

وقال علماؤنا: وإنما سأل نوحٌ ربَّه ابنَه لقوله: «وَأَهْلَكَ»، وترك قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[٢] فلمَّا كان عنده من أهله قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ يدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تكن ممن لستَ منهم؛ لأنه كان عنده مؤمناً في ظنِّه[٣]، ولم يك نوحٌ يقول لربه: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ إلَّا وذلك عنده كذلك؛ إذ محالٌ أن يَسألَ هلاكَ الكفار، ثم يسألَ في إنجاء بعضِهم، وكان ابنه يُسِرُّ الكفرَ ويُظهرُ الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفردٌ به من علم الغيوب؛ أي: علمتُ من حال ابنك ما لم تعلمْه أنت.

وقال الحسن: كان منافقاً؛ ولذلك استَحَلَّ نوحٌ أنْ يناديَه[٤]. وعنه أيضاً: كان ابنَ

---

(١) طائر يغرِّد في البساتين بأصوات طيبة، يكون بأرض خراسان وغيرها من بلاد فارس. حياة الحيوان ص١٦٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٤٦ .

(٣) ينظر لطائف الإشارات ٢/١٣٧ .

(٤) النكت والعيون ٢/٤٧٦ .

امرأته[١]، دليلُه قراءةُ عليٍّ: «ونادى نوحٌ ابْنَها»[٢].

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ابتداءٌ وخبر. أي: حكمتَ على قومٍ بالنجاة، وعلى قومٍ بالغرق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي: ليس من أهلك الذين وعدتُهم أن أُنجِيَهم؛ قاله سعيدُ بن جُبير. وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك[٣]، فهو على حذفِ مضاف. وهذا يدلُّ على أنَّ حكمَ الاتفاق في الدِّين أقوى من حكم النسب.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ قرأ ابن عباس وعُروةُ وعِكرمةُ ويعقوبُ والكسائيُّ: ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾[٤] أي: من الكفر والتكذيب، واختاره أبو عبيد. وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ﴾أي: ابنُك ذو عملٍ غيرِ صالح، فحذف المضاف؛ قاله الزجَّاج وغيرُه[٥]. قال:

تَـرْتَـعُ مـا رَتَـعـتْ حـتَّـى إذا ادَّكَـرتْ فَـإنــمــا هــي إقــبــالٌ وإدبــار[٦]

أي: ذاتُ إقبالٍ وإدبار. وهذا القولُ والذي قبلَه يَرجِعُ إلى معنًى واحد.

ويجوز أن تكونَ الهاءُ للسؤال، أي: إنَّ سؤالَك إيايَ أن أُنجيَه عملٌ غيرُ صالح. قاله قتادة[٧].

وقال الحسن: معنى عمل غير صالح: أنه وُلِدَ على فراشه ولم يكن ابنَه. وكان

---

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٠.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦.

(٤) السبعة ص٤٣٣ والتيسير ص١٢٥ عن الكسائي، والنشر ٢/ ٢٨٩ عنه وعن يعقوب، وأخرجها عن ابن عباس الطبري ١٢/ ٤٣٥، وذكرها ابن عطية ٣/ ١٧٧ عن علي وابن عباس وعائشة وأنس ﭫ.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٥، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٥.

(٦) البيت للخنساء، وهو في ديوانها ص٤٨، وسلف ٣/ ٥٤ و ٩/ ٢٥٩.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠، وسعيد بن منصور في سننه (١٠٩٣ - تفسير).

لغير رِشْدَة، وقاله أيضاً مجاهد[1]. قال قتادة: سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنَه، قلت: إنَّ الله أخبرَ عن نوحٍ أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فقال: لم يقلْ مني، وهذه إشارةٌ إلى أنه كان ابنَ امرأتِه من زوجٍ آخرَ، فقلت له: إنَّ الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ ولا يختلفُ أهلُ الكتابين أنه ابنُه، فقال الحسن: ومَن يأخذُ دينَه عن أهل الكتاب! إنهم يكذِبون. وقرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠][2]. وقال ابنُ جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان وُلد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه[3]؛ ولهذا قال: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

وقال ابن عباس: ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطّ، وأنه كان ابنَه لصُلْبه. وكذلك قال الضَّحاك وعِكرمةُ وسعيدُ بن جُبير وميمون بن مِهران وغيرُهم، وأنه كان ابنَه لصُلْبه.

وقيل: لسعيدِ بن جُبير: يقول نوح: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنَه؟ فسبَّح اللهَ طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يُحدِّثُ اللهُ محمداً ﷺ أنه ابنُه، وتقول: إنه ليس ابنَه! نَعمْ كان ابنَه، ولكنْ كان مخالفاً في النية والعمل والدِّين[4]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وهذا هو الصحيحُ في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة مَن قال به، وإنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ليس مما ينفي عنه أنَّه ابنه[5].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٧٥ ، وأخرجه قولهما الطبري ١٢/ ٤٢٦ و ٤٣٤ . وقوله: لغير رشدة، أي: لِغَيَّة وزَنية. اللسان (رشد). وقد ردَّ الألوسي هذا الكلام في روح المعاني ١٢/ ٥٨ ، وقال: نسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كذبٌ صريح. وقال: إن الله تعالى قد طهَّر الأنبياء عليهم السلام عما دون ذلك من النقص بمراحل، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يشار إليهم بأصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٠٦ ، والطبري ١٢/ ٤٢٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٨ ، وسلف أن هذا الكلام لا يصح.

(٤) أخرجه مع ما سبقه من قول ابن عباس وغيره الطبري ١٢/ ٤٢٨ - ٤٣٣ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ .

وقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني في الدِّين لا في الفِراش[١]، وذلك أنَّ هذه كانتْ تُخبرُ الناسَ أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أمَا ينصرُك ربُّك؟ فقال لها: نعم. قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُّور. فخرجتْ تقول لقومها: يا قوم، والله إنه لمجنون، يزعمُ أنه لا ينصره ربُّه إلا أنْ يفورَ هذا التَّنُّور! فهذه خيانتُها. وخيانةُ الأخرى أنها كانت تدلُّ على الأضياف[٢]. على ما سيأتي إن شاء الله[٣]. والله أعلم.

وقيل: الولدُ قد يسمَّى عملاً كما يسمَّى كَسْباً، كما في الخبر: «أولادُكم مِن كَسْبكم»[٤]. ذكره القشيريُّ.

الثالثة: في هذه الآية تسليةٌ للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين[٥]. ورُوِيَ أنَّ ابنَ مالك بنِ أنس نزل من فوقُ ومعه حمامٌ قد غطَّاه، قال: فَعَلمَ مالكٌ أنه قد فَهِمَه الناسُ، فقال مالك: الأدبُ أدبُ الله، لا أدبُ الآباءِ والأمهات، والخيرُ خير الله، لا خيرُ الآباء والأمهات[٦].

وفيها أيضاً دليلٌ على أنَّ الابنَ من الأهل لغةً وشرعاً، ومن أهل البيت[٧]، فَمَن وصَّى لأهله دخَلَ في ذلك ابنُه ومَن تضمَّنَه منزلُه وهو في عياله. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦]. فسمَّى جميعَ مَن ضمَّه منزلُه من أهله[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٨٧.

(٢) أخرجه مختصراً عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣١٠، والطبري ١٢/ ٤٣٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: الأخرى، يعني امرأة لوط.

(٣) ص١٧٦ من هذا الجزء، وعند تفسير الآية (١٠) من سورة التحريم.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٥٢٩٦)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢٢٩٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٧.

(٦) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (١٤٨).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٧.

(٨) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٥ - ٢٢٦.

الرابعة: ودلَّتِ الآيةُ على قول الحسن ومجاهد وغيرِهما: أنَّ الولدَ للفراش؛ ولذلك قال نوحٌ ما قال آخِذاً بظاهرِ الفراش. وقد رَوَى سفيانُ بن عُيينة عن عمرِو بن دينار، أنه سمع عُبيد بن عمير يقول: نُرى رسول الله ﷺ إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام، ذكره أبو عمر في كتاب «التمهيد»[١].

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الولدُ للفراش، وللعاهِر الحَجَر»[٢] يريد: الخيبةَ. وقيل: الرَّجم بالحجارة[٣].

وقرأ عُروة بن الزّبير: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا»[٤] يريد ابن امرأته، وهي تفسيرُ القراءة المتقدِّمةِ عنه وعن عليٍّ ﷺ[٥]، وهي حُجَّةٌ للحسن ومجاهد؛ إلا أنها قراءةٌ شاذَّة، فلا نَترك المتفقَ عليها لها. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: أنهاك عن هذا السؤال، وأُحذِّرُك لئلَّا تكون، أو كراهيةَ أن تكون من الجاهلين، أي: الآثمين[٦]. ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور:١٧] أي: يحذِّرُكم الله وينهاكم. وقيل: المعنى: أرفعُك أن تكونَ من الجاهلين[٧].

قال ابنُ العربيِّ: وهذه زيادةٌ من الله وموعظةٌ يرفعُ بها نوحاً عن مَقام الجاهلين،

---

(١) ٨/ ١٩٥ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٢٨ ، وهو ضعيف لإرساله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨٦)، والبخاري (٢٠٥٧)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٧٢٦٢)، ومسلم (١٤٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) المفهم ٤/ ١٩٧ . وضعَّف أبو العباس القول الثاني، وكذلك النووي في شرحه لصحيح مسلم ١٠/ ٣٧ وقال: لأنه ليس كل زانٍ يرجم، وإنما يرجم المحصَن خاصة، ولأنه لا يلزم مِن رَجْمه نَفْيُ الولد عنه، والحديث إنما ورد في نفي الولد عنه.

(٤) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٢٦ ، وسلف ذكرها عن علي ﷺ.

(٥) ص١٢٣ من هذا الجزء، وهي قراءة: «ونادى نوح ابنَهَ».

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٦ ، والوسيط ٢/ ٥٧٦ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٧٦ .

ويُعليه بها إلى مَقام العلماء والعارفين، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية، وهذه ذنوبُ الأنبياء عليهم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه[١]. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرَط من السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ أي: بالتوبة. ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: أعمالاً. فقال: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: قالت له الملائكةُ، أو قال الله تعالى له: اهبط من السفينة إلى الأرض، أو من الجبل إلى الأرض، فقد ابتلعتِ الماءَ وجفَّت. «بِسَلَامٍ مِنَّا» أي: بسلامةٍ وأمن. وقيل: بتحية[٢].

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: نِعَمٍ ثابتةٍ، مشتقٌّ من بروكِ الجمل، وهو ثبوتُه وإقامتُه[٣]. ومنه البِركةُ؛ لثبوت الماء فيها.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: نوحٌ آدمُ الأصغرُ[٤]. فجميع الخلائقِ الآنَ من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا مَن كان من ذرِّيته، على قول قَتادةَ وغيرِه، حسبَ ما تقدَّم[٥]، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ قيل: دخلَ في هذا كلُّ مؤمنٍ إلى يومِ القيامة. ودخل في قوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كلُّ كافرٍ إلى يوم القيامة؛ رُوِيَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣ - ٤ . وقد ردَّ الرازي على مَن قدح في عصمة الأنبياء، وذكر أنه يجب حمل الكلام هنا على أنه من باب ترك الأفضل والأكمل، وقد قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ قال: ومعلوم أن مجيء نصر الله والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ليست بذنب يوجب الاستغفار.

(٢) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ص٣٨٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٧٦ .

(٥) ص١١٧ من هذا الجزء، وينظر الوسيط ٢/ ٥٧٦ .

ذلك عن محمد بن كعب. والتقدير على هذا: وعلى ذرِّيَّةِ أمم ممَّن معك، وذرِّيَّةِ أممٍ سنمتِّعهم[١].

وقيل: «مِن» للتبعيض، وتكونُ لبيان الجنس.

«وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ»؛ ارتفع «وَأُمَمٌ» على معنى: وتكونُ أمم. قال الأخفشُ سعيدٌ: كما تقول: كلَّمتُ زيداً وعمرٌو جالسٌ. وأجازَ الفرَّاء في غير القراءة: وأمماً، وتقديرُه: ونمتِّع أمماً[٢]. وأعيدت «على» مع «أُمَم» لأنه معطوفٌ على الكاف من «عَلَيْكَ»، وهي ضميرُ المجرور، ولا يُعطَفُ على ضمير المجرور إلا بإعادة الجارِّ على قول سيبويه وغيره. وقد تقدَّم في «النساء» بيان هذا مستوفًى في قوله تعالى: ﴿واتقوا اللهَ الذي تَساءلون به والأرحامِ﴾ بالخفض.

والباء في قوله: «بِسَلَامٍ» متعلقة بمحذوف؛ لأنها في موضع الحال، أي: اهبط مسلَّماً عليك. و«عليك»[٣] في موضع جرٍّ متعلِّقٌ بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات. «وَعَلَى أُمَمٍ» متعلِّقٌ بما تعلَّق به «عَلَيْكَ»؛ لأنه أُعيد من أجل المعطوف على الكاف. و«مِن» في قوله: «مِمَّنْ مَعَكَ» متعلِّقٌ بمحذوف؛ لأنه في موضع جرٍّ نعتٍ للأمم.

و«مَعَكَ» متعلِّقٌ بفعلٍ محذوف؛ لأنه صلةٌ لـ «مَن»، أي: ممن استقرَّ معك، أو آمن معك، أو ركب معك[٤].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: تلك الأنباءُ، وفي موضعٍ آخَرَ: «ذلك»، أي: ذلك النبأُ والقَصَصُ من أنباء ما غاب عنك. ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: لتقف عليها

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وخبر كعب أخرجه الطبري ١٢/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٨ .

(٣) في النسخ عدا (ز): ومنا، والمثبت من (ز)، وهو الصواب.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٧٩ .

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أي: كانوا غيرَ عارِفين بأمر الطوفان، والمجوس الآن ينكرونه.

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ خبر، أي: مجهولةٌ عندك وعند قومك. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مَشاقِّ الرسالة وإذاية القوم كما صبر نوح[1]. وقيل: أرادَ جهلَهم بقصةِ ابن نوح، وإن سمعوا أمرَ الطوفان فإنه على الجملة.

﴿فَاصْبِرْ﴾ أي: اصبر يا محمدُ على القيام بأمر الله وتبليغِ رسالته، وما تَلْقى من أذى العربِ الكفار، كما صبر نوحٌ على أذى قومه.﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظَّفَر، وفي الآخرة بالفوز ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشِّرْك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا، فهو معطوفٌ على ﴿أَرْسَلْنَا

---

(١) من قوله: من قبل هذا ،خبر، إلى هذا الموضع، من (م).

﴿نُوحًا﴾ [هود: ٢٥]. وقيل له أخوهم؛ لأنه منهم، وكانت القبيلةُ تجمعُهم، كما تقول: يا أخا تميمٍ، وقيل: إنَّما قيل له: أخوهم؛ لأنه من بني آدم، كما أنَّهم من بني آدم(١)، وقد تقدَّم هذا في «الأعراف»(٢)، وكانوا عَبَدَةَ الأوثان.

وقيل: هم عادَان، عادُ الأولى، وعادُ الأخرى، فهؤلاء هم الأولى، وأما الأخرى فهو شدَّاد ولُقْمان المذكوران في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧].

وعادٌ: اسم رجلٍ، ثم استمرَّ(٣) على قومٍ انتسبوا إليه.

﴿قال يا قومِ اعبُدُوا اللهَ مالكم من إلهٍ غيرِهِ﴾ بالخَفْض على اللفظ، و«غيرُهُ» بالرفع على الموضع، و«غيرَهُ» بالنَّصب على الاستثناء(٤).

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم في اتِّخاذِكُم إلهاً غيرَه إلَّا كاذبون عليه جلَّ وعزَّ(٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ تقدَّم معناه(٦). والفِطْرة: ابتداءُ الخلق.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما جرى على قومِ نوحٍ لمَّا كذَّبوا الرُّسل.

قول تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ تقدَّم في أوَّل السورة(٧).

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ جُزِم لأنه جوابٌ، وفيه معنى المُجازاة.

---

(١) ضعف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٧٩ .

(٢) ٩/ ٢٦٢ .

(٣) في (ظ): اشتهر.

(٤) الخفض والرفع قراءتان متواترتان، وقد سلف الكلام فيهما ٩/ ٢٦٠ ، وأما النصب فقراءة شاذة. القراءات الشاذة ص٤٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٧ .

(٦) ص٢٥-٢٦ من هذا الجزء.

(٧) ص٦٧ من هذا الجزء.

﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نصبٌ على الحال، وفيه معنى التكثير؛ أي: يرسلُ السماء بالمطر متتابعاً يتلو بعضُه بعضاً، والعربُ تحذِفُ الهاء في مِفْعال على النَّسَب[١]، وأكثرُ ما يأتي مِفْعال من أَفْعَل، وقد جاء هاهنا من فَعَل؛ لأنه من: درَّتِ السماءُ تَدِرُّ وتَدُرُّ، فهي مِدْرارٌ.

وكان قومُ هود ـ أعني عاداً ـ أهلَ بساتين وزروعٍ وعمارةٍ، وكانت مساكنُهم الرمالَ التي بين الشام واليمن[٢]، كما تقدَّم في «الأعراف»[٣].

﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ عطفٌ على يُرسل.

﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قال مجاهد: شدَّةً إلى[٤] شدَّتكم. الضَّحَّاك: خِصْباً إلى خِصْبكم. عليُّ بنُ عيسى: عِزًّا إلى[٥] عزِّكم. عِكرمة: ولدُ الولد[٦]. وقيل: إن الله حبَسَ عنهم المطر وأعْقَم الأرحامَ ثلاثَ سنين، فلم يُوْلَد لهم ولدٌ، فقال لهم هودٌ: إنْ آمنتُم أحيا الله بلادَكم، ورزَقكم المالَ والولد، فتلك القوَّة. وقال الزجَّاج[٧]: المعنى يَزِدكم قوَّةً في النِّعم.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تُعرِضوا عمَّا أدعوكم إليه، وتُقيموا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: حُجَّة واضحة. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إصرارٌ[٨] منهم على الكفر.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥٧.

(٣) ٧/ ٢٣٦، وفيه أن مساكنهم كانت بنواحي حضرموت إلى اليمن.

(٤) في (د) و(م): على.

(٥) في (م): على.

(٦) في (م): ولداً إلى ولدكم، وفي (ظ): دوام الولد، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٢/ ٤٧٧.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٥٧.

(٨) في (م): إصراراً.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي: أصابَكَ. ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: أصنامِنا. ﴿بِسُوٓءٍ﴾ أي: بجنونٍ لِسَبِّك إياها، عن ابن عباس وغيره[١]. يقال: عَرَاهُ الأمرُ واعْتَرَاه واعترَّه[٢]: إذا أَلَمَّ به. ومنه ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾[٣] [الحج: ٣٦].

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أي: على نفسي. ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أي: وأُشهِدُكم، لا أنَّهم كانوا أهلَ شهادةٍ، ولكنَّه نهايةٌ للتقرير، أي: لتعرفوا ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: من عبادة الأصنام التي تعبدونَها.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وأوثانُكم في عداوتي[٤] وضَرِّي. ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تؤخِّرون. وهذا القولُ مع كثرة الأعداء يدلُّ على كمال الثِّقة بنصر الله تعالى، وهو من أعلام النبوَّة؛ أن يكون الرسولُ وحدَه يقولُ لقومه: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾، وكذلك قال النبيُّ ﷺ لقريش[٥]، وقال نوحٌ ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية [يونس: ٧١].

قوله تعالى: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ أي: رضيتُ بحُكمه، ووَثِقْتُ بنصره.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: نفسٍ تدِبُّ على الأرض، وهو في موضع رفعٍ بالابتداء. ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي: يَصْرِفها كيف يشاء، ويمنعُها مما يشاء، أي: فلا تصلون إلى ضَرِّي. وكلُّ ما فيه رُوح يقال له: دابٌّ ودابَّة، والهاء للمبالغة[٦]. وقال الفراء: مالكُها، والقادرُ عليها، وقال القُتَبيُّ[٧]: قاهرُها؛ لأنَّ من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه، وقال الضحَّاك: يُحييها ثم يميتُها[٨]، والمعنى متقارِبٌ.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/٤٤٧ .

(٢) قوله: واعترَّه، ليس في (م).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٥٧ .

(٤) في (ظ): عذابي.

(٥) يشير إلى قوله سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٩].

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٨٨ .

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص١٣٨ .

(٨) تفسير البغوي ٢/٣٨٨ - ٣٨٩ ، والأقوال السالفة منه.

والناصية: قُصاصُ الشَّعر في مقدَّم الرأس، ونَصَوْتُ الرجلَ أنصوه نَصْواً، أي: مددتُ ناصيتَه.

قال ابن جَرِير[1]: إنما خَصَّ الناصية؛ لأنَّ العربَ تستعمل ذلك إذا وصفَتْ إنساناً بالذِّلَّة والخضوع، فيقولون: ما ناصيةُ فلان إلَّا بيد فلان، أي: إنه مطيعٌ له يُصرِّفُه كيف يشاء، وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جَزُّوا ناصيته، ليعرفوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم اللهُ بما يعرفونَ في كلامهم.

وقال الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[2]: قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ وجهُهُ عندنا أن الله تعالى قدَّر مقادير أعمال العباد، ثم نظَرَ إليها، ثم خلَقَ خلقَه، وقد نفَذَ بصرُه في جميع ما هم فيه عاملون من قَبْل أن يخلقَهم، فلمَّا خلقَهم وضعَ نور تلك النَّظْرة في نواصيهم، فذلك النورُ آخِذٌ بنواصيهم، يُجريهم إلى أعمالهم المقدَّرة عليهم يوم المقادير.

وخلَقَ الله المقادير قبل أن يخلُقَ السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ، رواه عبد الله بنُ عَمرو بن العاص، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قدَّرَ الله المقادير قبل أن يخلُقَ السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ»[3].

ولهذا قَوِيَت الرسلُ وصاروا من أُولي العَزْم؛ لأنهم لاحظوا نورَ النواصي، وأيقنوا أنَّ جميعَ خلقه منقادون[4] بتلك الأنوار إلى ما نفَذَ بصرُه فيهم من الأعمال، فأوفرُهم حظًّا من الملاحظة أقواهم في العَزْم، ولذلك ما قَوِيَ هود[5] النبيُّ ﷺ حتى قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾.

---

(١) في النسخ: ابن جُريج، وهو خطأ، وابن جرير: هو الطبري، والكلام في تفسيره ١٢/ ٤٤٩ .

(٢) قوله: في نوادر الأصول، ليس في (ظ)، ولم نقف على كلامه في المطبوع من النوادر.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٦٥٣).

(٤) في (ظ): متفاوتون.

(٥) في (ظ): عزم، بدل: هود.

وإنما سُمِّيت ناصيةً؛ لأن الأعمالَ قد نَصَّت وبرزَتْ من غيبِ الغيب، فصارت منصوصةً في المقادير، قد نفذ بَصَرُ الخالق في جميع حركات الخلق بقدرةٍ، ثم وُضِعَتْ حركاتُ كلٍّ من دَبَّ على الأرض حيًّا في جبهته بين عينيه، فسُمِّي ذلك الموضعُ منه ناصيةً؛ لأنها تَنُصُّ حركاتِ العباد بما قدَّر، فالناصيةُ مأخوذةٌ بمنصوصِ الحركات التي نظَرَ اللهُ تعالى إليها قبل أن يخلُقَها.

ووصفَ ناصيةَ أبي جهل، فقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦]؛ يُخْبِرُ أنَّ النواصيَ فيها كاذبةٌ خاطئةٌ، فعلى سبيل ما تأوَّلوه يستحيلُ أن تكون الناصيةُ منسوبةً إلى الكذب والخطأ، والله أعلم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال النحَّاس: الصِّراطُ في اللغة: المِنْهاج الواضحُ، والمعنى أن الله جلَّ ثناؤه، وإن كان يقدِرُ على كلِّ شيء، فإنه لا يأخُذُهم إلا بالحقِّ[١]. وقيل: معناه: لا خَلَلَ في تدبيره، ولا تفاوتَ في خلقه سبحانه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ في موضع جزم؛ فلذلك حُذِفت منه النون، والأصلُ: تتولَّوا، فحُذِفت التاءُ؛ لاجتماع تاءين. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ بمعنى: قد بيَّنتُ لكم.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يُهْلِكُكم، ويخلُقُ من هو أطوَعُ له منكم يوحِّدُونه ويعبُدونه. «ويَستخلِفُ» مقطوعٌ ممَّا قبلَه، فلذلك ارتفع، أو معطوفٌ على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله: «فقد أبلَغتُكم»[٣]. ورُوِيَ عن حفص عن عاصم: «ويَستخلِفْ» بالجَزْم حملاً على موضع الفاء وما بعدها[٤]، مثل: ﴿ويَذَرْهُم في طُغيانِهِم يَعْمَهونَ﴾[٥] [الأعراف:١٨٦].

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٣٥٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٨.

(٤) رواها هبيرة عن حفص. المحرر الوجيز ٣/ ١٨٢، والقراءة المتواترة عن حفص بالرفع، كقراءة الجماعة.

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي، وسلف ذكرها ٩/ ٤٠٤.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ أي: بتولِّيكم وإعراضكم. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: لكلِّ شيءٍ حافظ. «على» بمعنى اللام، فهو يحفظُني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا بهلاك عادٍ. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأن أحداً لا يَنْجو إلا برحمةِ الله تعالى، وإن كانت له أعمالٌ صالحة. وفي «صحيح» مسلمٍ والبخاريِّ وغيرِهما[1]، عن النبيِّ ﷺ: «لن يُنجيَ أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتغمَّدنيَ اللهُ برحمةٍ منه».

وقيل: معنى «بِرَحْمَةٍ مِنَّا»: بأن بيَّنَّا لهم الهُدى الذي هو رحمةٌ. وكانوا أربعةَ آلاف، وقيل: ثلاثةَ آلاف.

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: عذابِ يوم القيامة، وقيل: هو الريحُ العقيم؛ كما ذكر الله في «الذاريات» وغيرِها، وسيأتي[2].

قال القُشَيريُّ أبو نَصْر: والعذابُ الذي يتوعَّد به النبيُّ أُمته إذا حضر يُنَجِّي الله منه النبيَّ والمؤمنين معه، نعم، لا يبعُدُ أن يبتليَ الله نبيًّا وقومَه فيَعُمَّهم ببلاء، فيكون ذلك عقوبةً للكافرين، وتمحيصاً للمؤمنين، إذا لم يكن مما توعَّدَهم النبيُّ به.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ابتداءٌ وخبر. وحكى الكسائيُّ أن من العرب من لا يصرِفُ «عاداً»، فيجعله اسماً للقبيلة[3]. ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كذَّبوا بالمعجزات وأنكروها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً وحدَه، لأنه لم يُرسل إليهم من الرُّسل سواه. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] يعني النبيَّ ﷺ وحدَه؛ لأنه لم يكن في عصرِه رسولٌ سواه، وإنما جَمَعَ هاهنا؛ لأن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كَفَرَ بجميع الرُّسل. وقيل: عَصَوا هوداً والرُّسُلَ قبلَه، وكانوا بحيث لو

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٦): (٧١)، وصحيح البخاري (٦٤٦٢) عن أبي هريرة، وهو في المسند (٧٢٠٣).
(٢) عند تفسير الآية (٤١) منها.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٨٩ .

أُرسِلَ إليهم ألفُ رسولٍ لَجحدوا الكُلَّ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: اتَّبع سُقَّاطُهم رؤساءَهم. والجَبَّار: المتكبِّر، والعنيد: الطاغي الذي لا يقبَلُ الحقَّ ولا يُذعِنُ له. قال أبو عُبيدة[1]: العَنِيد والعَنود والعانِد والمُعانِد: المُعارِض بالخلاف، ومنه قيل للعِرْق الذي ينفجِرُ بالدم: عانِدٌ. قال الراجز:

إنِّي كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدا[2]

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أُلحِقُوها. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: وأُتبِعُوا يوم القيامة مثل ذلك، فالتمامُ على قوله: «ويومَ القيامة»[3].

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ قال الفرَّاء[4]: أي: كفروا نعمةَ ربهم، قال: ويُقال: كَفَرتُه وكَفَرتُ به، مثل: شكرتُه وشكرتُ له.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي: لا زالوا مُبْعَدين عن رحمة الله. والبُعد: الهلاك، والبُعد: التَّباعُدُ من الخير، يقال: بَعُد يبعُد بُعْداً: إذا تأخَّر وتباعَدَ، وبَعِد يَبْعَد بَعَداً: إذا هلك، قال:

لا يَبعَدَنْ قومي الذين هُمُ ... سمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ[5]

وقال النابغة:

فلا تَبعَدنْ إنَّ المنيةَ مَنهَلٌ ... وكلُّ امرئ يوماً به الحالُ زائلُ[6]

---

(١) في (م): أبو عبيد، والمثبت من (ز) و(ظ)، والكلام في مجاز القرآن له ١/ ٢٩٠ ، بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٨٩ .

(٢) أورده كذلك الطبري ١٢/ ٤٥٢ ، وابن الشجري في أماليه ١/ ٤٢٢ ، وقبله عنده: إذا ركبت فاجعلوني وسطاً. والعندا: الصعاب من الإبل، وسيذكر المصنف الرجز عند تفسير الآية (١٥) من سورة إبراهيم.

(٣) والوقف حسن، كما في الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧١٤ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٠ ، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٩ .

(٥) سلف ٣/ ٥٦ .

(٦) ديوان النابغة الذبياني ص٩٠ ، وفيه: إن المنية موعد.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: في النَّسَب. ﴿صَٰلِحًا﴾. وقرأ يحيى بنُ وثَّاب: «وإلى ثَمُودٍ» بالتنوين في كلِّ القرآن[1]، وكذا رُويَ عن الحسن، واختلف سائر القرَّاء فيه، فصَرَفوه في موضع، ولم يَصرفوه في موضع[2]، وزعم أبو عُبيدة أنه لولا مخالفةُ السَّواد لكان الوجهُ تركَ الصَّرف؛ إذ كان الأغلبُ عليه التأنيث. قال النحَّاس[3]: الذي قاله أبو عُبيدة ـ رحمه الله ـ من أن الغالبَ عليه التأنيثُ كلامٌ مردودٌ؛ لأن ثموداً يقال له حيٌّ، ويقال له قَبيلة، وليس الغالب عليه القَبيلة، بل الأمرُ على ضدِّ ما قال عند سيبويه، والأجودُ عند سيبويه[4] فيما لم يُقل فيه: بنو فلان، الصَّرفُ، نحو قريش وثَقِيف وما أشبَهَهما، وكذلك ثمود، والعلةُ في ذلك أنه لمَّا كان التذكيرُ الأصلَ، وكان يقعُ له مذكَّر ومؤنَّث؛ كان الأصلُ الأخفُّ أولى، والتأنيث جيِّد بالغٌ حسن. وأنشد سيبويه[4] في التأنيث:

غَلبَ المَسامِيحَ الوليدُ سماحةً ... وكَفَى قريشَ المعضِلاتِ وسادَها[5]

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدَّم[6].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ خلقَكم من الأرض، وذلك أن آدمَ خُلِقَ من

(١) القراءات الشاذة ص٤٤، وزاد نسبتها للأعمش.

(٢) ينظر السبعة ص٣٣٧، والتيسير ص١٢٥.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٨٩ -٢٩٠، وما قبله منه. إلا أن فيه: أبو عبيد، في الموضعين.

(٤) الكتاب ٣/ ٢٥٠. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٥) البيت لعَدِيِّ بن الرِّقاع. والمساميح: جمع سَمْح على غير قياسٍ، وهو من الجمع النادر، والمعضلات: الشدائد. شرح الشواهد للشنتمري ص٤٦٠ - ٤٦١.

(٦) ٩/ ٢٦٠.

الأرض على ما تقدَّم في «البقرة» و«الأنعام»[١]. وهم منه. وقيل: أنشأكم في الأرض.

ولا يجوز إدغامُ الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» إلا على لغةِ مَنْ حذَفَ الواوَ في الإدراج[٢].

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّارَها وسكَّانَها. قال مجاهدٌ: ومعنى «استعمَرَكم»: أعمركم، من قولهم[٣]: أَعْمَر فلانٌ فلاناً دارَه، فهي له عُمْرَى، وقال قَتَادة: أسكنكم فيها، وعلى هذين القولين يكون استَفْعَل بمعنى أَفْعَل، مثل: استجاب بمعنى أجاب، وقال الضَّحَّاك: أطال أعماركم، وكانت أعمارُهم من ثلاث مئة إلى ألف[٤]. ابن عباس: أعاشَكم فيها. زيد بنُ أسلم: أمرَكم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بناءِ مساكنَ، وغَرْسِ أشجارٍ. وقيل: المعنى: ألهمَكم عمارتَها من الحَرْث والغَرْس وحَفْر الأنهار وغيرها.

الثالثة: قال ابنُ العربيِّ[٥]: قال بعضُ علماء الشافعية: الاستعمار: طلبُ العِمارة، والطلبُ المطلقُ من الله تعالى على الوجوب. قال القاضي أبو بكر: تأتي كلمةُ استَفْعَل في لسان العرب على معان منها: استَفْعَل بمعنى طلب الفعل، كقوله: استحملتُه، أي: طلبتُ منه حُملاناً، وبمعنى اعتقَدَ، كقولهم: استسهلتُ هذا الأمر: اعتقدتُه سهلاً، أو وجدتُه سهلاً، واستعظمتُه؛ أي: اعتقدتُه عظيماً ووجدتُه، ومنه استفعلتُ بمعنى أصبتُ، كقولهم: استجَدْتُه أي: أصبتُه[٦] جيداً، ومنها بمعنى فَعَل، كقوله: قَرَّ في المكان واستقَرَّ، وقالوا: وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]

---

(١) ١/٤١٧ و ٨/٣١٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠ ، وإدغام الهاء من «غيره» في الهاء من «هو» من الإدغام الكبير لأبي عمرو البصري من رواية السوسي.

(٣) في (د) و(م): قوله.

(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٣ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٧٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٠ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في (د): وجدته، وفي (ظ): أصبت.

و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٤] منه.

فقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ خلقَكم لعمارتها، لا على معنى استَجَدْتُهُ واستسهلتُه، أي: أصبتُه جيداً وسهلاً، وهذا يستحيل في الخالق، فيرجع إلى أنه خَلَق؛ لأنه الفائدةُ، وقد يُعبَّر عن الشيء بفائدته مجازاً، ولا يصحُّ أن يقال: إنه طلبٌ من الله تعالى لعمارتها؛ فإنَّ هذا اللفظَ لا يجوز في حقِّه، أمَا أنه يصحُّ أن يقال: إنه استدعى عِمارتَها؛ فإنه جاء بلفظ استَفْعَل، وهو استدعاءُ الفعل بالقول ممن هو دونَه إذا كان أمراً، وطلبٌ للفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [رغبة].

قلتُ: لم يذكر استَفْعَل بمعنى أَفْعَل، مثل قوله: استوقَدَ بمعنى أوقَدَ، وقد ذكرناه(١). وهي:

الرابعة: ويكون فيها دليلٌ على الإسكان والعُمْرى، وقد مضى القولُ في «البقرة» في السُّكْنى والرُّقْبى(٢).

وأما العُمْرى فاختلف العلماءُ فيها على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنها تمليكٌ لمنافع الرَّقَبة حياةَ المُعْمَر مدةَ عُمُرِه، فإن لم يذكُر عَقِباً، فمات المُعْمِرُ؛ رجعتْ إلى الذي أعطاها أو لورثته، هذا قول القاسم بن محمد ويزيد ابن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهورُ مذهب مالك، وأحدُ أقوال الشافعي، وقد تقدَّم في «البقرة» حُجَّةُ هذا القول(٣).

الثاني: إنها تمليكُ الرقَبة ومنافِعِها، وهي هبةٌ مَبْتُولة(٤)، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثَّوري والحسن بن حيٍّ وأحمد بن حنبل وابن شُبْرمة

---

(١) ١/ ٣٢١.

(٢) ١/ ٤٤٥، وما بعدها.

(٣) ١/ ٤٤٦.

(٤) في (ظ) مقبولة. ومبتولة، أي: منقطعة من مال واهبها خارجة عنه، من البَتْل: وهو القطع وتمييز الشيء من الشيء. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٩١.

وأبي عُبيد، قالوا: من أعمَرَ رجلاً شيئاً حياتَه فهو له حياتَه، وبعد وفاتِه لورثته؛ لأنه قد ملَكَ رقبَتَها، وشَرْطُ المعطي الحياةَ أو العمرَ باطلٌ؛ لأن رسولَ الله ﷺ قال: «العُمْرى جائزةٌ»[١]، و«العُمْرى لمن وُهِبت له»[٢].

الثالث: إن قال: عُمرَك، ولم يذكر العَقِبَ، كان كالقولِ الأوّل، وإن قال: لعَقِبِك، كان كالقول الثاني، وبه قال الزُّهريُّ وأبو ثور وأبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن وابنُ أبي ذئب[٣]، وقد رُوي عن مالك، وهو ظاهرُ قوله في «الموطأ»[٤].

والمعروفُ عنه وعن أصحابه أنها ترجعُ إلى المُعْمِر إذا انقرضَ عَقِبُ المُعْمَر، إن كان المُعْمِر حيًّا، وإلا فإلى من كان حيًّا من ورثته وأولى الناس بميراثه، ولا يملِكُ المُعْمَر بلفظ العُمْرى عند مالك وأصحابه رقبةَ شيءٍ من الأشياء، وإنما يملِكُ بلفظ العُمْرى المنفعةَ دون الرقبة[٥].

وقد قال مالك في الحُبُس أيضاً إذا حبَسَ على رجل وعَقِبه: إنه لا يرجع إليه، وإن حبَسَ على رجلٍ بعينه حياتَه رجَعَ إليه، وكذلك العُمْرى قياساً[٦]، وهو ظاهر «الموطأ». وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ أعْمر رجلاً عُمْرى له ولعَقِبه فقال: قد أعطيتُكَها وعَقِبَك ما بقي منكم أحدٌ، فإنَّها لمن أُعْطِيَها[٧]، وإنها لا ترجِعُ إلى صاحبها؛ من أجلِ أنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريثُ». وعنه قال: إن العُمْرى التي أجاز رسولُ الله ﷺ أن يقول: هي لك ولعَقِبك، فأما إذا قال: هي لك ما عِشْتَ، فإنَّها ترجِعُ إلى صاحبِها. قال مَعْمَر: وبذلك كان الزُّهريّ يُفتي[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٢٦)، ومسلم (١٦٢٦): (٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٤٣)، والبخاري (٢٦٢٥)، ومسلم (١٦٢٥): (٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ﷺ.
(٣) ينظر التمهيد ٧/ ١١٤ وما بعدها.
(٤) ٢/ ٧٥٦.
(٥) الاستذكار ٢٢/ ٣١٧.
(٦) الكافي ٢/ ١٠١٣.
(٧) بعدها في (ز) و(ظ): وعقبه.
(٨) صحيح مسلم (١٦٢٥): (٢٢) و (٢٣)، وهما في مسند أحمد (١٥٢٩٠) و(١٤١٣١).

قلتُ: معنى القرآن يجري مع أهل القول الثاني؛ لأنَّ الله سبحانه قال: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أعمركم، فأعمَرَ الرجلَ الصَّالح فيها مدةَ حياتِه بالعمل الصَّالح، وبعد موته بالذِّكر الجميل والثناءِ الحسن، وبالعكس الرجلُ الفاجرُ، فالدنيا ظرفٌ لهما حياةً وموتاً. وقد يقال: إن الثناء الحسن يجري مجرى العَقِب. وفي التنزيل: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] أي: ثناءً حسناً، وقيل: هو محمدٌ ﷺ[1]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] وقال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: سَلُوه المغفرةَ من عبادة الأصنام. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعُوا إلى عبادته. ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريبُ الإجابة لمن دعاه. وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [١٨٦] القولُ فيه[2].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل هذا، أي: قبل دعوتك النبوَّة. وقيل: كان صالحٌ يعيب آلهتهم ويَشْنَؤُها،

---

(١) ينظر ما سيرد عند تفسير الآية ٨٣ من سورة الشعراء.

(٢) ٣/ ١٧٨ فما بعدها.

وكانوا يرجون رجوعَه إلى دينهم، فلمَّا دعاهم إلى الله قالوا: انقطَعَ رجاؤُنا منك[(١)].

﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ. ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ أي: عن أن نعبُدَ ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فـ «أن» في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرفِ الجر. ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ وفي سورة «إبراهيم»: ﴿وَإِنَّآ﴾ [٩] والأصلُ: وإنَّنا، فاستثقل ثلاثَ نوناتٍ فأسقطَ الثالثة[(٢)]. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ الخطابُ لصالح، وفي سورة «إبراهيم»: ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ [٩] لأنَّ الخطابَ للرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ من أَرَبْتُه فأنا أُرِيبُه: إذا فعلتَ به فعلاً يوجبُ لديه[(٣)] الرِّيبة. قال الهُذَليُّ:

كنتُ إذا أتوتُهُ من غَيْبِ ... يَشَمُّ عِطْفي ويَبُزُّ ثَوْبي

كأنَّما أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ[(٤)]

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدَّم معناه في قول نوح[(٥)]. ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ استفهامٌ معناه النفيُ؛ أي: لا ينصُرني منه إن عصيتُه أحدٌ. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: تضليلٍ وإبعادٍ من الخير، قاله الفرَّاء[(٦)]. والتَّخْسيرُ لهم لا له ﷺ، كأنه قال: غيرَ تخسيرٍ لكم، لا لي، وقيل: المعنى ما تزيدونَني باحتجاجِكم بدينِ آبائكم غيرَ بصيرةٍ بخسارتكم، عن ابن عباس[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ابتداءٌ وخبر. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ نصبٌ على

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٠.

(٢) ينظر زاد المسير ٤/ ١٢٤.

(٣) في (د): توجب به.

(٤) قائله خالد بن زهير، جعله أبو ذؤيب ـ خالُه ـ رسولاً بينه وبين عشيقته، فأفسدها عليه، فكان يشك فيه، فقال له خالد هذه الأبيات. والشعر في ديوان الهذليين ١/ ١٦٥، وقبله: يا قوم ما بالُ أبي ذؤيب. وأتوته: لغة في أتيته، ويبز ثوبي، أي: يجذبه إليه. اللسان: (أتى) و(بزز).

(٥) ص١٠١ من هذا الجزء.

(٦) معاني القرآن ٢/ ٢٠، ونقله عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٠.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٣٩١.

الحال، والعاملُ معنى[1] الإشارة، أو التنبيه في «هذه». وإنَّما قيل: ناقةُ الله؛ لأنه أخرجَها لهم من جبل على ما طلبوا، على أنَّهم يؤمنون[2]. وقيل: أخرجَها من صخرةٍ صمَّاءَ منفردةٍ في ناحيةِ الحِجْر يقال لها: الكاثِبَة، فلما خرجَتِ الناقةُ - على ما طَلَبوا - قال لهم نبيُّ الله صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ أمرٌ وجوابُه، وحُذِفت النونُ من «فذروها» لأنه أمرٌ، ولا يقال: وَذَرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذًّا، وللنحويين فيه قولان: قال سيبويه[3]: استغنَوا عنه بتَرَكَ، وقال غيرُه: لمَّا كانت الواو ثقيلةً، وكان في الكلام فِعْلٌ بمعناه لا واوَ فيه؛ ألغَوه. قال أبو إسحاق الزجَّاج: ويجوزُ رفع «تأكل» على الحال والاستئناف.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزمٌ بالنهي. ﴿بِسُوٓءٍ﴾ قال الفرَّاء: بعَقْر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جوابُ النهي. ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: قريبٌ من عَقْرِها[4].

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فيه **مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ إنما عَقَرها بعضُهم، وأُضيف إلى الكلِّ؛ لأنه كان برضا الباقين. وقد تقدَّم الكلامُ في عَقْرِها في «الأعراف». ويأتي أيضاً[5].

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟﴾ أي: قال لهم صالح: تمتَّعوا، أي: بنعم الله عزَّ وجلَّ قبلَ العذاب. ﴿فِى دَارِكُمْ﴾ أي: في بلدكم، ولو أراد المنزِلَ لقال: في دُورِكم. وقيل: أي: يتمتَّع كلُّ واحدٍ منكم في داره ومسكنه، كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[6] [غافر: ٦٧]؛ أي: كلَّ واحدٍ طفلاً. وعبَّر عن التمتع بالحياة؛ لأن الميِّتَ لا يتلذَّذ ولا

---

(١) في (ظ): فيه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠.

(٣) الكتاب ١/ ٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٠، والأقوال السالفة منه.

(٥) ينظر ٩/ ٢٧٠. وسيرد في تفسير الآية ٢٩ من سورة القمر، والآية ١٤ من سورة الشمس.

(٦) في (ظ): ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

يتمتَّع بشيء، فعُقِرت يومَ الأربعاء، فأقاموا يومَ الخميس والجمعة والسَّبت، وأتاهم العذابُ يومَ الأحد، وإنَّما أقاموا ثلاثةَ أيامٍ؛ لأنَّ الفَصِيل رغا ثلاثاً، على ما تقدَّم في «الأعراف»[١]، فاصفرَّت ألوانُهم في اليوم الأوَّل، ثم احمرَّت في الثاني، ثم اسودَّت في الثالث، وهَلَكوا في الرابع، وقد تقدَّم في «الأعراف»[٢].

الثانية: استدلَّ علماؤنا بإرجاء الله العذابَ عن قومِ صالحٍ ثلاثةَ أيامٍ على أن المسافرَ إذا لم يُجمِعْ على إقامة أربعِ ليالٍ قَصَرَ؛ لأنَّ الثلاثةَ الأيامِ خارجةٌ عن حكم الإقامة. وقد تقدَّم في «النساء»[٣] ما للعلماء في هذا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: غير كَذِبٍ. وقيل: غير مكذوبٍ فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا. ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تقدَّم[٤]. ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجَّيناهم من خِزْيِ يومئذٍ، أي: من فضيحته وذِلَّته. وقيل: الواو زائدةٌ؛ أي: نجَّيناهم من خِزْيِ يومئذ، ولا يجوزُ زيادتُها عند سيبويه[٥] وأهل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتُها مع «لمَّا» و«حتَّى» لا غير[٦].

وقرأ نافع والكسائيُّ: «يومئذٍ» بالنصب، والباقون بالكَسْر على إضافة «يوم» إلى «إذ»[٧]. وقال أبو حاتم: حدَّثنا أبو زيد، عن أبي عَمرو أنه قرأ: «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ»؛ أدغَمَ الياء في الياء، وأضاف، وكَسَر الميم في «يومِئذ». قال النحاس[٨]: الذي يرويه

---

(١) ٩/ ٢٧١.

(٢) لم يذكر المصنف هذا في «الأعراف»، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٢.

(٣) ٧/ ٨٣.

(٤) تقدم معناه في قصة هود ص١٤٦ من هذا الجزء.

(٥) الكتاب ٣/ ١٠٣.

(٦) ينظر الإنصاف للأنباري ٢/ ٤٥٦ وما بعدها.

(٧) السبعة ص٣٣٦، والتيسير ص١٢٥.

(٨) إعراب القرآن ٢/ ٢٩١، وما قبله منه.

النحويون مثلُ سيبويه ومن قارَبَه[1] عن أبي عَمرٍو في مثل هذا الإخفاءَ[2]، فأما الإدغامُ فلا يجوز؛ لأنه يلتقي ساكنان، ولا يجوز كَسْرُ الزاي[3].

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: في اليوم الرابع؛ صِيْحَ بهم فماتوا، وذَكَّر؛ لأنَّ الصَّيحة والصِّياح واحدٌ. قيل: صيحةُ جبريل، وقيل: صيحةٌ من السَّماء فيها صوتُ كلِّ صاعقة، وصوتُ كلِّ شيء في الأرض، فتقطَّعت قلوبُهم وماتوا[4].

وقال هنا: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقال في «الأعراف»: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [٧٨]، وقد تقدَّم بيانُه هناك.

وفي التفسير: إنهم لمَّا أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض: ما مُقامُكم أن يأتيَكم الأمرُ بَغْتةً؟! قالوا: فما نصنَعُ؟ فأخذوا سيوفَهم ورِماحَهُم وعُدَدَهم، وكانوا فيما يقال: اثني عشَرَ ألف قبيلة، في كلِّ قبيلةٍ اثنا عشَرَ ألف مقاتل، فوقفوا على الطُّرُق والفِجَاج ـ زعموا ـ يُلاقون العذاب، فأوحى الله تعالى إلى المَلَك الموكَّل بالشمس أن يُعذِّبَهم بحرِّها، فأدناها من رؤوسهم، فاشْتَوَتْ أيديهم، وتدلَّت ألسنتُهم على صدورهم من العطش، ومات كلُّ ما كان معهم من البهائم، وجعل الماءُ يتفوّر من تلك العيون من غَلَيانه حتى يبلُغَ السماء، لا يسقطُ على شيءٍ إلا أهلَكه من شدَّة حَرِّه، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى مَلَك الموت ألَّا يقبِضَ أرواحَهم؛ تعذيباً لهم إلى أن غَرَبت الشَّمس، فصِيْحَ بهم، فأهلكوا.

---

(١) في (ظ): قارنه.

(٢) قال سيبويه في الكتاب ٤/ ٤٣٨ : وإذا كان قبل الحرف المتحرك الذي بعده حرف مثلُه سواءٌ حرف ساكن لم يجز أن يسكن، ولكنك إن شئت أخفيت، وكان بزنته متحركاً.

(٣) قال أبو عمرو الداني في جامع البيان ١/ ١٨٣ مقرراً مذهب أبي عمرو البصري في الإدغام: فأما المثلان إذا كانا من كلمتين فإنه أدغم الأول في الثاني منهما في جميع القرآن، وسواء سكن ما قبله أو تحرك... إلا موضعاً واحداً وهو في لقمان: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [٢٣] فإنه لم يدغم الكاف في الكاف فيه؛ لسكون النون قبلها، وكونها مخفاة عنده، فلو أدغمها لوالى بين إعلالين.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٩١ ، والقول الثاني أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٦٢ في سياق طويل، من حديث عمرو بن خارجة مرفوعاً.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: ساقطين على وجوههم قد لَصِقوا بالتراب، كالطَّير إذا جَثَمت.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ تقدَّم معناه[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذه قصَّة لوطٍ عليه السلام، وهو ابنُ عمِّ إبراهيم عليه السلام لَحًّا[2]، وكانت قرى لوطٍ بنواحي الشَّام، وإبراهيمُ ببلاد فلسطين، فلمَّا أنزل الله الملائكةَ بعذابِ قومِ لوط مرُّوا بإبراهيمَ ونزلوا عندَه، وكان كلُّ من نزَلَ عنده يُحسِنُ قِرَاهُ، وكانوا مرُّوا ببشارة إبراهيم، فظنَّهم أضيافاً، وهم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام، قاله ابنُ عباس. الضحَّاك: كانوا تسعةً. السُّدِّيّ: أحدَ عَشَر مَلَكاً على صورة الغِلْمان الحِسَان الوجوه، ذَوو وَضاءةٍ وجمالٍ بارع[3].

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قيل: بالولد، وقيل: بإهلاكِ قوم لوطٍ، وقيل: بشَّروه بأنَّهم رسلُ الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا خوفَ عليه.

﴿قَالُوا سَلَٰمًا﴾ نُصِب بوقوعِ الفعل عليه، كما تقول: قالوا خيراً، وهذا اختيارُ الطبريّ[4]. وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢] فالثلاثةُ اسمٌ غيرُ قولٍ مقول[5]،

---

(١) في قصة هود ص١٤٧ من هذا الجزء.

(٢) أي: لاصق النسب. الصحاح: (لحح).

(٣) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٢ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٦٦ .

(٥) في (د): غير منقول.

ولو رُفِعا جميعاً أو نُصِبا جميعاً ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ جاز في العربية[١]. وقيل: انتصَبَ على المصدر، وقيل: ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: فاتَحوه بصوابٍ من القول، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣] أي: صواباً، فسلاماً معنى قولهم، لا لفظُه. قال معناه ابنُ العربيّ واختاره[٢]، قال: ألا ترى أنَّ الله تعالى لمَّا أراد ذِكْر اللفظ قالَه بعينه، فقال مخبراً عن الملائكة: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٦] ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر:٧٣].

وقيل: دَعَوا له، والمعنى: سَلِمتَ سَلاماً.

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ في رفعه وجهان: أحدهما: على إضمار مبتدأ؛ أي: هو سلامٌ، وأمري سلامٌ. والآخرُ بمعنى: سلامٌ عليكم، إذا جُعِلَ بمعنى التحيَّة، فأضمَرَ الخبر، وجاز «سلامٌ» على التنكير؛ لكثرة استعماله، فحذَفَ الألفَ واللام كما حُذِفت من لاهمَّ في قولك: اللهُمَّ. وقُرِئ: «سِلْمٌ»[٣] قال الفرَّاء[٤]: السِّلم والسَّلام بمعنًى، مثل الحِلِّ والحَلال.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ **فيه أربعَ عَشْرة مسألة**[٥]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ «أن» بمعنى حتَّى، قاله كُبَراء النَّحويين، حكاه ابنُ العربيّ[٦]، التقدير: فما لبِثَ حتَّى جاء.

وقيل: «أن» في موضع نصبٍ بسقوط حرفِ الجرِّ، التقدير: فما لبِثَ عن أن جاء، أي: ما أبطَأَ عن مجيئه بعجلٍ، فلمَّا حذف حرف الجرِّ بقي «أن» في محلِّ

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١.
(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٨.
(٣) وقرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٧ - ٣٣٨، والتيسير ص١٢٥.
(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٠ - ٢١.
(٥) المسائل التي ذكرها المصنف تنتظم هذه الآية والتي بعدها.
(٦) أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٠، وعقب عليه بقوله: وأعجب لهم كيف استجازوا ذلك مع سعة معرفتهم. ثم ذكر أن التحقيق في موضع «أن جاء» النصب على حكم المفعول.

النَّصبِ، وفي «لبث» ضميرُ اسمِ إبراهيم. و«ما» نافيةٌ، قاله سيبويه.

وقال الفراء[١]: فما لبث مجيئُه، أي: ما أبطَأَ مجيئُه، فـ«أن» في موضع رفعٍ، ولا ضميرَ في «لبِثَ»، و«ما» نافيةٌ، ويصحُّ أن تكون «ما» بمعنى الذي، وفي «لبث» ضميرُ إبراهيم، و«أن جاء» خبرُ «ما» أي: فالذي لبِثَ إبراهيمُ هو مجيئُه بعجلٍ حَنِيذٍ.

و﴿حَنِيذٍ﴾ مشويٌّ، وقيل: هو المشويُّ بِحَرِّ الحجارة من غير أن تَمَسَّه النارُ. يقال: حَنَذتُ الشاةَ أحنِذُها حَنْذاً، أي: شويتُها، وجعلتُ فوقَها[٢] حجارةً مُحْمَاة لتُنضجها، فهي حنيذٌ، وحَنَذتُ الفرس أحنِذُه حَنْذاً ـ وهو أن تُحضِره[٣] شوطاً أو شوطين ثم تُظاهِرَ عليه الجِلال في الشمس ليعرَقَ ـ فهو محنوذٌ وحَنِيذٌ، فإن لم يعرَقْ قيل: كَبَا. وحَنَذٌ: موضعٌ قريبٌ من المدينة[٤].

وقيل: الحَنِيذ: السَّمِيطُ[٥]. ابنُ عباس وغيره: حنيذٌ: نَضِيج[٦]. وحَنِيذٍ بمعنى محنوذٌ، وإنما جاء بعجلٍ؛ لأنَّ البقرَ كانت أكثرَ أمواله.

الثانية: في هذه الآية من أدب الضَّيف أن يُعجِّل قِراه، فيقدِّمَ الموجودَ الميسَّرَ في الحال، ثم يُتبِعَه بغيره إن كان له جِدَةٌ، ولا يتكلَّفَ ما يَضُرُّ به.

والضِّيافةُ من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خُلُق النبيِّين والصَّالحين، وإبراهيمُ أوَّلُ من أضافَ على ما تقدَّم في «البقرة»[٧]، وليست بواجبةٍ عند عامَّة أهل العلم؛ لقوله ﷺ: «الضِّيافةُ ثلاثةُ أيامٍ، وجائِزتُه يومٌ وليلةٌ، فما

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١ .

(٢) في (ظ): وجعلتها فوق.

(٣) قال في الصحاح (حضر): أحضر الفرسُ إحضاراً واحتضر، أي: عدا، واستحضرته: أعديته.

(٤) الصحاح: (حنذ).

(٥) السميط في قول الليث: إذا مُرط عنه صوفه، ثم شُوي بإهابه. وأصل السمط: أن ينزع صوف الشاة المذبوحة بالماء الحار لتشوى. اللسان: (سمط).

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٧) ٢/ ٣٥٢ .

كان وراءَ ذلك فهو صَدَقةٌ»[١]، والجائزةُ: العطيةُ والصِّلةُ التي أصلُها على النَّدب، وقال ﷺ: «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِمْ جارَه، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه»[٢]، وإكرامُ الجارِ ليس بواجبٍ إجماعاً، فالضيافةُ مثلُه[٣]، والله أعلم، وذهب الليثُ إلى وجوبها مُتمسِّكاً[٤] بقوله ﷺ: «ليلةُ الضَّيف حقٌّ»[٥] إلى غير ذلك من الأحاديث، وفيما أشرنا إليه كفايةٌ، والله الموفِّقُ للهداية.

قال ابنُ العربيِّ[٦]: وقد قال قومٌ: إنَّ وجوب الضِّيافة كان في صَدْر الإسلام ثم نُسِخَ. وهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ الوجوبَ لم يثبُتْ، والناسخَ لم يَرِدْ. وذَكَر حديثَ أبي سعيدٍ الخدريِّ، خرَّجه الأئمةُ[٧]، وفيه: «فاستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا، فلُدِغَ سَيِّدُ ذلك الحيِّ» الحديثَ. وقال: هذا ظاهرٌ في أن الضِّيافةَ لو كانت حقًّا لَلَامَ النبيُّ ﷺ القومَ الذين أَبَوا، ولَبيَّنَ لهم ذلك.

الثالثة: اختلفَ العلماء فيمن يُخاطَبُ بها؛ فذهب الشافعيُّ ومحمد بنُ عبد الحَكَم إلى أنَّ المخاطَبَ بها أهلُ الحَضَر والبادية، وقال مالكٌ: ليس على أهل الحَضَر ضيافةٌ. قال سُحْنون: إنَّما الضِّيافة على أهل القُرى، وأما الحَضَر فالفُنْدق ينزِلُ فيه المسافر[٨]، واحتجُّوا بحديث ابن عُمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الضِّيافةُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣٧١)، والبخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨): (١٤) [٢/ ١٣٥٢] بنحوه، من حديث أبي شريح الخزاعي. وأخرجه الترمذي (١٩٦٨) وفيه: «وما أنفق عليه بعد ذلك فهو صدقة».

(٢) أخرجه أحمد (٧٦٢٦)، والبخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧): (٧٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) التمهيد ٢١/ ٤٧.

(٤) في (م): تمسكاً.

(٥) أخرجه أحمد (١٧١٧٢)، وأبو داود (٣٧٥٠)، وابن ماجه (٣٦٧٧) من حديث أبي كريمة المقدام بن معدي كرب.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٩ - ١٠٥٠.

(٧) أخرجه أحمد (١١٣٩٩)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١): (٦٥).

(٨) بعدها في (د) و(م): حكى اللغتين صاحب العين وغيره، وهي مقحمة لا وجه لها.

على أهل الوَبَرِ، وليست على أهل المَدَرِ»[١]. وهذا حديثٌ لا يصحُّ، وإبراهيم ابنُ أخي عبد الرزاق متروكُ الحديث، منسوبٌ إلى الكذب، وهذا ممَّا انفردَ به، ونُسِبَ إلى وَضْعه، قاله أبو عمر بنُ عبد البَرِّ[٢]. قال ابنُ العربيِّ[٣]: الضِّيافةُ حقيقةً فرضٌ على الكفاية، ومن الناس من قال: إنها واجبةٌ في القُرى حيثُ لا طعامَ ولا مأوى[٤]، بخلافِ الحواضر؛ فإنَّها مشحونةٌ بالمأْوَاة[٥] والأقوات، ولا شكَّ أن الضَّيف كريمٌ، والضِّيافة كرامةٌ، فإن كان غريباً[٦] فهي فريضةٌ.

الرابعة: قال ابنُ العربيِّ[٧] قال بعضُ علمائنا: كانت ضيافةُ إبراهيمَ قليلةً، فشكَرها الحبيبُ. وهذا حكمٌ بالظنِّ في موضع القَطْع، وبالقياس في موضع النقل، من أين عَلِمَ أنه قليل؟! بل قد نقَلَ المفسِّرون أن الملائكةَ كانوا ثلاثةً: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، وعِجْلٌ لثلاثةٍ عظيمٌ، فما هذا التفسيرُ لكتابِ الله بالرأي؟! هذا ـ بأمانةِ الله ـ هو التفسيرُ المذمومُ، فاجتنبوه فقد عَلِمْتُموه.

الخامسة: السُّنةُ إذا قُدِّم للضَّيف الطعامُ أن يبادِرَ المقدَّم إليه بالأكل؛ فإنَّ كرامةَ الضَّيف تعجيلُ التقديم، وكرامة صاحبِ المنزل المبادرةُ بالقَبول، فلمَّا قبضوا أيديَهم نَكِرَهم إبراهيمُ؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السُّنَّة، وخاف أن يكون وراءَهم مكروهٌ[٨] يقصِدُونَه[٩]. ورُوي أنهم كانوا يَنكُتُون بقِداحٍ كانت في أيديهم في اللَّحم،

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٢٧١ ، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٨٤). من طريق إبراهيم بن عبد الله ابن أخي عبد الرزاق.

(٢) في التمهيد ٢١/ ٤٣ - ٤٤ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٠ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): ولا ماء.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): بالمياه.

(٦) في (ظ): كانت عرساً.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥١ .

(٨) في (ز) و(ظ): مكر.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ .

ولا تصِلُ أيديهم إلى اللَّحم، فلمَّا رأى ذلك منهم ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[١] أي: أضمَرَ، وقيل: أحسَّ، والوجوسُ: الدخولُ، قال الشاعر[٢]:

جاء البريدُ بقِرْطاسٍ يَخُبُّ بهِ ... فأوجَسَ القلبُ من قِرْطاسِه جَزَعا

«خِيفَةً»: خوفاً، أي: فزعاً، وكانوا إذا رأوا الضيفَ لا يأكُلُ ظنُّوا به شرًّا، فقالت الملائكةُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

السادسة: من أدب الطعام أنَّ لصاحب الضَّيف أن ينظرُ في ضيفه هل يأكُلُ أم لا، وذلك ينبغي أن يكون بتلفُّتٍ ومسارقةٍ، لا بتحديدِ النَّظر. رُوي أن أعرابياً أكلَ مع سُليمان بنِ عبد الملك، فرأى سليمانُ في لقمة الأعرابيِّ شعرةً، فقال له: أزِلِ الشعرةَ عن لقمتك، فقال له: أتنظُرُ إليَّ نظر من يرى الشَّعرة في لقمتي؟! والله لا أكلتُ معك[٣].

قلتُ: وقد ذُكر أنَّ هذه الحكايةَ إنما كانت مع هشام بنِ عبد الملك لا مع سُليمان، وأن الأعرابيَّ خرج من عنده وهو يقول:

ولَلموتُ خيرٌ من زيارةِ باخِلٍ ... يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ[٤]

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: أنكرهم، تقول: نَكِرتُك، وأنكرتُك، واستنكرتُك: إذا وجدتَه على غير ما عَهِدتَه، قال الشاعر[٥]:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٧١ من قول جندب بن سفيان.

(٢) هو يزيد بن معاوية، قاله حينما جاءه نعي والده معاوية ﷺ، والبيت في ديوان شعره ص٢٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ .

(٤) العقد الفريد ٦/ ١٨٢ ، والبيت نسب لحاتم الطائي، ولقيس بن عاصم، وهو في البيان والتبيين ٣/ ٣١٠ ، وعيون الأخبار ٣/ ٢٦٣ دون نسبة، وينظر تعليق الأستاذ عبد السلام هارون على البيان والتبيين.

(٥) نُسِبَ للأعشى، والبيت في ديوانه ص١٥١ ، غير أن أبا عبيدة نقل في مجاز القرآن ١/ ٢٩٣ عن يونس عن أبي عمرو أنه هو الذي زاد هذا البيت في شعر الأعشى، وقال: فأتوب إلى الله منه.

وأنكرتْني وما كان الذي نَكِرتْ ... من الحوادِثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين[١]. ويقال: نَكِرتُ: لما تراهُ بعينك. وأنكرتُ: لما تراه بقلبك.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: قائمةٌ بحيث ترى الملائكةَ، قيل: كانت من وراء السِّتر، وقيل: كانت تخدِمُ الملائكة وهو جالسٌ، وقال محمد بن إسحاق: قائمة تُصلي[٢]، وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «وامرأتُه قائمةٌ وهو قاعِدٌ»[٣].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ قال مجاهد وعِكْرمة[٤]: حاضَتْ، وكانت آيسةً، تحقيقاً للبشارة، وأنشد على ذلك اللغويون:

وإني لآتي العِرْسَ عند طُهورها ... وأهجرُها يوماً إذا تَكُ ضاحِكا[٥]

وقال آخر:

وضِحْكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا ... كمثلِ دمِ الجَوفِ يومَ اللِّقا[٦]

والعرب تقول: ضَحِكَت الأرنبُ: إذا حاضَتْ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعِكرمة[٧]، أُخِذَ من قولهم: ضحكَتِ الكافورةُ ـ وهي قشرة الطَّلْعة ـ إذا انشقَّت، وقد أنكر بعضُ اللغويين أن يكون في كلام العرب ضَحِكَت بمعنى: حاضت.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٢ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ : وقالت فرقة. ولم نقف على من نسبَ هذا القول لابن إسحاق.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٨٨ ، وقراءة ابن مسعود عندهما: «وهو جالس»، وذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٢ مثل رواية المصنف.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧ ، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٠٦ .

(٥) أورده أبو الشيخ عقب قول عكرمة فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ ، دون نسبة.

(٦) أورده الطبري في تفسيره ١٢/ ٤٧٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٨٩ .

(٧) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم وغيره فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ ، وقول عكرمة ذكره الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٦ .

وقال الجمهور: هو الضَّحِكُ المعروف، واختلفوا فيه: فقيل: هو ضحك التعجُّب، قال أبو ذؤيب:

فجاءَ بِمِزْجٍ لم يَرَ الناسُ مثلَه ... هو الضَّحْكُ إلا أنه عَمَلُ النَّحْلِ[١]

وقال مقاتل: ضحكت من خوفِ إبراهيم ورِعْدَته من ثلاثةِ نفرٍ، وإبراهيمُ في حَشَمه وخَدَمه[٢]، وكان إبراهيمُ يُقَوَّم وحدَه بمئة رجل.

قال: وليس الضَّحك: الحيض في اللغة بمستقيم، وأنكر أبو عُبَيدة[٣] والفرَّاء ذلك. قال الفراء[٤]: لم أسمعه من ثقةٍ، وإنما هو كنايةٌ.

ورُويَ أن الملائكة مَسَحَت العجلَ، فقام من موضعه، فلَحِقَ بأمه، فضحكت سارةُ عند ذلك، فبشَّروها بإسحاق.

ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أرادَ أن يكرِمَ أضيافَه أقامَ سارةَ تَخْدِمهم، فذلك قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ أي: قائمةٌ في خدمتهم.

ويقال: «قَائِمَةٌ» لروع إبراهيم، «فَضَحِكَتْ» لقولهم: «لَا تَخَفْ» سروراً بالأمن[٥].

وقال الفرَّاء: فيه تقديمٌ وتأخير، المعنى: فبشَّرناها بإسحاق فضحكت، أي: ضحكت سروراً بالولد، وقد هَرِمَتْ، والله أعلم أيَّ ذلك كان[٦].

---

(١) ديوان الهذليين ١/ ٤٢ . والمزج: العسل، والضحك: قيل في تفسيره هنا: هو الشهد، وقيل: الزُّبْد، وقيل: الثلج، والأجود في تفسير البيت ـ فيما ذكر الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ١٥/ ٣٩٣ ـ أن يقال: إن الضحك هنا: هو طلع النخل حين ينشق عما في جوفه، وهو أبيض شديد البياض والنقاء. وينظر اللسان: (مزج) و(ضحك).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣ .

(٣) في (م): أبو عبيد، والمثبت من (ز)و(ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٨/ ٢٦ . وقد نقل الرازي عن أبي بكر الأنباري قوله: هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٢ .

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٣ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٥ - ٢٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢ ، إلا أنه لم يجزم بهذا القول، بل ذكر أنه مما يقوله بعض المفسرين، ثم قال: وهو مما قد يحتمله الكلام، والله أعلم بصوابه.

قال النحاس[١]: فيه أقوال: أحسنُها: أنهم[٢] لمَّا لم يأكلوا أنكرهم[٣] وخافَهم، فلما قالوا: لا تَخَفْ، وأخبروه أنهم رُسُلُ الله، فرِحَ بذلك، فضحكَتْ امرأتُه سروراً بفرحه. وقيل: إنها كانت قالت له: أحسَبُ أن هؤلاء القوم سينزِلُ بهم عذابٌ، فَضُمَّ لوطاً إليك، فلما جاءت الرسلُ بما قالته؛ سُرَّتْ به فضحكت. قال النحاس[٤]: وهذا إن صحَّ إسنادُه فهو حسنٌ.

والضَّحِكُ: انكشافُ الأسنان، ويجوز أن يكون الضَّحك: إشراقُ الوجه، تقول: رأيتُ فلاناً ضاحكاً، أي: مشرقاً، وأتيتُ على رَوْضةٍ تضحكُ، أي: مشرقة. وفي الحديث: «إن الله سبحانه يبعثُ السَّحابَ، فيضحَكُ أحسَنَ الضَّحِك»[٥]؛ جعل انجلاءه عن البَرْق ضَحِكاً، وهذا كلامٌ مستعارٌ[٦].

ورُوِيَ عن رجل من قرَّاء مكةَ يقال له: محمد بنُ زياد الأعرابيُّ: «فضَحَكت»، بفتح الحاء[٧]، قال المَهْدَوي: وفتحُ «الحاء» من «فضحكت» غيرُ معروفٍ.

وضَحِك يضحَك ضَحْكاً وضِحْكاً وضِحِكاً وضَحِكاً، أربع لغات. والضَّحْكة: المرَّة الواحدةُ، ومنه قول كُثَيِّر:

غَلِقَتْ لِضِحْكتِهِ رقابُ المالِ[٨]

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٣.

(٢) في (ظ): أنه.

(٣) في (ز) و(ظ): نكرهم.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦٨٦) من حديث رجل من بني غفار، بلفظ: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك».

(٦) هذا تأويل ابن الأثير في النهاية: (ضحك)، وقد أول الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٣/ ٢١٨ ضحك السحاب: بخروج الزهر والمرعى في الجنان بما يهطل من مائه.

(٧) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٠ دون نسبة.

(٨) ديوانه ص٢٩٥، وصدره: غَمْرُ الرداء إذا تبسَّم ضاحكاً.

قاله الجوهري[١].

العاشرة: روى مسلم عن سَهْل بن سَعْد قال: دعا أبو أُسَيد الساعِديُّ رسولَ الله ﷺ في عُرْسه، فكانت امرأتُه يومئذٍ خادِمَهم، وهي العَروس، قال سَهْل: أتدرون ما سقَتْ رسولَ الله ﷺ؟ أنقعَتْ له تمراتٍ من الليل في تَوْرٍ، فلمَّا أكَلَ سقَتْه إياه[٢].

وأخرجه البخاريُّ[٣] وترجَمَ له: بابُ قيامِ المرأة على الرجال في العُرْس وخِدْمَتهم بالنفس.

قال علماؤنا: فيه جوازُ خدمة العَروس زوجَها وأصحابَه في عُرْسها، وفيه أنه لا بأسَ أن يعرِضَ الرجلُ أهلَه على صالحِ إخوانه، ويستخدِمَهنَّ لهم، ويَحتَمِلُ أن يكون هذا قبلَ نزولِ الحجاب. والله أعلم.

الحادية عشرة: ذكر الطبريُّ[٤] أنَّ إبراهيم عليه السلام لما قَدَّم العِجْلَ قالوا: لا نأكُلُ طعاماً إلا بثمنٍ، فقال لهم: ثمنُه أن تذكروا الله في أوَّله، وتحمَدوه في آخره، فقال جبريلُ لأصحابه: بِحَقٍّ اتخَذَ الله هذا خليلاً.

قال علماؤنا: ولم يأكلوا؛ لأن الملائكةَ لا تأكُلُ. وقد كان من الجائز كما يَسَّر الله للملائكة أن يتَشكَّلوا[٥] في صفة الآدميِّ جسداً وهيئةً أن يُيَسِّر لهم أكلَ الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسَلَهم في صفة الآدمي، وتكلَّف إبراهيمُ عليه السلام الضِّيافَةَ، [حتى إذا رأى التوقُّفَ وخافَ، جاءته البُشْرى فجأةً][٦].

الثانية عشرة: ودلَّ هذا على أن التَّسْمية في أول الطعام، والحمدَ في آخره

---

(١) في الصحاح: (ضحك).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٠٦) (٨٦)، وهو عند أحمد (١٦٠٦٢).

(٣) صحيح البخاري (١٥١٨٢).

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٥) في (ز) و(ظ): ينسلكوا، وفي (د): يسلكوا، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ ، وما بين حاصرتين منه.

مشروعٌ في الأمم قبلنا، وقد جاء في الإسرائيليات أنَّ إبراهيم عليه السلام كان لا يأكُلُ وحدَه، فإذا حضَرَ طعامُه أرسَلَ يطلُبُ من يأكُلُ معه، فلقيَ يوماً رجلاً، فلما جلَسَ معه على الطعام، قال له إبراهيم: سَمِّ اللهَ، قال الرجل: لا أدري ما اللهُ؟ فقال له: فاخرجْ عن طعامي، فلما خرَجَ نزل إليه جبريلُ، فقال له: يقول الله: إنه يرزُقُه على كفره مدى عمره، وأنت بخلتَ عليه بلقمةٍ، فخرج إبراهيم فَزِعاً يجرُّ رداءَه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجعُ حتى تخبِرني لم تردُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبره بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريم، آمنتُ، ودخل وسمَّى الله، وأكلَ مؤمناً[1].

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ لمَّا وُلد لإبراهيم إسماعيلُ من هاجر تمنَّتْ سارة أن يكون لها ابن، وأَيِسَتْ لِكِبَر سنِّها، فبُشِّرت بولدٍ يكون نبيًّا ويلِدُ نبيًّا، فكان هذا بشارةً لها بأن ترى ولدَ ولدِها.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر: «يعقوبَ» بالنصب، ورفع الباقون[2]، فالرفع على معنى: ويحدُثُ لها من وراء إسحاق يعقوبُ، ويجوز أن يرتفع بالفعل الذي يعملُ في ﴿مِن وَرَآءِ﴾[3] كأنَّ المعنى: وثبَتَ لها من وراء إسحاقَ يعقوبُ، ويجوز أن يرتفعَ بالابتداء، ويكون في موضع الحال، أي: بشَّروها بإسحاق مقابلاً له يعقوب، والنَّصب على معنى: ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوبَ، وأجاز الكِسائيُّ والأخفشُ وأبو حاتم أن يكون «يعقوبَ» في موضع جرٍّ، على معنى: وبشَّرناها من وراء إسحاق بيعقوبَ. قال الفرَّاء[4]: ولا يجوزُ الخَفْض إلا بإعادة الحرفِ الخافض. قال سيبويه[5] ولو قلتَ: مررتُ بزيدٍ أوَّل من

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٤٩ .

(٢) وعن عاصم روايتان: فروى عنه أبو بكر الرفع، وروى حفص عنه النصب. السبعة ص٣٣٨ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٣) لفظة: «وراء»، ليست في (م).

(٤) في معاني القرآن ٢/٢٢ .

(٥) في الكتاب ١/٩٣ - ٩٤ .

أمسِ وأمس عمرٍو كان قبيحاً خبيثاً؛ لأنك فرقتَ بين المجرور وما يَشْرَكُه وهو الواو، كما تُفَرِّق بين الجارِّ والمجرور[1]؛ لأن الجارَّ لا يُفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو[2].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ قال الزجَّاج[3]: أصلُها: يا ويلتي، فأُبدِلَ من الياء ألفٌ؛ لأنها أخفُّ من الياء والكسرة.

ولم تُرِدِ الدعاءَ على نفسها بالويل، ولكنها كلمةٌ تَخِفُّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنَّ ما يعجَبْنَ منه، وعجبَتْ من ولادتها وكون[4] بعلِها شيخاً؛ لخروجه عن العادة، وما خرج عن العادة مستغرَبٌ ومستنكَر.

و﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهامٌ معناه التعجُّب. ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي: شيخةٌ، ولقد عَجزتْ تعجُزُ عَجْزاً، وعَجَّزتْ تَعْجِيزاً، أي: طعنت في السِّنِّ. وقد يقال: عجوزةٌ أيضاً. وعَجِزَت المرأةُ، بكسر الجيم: عظُمَتْ عجيزتُها عُجْزاً وعَجَزاً، بضم العين وفتحها.

قال مجاهدٌ: كانت بنتَ تسعٍ وتسعين سنة. وقال ابن إسحاق: كانت بنت تسعين. وقيل غيرُ هذا[5].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا بَعْلِى﴾ أي: زوجي ﴿شَيْخًا﴾ نصبٌ على الحال، والعاملُ فيه التنبيهُ أو الإشارة، «وهذا بَعْلي» ابتداءٌ وخبر، وقالِ الأخفش: وفي قراءة

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٣، وعنه نقل المصنف قولي الفراء وسيبويه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦٢.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٦٣.

(٤) في (د): ولو أن، وفي (م): ومن كون.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣.

ابن مسعود وأُبيٍّ: «وهذا بعلي شيخٌ». قال النحَّاس[١]: كما تقول: هذا زيدٌ قائم، فزيدٌ بدل من هذا، وقائم خبرُ الابتداء، ويجوز أن يكون «هذا» مبتدأ، و«زيدٌ قائمٌ» خبرين، وحكى سيبويه[٢]: هذا حلوٌ حامضٌ.

وقيل: كان إبراهيم ابن مئة وعشرين سنة، وقيل: ابن مئة، فكان يزيدُ عليها في قول مجاهدٍ سنةً[٣]. وقيل: إنها عرَّضَتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي: عن ترك غِشْيانه لها. وسارة هذه امرأةُ إبراهيم بنتُ هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهي بنتُ عمِّ إبراهيم[٤].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: الذي بشَّرتُموني به لشيءٌ عجيبٌ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ لما قالت: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ وتعجَّبت، أنكرتِ الملائكةُ عليها تعجُّبها من أمر الله؛ أي: من قضائه وقَدَره، أي: لا عجب من أن يرزقَكما اللهُ الولدَ، وهو إسحاق.

وبهذه الآية استدلَّ كثيرٌ من العلماء على أن الذَّبيحَ إسماعيل، وأنه أسنُّ من إسحاق؛ لأنها بُشِّرت بأن إسحاق يعيشُ حتى يولَدَ له يعقوبُ[٥]. وسيأتي الكلامُ في هذا وبيانُه في «الصافات» إن شاء الله تعالى.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٤.

(٢) في الكتاب ٢/ ٨٣.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٣.

(٤) وقيل: في نسبها غير ذلك، ينظر الطبري ١٢/ ٤٧٢ - ٤٧٣، والوسيط ٢/ ٥٨١، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٨٩.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٠.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وحكى سيبويه: «عَلَيكِم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء. وهل هو خبرٌ أو دعاء؟ وكونُه إخباراً أشرفُ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرحمة والبركة لهم، المعنى: أوصَلَ الله لكم رحمتَه وبركاتِه أهلَ البيت، وكونُه دعاءً إنما يقتضي أنه أمرٌ يُترجَّى ولم يتحصَّل بعدُ.

ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على الاختصاص، وهذا مذهبُ سيبويه[١]. وقيل: على النداء.

الثالثة: هذه الآيةُ تعطي[٢] أن زوجةَ الرجل من أهل البيت، فدلَّ هذا على أنَّ أزواجَ الأنبياء من أهل البيت، فعائشةُ رضي الله عنها وغيرُها من جملةِ أهلِ بيت النبيِّ ﷺ، ممن قال الله فيهم: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣] وسيأتي.

الرابعة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنَّ منتهى السلام: وبركاتُهُ، كما أخبر الله عن صالحي عباده: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

والبركةُ النموُّ والزيادة، ومن تلك البركات أنَّ جميعَ الأنبياء والمرسلين كانوا في ولد إبراهيم وسارة[٣].

وروى مالكٌ[٤] عن وَهْب بن كَيْسان أبي نُعَيم، عن محمد بن عَمْرو بن عطاء، قال: كنتُ جالساً عند عبد الله بن عباس، فدخل عليه رجلٌ من أهل اليمن، فقال: السَّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاتُه، ثم زاد شيئاً مع ذلك، فقال ابنُ عباس، وهو يومئذٍ قد ذهب بصرُه: مَن هذا؟ فقالوا: اليمانيُّ الذي يغشاكَ، فعرَّفوه إياه، فقال: إن السَّلام انتهى إلى البركة.

---

(١) الكتاب ٢/ ٢٣٦ . ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٤ .

(٢) في (ظ): تقتضي.

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٣٣ : إن أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٥٩ .

ورُويَ عن عليٍّ ﷺ أنه قال: دخلتُ المسجدَ، فإذا أنا بالنبيِّ ﷺ في عُصْبةٍ من أصحابه، فقلتُ: السَّلام عليكم، فقال: «وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله، عشرون لي، وعَشْر لك». قال: ودخلتُ الثانيةَ، فقلت: السَّلام عليكم ورحمةُ الله، فقال: «وعليك السَّلام ورحمةُ الله وبركاته، ثلاثون لي وعشرون[1] لك[2]». فدخلتُ الثالثةَ، فقلت: السَّلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه: فقال: «وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه، ثلاثون لي وثلاثون لك، أنا وأنتَ في السَّلام سواءٌ»[3].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: محمودٌ ماجِدٌ. وقد بيَّنَّاهما في «الأسماء الحُسْنى»[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: الخوف؛ يقال: ارتاع من كذا: إذا خاف، قال النابغة:

فارتاعَ من صَوْتِ كَلَّابٍ فباتَ لهُ طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ[5]

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بإسحاق ويعقوب، وقال قَتادة: بشَّروه بأنهم إنَّما أَتَوا بالعذاب إلى قومِ لوط، وأنه لا يخافُ[6].

---

(١) في (د) و(ز): وعشرة.

(٢) في (ظ): لأصحابي.

(٣) أخرجه البزار في مسنده (٨٠٨)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٠، وقال: فيه مختار بن نافع التيمي، وهو ضعيف، وفيه عبيد بن إسحاق العطار، وهو متروك.

(٤) بيان «المجيد» في الأسنى ص٢٤٤، وأما «الحميد» فلم نقف على بيانه في المطبوع منه.

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣٢. يصف ثوراً فزع من صوت الصياد صاحب الكِلَاب، فبقي قائماً منقاداً لشوامته ـ أي: قوائمه، جمع شامتة ـ من الخوف والصَّرَد، وهو البرد. وقيل: طوع الشوامت، أي: بات له ما يسر الأعداء الشامتين به. ينظر: شرح القصائد المشهورات للنحاس ٢/ ١٦٣، وشرح القصائد العشر ص٣٥٣ - ٣٥٤، وخزانة الأدب ٣/ ١٨٨ - ١٨٩.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ٤٨٦.

﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي: يجادِلُ رسلَنا، وأضافَه إلى نفسه؛ لأنهم نزلوا بأمرِه، وهذه المجادلةُ رواها حُميد بنُ هِلال، عن جُندبٍ، عن حُذَيفةَ؛ وذلك أنهم لمَّا قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] قال لهم: أرأيتُم إن كان فيها خمسون من المسلمين؛ أتُهلِكُونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرةٌ ـ أو خمسةٌ، شكَّ حُميد ـ قالوا: لا[١]. قال قَتادة نحواً منه، قال: فقال يعني إبراهيمَ: قومٌ ليس فيهم عشرةٌ من المسلمين لا خيرَ فيهم[٢]. وقيل: إنَّ إبراهيم قال: أرأيتُم إن كان فيها رجلٌ مسلمٌ، أتُهلِكُونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وقال عبد الرحمن بنُ سَمُرة: كانوا أربع مئة ألف. ابن جُريج: وكان في قرى قومِ لوطٍ أربعةُ آلاف ألفٍ[٣].

ومذهبُ الأخفش والكِسائيِّ أنّ «يُجادِلُنا» في موضع «جادَلَنا». قال النحَّاس[٤]: لمَّا كان جوابُ «لمَّا» يجب أن يكون بالماضي جُعِل المستقبلُ مكانَه، كما أنَّ الشرطَ يجبُ أن يكون بالمستقبل، فجُعِلَ الماضي مكانَه، وفيه جوابٌ آخر: أن يكون «يُجادِلُنا» في موضعِ الحال؛ أي: أقبَلَ يُجادِلُنا، وهذا قول الفرَّاء[٥].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ تقدَّم في «براءة»[٦] معنى ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. والمنيبُ: الراجعُ[٧]، يقال: أناب: إذا رجَع. وإبراهيمُ ﷺ كان راجعاً إلى الله تعالى في أموره

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٢٣ – ٥٢٤، وابن أبي حاتم في تفسيره ٦/٢٠٥٧ (١١٠٣٧).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/٣٠٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٢/٤٩٢.

(٤) في إعراب القرآن ٢/٢٩٥.

(٥) في معاني القرآن له ٢/٢٣.

(٦) في ١٠/٤٠١ – ٤٠٤.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٢٩٣، وتفسير أبي الليث ٢/١٣٦.

كلِّها[١]. وقيل: الأوَّاه: المتأوِّه أسَفاً على ما قد فات قومَ لوطٍ من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي: دَعْ عنك الجِدال في قوم لوط. ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: عذابُه لهم. ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ﴾ أي: نازلٌ بهم. ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي: غيرُ مصروفٍ عنهم ولا مدفوع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ لمّا خرجت الملائكةُ من عند إبراهيمَ ـ وكان بين إبراهيمَ وقرية لوطٍ أربعةُ فراسخَ ـ بَصُرَتْ بنتا لوط وهما تَستقيان بالملائكة ورأتا هيئةً حسنة، فقالتا: ما شأنكم؟ ومِنْ أين أقبلتُم؟ قالوا: مِن مَوضع كذا، نريدُ هذه القريةَ، قالتا: فإنَّ أهلَها أصحابُ الفواحش، فقالوا: أَبِها مَنْ يُضيفنا؟ قالتا: نعم، هذا الشيخُ، وأشارتا إلى لوط، فلمَّا رأى لوطٌ هيئتَهم خاف قومَه عليهم[٣].

﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: ساءَه مجيئُهم[٤]، يقال: ساء يسوء، فهو لازم، وساءه يسوؤه،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٤.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٤٩٤، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٦.

فهو متعدٍّ أيضاً[1]، وإن شئتَ ضَممتَ السينَ؛ لأنَّ أصلَها الضمُّ، والأصل: سُوِئ بهم مِنَ السّوء، قُلِبتْ حركةُ الواوِ على السين فانقلبتْ ياءً، وإن خفَّفتَ الهمزةَ ألقيتَ حركتَها على الياء، فقلتَ: «سِيَ بهم» مخففًا، ولغةٌ شاذةٌ بالتشديد[2].

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدرُه بمجيئهم، وكَرِهَه. وقيل: ضاق وُسْعُه وطاقَتُه. وأصلُه أن يَذْرَع البعيرُ بيديه في سيره ذَرْعاً على قدر سَعة خَطْوِه، فإذا حُمِل على أكثرَ مِن طَوْقه ضاق عن ذلك، وضَعُفَ ومدَّ عنقَه[3]، فضيقُ الذَّرعِ عبارةٌ عن ضِيق الوُسع. وقيل: هو مِن: ذَرَعه القيءُ، أي: غلَبَه، أي: ضاق عن حبسِه المكروهَ في نفسِه[4]، وإنما ضاق ذرعُه بهم لِمَا رأى مِن جَمالهم، وما يعلمُ من فسق قومه[5].

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديدٌ في الشرّ[6]. وقال الشاعر:

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بنَ وائلٍ ... يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ[7]

وقال آخر:

يومٌ عَصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالا ... عَصْبَ القَوِيِّ السَّلَمَ الطِّوالا[8]

ويقال: عصِيبٌ وَعَصَبْصَبٌ على التكثير، أي: مكروهٌ مجتمعُ الشرّ، وقد عَصَبَ؛ أي: عَصَبَ بالشرِ عصابة، ومنه قيل: عُصبة وعِصابة، أي: مجتمعو الكلمة، أي:

---

(١) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ .

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٣١٦ .

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ١٣٦ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٤ .

(٦) مجمع البيان ١٢/ ١٩٤ .

(٧) قائله عِتبان بن أُصيلة ـ ويقال: وصيلة ـ الشيباني، وهو في الاشتقاق لابن دريد ص٣٥٩ ومعجم الشعراء للمزرباني ص١٠٨ .

(٨) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٩٨ . والسَّلَم: شجر من العضاه (الشوك). الصحاح (سلم).

مجتمعون في أنفسهم. وعَصَبةُ الرجل: المجتمعون معه في النَّسَب، وتعصّبتُ لفلان: صِرتُ كعَصَبَته، ورَجلٌ معصوبٌ، أي: مجتمعُ الخَلْق.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في موضع الحال[١]. «يُهْرَعُونَ» أي: يُسرعون. قال الكسائيُّ والفرَّاءُ وغيرُهما مِن أهل اللغة: لا يكون الإهراعُ إلا إسراعاً[٢] معَ رِعدة، يقال: أُهْرِع الرجلُ إهراعاً، أي: أسرع في رِعْدَة من بَرْد أو غضب أو حُمًّى، وهو مُهرَع[٣]، قال مُهلهِل:

فـجـاؤوا يُـهـرَعـون وهُـمْ أُسَـارى نَـقـودُهـمُ عـلـى رَغْـمِ الأنـوفِ[٤]

وقال آخر:

بِـمُـعْـجَـلاتٍ نـحـوه مَـهـارع[٥]

وهذا مثلُ: أُولِعَ فلانٌ بالأمر، وأُرعِدَ زيدٌ، وزُهِيَ فلان. وتجيءُ ولا تُستعملُ إلا على هذا الوجه. وقيل: أُهرِع، أي: أَهْرَعَه حِرصُه[٦]، وعلى هذا «يُهْرَعُونَ» أي: يُستحثُّون عليه[٧]. ومَن قال بالأول قال: لم يُسمَعْ إلا أُهْرِعَ الرجلُ، أي: أُسرِعَ، على لفظ ما لم يُسَمَّ فاعلُه[٨]. قال ابن القوطيّة[٩]: هُرِع الإنسان هَرَعاً، وأُهرِع: سِيقَ واستُعجِلَ. وقال الهرويُّ: يقال: هُرِع الرجلُ وأُهرِع، أي: استُحِثَّ[١٠]. قال ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ ، وما قبله منه.

(٢) في النسخ الخطية: سراعاً، والمثبت من (م).

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١/ ١٤١ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٨٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٣٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ١٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٥) هو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٤٩٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢ .

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٤ ، وفيه: يُستحثُّون إليه.

(٨) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٠٦ ، والصحاح (هرع).

(٩) محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي، القرطبي، النحوي، ألَّف «تصاريف الأفعال»، وصنَّف تاريخاً في أخبار الأندلس. توفي سنة (٣٦٧هـ). السير ١٦/ ٢١٩ .

(١٠) ينظر تهذيب اللغة ١/ ١٤١ .

عباس وقتادة والسّدّي: «يُهرعون»: يُهرولون. الضحاك: يَسعَون. ابن عُيينة: كأنهم يُدفعون. وقال شِمْر بنُ عطية: هو مشيٌ بين الهرولة والجَمَزَى[١]. وقال الحسن: مشيٌ بين مشيين[٢]، والمعنى متقارب.

وكان سببُ إسراعهم ما رُوي أنَّ امرأةَ لوط الكافرةَ، لمّا رأتِ الأضيافِ وجَمالَهم وهيئتَهم، خرجَتْ حتى أتتْ مجالسَ قومِها، فقالت لهم: إنّ لوطاً قد أضافَ الليلةَ فِتيةً ما رُئِيَ مثلُهم جمالاً، وكذا وكذا، فحينئذٍ جاؤوا يُهرَعون إليه[٣].

ويُذْكَرُ أنَّ الرسُلَ لمّا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حَرْثٍ له. وقيل: وَجدوا ابنتَه تستقي ماءً مِن نهر سَدومَ[٤]، فسألوها الدَّلالةَ على من يُضيفهم، ورأت هيئتَهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبتْ إلى أبيها فأخبرتْه، فخرج إليهم، فقالوا: نريدُ أنْ تُضيفَنا الليلةَ، فقال لهم: أوَ مَا سمعتُم بعمل هؤلاء القومِ؟ فقالوا: ما عملُهم؟ فقال: أشهدُ بالله إنهم لَشرُّ قومٍ في الأرض ـ وقد كان اللهُ عزَّ وجلَّ قال لملائكته: لا تُعذّبوهم حتى يشهدَ لوطٌ عليهم أربعَ شهادات ـ فلمّا قال لوطٌ هذه المقالةَ، قال جبريلُ لأصحابه: هذه واحدةٌ، وتردَّد القولُ بينهم حتى كرَّر لوط الشهادة أربعَ مرات، ثم دخل بهم المدينة[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: ومن قبلِ مَجيء الرُّسل[٦]. وقيل: مِن قبلِ لوط[٧].

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٥٠٠ - ٥٠١ . والجَمَزَى: ضربٌ من السَّير سريع. النهاية (جمز).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٤ عن ابن إسحاق بنحوه.

(٤) قال الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤ : وسدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كان قاضيها يقال له: سدوم. قال أبو حاتم في كتاب المُزال والمُفسَد: إنما هو سذوم، بالذال، والدال خطأ. قال الأزهري: وهذا عندي هو الصحيح. اهـ. قلنا: يضرب المثل بجور قاضيها، فيقال: أجور من قاضي سدوم. معجم البلدان ٣/ ٢٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٣ . وأخرجه الطبري ١٢/ ٤٩٦ عن قتادة والسدي.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ٥٠٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٦ .

﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: كانت عادتُهم إتيانَ الرجال. فلما جاؤوا إلى لوطٍ وقَصَدوا أضيافَه قام إليهم لوطٌ مُدافعاً[١]، وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ ابتداءٌ وخبر[٢]. وقد اختُلِفَ في قوله: «هؤلاء بناتي» فقيل: كان له ثلاثُ بناتٍ من صُلبه. وقيل: بنتان، زيتا وزعوراء، فقيل: كان لهم سَيِّدان مُطاعان، فأراد أنْ يزوجَهما ابنتيه[٣]. وقيل: ندَبهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سُنَّتُهم جوازَ نكاحِ الكافرِ المؤمنةَ[٤]، وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نُسخ، فزوَّج رسولُ الله ﷺ بنتاً له مِن عُتْبَة بنِ أبي لَهب، والأُخرى من أبي العاص بنِ الربيع قبلَ الوحي، وكانا كافرين[٥].

وقالت فرقةٌ ـ منهم مجاهدٌ وسعيدُ بن جُبير ـ: أشار بقوله: «بَنَاتِي» إلى النساء جملةً، إذ نبيُّ القومِ أبٌ لهم، ويقَوِّي هذا أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «النَّبِيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ مِنْ أَنْفُسِهم وأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم»[٦].

وقالت طائفة: إنما كان الكلامُ مُدافعةً، ولم يُرِدْ إمضاءَه، رُوِيَ هذا القولُ عن أبي عبيدةَ، كما يقال لمن يُنهى عن أكل مالِ الغير: الخنزير أَحَلُّ لك مِن هذا[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٥ .

(٣) مجمع البيان ١٢/ ١٩٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٥ . وحديث تزويج النبي ﷺ رُقية رضي الله عنها من عُتبة بن أبي لهب أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٤٣٤ (١٠٥٦) وفيه: ... فلما أنزل اللهُ تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ سأل النبيُّ ﷺ عُتبةَ طلاقَ رُقية، وسألته رقيةُ ذلك، فطلقها، فتزوج عثمانُ ﷺ رقية وتوفيت عنده. اهـ وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٨٦ أن عُتبةَ تزوَّج رُقيَّةَ قبل عثمان ولم يدخل بها، فأمره أبوه بمفارقتها ففارقها.

وحديث تزويج النبي ﷺ زينب رضي الله عنها من أبي العاص بن الربيع قبل أن يُسلم، أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٣٦ ، وقد ترجم البخاري قبل الحديث (٣٧٢٩): باب ذكر أصهار النبي ﷺ، منهم أبو العاص بن الربيع. اهـ وولدت له أمامةَ، وهي التي كان النبي ﷺ يحملها وهو يصلي، كما في الحديث المشهور.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٢ - ٥٠٤ . وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص١١٩ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٤ ، وقال ابنُ عطية: وهذا التنطُّع ليس من كلام الأنبياء صلى الله عليهم وسلم.

وقال عِكرمة: لم يعرِضْ عليهم بناتِه ولا بناتِ أُمَّته، وإنما قال لهم هذا لِينصرفوا[١].

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: أُزوّجكموهنَّ، فهو أطهرُ لكم مما تريدون، أي: أَحَلُّ. والتطهُّرُ التنزُّه عمّا لا يَحِلّ. وقال ابن عباس: كان رؤساؤُهم خَطبوا بناتِه فلم يُجبهم[٢]، وأراد ذلك اليومَ أن يفديَ أضيافَه ببناته.

وليس أَلِفُ «أَطهَرُ» للتفضيل حتى يُتَوهَّمَ أنَّ في نكاح الرجال[٣] طهارةً، بل هو كقولك: الله أكبرُ وأعلى وأجلُّ، وإن لم يكن تفضيلاً؛ وهذا جائزٌ شائعٌ في كلام العرب، ولم يُكابرِ اللهَ تعالى أحدٌ حتى يكون اللهُ تعالى أكبرَ منه. وقد قال أبو سفيانَ ابنُ حرب يومَ أُحد: أُعْلُ هُبَلُ، فقال النبيُّ ﷺ لعمر: «قل: الله أعلى وأجلّ». وهُبَل لم يكن قطُّ عالياً ولا جليلاً[٤].

وقرأ العامة برفع الراء. وقرأ الحسن وعيسى بن عمر: «هُنَّ أطهرَ» بالنصب على الحال[٥]. و«هُنّ» عِماد. ولا يُجيزُ الخليلُ وسيبويهِ والأخفشُ أن يكونَ «هُنّ» هاهنا عماداً، وإنما يَكون عماداً فيما لا يتِمُّ الكلامُ إلا بما بعدها، نحوُ: كان زيدٌ هو أخاك، لتدلَّ بها على أنَّ الأخَ ليس بنعت[٦]. قال الزجّاج[٧]: ويدلُّ بها على أنّ «كان» تحتاجُ إلى خبر. وقال غيرُه: يدلُّ بها على أنَّ الخبرَ معرفةٌ أو ما قاربَها[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٦٨.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ: النساء، وهو خطأ.

(٤) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣٣، والحديث أخرجه البخاري مطولاً من حديث البراء بن عازب ﷺ، وسلف ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٠، والمحتسب ١/ ٣٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٤.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦، وينظر قول الخليل وسيبويه في الكتاب ٢/ ٣٩٧، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٨١.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٦.

(٨) في (م): قارنها.

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: لا تُهينوني ولا تُذِلُّوني، ومنه قول حسان:

فأخزاك ربي يا عُتيبَ بنَ مالك ... ولقَّاكَ قبلَ الموت إحدى الصَّواعقِ

مَددتَ يميناً للنبيِّ تعمُّداً ... ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوَارقِ[١]

ويجوزُ أن يكون من الخَزَاية؛ وهو الحياء والخجل، قال ذو الرُّمَّة:

خَزايةً أدركتْه بعد جولتِهِ ... من جانبِ الحبلِ مخلوطاً بها الغضبُ[٢]

وقال آخر:

من البِيض لا تَخزَى إذا الريحُ ألصقتْ ... بها مِرْطَها أو زايَل الحَلْيَ جِيدُهَا[٣]

وضَيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه في الأصل مصدرٌ[٤]، قال الشاعر:

لا تَعدَمي الدهرَ شِفارَ الجازرِ ... لِلضَّيفِ والضيفُ أحقُّ زائرِ[٥]

ويجوز فيه التثنيةُ والجمعُ[٦]، والأوّلُ أكثرُ كقولك: رجالٌ صَوْم وفِطر وزَوْر. وخَزِيَ الرجلُ خَزَايةً، أي: استحيا[٧]، مثلُ: ذَلَّ وهان. وخَزِيَ خزياً إذا افْتُضِحَ، يَخْزَى فيهما جميعاً[٨].

---

(١) ديوان حسان ص٣٤٧ - ٣٤٨ ، وفيه: بسطتَ، بدل: مددتَ، وبرميةٍ، بدل: تعمُّداً، وفادميت، بدل: ودَمَّيْتَ.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ١٠٣ ، وينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩١ .

(٣) قائله ابن الدُّمينة، وهو في ديوانه ص٥٢ وفيه: ألزقت، بدل: ألصقت، ونسبه المَرزُباني في معجم الشعراء ص١٣٤ لعلي بن حسان البكري، وفيه: درعها، بدل: مرطها، ونسبه البكري في سمط اللآلئ ١/ ١٠٨ للحسين بن مطير.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ ، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٢٥ .

(٥) لم نقف على قائله، وهو في فتح القدير ٢/ ٥١٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ .

(٧) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٣٤ .

(٨) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

ثم وبّخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟[١] أي: شديدٌ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر. وقيل: «رشيد» أي: ذو رَشَد. أو بمعنى راشد أو مُرشِد، أي: صالح أو مُصلِح. ابن عباس: مؤمن. أبو مالك: ناهٍ عن المنكر. وقيل: الرشيد بمعنى الرّشَد، والرَّشَد والرَّشاد: الهُدى والاستقامةَ. ويجوز أن يكون بمعنى المُرشَد، كالحكيم بمعنى المُحكَم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ رويَ أنّ قومَ لوطٍ خطبوا بناتِه فردَّهم، وكانت سنّتُهم أنَّ مَنْ رُدَّ في خِطبةِ امرأةٍ لم تَحِلَّ له أبداً، فذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ وبَعُدَ أنْ تكون هذه الخاصيّة[٣]. فوجْهُ الكلامِ أنه ليس لنا إلى بناتك تعلُّقٌ، ولا هنَّ قَصْدُنا، ولا لنا عادة نطلبُ ذلك[٤]. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارةٌ إلى الأضياف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لمّا رأى استمرارَهم في غَيِّهم، وضَعْفَ عنهم، ولم يَقدِرْ على دَفْعهم، تمنّى لو وجد عوناً على ردِّهم، فقال على جهة التفجُّع والاستكانة: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾[٥] أي: أنصاراً وأعواناً. وقال ابنُ عباس: أراد الولدَ[٦].

و«أنّ» في موضع رفعٍ بفعل مضمر، تقديره: لو اتّفقَ أو وقع. وهذا يطَّرِدُ في «أنَّ» التابعةِ لِـ «لو». وجوابُ «لو» محذوفٌ[٧]، أي: لرددتُ أهلَ الفساد، وحُلْتُ بينهم

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

(٢) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٨٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ ، وزاد المسير ٤/ ١٣٩ .

(٣) في النسخ: وبعد ألا تكون هذه الخاصية. والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ ، والكلام منه.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): ولكنها عادة نطلبها في ذلك، وفي (ف): ولا كنا عادة نطلب ذلك، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ .

وبين ما يريدون.

﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ أي: ألجأ وأنضوي. وقُرِئ: ﴿أو آوِيَ﴾[1] بالنصب عطفاً على «قوّة»، كأنه قال: «لو أن لي بكم قوّة» أو إيواءً إلى ركن شديد، أي: وأنْ آويَ، فهو منصوبٌ بإضمار «أن». ومراد لوطٍ بالرُّكنِ العشيرةُ والمنعةُ بالكثرة[2].

وبلَغَ بهم قبيحُ فعلهِم إلى قوله هذا معَ علمه بما عندَ اللهِ تعالى، فيُرْوَى أن الملائكةَ وَجَدتْ عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا: إنَّ ركنَك لشديد.

وفي البخاريِّ عن أبي هُريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يرحَمُ اللهُ لوطاً، لقد كان يَأوي إلى ركنٍ شديد» الحديث، وقد تقدّم في «البقرة»[3]. وخرَّجه الترمذيُّ وزاد: «ما بعث الله بعدَه نبيًّا إلا في ثروةٍ من قومه». قال محمدُ بنُ عمرو: والثروة: الكثرة والمَنَعَة؛ حديثٌ حسن[4].

ويروى أن لوطاً عليه السلام لمَّا غلبه قومه، وهمُّوا بكسر الباب وهو يُمسكه، قالت له الرُّسل: تنحَّ عن الباب، فتنحَّى وانفتح الباب، فضربهم جبريلُ بجناحه فطَمَسَ أعينَهم، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاءَ[5]، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوطٌ بابه والملائكةُ معه في الدار، وهو يُناظرُ قومَه ويُناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوُّرَ الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقيَ من الجَهْد والكَرْب والنَّصَب بسببهم، قالوا: يا لوطُ، إنَّ ركنَك

(١) القراءات الشاذة ص٦٠ - ٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥.

(٣) ٤/ ٣١٠.

(٤) سنن الترمذي (٣١١٦)، ومحمد بن عمرو: هو أبو عبد الله، ويقال: أبو الحسن، الليثي المدني، أحد رجال الإسناد.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٩٥ - ١٩٦.

لشديدٌ، وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردود، وإنّا رسلُ ربِّك؛ فافتحْ البابَ ودَعْنا وإياهم، ففتح البابَ فضربَهم جبريلُ بجناحه على ما تقدّم. وقيل: أخذ جبريلُ قبضةً من تراب فأذْراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عينِ مَن بَعُد ومَن قَرُب مِن ذلك الترابِ فطَمَس أعينَهم، فلم يعرفوا طريقاً، ولا اهتدَوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاءَ النجاءَ، فإنَّ في بيت لوط قوماً هم أسْحرُ مَنْ على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعمَوا أبصارَنا. وجعلوا يقولون: يا لوطُ، كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه[1].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لمَّا رأت الملائكةُ حُزْنَه واضطرابَه ومدافعَته عرّفوه بأنفسهم، فلمّا علم أنهم رسلٌ مكَّن قومَه من الدخول، فأمرَّ جبريلُ عليه السلام يدَه على أعينهم فعَمُوا، وعلى أيديهم فجفَّتْ. ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: بمكروه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، قرئ «فأسرِ» بوصل الألف وقَطْعها، لغتان فصيحتان[2]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] وقال النابغةُ ـ فجمع بين اللغتين ـ:

أَسْرتْ عليه من الجوزاء ساريةٌ ... تُزجِي الشمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ[3]

وقال آخر[4]:

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ ... أَسْرَتْ إليكَ ولم تَكنْ تَسْري

وقد قيل: «فَأَسْرِ»؛ بالقَطْعِ: إذا سار من أوّل الليل، وسرى: إذا سار من آخره،

---

(١) عرائس المجالس ص١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦، وقرأ بوصل الهمزة من السبعة نافع وابن كثير وقرأ الباقون بقطعها. السبعة ص٣٣٨، والتيسير ١٢٥.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص٣١ وفيه: سرت، بدل: أسرت، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٦ بلفظ المصنف.

(٤) هو حسان بن ثابت، والبيت مطلع قصيدة له في الديوان ص٢٢٤.

ولا يقال في النهار إلا: سار. وقال لبيد:

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنَّهُ ... قَضَى عملاً والمرءُ ما عاش عامِلُ[(١)]

وقال عبد الله بن رواحةَ:

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى ... وتَنْجلِي عنهم غَيَاباتُ الكَرَى[(٢)]

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفةٍ من الليل. الضّحاك: ببقية من الليل. قَتَادة: بعد مُضيّ صدرٍ من الليل[(٣)]. الأخفش: بعد جُنح من الليل. ابن الأعرابي: بساعة من الليل. وقيل: بظلمةٍ من الليل[(٤)]. وقيل: بعدَ هَدْءٍ من الليل. وقيل: هَزِيعٍ من اللّيل. وكلُّها متقاربة.

وقيل: إنه نصفُ اللَّيل، مأخوذٌ من قَطْعِه نِصْفين، ومنه قول الشاعر:

ونائحةٍ تَنوحُ بِقِطْعِ ليلٍ ... على رجلٍ بقارعةِ الصَّعيدِ[(٥)]

فإن قيل: السُّرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى «بقِطْع من الليل»؟ فالجواب: أنّه لو لم يقل: «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» جاز أن يكون أوّله[(٦)].

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا ينظرْ وراءَه منكم أحدٌ، قاله مجاهد. ابن عباس: لا يتخلفْ منكم أحدٌ. عليُّ بنُ عيسى: لا يشتغلْ منكم أحدٌ بما يُخلِّفه من مال

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ . والبيت في ديوان لبيد ص٢٥٤ .

(٢) الرجز في النكت والعيون ٢/ ٤٩٠ ، ونسب في الحيوان ٦/ ٥٠٨ لبكر بن عبد الله المزني، وفي مجمع الأمثال ٢/ ٣ لخالد بن الوليد ﷺ.

(٣) أورد هذه الأقوال البغوي ٢/ ٣٩٦ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٤ .

(٤) أورد هذا القول الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٨٤ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٩١ ، والبيت أورده أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٨٥ ، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٥ ، والآلوسي في روح المعاني ١٢/ ١٠٩ ونسبوه لمالك بن كنانة بلفظ:

ونائحة تقوم بقطع ليل ... على رجل أهانته شعوب

(٦) معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦ .

أو متاع[١].

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصب[٢]، وهي القراءة الواضحةُ البيّنةُ المعنى، أي: فأسر بِأهلِك إلا امرأتَك. وكذا في قراءة ابن مسعود: «فأسرِ بِأهلِك إلا امرأتَك»[٣] فهو استثناءٌ من الأهل. وعلى هذا لم يخرجْ بها معه. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف:٨٣] أي: من الباقين. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: «إلا امرأتُك» بالرفع على البدل من «أحد». وأنكر هذه القراءةَ جماعةٌ منهم أبو عُبيد، وقال: لا يصحُّ ذلك إلا برفع «يلتفت» ويكون نعتاً؛ لأن المعنى يصير ـ إذا أبدلْتَ وجَزمْتَ ـ أن المرأة أُبيحَ لها الالتفاتُ، وليس المعنى كذلك.

قال النحاس[٤]: وهذا الحَملُ من أبي عُبيد وغيرِه على مثلِ أبي عمرو مع جلالته ومَحلِّه من العربية لا يجب أن يكون، والرفع على البدل له معنًى صحيحٌ، والتأويلُ له على ما حكى محمدُ بن الوليد[٥] عن محمدِ بن يزيدَ أن يقولَ الرجل لحاجبه: لا يخرجْ فلانٌ، فلَفظُ النَّهي لفلان، ومعناه للمخاطب، أي: لا تَدَعْه يخرجُ، ومثلُه قولك: لا يَقُمْ أحدٌ إلا زيدٌ، يكونُ معناه: انهَهُم عن القيام إلا زيداً. وكذلك النهيُ للوطٍ ولفظُه لغيرِه، كأنه قال: اِنهَهُم لا يلتفتْ منهم أحدٌ إلا امرأتُك. ويجوز أن يكونَ استثناءً من النهي عن الالتفات لأنه كلامٌ تامٌّ، أي: لا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَك، فإنها تلتفتُ وتَهلِكُ، وأنّ لوطاً خرج بها، ونهى مَن معه ممن أُسريَ بهم ألا يلتفتَ،

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩١، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٤، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ٢٠٦٥.

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٨، والتيسير ص١٢٥.

(٣) ذكرها الطبري ١٢/ ٥٢٥. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧، والكلام الذي قبله فيه بنحوه، وينظر البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ٢٦.

(٥) المصري النحوي التميمي، يُعرف بولّاد، قرأ كتاب سيبويه على المبرّد. توفي سنة (٢٩٨هـ). إنباه الرواة ٣/ ٢٢٥.

فلم يلتفتْ منهم أحدٌ سوى زوجتِه، فإنها لمّا سمعتْ هدَّةَ العذاب التفتَتْ، وقالت: واقوماه، فأدركها حَجَرٌ فقتلها[1].

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ أي: من العذاب. والكناية في «إنه» ترجعُ إلى الأمر والشأن، أي: فإن الأمرَ والشأن والقصة[2].

﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ لما قالت الملائكة: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لوط: الآنَ الآن. استعجلَهم بالعذاب لغيظِه على قومه، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟ وقرأ عيسى بن عمرَ: ﴿أَلَيْسَ الصُّبُحُ﴾ بضمّ الباء، وهي لغةٌ[3]. ويَحتمِلُ أن يكون جَعَلَ الصبحَ ميقاتاً لهلاكهم؛ لأن النفوسَ فيه أودعُ، والناسَ فيه أجمعُ[4].

وقال بعضُ أهل التفسير: إنّ لوطاً خرج بابنتيهِ ليس معه غيرُهما عند طلوع الفجر، وإن الملائكة قالت له: إن الله قد وكّل بهذه القرية ملائكةً معهم صوتُ رعد، وخطفُ برق، وصواعقُ عظيمةٌ، وقد ذكرنا لهم أنّ لوطاً سيخرج فلا تُؤذوه، وأمارتُه أنه لا يلتفتُ، ولا تلتفتُ ابنتاه فلا يهولنَّك ما ترى. فخرج لوطٌ وطوى اللهُ له الأرضَ في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا. ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريلَ عليه السلام أدخل جناحَه تحت قُرى قوم لوط، وهي خمسٌ: سدومُ ـ وهي القرية العظمى ـ وعامورا، ودادوما، وصعرة، وقتم[5]، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها، حتى سمع أهلُ السماء نهيقَ حُمُرهم وصياحَ

---

(١) تفسير البغوي ٢/٣٩٦.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٢/ ١٩٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص٦١.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢.

(٥) اختلفت النسخ والمصادر في أسماء هذه القرى اختلافاً كبيراً ما عدا سدوم. وينظر المحبر ص٤٦٧، والتعريف والإعلام للسُّهيلي ص١٧٦، ومعجم البلدان ٢/ ٤١٨ و ٣/ ٤١١ و ٤/ ٧١.

دِيكتهم، لم تَنكفئ لهم جرَّةٌ، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نُكِسوا على رؤوسهم، وأتبعهم اللهُ بالحجارة. مقاتل: أُهلكتْ أربعة، ونَجتْ صعرة. وقيل غير هذا، والله أعلم[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ دليلٌ على أنّ من فعل فعلهم حكمُه الرَّجم، وقد تقدَّم في «الأعراف»[٢].

وفي التفسير: أُمطِرْنا في العذاب، ومُطِرنا في الرحمة[٣]. وأمّا كلام العرب فيقال: مَطرتِ السماء وأمطرت، حكاه الهرويّ[٤].

واختُلِفَ في «السِّجِّيل» فقال البخاري[٥]: السجّيل: الشديد الكثير، وسجِّيل وسِجِّين اللام والنون أختان. وقال أبو عُبيدة[٦]: السِّجِّيل الشديد، وأنشد:

ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّينا[٧]

قال النحاس[٨]: وردَّ عليه هذا القولَ عبدُ الله بن مسلم[٩] وقال: هذا سجِّين وذلك سجِّيل، فكيف يستشهد به؟! قال النحاس: وهذا الردُّ لا يلزم، لأنَّ أبا عُبيدةَ ذهب إلى أن اللام تُبدلُ من النون لقرب إحداهما من الأخرى، وقولُ أبي عُبيدة يُرَدُّ من جهة أخرى، وهي أنه لو كان على قوله لكان حجارةً سجِّيلاً؛ لأنه لا يقال: حجارةٌ من شديد؛ لأنّ شديداً نعتٌ.

وحكى أبو عُبيد[١٠] عن الفراء[١١] أنه قد يقال لحجارة الأرْحاء: سجِّيل. وحكى

---

(١) عرائس المجالس ص١٠٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١٩٧، وسلف الكلام ٩/ ٢٨٠.

(٢) ٩/ ٢٧٤ وما بعدها.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٧.

(٤) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤١.

(٥) في (م): النحاس، والكلام عند البخاري (٤٦٨٤) وينظر فتح الباري ٨/ ٣٥١.

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٢٩٦.

(٧) سيأتي بتمامه قريباً.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١.

(٩) هو ابن قتيبة، وكلامه في تفسير غريب القرآن له ص٢٠٨.

(١٠) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): أبو عبيدة، والمثبت من (ف) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٧، والكلام منه.

(١١) في معاني القرآن ٢/ ٢٤.

عن محمدُ بن الجهم[١] أن سجِّيلاً طينٌ يُطبَخُ حتى يصيرَ بمنزلة الأَرْحاء.

وقالت طائفةٌ ـ منهم ابنُ عباس وسعيدُ بن جُبير وابن إسحاق ـ: إنّ سجِّيلاً لفظةٌ غيرُ عربيةٍ عُرِّبتْ، أصلُها سنج وجيل. ويقال: سنك وكيل، بالكاف موضع الجيم، وهما بالفارسية حجرٌ وطين؛ عرَّبتهما العربُ، فَجَعَلَتْهما اسماً واحداً. وقيل: هو من لغة العرب.

وقال قتادة وعِكرمة: السجِّيلُ: الطينُ؛ بدليل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣]. وقال الحسن: كان أصلُ الحجارة طيناً فشدّدت. والسجِّيل عند العرب كلُّ شديدٍ صُلْب. وقال الضحاك: يعني الآجُرَّ. وقال ابنُ زيد: طينٌ طُبِخَ حتى كان كالآجرّ، وعنه أنّ سجيلاً اسمُ السماء الدنيا[٢]، ذكره المهدويّ، وحكاه الثعلبيُّ عن أبي العالية، وقال ابن عطية[٣]: وهذا ضعيفٌ يردُّه وصفُه بـ «منضود». وعن عكرمةَ: أنه بحرٌ معلَّق في الهواء بين السماء والأرض منه نزلتِ الحجارة[٤]. وقيل: هي جبالٌ في السماء، وهي التي أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾[٥] [النور:٤٣]. وقيل: هو مما سُجِّل لهم، أي: كُتبَ لهم أن يُصيبهم، فهو في معنى سِجِّين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٨-٩] قاله الزجّاج[٦] واختاره. وقيل: هو فِعِّيل مِن أَسجلْتُه؛ أي: أَرسلتُه، فكأنها مُرسَلةٌ عليهم. وقيل: هو مِن أسجلته: إذا أعطيتَه، فكأنه عذابٌ أُعطوه، قال:

مَنْ يُساجِلْني يُساجِلْ ماجِداً ... يَمْلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[٧]

(١) أبي عبد الله السِّمَّري، الأديب، تلميذ الفراء وراويه. توفي سنة (٢٧٧هـ). السير ١٣/ ١٦٣.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٥٢٦ - ٥٢٩، وتفسير البغوي ٢/ ٢٩٧، وزاد المسير ٤/ ١٤٤.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٧.

(٤) زاد المسير ٤/ ١٤٤.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٧.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٧١.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١، والبيت للفضل بن العباس، وهو في الكامل ١/ ٢٥٠، والأغاني =

وقال أهل المعاني: السِّجِّيلُ والسِّجِّين: الشديد من الحَجَر والضَّرب، قال ابن مُقبل:

ورَجْلَةً يضربون البَيْضَ ضاحِيَةً ضَرْباً تَواصَى بِه الأبطالُ سِجِّينَا[١]

﴿مَنضُودٍ﴾ قال ابن عباس: مُتتابع. وقال قتادة: نُضِدَ بعضُها فوق بعض. وقال الرَّبيع: نُضِدَ بعضُه على بعض حتى صار جسداً واحداً. وقال عِكرمة: مصفوف[٢]. وقال بعضُهم: مرصوص، والمعنى متقارب. يقال: نَضَدتُ المتاعَ واللَّبِنَ: إذا جعلتَ بعضَه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَد، قال:

ورفَّعَتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَدِ[٣]

وقال أبو بكر الهُذَليّ: مُعَدٌّ، أي: هو ممَّا أعدَّه الله لأعدائه الظَّلَمة[٤].

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعْلَمة، من السِّيما؛ وهي العلامة، أي: كان عليها أمثالُ الخواتيم[٥]. وقيل: مكتوبٌ على كل حجرٍ اسمُ مَن رُميَ به، وكانت لا تُشاكِلُ حجارةَ الأرض[٦]. وقال الفرّاء[٧]: زعموا أنها كانت مخطَّطَةً بحمرة وسَواد في بياض، فذلك

= ١٦/ ١٧٢ . قال المبرد: وأصل المساجلة أن يستقي ساقيان، فيخرج كل واحد منهما في سَجْله مثلَ ما يُخرج الآخر، فأيهما نكَلَ فقد غُلب، فضربتْه العرب مثلاً للمفاخرة اهـ قوله: الكَرَب: هو حبل يُشَدُّ على عَراقي الدلو، يُثنَّى ثم يُثلث. رغبة الآمل لسيد بن علي المرصفي ٢/ ٢٣٧ .

(١) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٦ ، والبيت في ديوان تميم بن مقبل ص٣٣٣ ، وفيه: عن عرض، بدل: ضاحية. قوله: البَيْض، هو جمع بيضة، وهي الخُوذة.

(٢) تنظر هذه الأقوال في زاد المسير ٤/ ١٤٥ ، وقولا الربيع وعكرمة أخرجهما الطبري ١٢/ ٥٢٩ .

(٣) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧١ ، والبيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣١ ، وصدره: خلَّت سبيل أتيٍّ كان يحبسه.
والسِّجفان: ستران رقيقان يكونان في مقدَّم البيت. شرح القصائد المشهورات للنحاس ٢/ ١٦٠ ، وسيأتي البيت بتمامه في تفسير الآية (٢٩) من سورة الواقعة.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٢٩ .

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٩٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٣ .

(٦) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٥٣٠ - ٥٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٧ ، وزاد المسير ٤/ ١٤٥ - ١٤٦ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٧ .

تسويمُها. وقال كعب: كانت مُعلمةً ببياض وحُمرة[١]، وقال الشاعر:

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعاً   له سِيمياءٌ لا تَشقُّ على البَصَرْ[٢]

و«مُسَوَّمَةً» من نعت حجارة. و«منضودٍ» من نعت «سِجّيل». وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض، قاله الحسن[٣]. ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني قومَ لوط، أي: لم تكن تُخطئهم[٤]. وقال مجاهد: يُرهِب قريشاً[٥]، المعنى: ما الحجارةُ من ظالمي قومك يا محمدُ ببعيد[٦]. وقال قتادة وعِكرمة: يعني ظالمي هذه الأمةِ، واللهِ ما أجارَ الله منها ظالماً بعدُ[٧]. ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في آخرِ أمّتي قومٌ يكتفي رجالُهم بالرجال ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذابَ قومِ لوط، أن يرسِلَ الله عليهم حجارةً من سجِّيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. وفي روايةٍ عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تذهبُ الليالي والأيامُ حتى تستحلَّ هذه الأمةُ أدبارَ الرجالِ كما استحلُّوا أدبارَ النساء، فتصيب طوائفَ من هذه الأمة حجارةٌ من ربِّك»[٨]. وقيل: المعنى ما هذه القرى من الظالمين ببعيد، وهي بين الشام والمدينة[٩]. وجاء «بِبَعِيدٍ» مذكّراً على معنى بمكان بعيد.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٣ ، وزاد المسير ٤/ ١٤٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البيت لابن عنقاء الفزاري، وهو في الأغاني ١٩/ ٢٠٨ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٣٨ ، وسمط اللآلئ ١/ ٥٤٣ ، وعندهم: بالخير، بدل: بالحسن.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٢ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥ .

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٣ .

(٨) لم نقف عليه، وأورد ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٨٢ نحوه من حديث واثلة بن الأسقع وأنس بن مالك رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ: «لا تذهب الدنيا حتى يستغني النساءُ بالنساء، والرجالُ بالرجال، السحاق زنا النساء فيما بينهنّ»، وفي إسناده العلاء بن كثير الدمشقي، قال ابن حبان: كان ممن يروي الموضوعات عن الأثبات. قال البخاري: منكر الحديث، وقال أحمد: ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ١٠٤ .

(٩) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٨ .

وفي الحجارة التي أُمطرتْ قولان: أحدُهما: أنها أُمطرت على المدن حين رفعها جبريلُ. الثاني: أنها أُمطرتْ على من لم يكن في المدن من أهلها وكان خارجاً عنها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدينَ، ومدينُ هم قوم شعيب.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٤ .

وفي تسميتهم بذلك قولان: أحدُهما: أنهم بنو مدينَ بنِ إبراهيمَ، فقيل: مدينُ، والمرادُ بنو مدينَ. كما يقال: مُضَر، والمراد: بنو مُضَر. الثاني: أنه اسم مدينتهم، فنُسبوا إليها[١].

قال النحاس[٢]: لا ينصرفُ مدينُ لأنه اسم مدينة. وقد تقدَّم في «الأعراف» هذا المعنى وزيادة[٣].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدَّم[٤]. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا مع كفرهم أهلَ بَخْسٍ وتَطْفيف[٥]، كانوا إذا جاءهم البائعُ بالطعام أخذوا بكَيلٍ زائد، واستوفَوا بغاية ما يَقدِرون عليه، وظلموا، وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعُوه بكَيلٍ ناقص، وشحَّحوا له بغاية ما يقدِرون، فأُمِروا بالإيمان إقلاعاً عن الشِّرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: في سَعةٍ من الرزق، وكثرةٍ من النِّعم[٦]. وقال الحسن: كان سِعرُهم رخيصاً[٧].

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ وَصَفَ اليومَ بالإحاطة، وأراد وَصْفَ ذلك اليومِ بالإحاطةِ بهم، فإنَّ يومَ العذابِ إذا أحاط بهم فقد أحاط العذابُ بهم، وهو كقولك: يومٌ شديد، أي: شديدٌ حَرُّه.

واختُلِفَ في ذلك العذاب، فقيل: هو عذابُ النار في الآخرة. وقيل: عذابُ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٤ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٩٨ .

(٣) في ٩/ ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) ٩/ ٢٥٧ .

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٥ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٤٠ .

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩ .

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٩ .

الاستئصالِ في الدنيا. وقيل: غلاءُ السِّعر؛ رويَ معناه عن ابن عباس[١]. وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ: «ما أظهرَ قومٌ البَخْسَ في المكيال والميزانِ إلا ابتلاهم اللهُ بالقَحْط والغلاء»، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أَمَرَ بالإيفاء بعد أن نَهى عن التطفيف تأكيداً. والإيفاءُ: الإتمام. «بالقسط» أي: بالعدل والحقّ، والمقصودُ أن يَصِلَ كلُّ ذي نصيبٍ إلى نصيبه، وليس يريدُ إيفاءَ المَكيل والموزون، لأنه لم يقل: أوفُوا بالمكيال وبالميزان، بل أراد ألَّا تَنْقُصوا حَجْمَ المكيالِ عن المعهود، وكذا الصَّنَجات.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تَنْقُصوهم مما استحقُّوه شيئاً[٣]. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ بيَّن أنّ الخيانة في المكيال والميزان مبالَغَةٌ في الفساد في الأرض، وقد مضى في «الأعراف» زيادةٌ لهذا[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ما يُبقيه اللهُ لكم بعد إيفاءِ الحقوقِ بالقسط أكثرُ بركةً، وأحمدُ عاقبةً مما تُبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبُّر والظلم، قال معناه الطبريُّ[٥] وغيرُه. وقال مجاهد: «بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لكم» يريدُ طاعتَه[٦]. وقال الرّبيع: وصيةُ الله[٧]. وقال الفرّاء[٨]: مراقبةُ الله. ابن زيد: رحمةُ الله.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٥ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٣٨ .

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩ بنحوه، ولم نقف عليه مرفوعاً عند غيره، وقد تقدم بنحوه من قول ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه المصنف ثمة لمالك، وهو في الموطأ ٢/ ٤٦٠ .

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩ .

(٤) ٩/ ٢٨٢ .

(٥) في تفسيره ١٢/ ٥٤١ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٩٩ .

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٣٠٨ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٥٤٢ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٩٥ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٢٥ .

قتادةُ والحسن: حظُّكم من ربّكم خيرٌ لكم. وقال ابن عباس: رزقُ الله خيرٌ لكم[١].

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شَرَطَ هذا لأنهم إنما يَعرفون صحةَ هذا إن كانوا مؤمنين[٢]. وقيل: يَحتمِلُ أنهم كانوا يعترفون بأنَّ الله خالقُهم فخاطبهم بهذا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: رقيب أرْقُبُكم عند كَيلكم ووزنكم، أي: لا يُمكِنُني شُهودُ كلِّ معاملةٍ تَصْدُرُ منكم حتى أُؤاخذَكم بإيفاءِ الحقّ. وقيل: أي: لا يتهيَّأُ لي أن أَحفظَكم من إزالة نِعَم الله عليكم بمعاصيكم[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ﴾ وقرئ: ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ من غير جمع[٤]. ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ «أن» في موضع نصب؛ قال الكِسائي: مَوضِعُها خفضٌ على إضمار الباء[٥].

وروي أنّ شعيباً عليه السلامُ كان كثيرَ الصلاة، مواظِباً على العبادةِ[٦] فَرْضِها ونَفْلِها، ويقول: الصلاةُ تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلمّا أَمَرهم ونهاهم عيَّرُوه بما رأَوه يَستمرُّ عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به، فقالوا ما أَخبرَ اللهُ عنهم[٧].

وقيل: إن الصلاةَ هنا بمعنى القراءة؛ قاله سفيانُ عن الأعمش، أي: قراءتُك تأمرُك، ودلَّ بهذا على أنهم كانوا كفاراً[٨]. وقال الحسن: لم يبعثِ اللهُ نبيًّا إلا فَرَضَ

---

(١) أخرج الأقوال الثلاثة الطبري ١٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤ ، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٤٩ .

(٢) زاد المسير ٤/ ١٤٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨ ، وينظر مجمع البيان ١٢/ ٢٠٤ .

(٤) قرأ بالتوحيد عاصم - في رواية حفص - وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون: «أصلواتك» بالجمع. السبعة ص٣١٧ ، والتيسير ص١١٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨ .

(٦) في النسخ: مواظب العبادة. والمثبت من (م).

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ بنحوه.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٤ ، وقول الأعمش أخرجه الطبري ١٢/ ٥٤٦ - ٥٤٧ وسفيان: هو الثوري.

عليه الصلاةَ والزكاة[١].

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ زَعَم الفراء[٢] أنّ التقديرَ: أوَتنهانا أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَميُّ والضّحاك بن قيس: «أو أنْ تَفعلَ في أموالِنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين[٣]، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفةٌ على «أن» الأولى[٤]. ورُويَ عن زيدِ بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْفُ الدراهم[٥]. وقيل: معنى «أَوْ أَنْ نَفْعَل في أموالنا ما نشاءُ» إذا تَراضَيْنا فيما بيننا بالبخس فلِمَ تمنعُنا منه[٦]؟!.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يَعْنون عند نَفْسك بزعمك[٧]، ومِثلُه في صفة أبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] أي: عند نفسك بزعمك. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة[٨]. ومنه قولُهم للحبشيّ: أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجَون، ومنه قولُ خَزَنة جهنم لأبي جهل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٩]. وقال سفيانُ بن عُيَينة: العربُ تَصِفُ الشيءَ بضِدِّه للتطيُّر والتفاؤل، كما قيل لِلَّدِيغ: سَلِيم، وللفلاة: مَفازة[١٠]. وقيل: هو تعريضٌ أرادوا به السبَّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٠ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٩٨ .

(٣) قرأ السُّلمي: «نفعل» بالنون، وقرأ الضحاك: «تفعل» بالتاء، وقرأ كلاهما: «تشاء» بالتاء. ينظر القراءات الشاذة ص٦١ ، والدر المصون ٦/ ٣٧٢ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٤٥ . وحذف الدراهم، أي: كسرها. ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٣ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٤ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) النكت والعيون ٢/ ٤٩٦ .

(٩) الكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٦٧ . والجون من الأضداد، يقال للأبيض والأسود. الأضداد لابن الأنباري ص١١١ .

(١٠) ذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٩٨ دون نسبة.

وأَحسَنُ من هذا كلِّه، ويدلُّ ما قبلَه على صحته، أي: إنك أنت الحليمُ الرشيد حقًّا، فكيف تأمرُنا أنْ نتركَ ما يعبد آباؤنا؟! ويدلُّ عليه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أنكروا ـ لمَّا رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليمٌ رشيدٌ ـ بأن يكونَ يأمرُهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضاً ما يدلُّ عليه، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: أفلا أنْهاكم عن الضلال؟[١]

وهذا كلُّه يدلُّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادَهم فيه. ويُشبه هذا المعنى قولَ اليهود من بني قُريظةَ للنبي ﷺ حين قال لهم: «يا إخوةَ القردة» فقالوا: يا محمدُ ما عَلِمناك جهولاً![٢]

مسألة: قال أهلُ التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذِّبوا لأجله قطعُ الدنانيرِ والدراهم[٣]، كانوا يَقْرِضون من أطراف الصِّحاح لِتفضُلَ لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصِّحاح عدداً[٤]، وعلى المقروضة وزناً، وكانوا يبخَسون في الوزن.

وقال ابن وهب: قال مالك: كانوا يكسِرون الدنانير والدراهمَ، وكذلك قال جماعةٌ من المفسرين المتقدمين كسعيدِ بن المسيِّب، وزيدِ بن أسلم، وغيرِهما، وكَسْرُهما ذنبٌ عظيم[٥]. وفي كتاب أبي داودَ عن علقمةَ بنِ عبد الله، عن أبيه قال: نهى رسولُ الله ﷺ أنْ تُكسَرَ سِكَّةُ المسلمين الجائزةُ بينهم إلا من بأس[٦]. فإنها إذا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠١ ، والحديث أخرجه الحاكم ٣/ ٣٤ - ٣٥ ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ومن طريقه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٨ - ٩ . وعندهما: فحاشاً، بدل: جهولاً. وقد قال النبي ﷺ ذلك في يهود بني قريظة عندما غزاهم.

(٣) عرائس المجالس ص١٦٧ .

(٤) في (م): عدًّا.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥١ - ١٠٥٢ .

(٦) سنن أبي داود (٣٤٤٩). والسِّكة: الدنانير والدراهم المضروبة، يُسمَّى كل واحد منهما سكة؛ لأنه طبع بالحديدة. النهاية (سكك).

كانت صِحاحاً قام معناها، وظهرَتْ فائدتُها، وإذا كُسِرتْ صارت سِلعةً، وبَطَلت منها الفائدةُ، فأضرَّ ذلك بالناس؛ ولذلك حُرِّم. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨] أنهم كانوا يَكسِرون الدراهمَ؛ قاله زيدُ بن أسلم[١]. قال أبو عمرَ بنُ عبد البر[٢]: زعموا أنه لم يكن بالمدينة أعلمُ بتأويل القرآن من زيدِ بن أسلم بعد محمدِ بن كعب القُرَظيّ.

مسألة: قال أصْبغُ: قال عبدُ الرحمن بنُ القاسم بنِ خالدِ بن جُنادةَ مولى زيدِ بن الحارث العُتَقيّ: مَنْ كَسَرَها لم تُقبَلْ شهادتُه، وإن اعتذر بالجهالة لم يُعْذَرْ، وليس هذا بموضع عذر، قال ابنُ العربي[٣]: أمّا قوله: لم تُقبلْ شهادتُه فلأنه أتى كبيرةً، والكبائر تُسقِطُ العدالةَ دون الصغائر، وأمّا قوله: لا يُقبلُ عذرُه بالجهالة في هذا، فلأنه أمرٌ بيِّنٌ لا يَخفى على أحد، وإنما يُقبَلُ العذرُ إذا ظهر الصدقُ فيه، أو خَفِيَ وجهُ الصدق فيه، وكان اللهُ أعلمَ به من العبد كما قال مالك.

مسألة: إذا كان هذا معصيةً وفساداً تُردُّ به الشهادة؛ فإنه يُعاقَبُ مَنْ فَعَلَ ذلك. ومرَّ ابنُ المسيَّب برجل قد جُلد، فقال: ما هذا؟ فقالوا[٤]: رجلٌ يقطَعُ الدنانير والدراهم، قال ابنُ المسيّب: هذا من الفساد في الأرض، ولم يُنكِرْ جَلْدَه. ونحوُه عن سفيان. وقال أبو عبد الرحمن النّجيبي[٥]: كنت قاعداً عند عمرَ بنِ عبد العزيز، وهو إذ ذاك أمير المدينة، فأُتِيَ برجلٍ يقطَعُ الدراهمَ وقد شُهِدَ عليه، فضربه وحَلَقه، وأمَر فَطِيف به، وأَمَره أن يقول: هذا جزاءُ مَن يقطع الدراهمَ، ثم أَمَرَ أن يُرَدَّ إليه، فقال: إنه لم يمنعني أن أَقْطَعَ يدَكَ إلّا أني لم أكن تقدّمت في ذلك قبل اليوم، وقد تقدَّمت في

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٢ .

(٢) في التمهيد ٣/ ٢٤٠ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٢ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: قال، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٣ ، والكلام منه.

(٥) وقع في (ز) وأحكام القرآن لابن العربي التجيبي، ولم تجود في (ظ)، ولم نعرفه.

ذلك، فمن شاء فَلْيقطع.

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[١]: أمّا أدبُه بالسوط فلا كلامَ فيه، وأما حَلْقُه فقد فعله عمر، وقد كنتُ أيامَ الحُكم بين الناس أضرِبُ وأَحْلِقُ، وإنما كنتُ أفعل ذلك بمن يربّي[٢] شَعْرَه عوناً له على المعصية، وطريقاً إلى التجمُّل به في الفساد، وهذا هو الواجبُ في كلِّ طريقٍ للمعصية؛ أنْ يُقْطَعَ إذا كان غيرَ مُؤثِّر في البدن، وأمَّا قَطْعُ يدِه فإنما أَخَذَ ذلك عمرُ مِن فَصْلِ[٣] السرقة، وذلك أنَّ قَرْضَ الدراهم غيرُ كَسْرِها، فإنّ الكسرَ إفسادُ الوصف، والقرضَ تنقيصٌ للقدر، فهو أَخْذُ مالٍ على جهة الاختفاء، فإن قيل: أليس الحِرزُ أصلاً في القطع؟ قلنا: يَحتمِلُ أن يكونَ عمرُ يرى أنَّ تهيئَتها للفصل بين الخلق ديناراً أو درهماً حِرزٌ لها، وحِرزُ كل شيءٍ على قَدْرِ حاله، وقد أَنْفَذَ ذلك ابنُ الزبير، وقَطَعَ يدَ رجل في قَطْع الدنانيرِ والدراهم. وقد قال علماؤنا المالكية: إن الدنانيرَ والدراهم خواتيمُ الله، عليها اسمُه، ولو قُطع ـ على قول أهلِ التأويل ـ مَنْ كَسَرَ خاتماً لله كان أهلاً لذلك، إذ من[٤] كسر خاتمَ سلطانٍ عليه اسمُه أُدِّب، وخاتمُ الله تُقضى به الحوائجُ فلا يستويان في العقوبة.

قال ابن العربيّ[٥]: وأرى أن يُقْطَعَ في قرضها دون كسرها، وقد كنتُ أفعل ذلك أيامَ توليتي الحُكْمَ، إلّا أني كنتُ محفوفاً بالجُهّال، فلم أُجِبْ[٦] بسبب المقالِ للحسَدَةِ الضُّلّال، فمن قَدَرَ عليه يوماً من أهل الحق؛ فليفعلْه احتساباً لله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تقدَّم[٧]. ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٣ ، وما قبله منه.

(٢) في النسخ: يرى، والمثبت من أحكام القرآن.

(٣) في (ظ): قصد.

(٤) في (د) و(م): أو من، وفي (ظ): ومن، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٤ .

(٦) في (م): أجبن.

(٧) في ٨/ ٣٩٨ ، و ص١٠١ من هذا الجزء.

﴿حَسَنًا﴾ أي: واسعاً حلالاً، وكان شعيبٌ عليه السلامُ كثيرَ المال، قاله ابن عباس وغيرُه[١]. وقيل: أراد به الهدى والتوفيق، والعلمَ والمعرفة[٢]، وفي الكلام حذفٌ، وهو ما ذكرناه، أي: أفلا أنهاكم عن الضلال؟![٣] وقيل: المعنى: «أرأيتُم إنْ كنتُ على بيِّنة من ربِّي» أَتَّبعُ الضَّلال[٤]؟ وقيل: المعنى: «أرأيتم إنْ كنتُ على بيِّنة من ربي» أتأمرونني بالعصيان في البَخْس والتطفيف وقد أغناني الله عنه؟!

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ في موضع نصب بـ «أُريدُ»[٥]. ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: ليس أنهاكم عن شيءٍ وأرتكبه[٦]، كما لا أترك ما أَمرتُكم به. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أُريدُ إلا فِعْلَ الصلاح، أي: أن تُصلحوا دنياكم بالعَدْل، وآخرتكم بالعبادة، وقال: «ما اسْتَطَعْتُ» لأنّ الاستطاعةَ من شروط الفعل دون الإرادة[٧]. و«ما» مصدرية، أي: إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ جَهدي واستطاعتي[٨]. ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أي: رُشْدي، والتوفيقُ: الرشدُ. ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أَرجع فيما يَنزِلُ بي من جميع النوائب. وقيل: إليه أرجعُ في الآخرة. وقيل: إنَّ الإنابةَ الدعاءُ، ومعناه: وله أدعو[٩].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ وقرأ يحيى بن وثاب: «يُجْرِمَنَّكُمْ»[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٩٧ ، وزاد المسير ٤/ ١٥١ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٥١ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ١٥١ .

(٥) يعني «أن أخالفكم» في موضع نصب بـ «أريد»، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(٦) في (ظ): أركبه، وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٤٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٥١ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٩٧ .

(٨) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٤٦ .

(٩) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٧ .

(١٠) المحتسب ١/ ٣٢٧ .

﴿شِقَاقِيٓ﴾ في موضع رفع. ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضع نصب[1]، أي: لا يَحمِلَنَّكم مُعاداتي على ترك الإيمان فيصيبَكم ما أصاب الكفارَ قبلكم، قاله الحسن وقتادة[2].

وقيل: لا يُكْسِبَنَّكم شِقاقي إصابتَكم العذابَ كما أصاب مَن كان قبلكم، قاله الزجاج[3]. وقد تقدَّم معنى «يجرمنَّكم» في «المائدة»، و«الشقاقِ» في «البقرة»[4] وهو هنا بمعنى العداوة، قاله السدّي، ومنه قول الأخطل:

أَلَا مَـنْ مُـبْـلِـغٌ عـنـي رسـولاً   فـكـيـف وجَـدتُـمُ طَـعْـمَ الـشِّـقـاقِ[5]

وقال الحسن البصري: إضراري. وقال قتادة: فِراقي[6].

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهدٍ بهلاك قومِ لوط. وقيل: وما ديارُ قوم لوطٍ منكم ببعيد[7]، أي: بمكان بعيد، فلذلك وحَّدَ البعيد[8]. قال الكسائيُّ: أي: دورُهم في دورِكم[9].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ تقدَّم[10]. ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ اسمان من أسمائه سبحانه، وقد بيَّنَّاهما في كتاب «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى»[11]. قال الجوهريّ[12]: وَدِدتُ الرجلَ أَوَدُّه وُدًّا: إذا أحببتَه، والودود:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ٥٥١ عن قتادة.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٤ بنحوه، وينظر النكت والعيون ٢/ ٤٩٨ .

(٤) في المائدة ٧/ ٢٦٥ ، وفي البقرة ٢/ ٤١٩ .

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٩٨ ، والبيت في ديوان الأخطل ص٣١ ، وفيه: قيساً، بدل: عني.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٩٨ .

(٧) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥١ - ٥٥٢ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٩٩ .

(٨) زاد المسير ٤/ ١٥١ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ .

(١٠) في ص٦٧ من هذا الجزء.

(١١) ينظر ص٨١ و ٨٦ و ٩١ ، وينظر شرح الرحيم ص٣٩٥ ، وليس في المطبوع منه شرح «الودود».

(١٢) في الصحاح (ودد).

المُحبُّ، والوَدُّ والوِدّ والوُدّ: المَودَّة[١].

ورُويَ عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذَكَر شعيباً قال: «ذاك خطيبُ الأنبياء»[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم؛ لأنك تَحمِلُنا على أمورٍ غائبة من البَعْث والنُّشور، وتَعِظُنا بما لا عهدَ بمثله. وقيل: قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه، واحتقاراً لكلامه[٣]، يقال: فَقِه يفقَه: إذا فَهِم؛ فِقْهاً وفَقَهاً، وحكى الكسائيُّ: فَقَهاناً، وفَقُه فَقَها وفِقْها[٤]: إذا صار فقيهاً.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: إنه كان مصاباً ببصره؛ قاله سعيدُ بن جُبير وقتادة. وقيل: كان ضعيفَ البصر؛ قاله الثوريّ[٥]، وحكى عنه النحاسُ[٦] مثلَ قول سعيدِ بن جُبير وقتادةَ. قال النحاس: وحكى أهلُ اللغة أنَّ حِمْيَر تقول للأعمى: ضعيفٌ، أي: قد ضَعُفَ بذهاب بصرِه، كما يقال له: ضرير، أي: قد ضُرَّ بذهاب بصره، كما يقال له: مكفوفٌ، أي: قد كُفَّ عن النظر بذهاب بصره[٧]. قال الحسن: معناه: مَهين. وقيل: المعنى ضعيفُ البدن؛ حكاه عليُّ بن عيسى. وقال السدّي: وحيداً ليس لك جندٌ وأعوان تَقْدِرُ بها على مُخالفتنا. وقيل: قليلُ المعرفةِ بمصالح الدنيا وسياسةِ أهلها[٨].

---

(١) في (م): والوَدّ والوِدّ والوُدّ والمودة: المحبة.

(٢) سلف ٩/ ٢٨١ ، وهو حديث ضعيف.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

(٤) وقعت العبارة في (م): فَقِهَ يفقَه إذا فهم فِقْهاً، وحكى الكسائي: فَقُه فَقَهاً وفِقْها..، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ ، والكلام منه.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٣ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٦ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢ : وهذا كله ضعيف، ولا تقوم عليه حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة. اهـ. وكذلك ضعَّف هذا القول الرازي من عدّة وجوه، تنظر في تفسيره ١٨/ ٤٩ .

(٨) أورد هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ .

و«ضعيفاً» نصبَ على الحال. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفعٌ بالابتداء[١]، ورهطُ الرجل: عشيرتُه الذي يستندُ إليهم ويتقوَّى بهم، ومنه الرّاهِطاء لجُحْر اليَرْبُوع؛ لأنه يَتوثَّقُ به ويَخْبأُ فيه ولدَه[٢]. ومعنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾: لقتَلْناك بالرَّجم، وكانوا إذا قَتلوا إنساناً رجَموه بالحجارة، وكان رَهْطُه من أهل مِلَّتهم[٣]. وقيل: معنى «لَرَجَمْنَاكَ»: لَشتمناك، ومنه قولُ الجَعْديّ:

تَراجَمْنا بمُرِّ القولِ حتى نصيرَ كأنّنا فرَسَا رِهانِ[٤]

والرَّجمُ أيضاً: اللَّعنُ، ومنه: الشيطان الرجيم[٥]. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا مُمتنع[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ﴾ «أرَهْطِي» رفعٌ بالابتداء، والمعنى: أرهطي في قلوبكم ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأعظمُ وأجلُّ وهو يَملِكُكم؟![٧]

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: اتَّخذتُم ما جئتُكم به مِن أمرِ اللهِ ظِهْرِيًّا، أي: جعلتُموه وراءَ ظهورِكم، وامتنعتُم من قَتْلي مخافةَ قومي[٨]، يقال: جعلتُ أمرَه بظهرٍ إذا قَصَّرْت فيه[٩]، وقد مضى في «البقرة»[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(٢) ينظر تهذيب اللغة ٦/ ١٧٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٢.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ١٥٣.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٩٩ - ٥٠٠، والبيت في ديوان النابغة الجعدي ص١٦٥، وفيه: بصدر، بدل: بمرّ.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠.

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٧، والنكت والعيون ٢/ ٥٠٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩.

(٨) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٧.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٧٧ بنحوه.

(١٠) ٢/ ٢٦٨.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: من الكُفر والمعصية. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي: عليم. وقيل: حفيظ[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيد[٢]، وقد تقدَّمَ في «الأنعام»[٣].

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يُهلِكُه. و«مَنْ» في موضعِ نصب، مثل: ﴿يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ عطفٌ عليها[٤]. وقيل: أي: وسوف تعلمون مَن هو كاذبٌ مِنَّا. وقيل: في محلِّ رفع، تقديره: ويَخزَى مَن هو كاذب[٥]. وقيل: تقديرُه: ومن هو كاذب فَسيُعلَمُ كَذِبُه، ويذوقُ وبالَ أمره[٦]. وزعم الفرّاءُ[٧] أنهم إنما جاؤوا بـ«هو» في «وَمَنْ هو كاذبٌ» لأنهم لا يقولون: مَن قائمٌ، إنما يقولون: مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم، فزادوا «هو» ليكونَ جملةً تقوم مَقامَ فَعَلَ ويَفْعلُ. قال النحاس: ويدلُّ على خلاف هذا قولُه:

مَن رَسُولٌ إلى الثُّريّا بِأَنّي ... ضِقْتُ ذَرْعاً بِهَجْرِهَا والكتابِ[٨]

﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا العذابَ والسَّخْطَةَ، فإني منتظرٌ النصرَ والرحمةَ[٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ قيل: صاحَ بهم جبريلُ صيحةً فخرجتْ أرواحُهم

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠١.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٥٠١، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٤٠.

(٣) ٩/ ٣٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٥) ينظر النكت والعيون ٢/ ٥٠١.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٩٩.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٠.

(٨) قائله عمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٣٠، وفيه: رسولي، بدل: رسولٌ.

(٩) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٩٩.

من أجسادهم[١]، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريلَ. وَأَنَّثَ الفِعلَ على لفظ الصيحة، وقال في صيحة صالح: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود:٦٧]، فذكَّرَ على معنى الصياح.

قال ابن عباس: ما أهلكَ اللهُ أُمَّتين بِعذابٍ واحد إلا قومَ صالحٍ وقومَ شُعيب، أهلكهم الله بالصيحة، غيرَ أنّ قومَ صالح أخذَتْهم الصيحةُ من تحتِهم، وقومَ شعيب أخذتْهم الصيحة من فوقِهم[٢].

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تقدّم معناه[٣]. وحكى الكسائيُّ أن أبا عبد الرحمن السُّلَميَّ قرأ: «كَمَا بَعُدَتْ ثَمُودُ» بضم العين. قال النحاس[٤]: المعروف في اللغة إنما يقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَداً وبُعْداً: إذا هلك.

وقال المهدويّ: مَن ضمَّ العين من «بَعُدتْ» فهي لغةٌ تُستعمل في الخير والشرّ، ومصدُرها البُعد، وبَعِدت تُستعمل في الشرِّ خاصةً، يقال: بَعِدَ يَبْعَد بَعَداً، فالبُعد على قراءة الجماعة بمعنى اللَّعنة، وقد يجتمع معنى اللُّغتين لِتقاربهما في المعنى، فيكون مما جاء مصدرُه على غير لفظِهِ لتقارب المعاني.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بيَّن أنه أَتبع النبيَّ النبيَّ لإقامة الحُجَّة،

---

(١) تفسير الطبري ١٢/٥٥٩ - ٥٦٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٥١ .

(٣) تقدم معنى قوله: «فأصبحوا في ديارهم جاثمين» في ص١٥٧ من هذا الجزء، وقوله: «كأن لم يغنوا فيها» في ٩/ ٢٨٦ ، وقوله: «ألا بعداً» في ص١٤٧ من هذا الجزء.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٠ ، وما قبله منه، وقراءة السُّلمي في القراءات الشاذة ص٦١ .

وإزاحةِ كلِّ عِلَّة. «بِآيَاتِنَا» أي: بالتوراة، وقيل: بالمعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حُجَّة بيِّنة، يعني العصا[١]. وقد مضى في «آل عمران» معنى السلطانِ واشتقاقُه[٢]، فلا معنى للإعادة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنَه وحالَه، حتى اتخذوه إلهاً، وخالفوا أمر الله تعالى. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: بسديدٍ يؤدِّي إلى صواب. وقيل: «بِرشيدٍ» أي: بمرشدٍ إلى خير[٣].

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يعني أنه يتقدَّمهم إلى النار، إذ هو رئيسهم. يقال: قَدَمهم يقدُمُهم قُدْماً وقُدُوماً: إذا تقدَّمهم[٤]. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: أدخلهم فيها. ذُكِر بلفظ الماضي، والمعنى: فيوردهم النار، وما تحقَّق وجودُه فكأنه كائن، فلهذا يُعبَّر عن المستقبل بالماضي[٥]. ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس المدخل المدخول، ولم يقل: بئست؛ لأن الكلام يرجِع إلى الوِرْد[٦]، وهو كما تقول: نِعْمَ المنزلُ دارُك، ونعمت المنزلُ دارُك. والوِرْد[٧]: الماء الذي يُورَد، والموضع الذي يُورد، وهو بمعنى المفعول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي: في الدنيا. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ولعنةً يوم القيامة، وقد تقدَّم هذا المعنى[٨].

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ حكى الكِسائيُّ وأبو عُبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْداً، أي: أعنتُه

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٨٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ٤/ ٣٥٧.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٨٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٥.

(٦) في (م): المورود. والكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٨/ ٥٤.

(٧) في (م): والمورود.

(٨) ص١٤٧ من هذا الجزء.

وأعطيته. واسم العَطِيَّة: الرِّفْد[(١)]، أي: بئس العطاءُ والإعانة. والرِّفْد والرَّفْد[(٢)] أيضاً: القَدَح الضخم؛ قاله الجوهري[(٣)]، والتقدير: بئس الرِّفد رِفدُ المرفود. وذكر الماوردي: أنَّ الرَّفْد بفتح الراء: القَدَح، والرِّفْد بكسرها: ما في القدح من الشراب، حكى ذلك عن الأصمعي، فكأنه ذمَّ بذلك ما يُسقَونه في النار. وقيل: إنَّ الرِّفْد الزيادة، أي: بئس ما يُرفدون به بعد الغَرق النارُ، قاله الكلبي[(٤)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ «ذَٰلِكَ» رفعٌ على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك. وإنْ شئت بالابتداء[(٥)]، والمعنى: ذلك النبأُ المتقدِّم من أنباء القرى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠ . وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٢٩٨ .

(٢) قوله: والرَّفد (الثانية)، ليس في (م).

(٣) الصحاح (رفد).

(٤) النكت والعيون ٢/ ٥٠٢ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٠ .

نقصُّه عليك.

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ قال قتادة: القائم ما كان قائماً[1] على عروشه، والحصيد ما لا أثرَ له. وقيل: القائمُ: العامر، والحصيدُ: الخراب، قاله ابن عباس[2]. وقال مجاهد: قائم: خاويةٌ على عروشها، وحصيد: مُستأصَل، يعني محصوداً، كالزرع إذا حُصد، قال الشاعر:

والناس في قَسْم المَنيَّة بينهم كالزَّرع منه قائمٌ وحصيدُ[3]

وقال آخر:

إنما نحن مثلُ خامَةِ زرعٍ فمتى يأنِ يأتِ مُحتَصِدُهْ[4]

قال الأخفش سعيد[5]: حصيد، أي: محصود، وجمعه: حَصْدَى وحِصاد، مثل: مرضى ومِراض، قال: يكون فيمن يعقِل: حَصْدَى، مثل: قَتِيل وقَتْلى[6].

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أصلُ الظلم في اللغة: وضعُ الشيء في غير موضعه، وقد تقدَّم في «البقرة» مستوفًى[7]. ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بالكفر والمعاصي. وحكى سيبويه أنه يقال: ظلم إياه[8] ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ﴾ أي: دَفَعت. ﴿عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ في الكلام حذف، أي: التي كانوا يعبدون، أي: يدعون. ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ أي: غيرَ تخسير، قاله مجاهدٌ وقَتادة[9]. وقال لبيد:

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) و(م): خاوياً، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٧ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٥٠٣ .

(٤) قائله الطِّرِمَّاح، وهو في ديوانه ص١٩٨ ، والشطر الأول فيه: إنما الناس مثل نابتة الزرع. وأورده بلفظ المصنف ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٢/ ٧١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٨٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠١ .

(٦) في إعراب القرآن: ويجوز فيمن يعقل: حُصداء مثل: قتيل وقُتَلاء. وينظر الدر المصون ٦/ ٣٨٤ .

(٧) ١/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ .

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠ .

فلقد بَلِيتُ وكلُّ صاحبِ جِدَّةٍ لِبِلًى يعود وذاكُمُ التَّتْبِيبُ[١]

والتَّبَاب: الهلاك والخسران، وفيه إضمار، أي: ما زادتهم عبادةُ الأصنام، فحذف المضاف، أي: كانت عبادتهم إياها قد خسَّرتهم ثوابَ الآخرة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: كما أخذ هذه القرى التي كانت لنوحٍ وعادٍ وثمودَ يأخذ جميعَ القرى الظالمة.

وقرأ عاصمٌ الجحدريُّ وطلحة بنُ مصرِّف: «وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَى»[٣].

وعن الجحدريِّ أيضاً: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ» كالجماعة «إِذْ أَخَذَ القُرَى»[٤].

قال المهدويّ: من قرأ: «وكذلك أَخَذَ ربُّك إِذْ أَخَذَ» فهو إخبارٌ عما جَرَتْ[٥] به العادةُ في إهلاك مَن تقدَّم من الأُمم، والمعنى: وكذلك أَخَذَ ربُّك مَن أخذه من الأمم[٦] المُهلَكة إذْ أخذهم.

وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى: كذلك أَخْذُ ربِّك مَن أراد إهلاكَه متى أخذه، فـ «إذْ» لِما مضى، أي: حين أَخَذَ القرى، و«إذا» للمستقبل.

﴿وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أي: وأهلُها ظالمون، فحذف المضاف، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][٧].

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من ديوان لبيد، والكلام في النكت والعيون ٢/ ٥٠٣، وقد ذكر البيت الزجاجي في أماليه ص١٢٧ ضمن قصيدة لِنُويفع بن نُفيع الفقعسي، ولفظه:

قالت: كَبِرتَ، وكل صاحب لذَّة لِبلًى يعود وذلك التتبيب

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٥٧٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١ عن عاصم الجحدري. والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٦ عن أبي رجاء العطاردي والجحدري، وفيه: إذا، بدل: إذ.

(٤) من قوله: وعن الجحدري إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٥) في (م): جاءت.

(٦) من قوله: والمعنى إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١.

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ أي: عقوبته لأهل الشرك مُوجِعةٌ غليظة.

وفي «صحيح» مسلم والترمذيِّ[١] من حديث أبي موسى: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يُملي للظالم، حتى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي: لَعبرةً وموعظة. ﴿لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾. ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ﴾، ابتداءٌ وخبر. ﴿مَّجۡمُوعٞ﴾ مِن نعته، ﴿لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ اسم ما لم يُسمَّ فاعله، ولهذا لم يقل: مجموعون؛ فإن قدَّرت ارتفاعَ «الناس» بالابتداء، والخبر «مجموعٌ له»، فإنما لم يقل: مجموعون، على هذا التقدير؛ لأن «له» يقوم مقامَ الفاعل[٢]. والجمع: الحشر، أي: يحشرون لذلك اليوم. ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ أي: يشهده البَرُّ والفاجر، ويشهده أهلُ السماء. وقد ذكرنا هذين الاسمين مع غيرهما من أسماء القيامة في كتاب «التذكرة»[٣] وبيَّنَّاهما، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ما نؤخِّر ذلك اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ أي: لأجَلٍ سبقَ به قضاؤنا، وهو معدودٌ عندنا. ﴿يَوْمَ يأتي﴾، وقرئ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾؛ لأن الياء تُحذف إذا كان قبلَها كسرة، تقول: لا أدرِ، ذكره القشيري.

قال النحاس[٤]: قرأه أهلُ المدينة وأبو عمرٍو والكسائيُّ بإثبات الياء في الإدراج، وحذفِها في الوقف، ورُوي أنَّ أُبيًّا وابنَ مسعود قرأا: «يومَ يأتِي» بالياء في الوقف والوصل[٥]. وقرأ الأعمش وحمزة: «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياءٍ في الوقف والوصل[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٣)، وسنن الترمذي (٣١١٠)، وهو عند البخاري (٤٦٨٦).
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠١.
(٣) ص٢٢٠ و ٢٢٩.
(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠١ - ٣٠٢.
(٥) وهي قراءة ابن كثير ويعقوب. السبعة ص٣٣٨ - ٣٣٩، والتيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٢.
(٦) قراءة حمزة في السبعة ص٣٣٩، ووافقه ابن عامر وعاصم.

قال أبو جعفر النحاس[1]: الوجه في هذا ألَّا يوقفَ عليه، وأن يُوصل بالياء، لأن جماعةً من النحويين قالوا: لا تحذف الياء، ولا يجزم الشيءُ بغير جازم، فأما الوقفُ بغير ياءٍ ففيه قولٌ للكسائيّ، قال: لأنَّ الفعلَ السالمَ يُوقَفُ عليه كالمجزوم، فحذف الياء، كما تحذف الضمة. وأما قراءةُ حمزة فقد احتجَّ أبو عُبيد لحذف الياء في الوصل والوقف بحجَّتين: إحداهما: أنه زَعم أنه رآه في الإمام الذي يقال له إنه مصحف عثمانَ ﷺ بغير ياء. والحجَّة الأخرى: أنه حكى أنها لغةُ هُذَيل، تقول: ما أدرِ.

قال النحَّاس[2]: أما حُجَّته بمصحف عثمان ﷺ فشيءٌ يردُّه عليه أكثرُ العلماء، قال مالك بن أنس رحمه الله: سألتُ عن مصحف عثمان ﷺ فقيل لي: ذَهَب. وأما حُجَّته بقولهم: «ما أدرِ» فلا حُجَّة فيه؛ لأن هذا الحرفَ[3] قد حكاه النحويُّون القدماء، وذكروا عِلَّته، وأنه لا يُقاس عليه. وأنشد الفراء في حذف الياء:

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُليقُ دِرهماً جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدَّمَا[4]

أي: تعطي. وقد حكى سيبويه والخليلُ أنّ العرب تقول: لا أدرِ، فتحذف الياءَ وتجتزئ بالكسر، إلا أنهم يزعُمون أنَّ ذلك لِكَثْرة الاستعمال. قال الزجَّاج[5]: والأجود في النحو إثباتُ الياء، قال: والذي أراه اتِّباعُ المصحف وإجماعِ القرَّاء؛ لأن القراءة سُنَّة، وقد جاء مثلُه في كلام العرب.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الأصل: تتكلم، حُذفت إحدى التاءين تخفيفاً[6].

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٢.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٢، وما قبله منه.

(٣) في (د) و(م): الحذف، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق لإعراب القرآن.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧، والأضداد للأنباري ص٢٦٤، ودرة الغواص للحريري ص١٦٥. وقوله: ما تُليق درهماً، أي: ما تحبسه ولا تلصَق به. اللسان (ليق).

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٧٧، وما قبله منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٢.

وفيه إضمار، أي: لا تتكلَّم فيه نفسٌ إلَّا بالمأذون فيه مِن حسن الكلام؛ لأنهم مُلجَؤون إلى ترك القبيح. وقيل: المعنى: لا تكلَّمُ بحجَّة ولا شفاعةٍ إلا بإذنه. وقيل: إنَّ لهم في الموقف وقتاً يُمنَعون فيه من الكلام إلا بإذنه[١].

وهذه الآية أكثرُ ما يَسأل عنها أهلُ الإلحاد في الدِّين. فيقول: لمَ قال: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ و﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]. وقال في موضعٍ مِن ذكر القيامة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]. وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]. وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[٢] [الرحمن: ٣٩].

والجواب ما ذكرناه، وأنهم لا ينطِقون بحجَّة تجب لهم، وإنما يتكلَّمون بالإقرار بذنوبهم، ولَوْمِ بعضِهم بعضاً، وطرحِ بعضِهم الذنوبَ على بعض، فأما التكلُّم والنُّطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يُخاطبك كثيراً وخطابُه فارغٌ عن الحجة: ما تكلَّمتَ بشيء، وما نطقتَ بشيء، فسُمِّيَ مَن يتكلم بلا حُجَّة فيه له غيرَ متكلِّم. وقال قوم: ذلك اليوم طويل، وله مواطنُ ومواقفُ، في بعضها يُمنعون من الكلام، وفي بعضها يُطلق لهم الكلام، فهذا يدلُّ على أنه لا تتكلَّم نفسٌ إلَّا بإذنه[٣].

﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: من الأنفُس، أو من الناس، وقد ذَكرَهم في قوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾. والشقيُّ الذي كُتبت عليه الشَّقاوة، والسَّعيد الذي كتبت عليه السَّعادة، قال لَبيد[٤]:

فمنهمْ سعيدٌ آخذٌ بنصيبهِ ومنهم شَقيٌّ بالمعيشةِ قانعُ

وروى الترمذيُّ[٥] عن ابن عمر، عن عمر بنِ الخطاب قال: لمَّا نزلت هذه الآية

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٧ - ٧٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧٨ - ٧٩ .

(٤) ديوانه ص١٧٠ .

(٥) في سننه (٣١١١)، وهو عند أحمد (١٩٦).

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألتُ رسول الله ﷺ، فقلت: يا نبيَّ الله، فعلامَ نعمل؟ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، أو على شيءٍ لم يُفرَغ منه؟ فقال: «بَلْ على شيءٍ قد فُرِغَ منه، وجرَتْ به الأقلامُ يا عُمر، ولكن كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له». قال: هذا حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه، لا نعرِفه إلا من حديث عبد الله بن عمر، وقد تقدَّم في «الأعراف»[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ ابتداء. ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ في موضع الخبر، وكذا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق[2]، وعنه أيضاً ضدُّ ذلك[3]. وقال الزجَّاج[4]: الزَّفير من شدَّة الأنين، والشَّهيق من الأنين المرتفع جدًّا، قال: وزعَم أهلُ اللغة من الكوفيين والبصريين أنَّ الزفير بمنزلة ابتداءِ صوت الحمير في النَّهيق، والشَّهيقَ بمنزلة آخرِ صوت الحمار في النَّهيق. وقال ابن عباس ﷺ عكسَه؛ قال: الزفير: الصوتُ الشديد، والشَّهيق: الصوت الضعيف[5]. وقال الضحَّاك ومقاتل: الزفير مثلُ أوَّلِ نهيق الحمار، والشهيقُ مثلُ آخرِه حين فرغ من صوته[6]، قال الشاعر:

حَشرَجَ في الجوف سَحِيلاً أو شَهَقْ ... حتى يُقالَ ناهقٌ وما نَهَقْ[7]

وقيل: الزَّفير: إخراج النَّفَس، وهو أن يمتلئَ الجوفُ غمًّا فيخرج بالنَّفس، والشَّهيق: ردُّ النَّفَس[8].

---

(١) ٩/ ٣٧٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٧.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٧.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٢.

(٧) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٦، والسحيل: الصوت الذي يدور في صدر الحمار. اللسان (سحل).

(٨) ينظر تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٣.

وقيل: الزَّفير ترديد النَّفَس من شدَّة الحزن، مأخوذٌ من الزَّفْر، وهو الحَمْل على الظهر لشِدَّته. والشهيق: النفَس الطويل المُمتدّ، مأخوذٌ من قولهم: جبلٌ شاهق، أي: طويل(١). والزفير والشهيق من أصوات المحزونين(٢).

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ «ما دامَتِ» في موضع نصبٍ على الظرف، أي: دوامَ السماوات والأرض، والتقدير: وقتَ ذلك(٣).

واختُلف في تأويل هذا، فقالت طائفةٌ؛ منهم الضحَّاك: المعنى: ما دامت سماواتُ الجنة والنار وأرضُهما، والسماءُ كلُّ ما علاكَ فأظلَّك، والأرضُ ما استقرَّ عليه قدمُك(٤)، وفي التنزيل: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقيل: أراد به السماءَ والأرض المعهودتين في الدنيا، وأجرى ذلك على عادة العرب في الإخبار عن دوام الشيءِ وتأبيدِه، كقولهم: لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ، أو سال سيلٌ، وما اختلف الليلُ والنهار، وما ناح الحمام، وما دامت السماواتُ والأرض، ونحوِ هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم اللهُ تخليدَ الكَفَرة بذلك، وإنْ كان قد أَخبر بزوال السماوات والأرض(٥).

وعن ابن عباس: أنَّ جميع الأشياء المخلوقةِ أصلُها من نور العرش، وأنَّ السماواتِ والأرضَ في الآخرة تُردَّان إلى النور الذي أُخذتا منه، فهما دائمتان أبداً في نور العرش(٦).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ في موضع نصب، لأنه استثناءٌ ليس من

(١) النكت والعيون ٢/ ٥٠٤ .
(٢) تهذيب اللغة ٥/ ٣٨٩ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣ .
(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٩١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٢ .
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ .
(٦) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ بنحوه مختصراً.

الأوَّل[١]، وقد اختلف فيه على أقوال عشرة:

الأول: أنه استثناءٌ من قوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾ كأنه قال: إلَّا ما شاء ربُّك مِن تأخير قومٍ عن ذلك. وهذا قولٌ رواه أبو نَضْرة عن أبي سعيد الخُدْريِّ أو جابرٍ[٢] رضي الله عنهما[٣]. وإنما لم يقل: مَن شاء؛ لأنَّ المرادَ العددُ لا الأشخاص، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]. وعن أبي نَضْرة، عن رسول الله ﷺ: «إلَّا من شاء ألَّا يُدخلَهم وإن شَقُوا بالمعصية»[٤].

الثاني: أنَّ الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدَّةٍ من النار، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ عامًّا في الكَفَرة والعصاة، ويكون الاستثناءُ من «خَالِدِينَ»؛ قاله قتادة والضَّحَّاك وأبو سِنان وغيرُهم[٥].

وفي الصحيح من حديث أنس بنِ مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَدخلُ ناسٌ جهنمَ، حتى إذا صاروا كالحُمَمَة؛ أُخرجوا منها ودخلوا الجنة، فيقال: هؤلاء الجَهنَّميُّون»[٦] وقد تقدَّم هذا المعنى في «النساء»[٧] وغيرها.

الثالث: أنَّ الاستثناء من الزَّفير والشَّهيق، أي: لهم فيها زفيرٌ وشهيق إلَّا ما شاء ربُّك من أنواع العذاب الذي لم يذكره، وكذلك لأهل الجنة من النعيم، ما ذكر وما لم يذكر. حكاه ابنُ الأنباري[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٣.

(٢) في النسخ: وجابر، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣١٣، والطبري ١٢/ ٥٨١، وأبو نضرة: هو المنذر بن مالك.

(٤) كذا ذكره الماوردي هكذا في النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ مرسلاً.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٥٧٩ - ٥٨١، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨ وأبو سنان: هو ضرار بن مرة الشيباني.

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٥٨)، والبخاري (٦٥٥٩). والحُمَمَة: الفحمة. النهاية (حمم).

(٧) ٧/ ٤٠ وما بعدها.

(٨) النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ - ٥٠٦، وهو قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨٠.

الرابع: قال ابن مسعود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾: لا يموتون فيها، ولا يُخرجون منها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ وهو أن يأمرَ النارَ فتأكلُهم وتُفنيهم، ثم يُجدّد خلقهم[١].

قلت: وهذا القول خاصٌّ بالكافر والاستثناء له في الأكل وتجديدِ الخَلْق.

الخامس: أنَّ «إلا» بمعنى «سوى»، كما تقول في الكلام: ما معي رجلٌ إلَّا زيد، ولي عليك ألفا درهمٍ إلا الألفَ التي لي عليك[٢].

قيل: فالمعنى: ما دامت السماواتُ والأرض سوى ما شاء ربُّك من الخلود.

السادس: أنه استثناءٌ من الإخراج، وهو لا يريد أن يُخرجَهم منها. كما تقول في الكلام: أردت أن أفعلَ ذلك إلَّا أن أشاءَ غيرَه، وأنت مقيمٌ على ذلك الفعل، فالمعنى أنه لو شاء أن يُخرجَهم لأخرجهم، ولكنه قد أَعلمهم أنهم خالدون فيها. ذَكَر هذين القولين الزَّجاجُ[٣] عن أهل اللغة، قال: ولأهل المعاني قولان آخران:

فأحد القولين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ مِن مقدار موقفهم على رأس قبورهم، وللمحاسبة، وقدرِ مُكْثهم في الدنيا، والبرزخِ، والوقوف للحساب.

والقول الآخر: وقوع الاستثناء في الزيادة على النعيم والعذاب، وتقديره: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ من زيادة النعيم لأهل النعيم، وزيادةِ العذاب لأهل الجحيم[٤].

قلت: فالاستثناء في الزيادة من الخلود على مُدَّة كون السماءِ والأرض

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٦٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ - ٨٠.

(٤) هذا القول ليس في معاني الزجاج، والقول الآخر الذي ذكره الزجاج هو القول الثالث الذي ذكره المصنف آنفاً.

المعهودتين في الدنيا، واختاره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله محمد بنُ علي[1]، أي: خالدين فيها مقدارَ دوامِ السماوات والأرض، وذلك مدَّة العالَم، وللسماء والأرض وقتٌ يتغيَّران فيه، وهو قولُ سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فخلق اللهُ سبحانه الآدميِّين وعامَلَهم، واشترى منهم أنفسَهم وأموالهم بالجنة، وعلى ذلك بايَعهم يومَ الميثاق، فمن وفَى بذلك العهدِ فله الجنة، ومن ذهب برقبته يُخلَّد في النار بمقدار دوامِ السماوات والأرض، فإنما دامتا للمعاملة، وكذلك أهلُ الجنة؛ خلودٌ في الجنة بمقدار ذلك، فإذا تمَّت هذه المعاملةُ، وقع الجميع في مشيئة الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨]، فيخلَّد أهلُ الدارين بمقدار دوامهما، وهو حقُّ الرُّبوبية بذلك المقدارِ من العَظَمة، ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين؛ لحقِّ الأَحَديَّة، فمن لَقِيه مُوحِّداً لأحدِيَّته، بقي في داره أبداً، ومَن لَقِيَه مُشركاً بأحديَّته إلهاً، بقي في السِّجن أبداً، فأعلمَ اللهُ العبادَ مقدارَ الخلود، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مِن زيادة المدَّة التي تعجِزُ القلوبُ عن إدراكها؛ لأنه لا غايةَ لها؛ فبالاعتقاد دام خلودُهم في الدارين أبداً.

وقد قيل: إنَّ «إلا» بمعنى الواو، قاله الفرَّاء[2] وبعضُ أهل النظر. وهو الثامن[3]، والمعنى: وما شاء ربُّك من الزيادة في الخلود على مدَّة دوامِ السماوات والأرض في الدنيا. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [العنكبوت:٤٦] أي: ولا الذين ظلموا. وقال الشاعر:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوه   لعَمرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ[4]

أي: والفرقدان. وقال أبو محمد مكّيّ: وهذا قولٌ بعيد عند البصريين أن تكونَ

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٨ .

(٣) لم يذكر المصنف السابع.

(٤) سلف ص٥٤ من هذا الجزء.

«إلا» بمعنى الواو، وقد مضى في «البقرة» بيانه[١].

وقيل: معناه: كما شاء ربُّك، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] أي: كما قد سلف، وهو التاسع[٢].

العاشر: وهو أنَّ قوله تعالى: «إِلَّا ما شاء ربُّكَ» إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرعُ إلى استعماله في كل كلام، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] فهو استثناءٌ في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك، كأنه قال: إن شاء ربُّك، فليس يوصف بمتَّصلٍ ولا منقطع، ويُؤيِّده ويقوِّيه قولُه تعالى: «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»[٣]، ونحوه عن أبي عُبيد قال: تقدَّمت عزيمةُ المشيئة من الله تعالى في خلود الفريقَين في الدارين، فوقع لفظ الاستثناء، والعزيمة قد تقدَّمت في الخلود، قال: وهذا مثلُ قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وقد علم أنهم يدخلونه حتماً، فلم يوجب الاستثناءُ في الموضعين خياراً، إذ المشيئة قد تقدَّمت بالعزيمة في الخلود في الدارين والدخولِ في المسجد الحرام، ونحوُه عن الفرَّاء[٤].

وقولٌ حادي عشر: وهو أنَّ الأشقياء هم السُّعداء، والسعداء هم الأشقياء لا غيرهم، والاستثناء في الموضعين راجعٌ إليهم، وبيانه: أنَّ «ما» بمعنى «مَن» استثنى اللهُ عزَّ وجلَّ من الداخلين في النار المخلَّدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمدٍ ﷺ بما معهم من الإيمان، واستثنى من الداخلين في الجنة المخلَّدين فيها الذين يدخلون النارَ بذنوبهم قبل دخول الجنة، ثم يخرجون منها إلى الجنة، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثاني، كأنه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

---

(١) ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٦١ ونسبه للثعلبي.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٨.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٨.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ألَّا يُخلِّدَه فيها، وهم الخارجون منها من أمة محمدٍ ﷺ بإيمانهم وبشفاعة محمدٍ ﷺ، فهم بدخولهم النارَ يُسمَّون الأشقياء، وبدخولهم الجنةَ يُسمَّون السُّعداء، كما روى الضَّحَّاك عن ابن عباس إذ قال: الذين سُعِدوا شَقُوا بدخول النار، ثم سُعِدوا بالخروج منها ودخولِهم الجنةَ[1].

وقرأ الأعمش وحفصٌ وحمزة والكِسائي: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بضمِّ السين. وقال أبو عمرو: والدليل على أنه سَعِدوا أنَّ الأول شَقُوا، ولم يقل أُشقوا. قال النحاس[2]: ورأيت عليَّ بنَ سليمان يتعجب من قراءة الكسائي: «سُعِدوا» مع علمه بالعربية! إذ كان هذا لحناً لا يجوز؛ لأنه إنما يقال: سَعِد فلانٌ وأسعده الله، وأُسعد مثل أُمرِض، وإنما احتجَّ الكسائيُّ بقولهم: مسعود، ولا حجَّة له فيه؛ لأنه يقال: مكان مسعودٌ فيه، ثم يُحذف فيه ويسمَّى به.

قال المهدوي: ومَن ضمَّ السين مِن «سُعدوا» فهو محمولٌ على قولهم: مسعود، وهو شاذٌّ قليل؛ لأنه لا يقال: سعده الله، إنما يقال: أسعده الله[3]. وقال الثعلبي: «سُعِدوا» بضم السين، أي: رُزقوا السَّعادة، يقال: سُعِد وأُسعِد بمعنى واحد.

وقرأ الباقون: «سَعِدوا» بفتح السين قياساً على «شَقُوا» واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم. وقال الجوهري[4]: والسعادة خلافُ الشَّقاوة، تقول: سَعِد الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو سعيد، مثل: سَلِم فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود، ولا يقال فيه: مُسْعَد، كأنهم استغنَوا عنه بمسعود. وقال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيم: وقد ورد: سَعَده اللهُ فهو مسعود، وأَسعده اللهُ مُسْعَد، فهذا يقوِّي قولَ الكوفيين. وقال سيبويه: لا يقال: سُعِد

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٥٠٥ بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٣ ، وما قبله منه. وقراءة حفص وحمزة والكسائي في السبعة ص٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٧٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٠٩ .

(٤) في الصحاح (سعد).

فلانٌ، كما لا يقال: شُقي فلان؛ لأنه مما لا يتعدَّى[١].

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غيرَ مقطوع، مِن جَذَّه يَجُذُّه، أي: قطعه، قال النابغة:

تَجُذُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحِبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزم بالنهي، وحذفت النونُ لكثرة الاستعمال. ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ أي: في شكّ. ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ مِن الآلهة أنها باطل. وأحسنُ مِن هذا: أي: قل يا محمد لكلِّ مَن شكَّ: «لا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤلاءِ» إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما أمرهم به، وإنما يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون؛ تقليداً لهم[٣].

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ فيه ثلاثةُ أقوال:

أحدها: نصيبهم من الرِّزق؛ قاله أبو العالية[٤].

الثاني: نصيبهم من العذاب؛ قاله ابن زيد.

الثالث: ما وُعِدوا به من خيرٍ أو شرٍّ؛ قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمة: أنَّ الله عزَّ وجلَّ حكم

---

(١) ينظر الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٧٨.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١١ ، وفيه: تقدّ، بدل: تَجُذُّ، وسيرد ص٣١٩ من هذا الجزء. قوله: السلوقي؛ نسبةٌ إلى سَلُوق؛ قرية باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب. والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقاق. والحُباحب: ذبابٌ يطير بالليل له شعاع كالسراج، ومنه: نار الحُباحب، أو هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة. القاموس (سلق) (صفح) (حبب). ويصف النابغة في هذا البيت السيوف أنها تقدُّ الدروعَ التي ضوعف نسجُها والفارس والفرس حتى تبلغ الأرض، فتنقدح النار بها من الحجارة. الشعر والشعراء ١/ ١٧٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١١٢٥٠) ٦/ ٢٠٨٩ .

(٥) أخرج هذا القول والذي قبله الطبري ١٢/ ٥٩١ - ٥٩٢ .

أنْ يؤخِّرَهم إلى يوم القيامة لِمَا عَلِمَ في ذلك من الصلاح، ولولا ذلك لَقَضى بينهم أجلَهم بأن يُثيبَ المؤمن ويُعاقبَ الكافر[١]. قيل: المراد بين المختلِفين في كتاب موسى، فإنهم كانوا بين مُصَدِّقٍ به ومُكَذِّب. وقيل: بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمدُ بتعجيل العقاب، ولكن سبق الحكمُ بتأخير العقاب عن هذه الأمَّة إلى يوم القيامة[٢]. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إن حُملت على قوم موسى، أي: لفي شكٍّ من كتاب موسى، فهم في شكٍّ من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: إنَّ كلًّا من الأمم التي عَدَدْناهم يَرون جزاءَ أعمالهم، فكذلك قومُك يا محمد.

واختلف القرَّاء في قراءة ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ فقرأ أهل الحرمين؛ نافعٌ وابنُ كثير وأبو بكر معهم: «وَإِنْ كُلًّا» بالتخفيف[٣]، على أنها «إنْ» المخفَّفةُ من الثقيلة مُعْمَلَةً، وقد ذكر هذا الخليلُ وسيبويه[٤]، قال سيبويه[٥]: حدَّثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول: إن زيداً لَمنطلقٌ، وأنشد قولَ الشاعر:

كأنْ ظَبْيَةٌ تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ[٦]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٤.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٠.

(٣) السبعة ص٣٣٩، والتيسير ص١٢٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥.

(٥) الكتاب ٢/ ١٤٠.

(٦) هذا عجز بيت، وصدره: ويوماً تُوافينا بوجهٍ مُقسَّمٍ. وقد اختُلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صَريم اليَشكري، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٧٥، والأخفش الأصغر علي بن سليمان في الاختيارين ص٢٠٥ لعِلباء بن أرقم اليشكري. وقد نُسب لغيرهما. ينظر شرح أبيات المغني للبغدادي ١/ ١٥٩ - ١٦٠. تعطو، أي: تتناول أوراق الشجر مُرتعية. والوارق: المُورق. والسَّلَم: شجر بعينه. تحصيل عين الذهب ص٢٨٥.

أراد: كأنها ظبية، فخفَّف ونصب ما بعدها، والبصريون يُجوِّزون تخفيفَ «إنّ» المشدَّدةِ مع إعمالها، وأنكر ذلك الكسائيُّ وقال: ما أدري على أيِّ شيءٍ قرئ: ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾! وزعم الفراء أنه نُصب «كلًّا» في قراءة مَن خفَّف بقوله: «لَيُوفينَّهم» أي: وإن لَيوفينَّهم كلًّا، وأنكر ذلك جميعُ النحويين، وقالوا: هذا من كبير الغَلَط، لا يجوز عند أحد: زيداً لأضربنَّه[1].

وشدَّد الباقون «إنَّ» ونصبوا بها «كلًّا» على أصلها.

وقرأ عاصمٌ وحمزةُ وابن عامر: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد. وخفَّفها الباقون[2] على معنى: وإن كلًّا لَيوفينَّهم، جعلوا «ما» صلة. وقيل: دخلت لِتَفصِلَ بين اللامين اللتين تتلقَّيان القَسَم، وكلاهما مفتوح، ففصل بينهما بـ«ما»[3].

وقال الزجاج: لام «لمـا» لام «إنَّ» و«ما» زائدة مؤكّدة[4]، تقول: إنَّ زيداً لمنطلق، فإنَّ تقتضي أن يدخلَ على خبرها أو اسمها لامٌ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. واللام في «لَيوفِّينَّهم» هي التي يُتَلقَّى بها القسم، وتدخل على الفعل، ويلزمها النون المُشدَّدةُ أو المُخفَّفة، ولمَّا اجتمعت اللامان فصل بينهما بـ«ما»، و«ما» زائدة مؤكِّدة[5].

وقال الفرَّاء[6]: «ما» بمعنى «مَن»، كقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢]، أي: وإنّ كلًّا لَمَن لَيوفينهم، واللام في «لَيوفِّينَّهم» للقسم. وهذا يرجع معناه إلى قول

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ . وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩ - ٣٠ وقال فيه: وهو وجهٌ لا أشتهيه.

(٢) السبعة ص٣٣٩ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨١ .

(٥) ينظر الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٨٥ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٨ - ٢٩ .

الزجَّاج، غير أنَّ «ما» عند الزجاج زائدة، وعند الفراء اسمٌ بمعنى «من».

وقيل: ليست بزائدة، بل هي اسمٌ دخل عليها لامُ التأكيد، وهي خبر «إن»، و«ليوفينهم» جوابُ القسم، التقدير: وإنَّ كلًّا خَلْقٌ ليوفينهم ربُّك أعمالهم[١].

وقيل: «ما» بمعنى «مَن» كقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] أي: مَنْ، وهذا كلُّه هو قولُ الفراءِ بعينه.

وأما مَن شدَّد «لمّا» وقرأ: «وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا» بالتشديد فيهما ـ وهو حمزةُ ومَن وافقه ـ فقيل: إنه لحنٌ، حُكي عن محمد بنِ يزيد أنَّ هذا لا يجوز، ولا يقال: إنَّ زيداً إلَّا لأضرِبَنَّه، ولا لَمَّا لأضْربنَّه[٢] وقال الكِسائي: اللهُ أعلمُ بهذه القراءة، وما أعرف لها وجهاً. وقال هو وأبو عليٍّ الفارسي[٣]: التشديد فيهما مُشكِل.

قال النحاس[٤] وغيره: وللنحويين في ذلك أقوال:

الأول: أنَّ أصلها «لَمَن ما» فقلبت النون ميماً، واجتمعت ثلاثُ ميمات، فحذفت الوسطى، فصارت «لمَّا». و«ما» على هذا القولِ بمعنى «مَن» تقديره: وإن كلًّا لَمَن الذين، كقولهم:

وإنِّي لَمِمَّا[٥] أُصْدِرُ الأمرَ وجهَهُ ... إذا هو أَعيا بالسَّبيل مصادرُه

وزيَّف الزجاج[٦] هذا القول، وقال: «مَن» اسمٌ على حرفين، فلا يجوز حذفه.

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٣٧ .

(٢) في (ز) و(ظ): ضربته، وفي (م): لضربته، والمثبت موافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ والكلام منه.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٤/ ٣٨٧ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٦ .

(٥) في (د) و(ظ) و(م): لما، والمثبت من (ز) و(ف) وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩ ، وتفسير الطبري ١٢/ ٥٩٣ ، وهو شاهد على حذف ميم عند توالي الميمات لا على أن «ما» بمعنى «مَن» لأن «لمما» التي في البيت أصلها: لَمِنْ ما، مِن حرف جر. وينظر تعليق الشيخ محمود شاكر رحمه الله على هذا البيت في تفسير الطبري (طبعته) ١٥/ ٤٩٤ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٨١ .

الثاني: أنَّ الأصل: لَمِن ما، فحذفت الميمُ المكسورة لاجتماع الميمات، والتقدير: وإنَّ كُلًّا لَمِنْ خَلْقٍ لَيوفينهم[١].

وقيل: «لمًّا» مصدر «لَمَّ» وجاءت بغير تنوين حملاً للوصل على الوقف[٢]، فهي على هذا كقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ [الفجر: ١٩] أي: جامعاً للمال المأكول، فالتقدير على هذا: وإن كلًّا ليوفينهم ربُّك أعمالهم توفيةً لمًّا، أي: جامعةً لأعمالهم جمعاً، فهو كقولك: قياماً لَأقومنَّ.

وقد قرأ الزُّهري: «لَمًّا» بالتشديد والتنوينِ على هذا المعنى[٣].

الثالث: أنَّ «لمَّا» بمعنى «إلَّا»؛ حكى أهلُ اللغة: سألتك بالله لمَّا فعلت، بمعنى: إلَّا فعلت، ومثلُه قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] أي: إلَّا عليها، فمعنى الآية: ما كلُّ واحدٍ منهم إلَّا لَيوفينهم.

قال القُشيريّ: وزيَّف الزجاجُ هذا القولَ بأنه لا نفيَ لقوله: «وإنْ كلًّا لما» حتى تقدَّرَ «إلَّا» ولا يقال: ذهب الناسُ لمَّا زيد[٤].

الرابع: قال أبو عثمان المازني: الأصل: وإن كلًّا لَمَا بتخفيف «لَمَّا» ثم ثُقِّلت كقوله:

لقد خَشيتُ أنْ أرى جِدَبًّا   في عامنا ذا بعد ما أخصَبَّا[٥]

وقال أبو إسحاق الزجَّاج[٦]: هذا خطأ، إنما يُخفَّف المثقَّل، ولا يُثقَّل المُخفَّف.

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩، واستشهد له بالبيت السالف.

(٢) ذكره مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٣٧، وقال: وهو قول ضعيف في الإعراب.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥، والقراءات الشاذة ص٦١، والمحتسب ١/ ٣٢٨.

(٤) هذا القول لم يُزيِّفه الزجاج كما نقل المصنف عن القشيري، بل قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨١-٨٢: لا يجوز غيره عندي، وسيأتي قريباً، والذي ضعَّف هذا القول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٩ فقال: وأما من جعل «لما» بمنزلة «إلا» فإنه وجه لا نعرفه.

(٥) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٦٩.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٨١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٦.

الخامس: قال أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلَّام: يجوز أن يكون التشديدُ من قولهم: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: إذا جمعته، ثم بنَى منه فَعْلَى، كما قُرئ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] بغير تنوينٍ وبتنوين. فالألف على هذا للتأنيث، وتُمال على هذا القولِ لأصحاب الإمالة.

قال أبو إسحاق[١]: القول الذي لا يجوز غيرُه عندي أنَّ «إن» تكون مُخفَّفةً من الثقيلة، وتكون بمعنى «ما»، مثل: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، وكذا أيضاً تُشدَّد على أصلها، وتكون بمعنى «ما»، و«لمَّا» بمعنى «إلا»، حكى ذلك الخليلُ وسيبويه وجميع البصريين، وأنَّ «لمَّا» يُستعمل بمعنى «إلا».

قلت: هذا القول الذي ارتضاه الزجَّاجُ حكاه عنه النحاس وغيرُه، وقد تقدَّم مثلُه وتضعيفُ الزجاجِ له، إلا أنَّ ذلك القولَ صوابُه: «إنْ» فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا[٢].

وبقيت قراءتان. قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَيّ: «وَإِنْ كلًّا إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ»[٣]. وروي عن الأعمش: «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا» بتخفيف «إن»، ورفع «كل»، وبتشديد «لمَّا»[٤].

قال النحاس[٥]: وهذه القراءات المخالفةُ للسواد تكون فيها «إنْ» بمعنى «ما» لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يُقرأ بما خالف السَّوادَ إلا على هذه

---

(١) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٨١ .

(٢) ذكر محققو (م) أنه ورد في حواشي إحدى النسخ ما نصه: صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول: إلا أن هذا القول «إن» فيه نافية، والقول المتقدِّم «إن» فيه مخففة من الثقيلة فافترقا.

(٣) في (م): «وإنْ كلٌّ إلا لَيوفِّينَّهم»، وفي إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٥ (والكلام منه): «وإنْ كلٌّ إلا لَيوفِّينَّ ربُّك أعمالَهم». وفي الدر المصون ٦/ ٣٩٨ : قال أبو حاتم: الذي في مصحف أُبيّ: «وإنْ من كلٍّ إلا لَيوفِّينَّهم». وذكر السمين في الدر ٦/ ٣٩٧ قراءةً أخرى لأُبيّ، وهي: «وإنْ كلٌّ لمَّا...» بتخفيف «إن» ورفع «كلّ» وتشديد «لمَّا».

(٤) ذكر ابن جني في المحتسب ١/ ٣٢٨ والسمين في الدر المصون ٦/ ٣٩٧ أن الأعمش قرأ: «وإنْ كلٌّ إلَّا ليوفِّينَّهم». والقراءة التي ذكرها المصنف هي لأُبيّ كما في التعليق السابق.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٠٥ ، وما قبله منه.

الجِهة. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديدٌ ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ ولغيرِه.

وقيل: له، والمراد أمتُه؛ قاله السُّدِّيُّ. وقيل: «اسْتَقِمْ»: اطلب الإقامةَ على الدِّين من الله واسأله ذلك. فتكونُ السين سينَ السؤال، كما تقول: أستغفر الله: أَطلبُ الغفرانَ منه.

والاستقامةُ: الاستمرارُ في جهةٍ واحدة من غير أخذٍ في جهة اليمين والشمال، أي[1]: فاستقم على امتثال أمر الله.

وفي «صحيح» مسلم[2] عن سفيان بن عبد اللهِ الثقفيِّ قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك. قال: «قُلْ آمنتُ باللهِ، ثم اسْتَقِمْ».

وروى الدارميُّ أبو محمد في «مسنده» عن عثمان بن حاضِر الأزديِّ قال: دخلتُ على ابن عباس فقلت: أَوْصِني، فقال: نعم، عليك بتقوى اللهِ والاستقامةِ، اتَّبِعْ ولا تَبتدِعْ[3].

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: استقم أنت وهُم، يريد أصحابَه الذين تابوا من الشِّرك، ومَن بعده ممن اتَّبعه من أمَّته. قال ابن عباس: ما نَزَل على رسول اللهِ ﷺ آيةٌ هي أشدُّ ولا أَشَقُّ من هذه الآية عليه، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيبُ! فقال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها». وقد تقدَّم في أول السورة[4].

---

(١) قوله: أي، من (ز) و(ف).

(٢) برقم (٣٨)، وسلف ٢/ ٢٢٧ .

(٣) مسند الدارمي (١٤١)، وأخرجه أيضاً ابن وضاح في البدع ص٢٥ ، وبنحوه المروزي في السنة (٨٣) من طريق طاوس عن ابن عباس.

(٤) ص٦٣ من هذا الجزء وهو حديث ضعيف، سلف الكلام عليه ثمة.

ورُوي عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ، قال: سمعت أبا عليٍّ الشَّبُّوي[١] يقول: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام فقلتُ: يا رسول الله! رُويَ عنك أنك قلت: «شيَّبتني هود». فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيَّبك منها؟ قصصُ الأنبياءِ وهلاكُ الأمم! فقال: لا، ولكنْ قولُه: فاستَقِمْ كما أُمِرْتَ[٢].

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ نهيٌ عن الطُّغيان، والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١][٣]. وقيل: أي: لا تتجبَّروا على أحد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ الرُّكون حقيقتُه[٤]: الاستنادُ والاعتماد، والسكونُ إلى الشيء والرضا به. قال قتادة: معناه: لا تَوَدُّوهم ولا تُطيعوهُم[٥]. ابن جريج: لا تَميلوا إليهم[٦]. أبو العالية: لا تَرضَوْا أعمالَهم. وكلُّه متقارب. وقال ابن زيد: الرُّكون هنا: الإِدْهَان، وذلك ألَّا يُنْكِر عليهم كفرهم[٧].

الثانية: قرأ الجمهور: «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف، قال أبو عمرو: هي لغةُ أهلِ الحجاز. وقرأ طلحةُ بنُ مُصرِّفٍ وقتادةُ وغيرُهما: «تركُنوا» بضمِّ الكاف؛ قال الفرَّاء:

---

(١) تحرف في النسخ وشعب الإيمان إلى: «السَّري»، وهو محمد بن عمر بن شَبّويه الشَّبُّوي المرزوي، راوي صحيح البخاري عن أبي عبد الله الفِربري توفي نحو (٣٨٠) هـ. السير ١٦/ ٤٢٣، توضيح المشتبه ٥/ ٢٩١، التقييد لابن نقطة ١/ ٨٥.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٩)، وأورده القشيري في الرسالة: ٩٤ والسيوطي في الدر المنثور ٨/ ٩، والذهبي في السير ١٦/ ٤٢٣ وابن رجب في جامع العلوم ١/ ٥٠٩ - ٥١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢.

(٤) في (م): حقيقة.

(٥) لم نقف عليه عن قتادة، وإنما عن عكرمة كما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٨٥، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٩٣، وذكره السيوطي في الدر ٣/ ٣٥١ عن عكرمة أيضاً، وعزاه لأبي الشيخ.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٠١ من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره عن ابن عباس أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٥٠٨، والواحدي في الوسيط ٢/ ٥٩٣.

(٧) أخرج قول أبي العالية وابن زيد الطبري ١٢/ ٦٠٠ و ٦٠١.

وهي لغةُ تميم وقيس[١]. وجوَّز قومٌ ركَن يركَن، مثل منَعَ يَمنَع[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيل: أهل الشرك. وقيل: هي عامَّةٌ فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [الأنعام:٦٨] وقد تقدَّم. وهذا هو الصحيحُ في معنى الآية، وأنها دالَّةٌ على هجران أهلِ الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإنَّ صحبتهم كفرٌ أو معصية؛ إذ الصحبةُ لا تكون إلا عن مودَّة؛ وقد قال حكيم[٣]:

عن المرء لا تَسأَلْ وسَلْ عن قَرينه ... فكلُّ قَرينٍ بالمُقَارِن يَقْتَدي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقيَّة؛ فقد مضى القول فيها في «آل عمران» و«المائدة»[٤]. وصحبةُ الظالم على التقيَّة مستثناةٌ من النَّهي بحالِ الاضطرارِ[٥]. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تُحْرِقَكم، بمخالطتهم ومصاحبتهم، وممالأتِهم على إعراضهم، وموافقتِهم في أمورهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ لم يختلف أحدٌ من أهل

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٦ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٦١ ، والمحتسب ١/ ٣٢٩ .

(٢) المحتسب ١/ ٣٢٩ ، وقراءة العامة من: رَكِن يركَن، بكسر العين في الماضي كعلِم. ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ١٨٩ ، والدر المصون ٦/ ٤١٨ .

(٣) هو طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص٤٤ ، وقيل إنه لعدي بن زيد، وسلف ٥/ ٢٧٣ ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٤ .

(٤) ٥/ ٨٧ في تفسير «آل عمران»، ولم نقف عليه في تفسير «المائدة».

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٤ .

التأويل في أنَّ الصلاة في هذه الآية يُراد بها الصلواتُ المفروضة[١]؛ وخصَّها بالذِّكر لأنها ثانيةُ الإيمان، وإليها يُفزع في النوائب؛ وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ فزع إلى الصلاة[٢].

وقال شيوخ الصُّوفية: إنَّ المراد بهذه الآية استغراقُ الأوقات بالعبادة فرضاً ونفلاً؛ قال ابن العربي[٣]: وهذا ضعيفٌ، فإنَّ الأمر لم يتناول ذلك؛ لا[٤] واجباً [فإنها خمس صلوات، و] لا نَفْلاً، فإنَّ الأوراد معلومةٌ، وأوقات النوافل المرغَّبِ فيها محصورةٌ، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها النَّدْبُ على البدل لا على العموم، وليس ذلك في قوة بشَرٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال مجاهد: الطَّرفُ الأول صلاةُ الصبح، والطرفُ الثاني صلاةُ الظهر والعصر. واختاره ابن عطية[٥].

وقيل: الطَّرفان: الصبحُ والمغرب؛ قاله ابن عباس والحسن[٦].

وعن الحسن أيضاً: الطرفُ الثاني: العصرُ وحدَه. وقاله قتادةُ والضّحاك[٧].

وقيل: الطَّرفان: الظهر والعصر، والزُّلَف: المغرب والعشاء والصبح. كأنَّ هذا القائل راعَى جَهْرَ القراءة[٨].

وحكى الماورديُّ: أنَّ الطرف الأوّل صلاةُ الصبح باتِّفاق[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٦ .

(٢) سلف ١/ ٢٦٢ من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٧ ، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه، وقول شيوخ الصوفية في نقل ابن العربي من لطائف الإشارات ٢/ ١٦١ .

(٤) في النسخ: إلا، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٢/ ٦٠٢ .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٢/ ٦٠٣ .

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٦٠٤ - ٦٠٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ ، وذكر القول الطبري ١٢/ ٦٠٥ .

(٩) النكت والعيون ٢/ ٥٠٨ .

قلتُ: وهذا الاتفاقُ ينقضُه القول الذي قبله.

ورجَّح الطَّبريُّ[١] أنَّ الطرفين: الصبحُ والمغرب، وأنه الظاهر؛ قال ابن عطية: ورُدَّ عليه بأنَّ المغرب لا تدخل فيه لأنَّها من صلاة الليل[٢].

قال ابن العربي: والعَجب من الطبري الذي يرى أنَّ طرَفي النهارِ الصبحُ والمغرب، وهما طرفا الليل! فقَلَب القوسَ ركْوةً[٣]، وحاد عن البُرْجَاس غَلْوة[٤]؛ قال الطبريُّ: والدليلُ عليه إجماعُ الجميع على أنَّ أحد الطرفين الصبح، فدلَّ على أنَّ الطَّرف الآخَر المغرِب. ولم يُجْمِعْ معه على ذلك أحد[٥].

قلت: هذا تحامُلٌ من ابن العربيِّ في الردِّ، وأنه لم يُجمع معه على ذلك أحدٌ، وقد ذكرنا عن مجاهد أنَّ الطرف الأول صلاةُ الصبح، وقد وقع الاتفاق - إلَّا مَن شذَّ - بأنَّ مَن أكل أو جامَعَ بعد طلوع الفجر متعمِّداً أنَّ يومه ذلك يومُ فِطْر، وعليه القضاءُ والكفارة، وما ذلك إلا وما[٦] بعدَ طلوعِ الفجر من النهار؛ فدلَّ على صحَّة ما قاله الطبريُّ في الصبح، وتبقى عليه المغربُ، والردُّ عليه فيه ما تقدَّم. واللهُ أعلم.

---

(١) في تفسيره ١٢/ ٦٠٥، والكلام لابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢.

(٢) لم نقف على هذا القول في المحرر الوجيز، وقول ابن عطية الذي قاله إثر قول الطبري: إلا أن عموم الصلوات الخمس بالآية أولى. والرد الذي ذكره المصنف هو لابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٥٦.

(٣) الرّكوة مثلثة: زورق صغير، وصارت القوس ركوة، يضرب في الإدبار وانقلابِ الأمور. القاموس (ركو).

(٤) البُرْجاس: غرض في الهواء على رأس رمح ونحوه يُرمى به. تاج العروس (برجس). والغرض: الهدف الذي يرمى فيه الشيء المقصود. والغَلْوة: هي ثلاث مئة إلى أربع مئة ذراع، أو هي قدر رمية سهم أبعد ما تقدر. معجم متن اللغة (غرض) و(غلو) وورد شرح البرجاس في (ظ) و(ف) أقحمه الناسخان ضمن المتن. فجاء فيهما بعد قوله البرجاس، ما نصه: غرض في الهواء يرمى فيه. وأظنه مولداً. قاله الجوهري.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٥٦ - ١٠٥٧. وذِكْرُ الطبري للإجماع هو في تفسيره ١٢/ ٦٠١-٦٠٢ و ٦٠٥.

(٦) في (ظ): أن، بدل: وما.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: في زُلَفٍ من الليل، والزُّلَف: الساعات القريبةُ بعضُها من بعض؛ ومنه سميت المزْدلِفَة؛ لأنها منزلٌ بعد عَرَفة بقربِ مكة[١].

وقرأ ابن القَعْقاع وابن أبي إسحاق وغيرُهما: «وَزُلُفاً»؛ بضمِّ اللام جمع زَلِيف؛ لأنه قد نُطِق بزليف[٢]. ويجوز أن يكون واحدُه «زُلْفة» لغة، كبُسْرة وبُسُر، في لغةِ مَن ضمَّ السين[٣].

وقرأ ابن محيصن: «وَزُلْفاً من الليل»، بإسكان اللام، والواحدة «زُلْفة» تُجمع جمعَ الأجناس التي هي أشخاصٌ، كدرَّةٍ ودُرٍّ، وبُرَّة وبُرٌّ[٤].

وقرأ مجاهد وابنُ محيصن أيضاً: «زُلْفَى» مثل قُرْبَى[٥]. وقرأ الباقون: «وزُلَفاً» بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف. قال ابن الأعرابي: الزُّلَف: الساعات، واحدُها: زُلْفَة. وقال قوم: الزُّلْفةُ أولُ ساعةٍ من الليل[٦] بعد مغيب الشمس، فعلى هذا يكون المراد بزُلَفِ اللَّيْلِ صلاةَ العَتَمة؛ قاله ابن عباس. وقال الحسن: المغرب والعشاء[٧]. وقيل: المغرب والعشاء والصبح، وقد تقدَّم. وقال الأخفش: يعني صلاة الليل ولم يعيِّن.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ذهب جمهورُ المتأوِّلين من

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/٦٠٦، ومعاني القرآن للنحاس ٣/٣٨٧ والنكت والعيون ٢/٥٠٨ - ٥٠٩ والمحرر الوجيز ٣/٢١٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/٣٠٧، والقراءة عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع في النشر ٢/٢٩١ - ٢٩٢، وعن ابن أبي إسحاق في المحتسب ١/٣٣٠.

(٣) المحتسب ١/٣٣٠. ويجوز أيضاً أن يكون «زُلُفاً» اسماً مفرداً كعُنُق. ينظر الدر المصون ٦/٤٢٠.

(٤) المحتسب ١/٣٣٠، وقال ابن جني: وذلك أن الزُّلْفة جنس من المخلوقات وإن لم يكن جوهراً.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/٣٨٧، والمحرر الوجيز ٣/٢١٢. قال النحاس: إلا أنَّ ابن محيصن نوَّن في الإدراج.

(٦) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/٢١٤ عن الليث قال: الزُّلَف أول ساعات الليل.

(٧) أخرج قول ابن عباس وقول الحسن الطبري ١٢/٦٠٨، ٦٠٩.

الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين: إلى أنَّ الحسنات هاهنا هي الصلواتُ الخمس. وقال مجاهد: الحسناتُ قولُ الرجلِ: سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا اللهُ واللهُ أكبر؛ قال ابن عطية[(١)]: وهذا على جهة المثال في الحسنات، والذي يظهر أنَّ اللفظ عامٌّ في الحسنات خاصٌّ في السيِّئات؛ لقوله[(٢)] ﷺ: «ما اجتُنِبَت الكبائر»[(٣)].

قلت: سببُ النزول يعضُدُ قولَ الجمهور؛ نزلت في رجل من الأنصار، قيل: هو أبو اليَسَر بن عمرو. وقيل: اسمه عَبَّاد. خلا بامرأةٍ فقبَّلها وتلذَّذ بها فيما دون الفرْج[(٤)]. روى الترمذيُّ عن عبد الله قال: جاء رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنِّي عالجتُ امرأةً في أقصى المدينة، وإنِّي أصبتُ منها ما دونَ أن أمسَّها، وأنا هذا، فاقضِ فيَّ كما شئتَ. فقال له عمر: لقد ستَرَك اللهُ، لو سترتَ على نفسك! فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً، فانطلق الرجل، فأتْبعه رسولُ الله ﷺ رجلاً فدعاه، فتلا عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إلى آخر الآية، فقال رجلٌ من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «لا، بل للناس كافة». قال الترمذيُّ: حديث حسن صحيح[(٥)].

وخرَّج أيضاً عن ابن مسعود، أنَّ رجلاً أصاب من امرأةٍ قُبلةَ حرام، فأتى النبيَّ ﷺ فسأله عن كفَّارتها، فنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذه يا رسول الله؟ فقال: «لك ولمن عَمِلَ بها مِن

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٢ - ٢١٣، وما قبله منه.

(٢) في المحرر الوجيز: بقوله.

(٣) أخرجه أحمد (٨٧١٥)، ومسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، كفاراتٌ لمَا بينهنَّ ما اجتُنبت الكبائر».

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٣، وذكر الحافظ في الفتح ٨/ ٣٥٦ - ٣٥٧ الاختلاف على اسم صاحب القصة وما ورد فيه من روايات، ثم قال: وأمَّا قصة عباد فحكاها القرطبي ولم يَعزُها، وعباد اسم جد أبي اليسر، فلعله نُسب ثم سقط شيء، وأقوى الجميع أنه أبو اليسر. اهـ وسيأتي خبر أبي اليسر فيما سيرد من أخبار.

(٥) سنن الترمذي (٣١١٢)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٧٦٣): (٤٢)، وبنحوه عند أحمد (٤٢٥٠).

أمَّتي». قال الترمذيُّ: هذا حديث حسنٌ صحيح[١].

وروى عن أبي اليَسَر قال: أتتني امرأةٌ تَبتاعُ تمراً فقلت: إنَّ في البيت تمراً أطيبَ من هذا، فدخلَت معي في البيت، فأهويتُ إليها فقبَّلتُها، فأتيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: استر على نفسك وتُبْ، ولا تخبر أحداً. فلم أصبر، فأتيتُ عمرَ، فذكرتُ ذلك له، فقال: اسْتُرْ على نفسك وتُبْ، ولا تُخْبِر أحداً. فلم أَصْبِرْ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرتُ ذلك له فقال: «أَخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟!» حتى تمنَّى أنه لم يكن أسلم إلَّا تلك الساعة، حتى ظنَّ أنه من أهل النار. قال: وأطْرقَ رسولُ الله ﷺ حتى أوحى اللهُ إليه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ قال أبو اليَسَر: فأتيتُه فقرأها عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقال أصحابه: يا رسول الله! أَلِهذا خاصةً، أم للناس عامةً؟ فقال: «بل للناس عامةً». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وقيس بنُ الربيع ضعَّفه وَكِيعٌ وغيره[٢].

وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ أعْرضَ عنه، وأقيمت صلاة العصر، فلمَّا فرغَ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية، فدعاه فقال له: «أشهِدتَ معنا الصلاة؟» قال: نعم! قال: «اذهبْ، فإنَّها كفَّارةٌ لمَا فَعَلْت»[٣].

ورُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا تلا عليه هذه الآيةَ قال له: «قُمْ فَصَلِّ أربعَ ركعاتٍ»[٤].

---

(١) سنن الترمذي (٣١١٤)، وهو عند أحمد (٣٦٥٣)، والبخاري (٥٢٦) و(٤٦٨٧)، ومسلم (٢٧٦٣): (٣٩).

(٢) سنن الترمذي (٣١١٥). ووقع في المطبوع: حسن صحيح، وما ذكره المصنف موافق لما في التحفة ٨/ ٣٠٧. وقال الترمذي أيضاً: وروى شريك عن عثمان بن عبد الله هذا الحديث مثل رواية قيس بن الربيع. اهـ قلنا: أخرجه من طريق شريك المذكور النسائي في الكبرى (٧٢٨٦).

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٩٧، وعزاه الحافظ في الفتح ٨/ ٣٥٦ لابن منده من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢١٦٣)، ومسلم (٢٧٦٥) من حديث أبي أمامة ﷺ. وأخرجه بنحوه أيضاً البخاري (٦٨٢٣)، ومسلم (٢٧٦٤) من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه البزار (٢٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: وأخرجه عبد الرزاق في التفسير =

والله أعلم.

وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ، قال: «لم أرَ شيئاً أَحْسَنَ طَلَباً ولا أَسْرعَ إدراكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنب قديم: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾»[(١)].

الخامسة: دلَّت الآيةُ مع هذه الأحاديث على أنَّ القُبلة الحرام، واللَّمسَ الحرام، لا يجب فيهما الحدُّ، وقد يُستدلُّ به على أن لا حدَّ ولا أدبَ على الرجل والمرأة وإن وُجدا في ثوبٍ واحد، وهو اختيار ابن المنذر[(٢)]؛ لأنه لمَّا ذَكَر اختلافَ العلماء في هذه المسألة ذَكَر هذا الحديثَ، مشيراً إلى أنه لا يجب عليهما شيءٌ، وسيأتي ما للعلماء في هذا في «النور»[(٣)] إن شاء الله تعالى.

السادسة: ذكَر الله سبحانه في كتابه الصلاةَ بركوعها وسجودِها وقيامِها وقراءتِها وأسمائها، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الآية [لقمان:١٧]. وقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ الآية [الإسراء:٧٨] وقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨]. وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]. وقال: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج:٧٧]. وقال:

= ١/ ٣١٥، والطبري ١٢/ ٦٢٣ - ٦٢٤ من طريق يحيى بن جعدة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فذكر القصة. وأخرجه الترمذي (٣١١٣) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ ﷺ، وفيه: ...فأمره أن يتوضأ ويصلي...، قال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بمتصل؛ عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

(١) نوادر الأصول ص٢٣٨، وأخرجه العقيلي ٤/ ٤٢١، والطبراني في الكبير (١٢٧٩٨)، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ٢١٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٣٩: في إسناده مالك بن يحيى بن عمرو النُّكري، وهو ضعيف، وكذلك أبوه. وقال العقيلي: يحيى بن عمرو النكري لا يتابع على حديثه. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٧٥ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٧٥ عن فضيل بن زيد الرقاشي قوله.

(٢) في الإشراف ٢/ ٥٥.

(٣) عند تفسير الآية الثانية منها.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على ما تقدَّم. وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بقراءتك. وهذا كلُّه مجملٌ أجْمَلَه في كتابه، وأحال على نبيِّه في بيانه، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيَّن ﷺ مواقيتَ الصلاة، وعددَ الركعاتِ والسَّجَدات، وصفةَ جميعِ الصلوات فَرْضِها وسُنَنِها، وما لا تصحُّ الصلاةُ إلا به من الفرائض، وما يُستحبُّ فيها من السُّنَن والفضائل، فقال في «صحيح» البخاريِّ: «صلُّوا كما رأيتُموني أصلِّي»[1]. ونقل ذلك عنه الكافَّةُ عن الكافة، على ما هو معلومٌ، ولم يَمت النبيُّ ﷺ حتى بيَّن جميعَ ما بالناس الحاجةُ إليه، فكمَّل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي: القرآنُ موعظةٌ وتوبةٌ لمن اتَّعظ وتَذَكَّر، وخَصَّ الذاكرين بالذِّكر؛ لأنهم المنتفعون بالذكرى. والذكرى مصدرٌ جاء بألف التأنيث.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ أي: على الصلاة، كقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. وقيل: المعنى: واصبر يا محمدُ على ما تَلْقَى من الأذى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أي: فهلَّا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من الأمم التي قبلكم ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي: أصحابُ طاعةٍ ودينٍ وعقلٍ وبَصَر ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومَهم ﴿عَنِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣١)، وسلف ١/ ٦٧.

﴿ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِمَا أعطاهم اللهُ تعالى من العقول، وأراهم من الآيات. وهذا توبيخٌ للكفار.

وقيل: «لولا» هاهنا للنفي؛ أي: ما كان مِن قَبْلِكم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يونس:٩٨] أي: ما كانت.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ قليلاً[١] ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نَهَوْا عن الفساد في الأرض. قيل: هم قومُ يونس؛ لقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]. وقيل: هم أتباعُ الأنبياء وأهل الحق. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: أشْرَكُوا وعَصَوا ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: من الاشتغال بالمال واللذات، وإيثارِ ذلك على الآخرة ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: أهلَ القرى ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، أي: لم يكن لِيهلكَهم بالكفر وحدَه حتى ينضاف إليه الفسادُ، كما أَهْلَكَ قومَ شعيبٍ ببَخْس المكيال والميزان، وقومَ لوطٍ باللواط[٢]. ودلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ أقربُ إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشِّرك، وإن كان عذابُ الشِّرك في الآخرة أصعب. وفي «صحيح» الترمذيِّ من حديث أبي بكر الصدِّيق ﷺ قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أَوْشَكَ أن يَعمَّهم اللهُ بعقابٍ من عنده». وقد تقدَّم[٣].

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢١٤.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) ٣/ ٣٨٦، وهو في سنن الترمذي (٢١٦٨)، وفي قول المصنف: صحيح الترمذي، تجوّز.

وقيل: المعنى: وما كان ربُّك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلُها مسلمون، فإنه يكون ذلك ظلماً لهم ونقصاً من حقِّهم، أي: ما أهلك قوماً إلا بعد إعذارٍ وإنذار.

وقال الزَّجَّاج: يجوز أن يكون المعنى: ما كان ربُّك ليهلك أحداً وهو يظلمُه وإن كان على نهايةِ الصلاح؛ لأنه تصرّف[1] في ملكه؛ دليلُه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤][2].

وقيل: المعنى: وما كان اللهُ ليهلكَهم بذنوبهم وهم مصلحون، أي: مُخْلِصون في الإيمان. فالظلمُ المعاصي على هذا[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال سعيد بن جُبير: على ملَّة الإسلام وحدَها. وقال الضّحاك: أهل دينٍ واحدٍ، أهل ضلالة أو أهل هدى[4]. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: على أديانٍ شتَّى؛ قاله مجاهد وقتادة[5].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناءٌ منقطع؛ أي: لكن مَن رَحِم ربُّك بالإيمان والهدى، فإنه لم يختلف[6].

وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا غنيٌّ وهذا فقير ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بالقناعة؛ قاله الحسن[7].

---

(١) في (ز) و(ظ): لأن تصرفه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٣ دون قوله: وإن كان على نهاية الصلاح لأنه تصرف في ملكه.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، ورجح أن يكون معنى «بظلم» أي: بظلم منه لهم، تعالى عن ذلك.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٥١١ .

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون عن مجاهد وعطاء، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٩٣ (١١٢٨٢) عن الحسن، ولم نقف عليه عن قتادة.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٣ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٦ . وقال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٣ : هو استثناء متصل من قوله: «ولا يزالون مختلفين» ولا ضرورة تدعو إلى أنه بمعنى لكن فيكون استثناء منقطعاً.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٥١١ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٦٣٦ .

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء ويَمَان: الإشارةُ للاختلاف، أي: وللاختلافِ خَلَقهم[١].

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتَادة والضَّحاك: ولرحمته خَلَقهم[٢]. وإنما قال: «ولذلك»، ولم يقل: ولتلك، والرحمةُ مؤنثةٌ؛ لأنه مصدر، وأيضاً فإنَّ تأنيث الرحمة غيرُ حقيقي، فحُمِلت على معنى الفضل[٣].

وقيل: الإشارةُ بـ «ذلك» للاختلاف والرحمة، وقد يشار بـ «ذلك» إلى شيئين مُتضادَّين، كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨][٤] ولم يقل بين ذينك ولا تينك، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] وكذلك قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]. وهذا أحسنُ الأقوال إن شاء اللهُ تعالى؛ لأنه يعمُّ، أي: ولِمَا ذُكِر خَلَقهم.

وإلى هذا أشار مالكٌ رحمه اللهُ فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، قال: خَلَقهم ليكون فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير[٥]. أي: خلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهلَ الرحمة للرحمة.

وروي عن ابن عباس أيضاً قال: خَلَقهم فريقين؛ فريقاً يرحمه، وفريقاً لا يرحمه[٦].

قال المهدويُّ: وفي الكلام على هذا التقدير تقديمٌ وتأخير، المعنى: ولا يزالون

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٥١١ عن الحسن وعطاء، والوسيط ٢/ ٥٩٧ عن الحسن ومقاتل.

(٢) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٦٣٩ - ٦٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٧٩ .

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٠ - ٦٤١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، والبحر ٥/ ٢٧٣ . واختار الطبري هذا القول وقال: فمعنى اللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ بمعنى على، كقولك للرجل: أكرمتك على برِّك بي. وأكرمتك لبرِّك بي.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٦ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣٨ .

مختلفين إلَّا مَن رحِم ربك، وتمَّت كلمةُ ربِّك لأملأنَّ جهنمَ من الجِنة والناس أجمعين، ولذلك خلَقهم[١].

وقيل: هو متعلِّق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] والمعنى: ولشُهودِ ذلك اليوم خلقهم. وقيل: هو متعلِّق بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] أي: للسّعادة والشّقاوة خلقهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى «تمت»: ثَبتَ ذلك كما أخبر وقدَّر في أزَلِه، وتمامُ الكلمة: امتناعُها عن قبول التغيير والتبديل. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ «مِن» لبيان الجنس، أي: من جنس الجِنة وجنس الناس. «أجمعين» تأكيد، وكما أخبر أنه يملأ نارَه كذلك أخبر على لسان نبيِّه ﷺ أنه يملأ جَنَّتَه بقوله: «ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلْؤُها». خرَّجه البخاريُّ من حديث أبي هريرة وقد تقدّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ «كُلًّا» نصب بـ «نقصُّ»، معناه: وكلُّ الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقصُّ عليك[٤]. وقال الأخفش: «كُلًّا» حالٌ مقدَّمة، كقولك: كُلًّا ضربتُ القوم[٥]. ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: من أخبارهم وصبرِهم على أذى قومهم.

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ أي: على أداء الرسالة، والصبرِ على ما يَنالُك فيها من الأذى. وقيل: نزيدك به تثبيتاً ويقيناً. وقال ابن عباس: ما نشدُّ به قلبَك[٦]. وقال ابن

---

(١) ذكر قول المهدوي أبو حيان في البحر ٥/ ٢٧٣ وقال: وهذا بعيد جدًّا من تراكيب كلام العرب.

(٢) ذكر القولين الأخيرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢١٥ ، وقال: وهذان المعنيَان وإن صحًّا، فهذا العَوْدُ المتباعِدُ ليس بجيِّد.

(٣) ١/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، وهو عند البخاري (٤٨٥٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٨ ، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٨٥ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٩٨ بلفظ: ليزيدك يقيناً ويقوّي قلبك.

جُريج: نُصبِّرُ به قلبَك حتى لا تجزع. وقال أهل المعاني: نُطيِّب، والمعنى متقارب. و«ما» بدلٌ من «كلًّا» المعنى: نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك[1].

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة؛ عن ابن عباس وأبي موسى[2] وغيرهما. وخَصَّ هذه السورة لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياء والجنةِ والنار. وقيل: خصَّها بالذِّكر تأكيداً، وإنْ كان الحقُّ في كلِّ القرآن[3].

وقال قَتَادة والحسن: المعنى: في هذه الدنيا، يريد النبوَّة[4].

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة: ما يُتَّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرونِ الخالية المكذِّبة. وهذا تشريفٌ لهذه السُّورة؛ لأنَّ غيرها من السُّور قد جاء فيها الحقُّ والموعظة والذِّكرى، ولم يقل فيها كما قال في هذه على التَّخصيص. «وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أي: يتذكَّرون ما نزَل بمن هلك فيتوبون، وخَصَّ المؤمنين لأنهم المتَّعظون إذا سمعوا قصصَ الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديدٌ ووعيد. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ. وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تهديدٌ آخرُ، وقد تقدَّم معناه[5].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: غيبُهما وشهادتُهما؛ فحذف لدلالة المعنى. وقال ابن عباس: خزائنُ السماوات والأرض. وقال الضحَّاك: جميعُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٥١٢، وأخرج قولهما الطبري ١٣/ ٦٤٣ - ٦٤٤، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً سعيد بن منصور في سننه (١١٠٨ - تفسير).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٤ - ٨٥.

(٤) زاد المسير ٤/ ١٧٣، وأخرج قولهما الطبري ١٢/ ٦٤٧.

(٥) ينظر ٩/ ١٣٣ و ص٥٨ من هذا الجزء.

ما غاب عن العباد فيهما[١].

وقال الباقون: غيب السماوات والأرض: نزولُ العذاب من السماء، وطلوعُه من الأرض.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: وَلِله علمُ[٢] غَيْب السَّمَاوَات والأَرْضِ، أي: عِلم ما غاب فيهما[٣]؛ أضاف الغيب ـ وهو مضافٌ إلى المفعول ـ توسُّعاً؛ لأنه حَذَفَ حرف الجرّ؛ تقول: غِبْتُ في الأرض وغبت ببلد كذا.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي: يومَ القيامة؛ إذ ليس لمخلوق أمرٌ إلا بإذنه. وقرأ نافع وحفص: ﴿يُرْجَعُ﴾ بضمِّ الياء وبفتح الجيم[٤]؛ أي: يُرَدّ. ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: الجأْ إليه وثِقْ به.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازي كلًّا بعمله. وقرأ أهل المدينة والشام وحفصٌ بالتاء على المخاطبة. الباقون بياءٍ على الخبر[٥]. قال الأخفش سعيد[٦]: «يعملون» إذا لم يخاطِب النبيَّ ﷺ معهم، قال: وقال بعضهم: «تعملون» بالتاء لأنه خاطب النبيَّ ﷺ، أو قال: قل لهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقال كعب الأحبار: خاتمةُ التوراة خاتمةُ «هود»[٧] من قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخِرِ السورة.

تمت سورةُ هود، ويتلوها سورة يوسف عليه السلام.

---

(١) ذكر قول ابن عباس وقول الضحاك الطبرسي في مجمع البيان ١٢/ ٢٣٨ .

(٢) قوله: علم، من (ز) و(ظ).

(٣) الوسيط ٢/ ٥٩٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٧٥ .

(٤) وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الجيم. السبعة ص٣٤٠ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٥) قرأ نافع وابن عامر وحفص: «تعملون» بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٣٤٠ ، والتيسير ص١٢٦ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٥٨٦ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤٩ ، وسلف ٨/ ٣١١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف عليه السلام

وهي مكيَّةٌ كلُّها. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا أربعَ آيات منها[1]. ورُوِيَ أنَّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت السُّورة، وسيأتي[2].

وقال سعد بن أبي وقَّاص: أُنزِل القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: لو قصَصْت علينا، فنزل: [﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى قوله:] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: لو حدَّثْتنا، فنزل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣][3].

قال العلماء: وذكر الله أقاصيصَ الأنبياء في القرآن وكرَّرها بمعنًى واحدٍ في وجوهٍ مختلفة، بألفاظٍ متباينةٍ على درجاتِ البلاغة، وقد ذكر قصَّة يوسف ولم يكرِّرها، فلم يَقْدِر مخالفٌ على معارضة ما تكرَّر، ولا على معارضةِ غيرِ المتكرِّر، والإعجازُ لمن تأمَّل.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ تقدَّم القولُ فيه[4]، والتقدير هنا: «تلك آياتُ الكتاب» على

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥ .

(٢) ص٢٤٢ و٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه البزار (١١٥٢) و(١١٥٣)، وأبو يعلى (٧٤٠)، والطبري ١٣/ ٨ ، وابن حبان (٦٢٠٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٣ ، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٤) ١/ ٢٣٧ وما بعدها ، و ١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

الابتداء والخبر[١]. وقيل: «الٓر» اسمُ السورة، أي: هذه السورةُ المسماة «الٓر».

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني بالكتاب المبين: القرآن المبين، أي: المبيَّن حلالُه وحرامه، وحدودُه وأحكامه، وهُداه وبركته[٢].

وقيل: أي: هذه تلك الآياتُ التي كنتم توعَدون بها في التّوراة[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوز أن يكون المعنى: إنَّا أنزلنا القرآن عربيًّا[٤]، نصب «قرآناً» على الحال، أي: مجموعاً، و«عربيًّا» نعتٌ لقوله «قرآناً». ويجوز أنْ يكون توطئةً للحال، كما تقول: مررتُ بزيدٍ رجلاً صالحاً، و«عربيًّا» على الحال، أي: يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب. [ومعنى] أعْرَبَ: بَيَّنَ، ومنه: «الثَّيِّبُ تُعرِبُ عن نفسها»[٥].

﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعلموا معانيَه، وتفهموا ما فيه[٦]. وبعضُ العرب يأتي بأنْ مع «لعل» تشبيهاً بعسى. واللام في «لعل» زائدةٌ للتوكيد، كما قال الشاعر:

يـا أَبَـتَـا عَـلَّـكَ أَوْ عَـسَـاكـا[٧]

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي: لتكونوا على رجاءٍ من تَدَبُّره، فيعود معنى الشَّكِّ إليهم لا إلى الكتاب، ولا إلى الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٧ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: «الثيب تعرب...» قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٧٧٢٢)، وابن ماجه (١٨٧٢) من طريق عدي بن عدي الكندي عن أبيه.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٠٨ .

(٧) الرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص١٨١ ، والكتاب ٢/ ٣٧٥ ، والخزانة ٥/ ٣٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٠٩ ، والكلام منه.

وقيل: معنى «أَنْزَلْنَاهُ»، أي: أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس[١]: وهذا أشبهُ بالمعنى؛ لأنه يُروى أنَّ اليهود قالوا: سَلُوه لِمَ انتقل آلُ يعقوبَ من الشَّام إلى مصر، وعن خبر يوسف. فأنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذا بمكة موافقاً لمَا في التوراة، وفيه زيادةٌ ليست عندهم. فكان هذا للنبيِّ ﷺ ـ إذْ أخبرهم ولم يكنْ يقرأ كتاباً قطُّ ولا هو في موضع كتاب ـ بمنزلةِ إحياءِ عيسى عليه السلام الميِّتَ، على ما يأتي فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ابتداءٌ وخبر. ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ بمعنى المصدر، والتقدير: قصصاً[٣] أحسنَ القَصَص.

وأصلُ القَصَص: تتبُّع الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي: تتبَّعي أثرَه، فالقاصُّ يتبع[٤] الآثار فيُخْبِرُ بها. والحُسْنُ يعود إلى القَصَص لا إلى القصَّة. يقال: فلانٌ حَسَنُ الاقتصاص للحديث؛ أي: جيِّدُ السِّياقةِ له. وقيل: القَصَص ليس مصدراً، بل هو في معنى الاسم، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مرجوُّنا، فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار[٥].

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا، فـ «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر. ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ نصب القرآن على أنَّه نعتٌ لـ «هذا»، أو بدلٌ منه، أو عطفُ بيان[٦].

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٦.

(٢) ص٢٥٩ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و(ز) و(م): قصصنا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠، والكلام منه.

(٤) في (ظ): فالقصاص يتتبع.

(٥) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٨٥.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢١٩، وضعَّف ابن عطية كونه عطف بيان.

وأجاز الفراء الخفضَ؛ قال: على التكرير[١]. وهو عند البصريين على البدل من «ما»[٢]. وأجازَ أبو إسحاق[٣] الرفعَ على إضمارِ مبتدأ؛ كأنَّ سائلاً سأله عن الوحي فقيل له: هو هذا القرآن[٤]. ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الغافلين عمَّا عرَّفْناكَه[٥].

مسألة: واختلف العلماء لِمَ سُمِّيتْ هذه السورة أحسنَ القَصَص من بين سائر الأقاصيص؟

فقيل: لأنَّه ليست قصةٌ في القرآن تتضمَّن من العِبر والحكم ما تتضمَّن هذه القصّة، وبيانُه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الآية: ١١١].

وقيل: سمَّاها أحسنَ القَصص لحُسْنِ مجازاةِ[٦] يوسفَ إخوتَه[٧]، وصَبْرِه على أذاهم، وعَفْوِه عنهم ـ بعد الالتقاء بهم ـ عن ذكر ما تعاطَوْه [معه]، وكرمِه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقيل: لأنَّ فيها ذِكْرَ الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجنِّ والإنس، والأنعام والطير، وسيرَ الملوك والمماليك[٨] والتجّار، والعلماء والجُهَّال،

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وقال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٨٨ : فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن. ولا تقرأنَّ بها.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٨٨ .

(٤) في (د) و(ز) و(ظ): هو القرآن، وفي (ف) ومعاني القرآن للزجاج: هذا القرآن، والمثبت من (م).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ .

(٦) في النسخ الخطية: محاوزة، وفي (م): مجاوزة، والمثبت من عرائس المجالس ص١١٠ ، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٧) في (م): عن إخوته.

(٨) في (م): الممالك.

والرِّجال والنِّساء وحِيَلهنَّ ومَكْرهنَّ، وفيها ذكر التَّوحيد والفقه[١] والسِّيَر، وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجُمَل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل: لأنَّ فيها ذكرَ الحبيب والمحبوب وسِيَرِهما. وقيل: «أَحْسَنَ» هنا بمعنى: أَعْجبَ.

وقال بعضُ أهل المعاني: إنَّما كانت أحسنَ القَصَص لأنَّ كلَّ مَن ذُكر فيها كان مآلُه السعادةَ؛ انظر إلى يوسفَ وأبيه وإخوته، وامرأةِ العزيز: قيل: والمَلِكُ أيضاً أسلمَ بيوسفَ وحَسُن إسلامه، ومُسْتعبِرُ الرؤيا الساقي، والشاهدُ فيما يقال[٢]، فما كان أمرُ الجميع إلَّا إلى خير.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ «إِذْ» في موضع نصبٍ على الظرف، أي: اذكر لهم حين قال يوسف. وقراءةُ العامة بضمِّ السين. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «يُؤْسِف» بالهمز وكَسْرِ السين. وحكى أبو زيد: «يؤسَف» بالهمز وفتح السين. ولم ينصرف لأنَّه أعجميّ[٣]. وقيل: هو عربيّ[٤].

وسئل أبو الحسن الأقطعُ ـ وكان حكيماً ـ عن «يوسف» فقال: الأسفُ في اللغة الحزن؛ والأسِيفُ: العبد، وقد اجتمعا في يوسفَ؛ فلذلك سُمِّي يوسف[٥].

---

(١) في عرائس المجالس: والعفة.

(٢) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦].

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٠ ، وينظر القراءات الشاذة ص٦٢ .

(٤) ذكره الزمخشري ٢/ ٣٠١ وقال: وليس بصَحيح؛ لأنه لو كان عربيًّا لانصرف، لخُلُوِّه عن سببٍ آخَرَ سوى التعريف.

(٥) عرائس المجالس ص١١٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٩ .

﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ بكسر التاء، قراءةُ أبي عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائي[١]، وهي عند البصريين علامةُ التأنيث؛ أُدخلت على الأب في النداء خاصةً بدلاً من ياء الإضافة، وقد تدخل علامةُ التأنيث على المذكَّر فيقال: رجل نُكَحَة وهُزأة[٢]؛ قال النحاس[٣]: إذا قلت: «يَا أَبَتِ» بكسر التاء، فالتاءُ عند سيبويه[٤] بدلٌ من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقفُ إلَّا بالهاء، وله على قوله دلائلُ؛ منها: أنَّ قولك: «يا أبه» يؤدِّي عن معنى «يا أبي»، وأنَّه لا يقال: «يا أبه»[٥] إلَّا في المعرفة، ولا يقال: جاءني أبةٌ، ولا تستعمل العربُ هذا إلَّا في النداء خاصة، ولا يقال: «يا أبتي»؛ لأنَّ التاء بدلٌ من الياء فلا يُجمع بينهما.

وزعم الفراء[٦] أنَّه إذا قال: يَا أَبتِ - فكَسَر - وَقَفَ على التاء[٧] لا غير؛ لأنَّ الياء في النية. وزعم أبو إسحاق[٨] أنَّ هذا خطأٌ، والحقُّ ما قال؛ كيف تكون الياء في النية وليس يقال: يا أبتي؟!

وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبدُ الله بن عامر: «يا أَبَتَ» بفتح التاء[٩]؛ قال البصريون: أرادوا: يا أبتي بالياء، ثم أُبدلت الياءُ ألفاً فصارت: يا أبتا، فحُذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء[١٠].

---

(١) وقرأ بها أيضاً ابن كثير. السبعة ص٣٤٤، والتيسير ص٦٠ و ١٢٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨٩ بنحوه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(٤) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٠ - ٢١١.

(٥) في (م): يا أبت، وكذا اللفظة بعدها، والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٣٢.

(٧) في (م): دل على الياء.

(٨) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٨٩.

(٩) السبعة ص٣٤٤، والتيسير ص١٢٧ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن ابن عامر وأبي جعفر، وذكرها عنهم جميعاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(١٠) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٠.

وقيل: الأصلُ الكسر، ثم أُبدل من الكسرة فتحةٌ، كما يُبدَل من الياء ألف؛ فيقال [في: يا غلامي أَقْبِل]: يا غلاماً أقبل[١]. وأجاز الفراء[٢]: «يا أبتُ» بضمِّ التاء.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ ليس بين النحويين اختلافٌ أنَّه يقال: جاءني أحدَ عَشَرَ، ومررتُ بأحَدَ عَشَرَ، وكذلك ثلاثةَ عَشَرَ وتسعةَ عَشَرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين اسماً واحداً وأعربوهما بأخفِّ الحركات[٣].

قال السُّهيليُّ[٤]: أسماءُ هذه الكواكب جاء ذِكْرُها مُسْنَداً؛ رواه الحارث بن أبي أسامة قال: جاء بستانة[٥] ـ وهو رجلٌ من أهل الكتاب ـ فسأل النبيَّ ﷺ عن الأَحَدَ عَشَرَ كوكباً الذي رأى يوسفُ، فقال: «الحرثان وطارق والذيال وقابِس والنطح والطروح وذو الكنفان وذو الفرع والفَيلق ووَثَّاب والعَمُودَان، رآها يوسف عليه السلام تسجد له»[٦].

قال ابن عباس وقَتَادة وابن جريج[٧]: الكواكبُ إخوته، والشمس أمُّه، والقمر أبوه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٢.

(٤) في التعريف والإعلام ص٧٩.

(٥) في النسخ الخطية: بستان، والمثبت من (م) وهو الموافق لبعض مصادر التخريج على ما يأتي، ووقع في التعريف والإعلام وبعض المصادر: بستاني.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١١١ - تفسير)، والبزار (٢٢٢٠ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٥٠ - ٢٥١، والعقيلي في الضعفاء ١/ ٢٥٩، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٢٧٧، وابن الجوزي في الموضوعات (٧٠) واختلفت أسماء الكواكب في المصادر اختلافاً كثيراً، وقد أثبتنا ما اتفقت عليه غالب نسخنا وكان موافقاً للتعريف والإعلام وبعض مصادر التخريج.

قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد. وقال ابن حبان: هذا حديث لا أصل له من حديث رسول الله ﷺ. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ. قال العقيلي: لا يصح من هذا المتن عن النبي ﷺ شيء من وجه يثبت. وينظر الفوائد المجموعة ص٤٦٤.

(٧) قوله: وابن جريج، من (ظ)، وقد أخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٢ - ١٣.

وقال قتادة أيضاً: الشمسُ خالته؛ لأنَّ أمَّه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه[١].

﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيد. وقال: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» فجاء مذكَّراً، فالقولُ عند الخليل وسيبويه أنَّه لمَّا أَخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسّجود وهما من أفعال مَن يَعْقِلُ أخبر عنها كما يخبر عمَّن يعقل[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٩٨]. والعربُ تَجمع ما لا يَعقِل جَمْعَ مَن يعقل إذا أنزلوه منزلتَه، وإنْ كان خارجاً عن الأصل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحتالوا في هلاكك؛ لأنَّ تأويلها ظاهر، فربما يحملهم الشيطان على قَصْدِكَ بسوءٍ حينئذٍ. واللامُ في «لك» تأكيدٌ، كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٣].

الثانية: الرؤيا حالةٌ شريفة، ومنزلةٌ رفيعة؛ قال ﷺ: «لم يَبْقَ بعدي من المبشِّرات إلَّا الرؤيا الصالحةُ الصادقة يراها الرجلُ الصالح، أو تُرى له»[٤]. وقال «أَصْدَقُكم رؤيا أَصْدَقُكم حديثاً»[٥]. وحَكَم ﷺ بأنَّها: «جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوَّة»[٦].

---

(١) ذكره البغوي ٢/ ٤٠٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٣ ، وينظر البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٣ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٤ - ١٥ . وينظر أيضاً ما سلف ص١١٩ من هذا الجزء.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣): (٦) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) قطعة من الحديث الذي قبله. وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٧)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) من حديث عبادة ابن الصامت ﷺ وأخرجه البخاري (٦٩٨٨) عن أبي هريرة ﷺ، و(٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وينظر التمهيد لابن عبد البر ١/ ٢٨٠ .

ورُوي: «من سبعين جزءاً من النبوَّة»[١]. ورُوي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة»[٢]. ومن حديث ابن عمرو[٣]: «جزءٌ من تسعةٍ وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس: «جزءٌ من خمسين جزءاً من النبوَّة»[٤]. ومن حديث أنس: «من ستةٍ وعشرين»[٥] وعن عُبادة بن الصّامت: «من أربعةٍ وأربعين من النبوَّة»[٦].

والصحيحُ منها حديثُ الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديثُ السبعين؛ ولم يُخرِّج مسلمٌ في صحيحه غيرَ هذين الحديثين، أمَّا سائرُها فمِن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بَطَّال[٧].

قال أبو عبد الله المازَريُّ: والأكثر والأصحُّ عند أهل الحديث: «من ستة وأربعين»[٨].

قال الطَّبريّ: والصواب أنْ يقال: إنَّ عامَّةَ هذه الأحاديث أو أكثرَها صحاحٌ، ولكلِّ حديثٍ منها مخرجٌ معقول؛ فأمَّا قوله: «إنَّها جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوَّة»

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٢٨٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ذكره عن ابن عباس القاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٢ ، وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٣ ، وعزاه ابن حجر للطبري ، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، والترمذي (٢٢٧٨) وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ من حديث أبي رزين العُقَيلي ﷺ.

(٣) في النسخ: ابن عمر، والمثبت من إكمال المعلم ٧/ ٢١١ ، وكذلك أخرجه أحمد (٧٠٤٤)، والطبري ١٢/ ٢١٨ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مطولاً البزار (٢١٢٤ - كشف)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٧٢ - ١٧٣ : فيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٢ وقال: حسن الإسناد.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢١٨ ، وضعَّف إسناده ابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨١ .

(٧) ذكر قول ابن بطال أيضاً ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥ .

(٨) المفهم ٦/ ١٢ ، وينظر المعلم للمازري ٣/ ١١٧ - ١١٨ .

فإنَّ ذلك قولٌ عامٌّ في كلِّ رؤيا صالحةٍ صادقة، ولكلِّ مسلمٍ رآها في منامه على أي أحواله كان. وأما قوله: إنَّها من أربعين أو ستةٍ وأربعين؛ فإنَّه يريد بذلك مَن كان صاحبُها بالحال التي ذُكِرت عن الصدِّيق ـ ﷺ ـ أنَّه كان بها؛ فَمَن كان من أهلِ إسباغِ الوضوء في السَّبَرات[(١)]، والصبرِ في الله على المكروهات، وانتظارِ الصَّلاة بعد الصَّلاة، فرؤياه الصالحةُ ـ إن شاء الله ـ جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، ومَن كانت حالُه في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقةُ بين الجزءين؛ ما بين الأربعين إلى الستِّين[(٢)]، لا تَنقصُ عن سبعين، وتزيد على الأربعين.

وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بنُ عبد البر[(٣)] فقال: اختلافُ الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلافَ تضادٍّ وتدافُعٍ والله أعلم؛ لأنَّه يَحتمل أنْ تكون الرؤيا الصالحةُ من بعض مَن يراها على حَسَب ما يكون من صِدْقِ الحديث، وأداءِ الأمانة، والدِّين المتين، وحُسْنِ اليقين؛ فعلى قَدْرِ اختلاف النَّاس فيما وَصَفْنا تكونُ الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خَلَصت[(٤)] له نيَّته في عبادة ربِّه ويقينه وصدق حديثه، كانت رُؤْياه أصدق، وإلى النبوَّة أقرب، كما أنَّ الأنبياءَ يتفاضلون [والنبوة كذلك]؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾ [الإسراء: ٥٥].

قلت: فهذا التأويل يجمعُ شتاتَ الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضِها دون بعض وطَرْحِه.

ذكر أبو سعيد الأَسْفاقُسِي[(٥)] عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: «جزءٌ من ستةٍ

(١) جمع سَبْرة بسكون الباء، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).
(٢) كذا وقع، ولعل الصواب: السبعين وقد نقل كلام الطبري بنحوه المازري في المعلم ٣/ ١١٨، وأبو العباس في المفهم ٦/ ١٥ - ١٦ وابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٥.
(٣) في التمهيد ١/ ٢٨٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٤) في (د) و(ظ) و(ف): حصلت.
(٥) ذكره ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٦٤ بلفظ: السفاقسي، ونقل كلامه عن ابن بطال، وما سيرد بين حاصرتين منه.

وأربعين جزءاً من النبوّة» فإنَّ الله تعالى أوحى إلى محمدٍ ﷺ [في المنام ستةَ أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك] في النبوّة ثلاثةً وعشرين عاماً ـ فيما رواه عكرمةُ وعمرو بنُ دينار عن ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما[١] ـ فإذا نَسَبْنا ستةَ أشهرٍ من ثلاثةٍ وعشرين عاماً، وَجَدْنا ذلك جزءاً من ستةٍ وأربعين جزءاً.

وإلى هذا القول أشار المازَريُّ في كتابه «المعلم»[٢]، واختاره الغزنويّ[٣] في تفسيره من سورة يونس، عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤].

وهو فاسدٌ من وجهين:

أحدهما: ما رواه أبو سَلَمةَ عن ابن عباس وعائشةَ: بأنَّ مدَّة الوحي كانت عشرين سنة[٤]، وأنَّ النبيَّ ﷺ بُعِثَ على رأس أربعين، فأقام بمكَّةَ عَشْرَ سنين؛ وهو قول عروة والشعبيِّ وابنِ شهابٍ والحسن وعطاءٍ الخراسانيِّ، وسعيد بن المسيِّب على اختلافٍ عنه، وهي روايةُ ربيعة وأبي غالب عن أنس[٥]، وإذا ثبت هذا الاختلافُ[٦] بطَل ذلك التأويل.

الثاني: أنَّ سائر الأحاديث في الأجزاءِ المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنَّما كانت الرؤيا جزءاً من النبوّة؛ لأنَّ فيها ما يُعجز ويَمتنع، كالطيران وقلبِ الأعيان، والاطِّلاع على شيءٍ من علم الغيب، كما قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) رواية عكرمة عن ابن عباس عند أحمد (٢٢٤٢) والبخاري (٣٨٥١). ورواية عمرو بن دينار عن ابن عباس عند مسلم (٢٣٥١).

(٢) ٣/ ١١٧ .

(٣) في (م): القونوي، وفي (د): القرنوي، وفي (ظ): العزيزي، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٦٩٦)، والبخاري (٤٤٦٤ ، ٤٤٦٥) بلفظ: أنَّ النبيَّ ﷺ لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً.

(٥) التمهيد ٣/ ١٦ ، ورواية ربيعة (وهو ابن أبي عبد الرحمن) عن أنس عند أحمد (١٣٥١٩)، والبخاري (٣٥٤٧) ومسلم (٢٣٤٧). ورواية أبي غالب عن أنس عند أحمد (١٢٥٢٩)، وينظر التمهيد ٣/ ٩-١٢ .

(٦) في (م): الحديث، وفي (د) و(ف): الخلاف.

«إنَّه لم يبقَ من مبشِّرات النبوَّة إلا الرؤيا الصَّادقةَ في النوم» الحديث[١]. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقةَ من الله، وإنَّها من النبوَّة؛ قال ﷺ: «الرؤيا من الله، والحُلُم من الشيطان»[٢]. وإنَّ التصديقَ بها حقٌّ، ولها التأويلُ الحَسَنُ، وربَّما أغنى بعضُها عن التأويل، وفيها من بديع [حكمة] الله ولُطْفِه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلافَ في هذا بين أهل الدين والحقِّ من أهل الرأي والأثر، ولا يُنكر الرؤيا إلَّا أهلُ الإلحاد، وشِرذمةٌ من المعتزلة[٣].

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقةُ جزءاً من النبوَّة؛ فكيف يكون الكافر والكاذب والمُخلِّط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفَّار وغيرِهم ممن لا يُرضى دينُه مناماتٌ صحيحةٌ صادقة؛ كمنام رؤيا الملِك الذي رأى سبْعَ بقرات، ومنامِ الفَتَيَيْن في السجن، ورؤيا بُخْتَنَصَّر، التي فسَّرها دانيال في ذهاب مُلكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبيِّ ﷺ[٤]، ومنامِ عاتكةَ عمَّةِ رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة[٥]. وقد ترجم البخاريُّ: باب رؤيا أهل السجن[٦].

فالجواب: أنَّ الكافرَ والفاجر والفاسق والكاذب، وإنْ صدقت رؤياهم في بعض الأوقات، لا تكون من الوحي ولا من النبوَّة؛ إذْ ليس كلُّ مَن صَدَقَ في حديث عن غيبٍ يكون خبرُه ذلك نبوَّةً؛ وقد تقدَّم في «الأنعام»[٧] أنَّ الكاهن وغيرَه قد يخبر

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٥٢٥)، والبخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١) عن أبي قتادة ﷺ.

(٣) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وينظر خبر هذه الرؤيا في تاريخ الطبري ٢/ ١٦٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٢٦-١٢٩ ، والبداية والنهاية ٣/ ٣٩٥ .

(٥) التمهيد ١/ ٢٨٥ ، وخبر رؤيا عاتكة في سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧ عن ابن إسحاق قال: أخبرني مَن لا أتَّهم عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس. ويزيد بن رومان، عن عروة قال: وقد رأت عاتكة، وذكر الخبر مطولاً.

(٦) صحيح البخاري، قبل الحديث (٦٩٩٢) بلفظ: باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك.

(٧) ٨/ ٤٠٥ .

بكلمة الحقِّ فيَصْدُق، لكنَّ ذلك على النُّدور والقلَّة، فكذلك رؤيا هؤلاء[(١)].

قال المهلَّب: إنَّما ترجمَ البخاريُّ بهذا لجواز أنْ تكون رؤيا أهل الشِّرك رؤيا صادقةً، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنَّه لا يجوز أنْ تُضاف إلى النبوَّة إضافةَ رؤيا المؤمنِ إليها؛ إذ ليس كلُّ ما يصحُّ له تأويلٌ من الرؤيا حقيقةً يكون جزءاً من النبوَّة.

الخامسة: الرؤيا المضافةُ إلى الله تعالى هي التي خَلَصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلُها موافقاً لِمَا في اللوح المحفوظ. والتي هي من حَيِّز[(٢)] الأضغاث هي الحُلم، وهي المضافةُ إلى الشيطان، وإنَّما سُمِّيت ضِغثاً لأنَّ فيها أشياءَ متضادَّة؛ قال معناه المهلَّب.

وقد قَسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كلِّ قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا ثلاثةٌ؛ منها أهاويلُ الشيطان ليُحزِن ابن آدم، ومنها ما يَهُمُّ[(٣)] به في يَقَظَتِه، فيراه في منامه، ومنها جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة». قال: قلتُ: سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعتُه من رسول الله ﷺ[(٤)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ الآية. الرؤيا مصدرُ: رأى في المنام رؤيا، على وزن فُعلى، كالسُّقْيا والبُشْرى، وأَلِفُه للتأنيث؛ ولذلك لم ينصرف[(٥)].

وقد اختلفَ العلماءُ في حقيقة الرؤيا؛ فقيل: هي إدراكٌ في أجزاء لم تحلَّها آفةٌ،

---

(١) المفهم ٦/ ١٣.

(٢) في النسخ عدا (ز): خبر، والمثبت من (ز).

(٣) في (ظ) و(م): يهتم، وفي (ف): هم، والمثبت من (د) و(ز) والمصادر على ما يأتي.

(٤) التمهيد ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦، والحديث أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وابن حبان (٦٠٤٢). والسائل في آخر الحديث هو مسلم بن مشكم، وهو الذي رواه عن عوف ﷺ.

(٥) المفهم ٦/ ٥.

كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثرُ ما تكون الرؤيا في آخِر الليل؛ لقلَّة غَلَبةِ النوم، فيخلق الله تعالى للرائي عِلْماً ناشِئاً، ويخلقُ له الذي يراه على ما يراه ليصحَّ الإدراك.

قال ابن العربيّ[1]: ولا يَرى في المنام إلا ما يصحُّ إدراكُه في اليقظة؛ ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنَّما يَرى الجائزاتِ [الخارقةَ للعادات، أو الأشياءَ] المعتادات.

وقيل: إنَّ لله مَلكاً يعرضُ المرئيَّات على المحلِّ المدرِك من النائم، فيمثِّل له صوراً محسوسة، فتارةً تكون تلك الصور أمثلةً مُوافِقةً لمَا يقعُ في الوُجُود، وتارةً تكون [أمثلة] لمعانٍ[2] معقولةٍ غيرِ محسوسة، وفي الحالتين تكون مُبشِّرة أو مُنذرة؛ قال ﷺ في «صحيح» مسلم وغيره: «رأيتُ سوداءَ ثائرةَ الرأسِ تَخرجُ من المدينة إلى مَهْيَعةَ، فأوَّلتُها الحُمَّى»[3]. و«رأيتُ سيفي قد انقطع صدرُه، وبَقَراً تُنْحَر. فأوَّلْتُهما: رجلٌ من أهل بيتي يُقتل، والبقرُ نَفَرٌ من أصحابي يُقتلون»[4]. و«رأيتُ أنِّي أَدْخَلتُ يدي في دِرعٍ حصِينة؛ فأوَّلتُها المدينة»[5]. و«رأيت في يدَيَّ سِوَارين؛ فأوَّلْتُهما كذَّابَيْن يَخرجان بعدي»[6]. إلى غير ذلك مما ضُربتْ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلاً[7]، ومنها

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦١ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في (د): المعاني، وفي (ز): معاني، وفي (ظ) و(ف) و(م): لمعاني، والمثبت من المفهم ٦/ ٧ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٣) لم نقف عليه عند مسلم، وأخرجه أحمد (٥٨٤٩)، والبخاري (٧٠٣٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ومهيعة: اسم الجحفة، وهي ميقات أهل الشام. النهاية (مهيع).

(٤) ذكر المصنف لفظ هذا الحديث والذي قبله نقلاً عن ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٢ وقد أخرجه بمعناه البخاري (٣٦٢٢) ومسلم (٢٢٧٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ مطولاً. وأخرجه أحمد (١٣٨٢٥)، والبزار (٢١٣١ - كشف) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، وأخرجه مطولاً دون قوله: «أدخلت يدي» أحمد (٢٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(١٤٧٨٧) من حديث جابر ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، وأخرجه بأطول مما هنا البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) بعدها في النسخ عدا (ظ): فأولاً، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ ، والكلام منه.

ما لا يظهر إلَّا بعد الفِكْر. وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقراً فأوَّلها يوسفُ السنين، ورأى أَحَدَ عَشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ فأوَّلَها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان صغيراً وَقْتَ رؤياه، والصغيرُ لا حُكْمَ لفِعْلِه، فكيف تكون له رؤيا لها حُكْمٌ حتى يقول له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾؟

فالجواب: أنَّ الرؤيا إدراكُ حقيقةٍ على ما قدَّمناه، فتكونُ من الصغير كما يكون منه الإدراكُ الحقيقيُّ في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صُدِّق، فكذلك إذا أخبر عمَّا يرى في المنام[١]. وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنَّها وُجدت كما رأى، فلا اعتراض. رُوي أنَّ يوسفَ عليه السلام كان ابن اثنتي عَشْرةَ سنة[٢].

الثامنة: هذه الآيةُ أصلٌ في ألَّا تُقَصَّ الرؤيا على غير شفيقٍ ولا ناصح، ولا على مَن لا يُحسِن التأويل فيها؛ روى أبو رَزِين العُقَيليُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الرؤيا جزءٌ من أربعين جزءاً من النبوَّة، والرؤيا معلَّقةٌ برِجْلِ طائرٍ ما لم يحدِّث بها صاحبُها، فإذا حدَّث بها وقعتْ، فلا تُحدِّثوا بها إلَّا عاقلاً أو مُحِبًّا أو ناصحاً» أخرجه الترمذيُّ وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيح، وأبو رَزِين اسمُه لَقِيط بنُ عامر[٣].

وقيل لمالك: أيعبُر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أَبِالنبوَّةِ يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبُر الرؤيا إلَّا مَن يُحْسِنُها، فإنْ رأى خيراً أخبر به، وإنْ رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت. قيل: فهل يعبُرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول مَن قال: إنَّها على ما أُوِّلت[٤] عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزءٌ من النبوَّة فلا يُتَلاعب بالنبوَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٢ - ١٠٦٣.

(٢) عرائس المجالس ص١١٢ عن ابن وهب.

(٣) سنن الترمذي (٢٢٧٨)، وأخرجه أحمد (١٦١٨٣)، وابن عبد البر في التمهيد ١/ ٢٨٣ واللفظ له.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تأولت، وفي (ظ): تأول، وفي (ف): تويلت، والمثبت من التمهيد ١/ ٢٨٨، والكلام منه.

التاسعة: وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ مباحاً[١] أنْ يُحذِّر المسلمُ أخاه المسلم ممن يَخافُه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغِيبة؛ لأنَّ يعقوبَ عليه السلام قد حذَّر يوسفَ أنْ يَقُصَّ رؤياه على إخوته فيَكيدوا له كيداً.

وفيها أيضاً ما يدلُّ على جوازِ تركِ إظهارِ النعمة عند مَن تُخشى غائلتُه حسداً وكيداً؛ وقال النبيُّ ﷺ: «استعينوا على حوائجكم بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»[٢].

وفيها أيضاً دليلٌ واضحٌ على معرفة يعقوبَ عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنَّه عَلم من تأويلها أنَّه سيظهرُ عليهم، ولم يبالِ بذلك من نفسه؛ فإنَّ الرجل يودُّ أنْ يكون ولدُه خيراً منه، والأخُ لا يودُّ ذلك لأخيه[٣].

ويدلُّ أيضاً على أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان أحسَّ من بنيه حسدَ يوسف وبُغْضَتَه، فنهاه عن قَصَص الرؤيا عليهم خوفَ أنْ تَغِلَّ بذلك صدورُهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه، ومن هنا ومن فِعْلِهم بيوسف يدلُّ على أنَّهم كانوا غيرَ أنبياءَ في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبريِّ لابن زيد أنَّهم كانوا أنبياء، وهذا يردُّه القطعُ بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياويِّ، وعن عقوق الآباء، وتعريضِ مؤمنٍ للهلاك، والتآمرِ في قتله[٤]، ولا التفاتَ لقولِ مَن قال: إنَّهم كانوا أنبياء، ولا يستحيلُ في العقل زلَّةُ نبيٍّ، إلَّا أنَّ هذه الزلَّة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم

---

(١) في (ظ): على أنه يباح.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٩ ، والحديث أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٨٧ ، والسهمي في تاريخ جرجان ص٢٢٣ من حديث أبي هريرة ﷺ. وروي الحديث أيضاً عن معاذ ﷺ كما في الضعفاء للعقيلي ٢/ ١٠٨ ، والكامل لابن عدي ٢/ ٧٧٠ - ٧٧١ و ٣/ ١٢٤٠ ، وأخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢١٧ والموضوعات لابن الجوزي (٨٨٩) و(٨٩٠). وعن ابن عباس كما في المجروحين لابن حبان ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥ ، والموضوعات (٨٩١) و(٨٩٢). قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٠ ، وخبر ابن زيد في تفسير الطبري ١٣/ ١٣ .

منها، وإنَّما اختلفوا في الصغائر على ما تقدَّم ويأتي[(١)].

العاشرة: روى البخاريّ[(٢)] عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لم يبقَ من النبوَّة إلا المبشِّرات» قالوا: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ». وهذا الحديث بظاهره يدلُّ على أنَّ الرؤيا بشرى على الإطلاق، وليس كذلك؛ فإنَّ الرؤيا الصادقةَ قد تكون منذِرةً من قِبَل الله تعالى لا تَسُرُّ رائيها، وإنَّما يُريها الله تعالى المؤمنَ رفقاً به ورحمة، ليستعدَّ لنزول البلاء قبل وقوعه[(٣)]؛ فإنْ أدرك تأويلها بنفسه، وإلَّا سأل عنها مَن له أهليَّةُ ذلك. وقد رأى الشافعيُّ ﷺ وهو بمصرَ رؤيا لأحمدَ بن حَنْبل تدلُّ على مِحنته، فكتبَ إليه بذلك ليستعدَّ لذلك[(٤)].

وقد تقدَّم في «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية: ٦٤] أنَّها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاريِّ مَخرجُه على الأغلب[(٥)]، والله أعلم.

الحادية عشرة: روى البخاريُّ[(٦)] عن أبي سَلَمة قال: لقد كنتُ أرى الرؤيا فتُمْرِضُني، حتى سمعتُ أبا قَتَادة يقول: وأنا كنتُ لَأرى الرؤيا فتُمْرِضُني حتى سمعتُ رسول الله يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله؛ فإذا رأى أحدكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلَّا مَن يحبُّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذ بالله من شرِّها، ولْيتفُلْ ثلاثاً[(٧)]، ولا يحدِّثْ بها أحداً، فإنَّها لن تَضُرَّه».

---

(١) تقدم ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠، وسيأتي ص٢٦٥ من هذا الجزء.

(٢) في صحيحه (٦٩٩٠).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٧٥ - ٣٧٦ نحو هذا الكلام عن المهلب.

(٤) روى الخبر مطولاً ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ص٥٥١، والمقدسي في محنة الإمام أحمد ص٨ - ١٠.

(٥) أي أن التعبير بالمبشرات والبشرى خرج على الأغلب. ينظر الفتح ١٢/ ٣٧٥.

(٦) في صحيحه (٧٠٤٤)، وهو عند أحمد (٢٢٦٤٤)، ومسلم (٢٢٦١): (٤).

(٧) في (م): ثلاث مرات.

قال علماؤنا: فجعل الله الاستعاذة منها ممَّا يرفع أذاها؛ ألا ترى قولَ أبي سلمة[١]: إنِّي كنت لَأرى الرؤيا هي أثقلُ عليَّ من الجبل، فلمَّا سمعتُ بهذا الحديث كنت لا أَعُدُّها شيئاً. وزاد مسلم[٢] من حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يَكْرهُها فليَبْصُقْ عن يساره ثلاثاً، ولْيتعوَّذْ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوَّلْ عن جنبه الذي كان عليه». وفي حديث أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رأى أحدُكم ما يكره فليقُم فلْيُصَلِّ»[٣].

قال علماؤنا: وهذا كلُّه ليس بمتعارِضٍ، وإنَّما هذا الأمر بالتحوُّل والصلاةِ زيادةٌ، فعَلَى الرَّائي أنْ يفعل الجميع، والقيامُ إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنَّه إذا صلى تضمَّن فعلُه للصَّلاة جميعَ تلك الأمور؛ لأنَّه إذا قام إلى الصلاة تحوَّل عن جنبه، وإذا تمضمض نفث[٤] وبَصَق، وإذا قام إلى الصَّلاة تعوَّذ ودَعَا وتضرَّع لله تعالى في أنْ يكفيَه شرَّها في حالٍ هي أقربُ الأحوال إجابةً، وذلك السَّحَر من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الكافُ في موضع نصب؛ لأنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، وكذلك الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ و«ما» كافَّة[٥].

---

(١) في النسخ الخطية: قول قتادة، وفي (م): قول أبي قتادة، والمثبت من صحيح البخاري (٥٧٤٧) وصحيح مسلم (٢٢٦١): (٢).

(٢) برقم (٢٢٦٢)، وهو عند أحمد (١٤٧٨٠).

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٦٢٢)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٤) في (د) و(ظ) و(م): تفل، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ١٩ ، والكلام منه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٤ ، والتقدير في الكاف الأولى: ومِثْلَ ذلك الاجتباء العظيم يجتبيك. ويجوز فيها الرفع على خبر ابتداء مضمر، أي: الأمر كذلك. الدر المصون ٦/ ٤٤٠ .

وقيل: «وَكَذَٰلِكَ» أي: كما أكرمكَ بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويُحسن إليك بتحقيق الرؤيا. مقاتل: بالسجود لك. الحسن: بالنبوّة[١].

والاجتباء: اختيارُ معالي الأمورِ للمجْتَبَى، وأصلُه من جَبَيْتُ الشيء، أي: حصَّلتُه، ومنه: جَبَيْتُ الماء في الحوض؛ قاله النحاس[٢]. وهذا ثناءٌ من الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، وتعديدٌ فيما عدَّده عليه من النِّعم التي آتاه الله تعالى، من التمكين في الأرض، وتعليمِ تأويل الأحاديث؛ وأجمعوا أنَّ ذلك في تأويل الرؤيا[٣].

قال عبد الله بن شدَّاد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسفَ ﷺ بعدَ أربعين سنة، وذلك منتهى الرؤيا[٤].

وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناسُ في المنام، وهي معجزةٌ له؛ فإنَّه لم يَلْحَقْهُ فيها خطأ. وكان يوسف عليه السلام أعلَم الناس بتأويلها، وكان نبيُّنا ﷺ نحوَ ذلك، وكان الصدّيق ﷺ من أعْبَر الناس لها، وحَصَل لابن سيرين فيها التقدُّم العظيم، والطبعُ والإحسان، ونحوُه أو قريبٌ منه كان سعيد بن المسيِّب فيما ذكروا[٥].

وقد قيل: في تأويل قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: أحاديث الأمم والكتب ودلائلِ التوحيد[٦]، فهو إشارةٌ إلى النبوَّة، وهو المقصودُ بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بالنبوّة. وقيل: بإحواج[٧] إخوتك إليك. وقيل: بإنجائك من كُلِّ مكروه.

---

(١) قول الحسن في النكت والعيون ٣/ ٨ . وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨١ عن ابن عباس.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٨ .

(٣) التمهيد ١/ ٣١٣ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٨٢ ، والطبري ١٣/ ٣٥٨ .

(٥) التمهيد ١/ ٣١٤ .

(٦) ذكر نحوه الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٩٢ .

(٧) في (ظ) و(م): بإخراج، وهو موافق لما ورد في المطبوع من النكت والعيون ٣/ ٨ ، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في زاد المسير ٤/ ١٨١ وقد نقله ابن الجوزي عن الماوردي.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بالخُلَّة، وإنجائه من النار ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ بالنبوَّة. وقيل: إنجائه[1] من الذبح؛ قاله عِكرمة[2]. وأعلَمه الله تعالى بقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أنَّه سيعطي بني يعقوب كلَّهم النبوَّة؛ قاله جماعةٌ من المفسرين[3]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله بك.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يعني: مَن سأل عن حديثهم. وقرأ أهلُ مكَّة: ﴿آيةٌ﴾ على التوحيد[4]؛ واختارَ أبو عبيد: «آياتٌ» على الجمع؛ قال: لأنَّها خيرٌ كثير. قال النحاس[5]: و«آيةٌ» هنا قراءةٌ حسنة، أي: لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسفَ آيةٌ فيما خُبِّروا به؛ لأنَّهم سألوا النبيَّ ﷺ وهو بمكَّة فقالوا: أخبِرْنا عن رجلٍ من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنُه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي ـ ولم يكن بمكَّة أحدٌ من أهل الكتاب، ولا مَن يعرفُ خبر الأنبياء؛ وإنما وجَّهَ اليهودُ إليه[6] من المدينة يسألونه عن هذا ـ فأنزل الله عزَّ وجلَّ سورة يوسف جملةً واحدة؛ فيها كلُّ ما في التوراة من خبرٍ وزيادةٌ. فكانَ ذلك آيةً للنبيِّ ﷺ؛ بمنزلةِ إحياءِ عيسى ابنِ مريم عليه السلام الميتَ.

---

(١) قوله: إنجائه، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٦ . وقد سلف التنبيه ٢/ ٤٠٩ على أن الصحيح هو أن الذبيح إسماعيلُ عليه السلام.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢١ .

(٤) هي قراءة ابن كثير المكي والباقون على الجمع. السبعة ص٣٤٤ ، والتيسير ص١٢٧ .

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٤ ، وما قبله منه، إلا أنه وقع فيه: عبر كثيرة، بدل: خير كثير.

(٦) في (ز) و(ف) و(م): إليهم، وليست في (د)، والمثبت من (ظ) وإعراب القرآن.

«آية»[١]: موعظة. وقيل: عبرة. ورُويَ أنَّها في بعض المصاحف: «عبرة». وقيل: بصيرة[٢]. وقيل: عَجَب؛ تقول: فلانٌ آيةٌ في العلم والحُسْن؛ أي: عَجَب.

قال الثعلبيُّ في «تفسيره»: لمَّا بلغت الرؤيا إخوةَ يوسف حسدوه؛ قال ابن زيد: كانوا أنبياء، وقالوا: ما يرضى أنْ يسجدَ له إخوتُه حتى يسجد له أبواه! فبغَوْه بالعداوة. وقد تقدَّم ردُّ هذا القول[٣].

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وأسماؤهم: روبيل وهو أكبرُهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويشجر، وأمُّهم ليا بنت ليان، وهي بنتُ خال يعقوب، ووُلِد له من سُرِّيَّتين أربعةُ نفر؛ دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوَّجَ يعقوبُ أختَها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوبَ اثني عشر رجلاً[٤].

قال السّهيلي[٥]: وأمُّ يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب.

وقيل في اسم الأَمَتين: ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وَهَبَتاهُما ليعقوب[٦]، وكان يعقوبُ قد جمع بينهما، ولم يَحِلَّ لأحدٍ بعده[٧]؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وقد تقدَّم الردُّ على ما قاله ابن زيد[٨]، والحمد لله.

---

(١) في (م): آيات.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٢، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٩٩.

(٣) ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤١٠ - ٤١١، ووقع فيه: آشر، بدل: يشجر. وأشير، بدل: آشر.

(٥) في التعريف والإعلام ص٧٩ - ٨٠.

(٦) التعريف والإعلام ص٨٢.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٥١، وقد ذكر أبو الليث أن يعقوب جمع بين راحيل وأختها ليا، قال: وكان الناس يجمعون بين الأختين إلى أن بعث الله موسى عليه السلام.

(٨) قوله: وقد تقدم الرد...، قد ذكره المصنف قبل، ولا محل له هنا.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ «يوسف» رفع بالابتداء؛ واللام للتأكيد، وهي التي يُتلقى بها القسم، أي: واللهِ لَيوسفُ. ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطف عليه. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرُه، ولا يثنَّى ولا يُجمع لأنَّه بمعنى الفعل[1]؛ وإنَّما قالوا هذا لأنَّ خبرَ المنام بلغهم فتآمروا في كيده.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، وكانوا عشرة. والعُصْبةُ ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر. وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة. ولا واحدَ لها من لَفْظِها، كالنَّفَر والرَّهْط[2].

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لم يريدوا ضلالَ الدِّين؛ إذ لو أرادوه لكانوا كفَّاراً، بل أرادوا: لفي ذهابٍ عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بيِّنٍ بإيثاره يوسفَ وأخاه علينا[3].

قوله تعالى: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ في الكلام حذف، أي: قال قائلٌ منهم: ﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ ليكون أحسمَ لمادة الأمر. ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: في أرض، فأسقطَ الخافض، وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه[4] فيما حذف منه «في»:

لَدْنٌ بِهَزِّ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ[5]

قال النحاس[6]: إلَّا أنَّه في الآية حَسَنٌ كثير؛ لأنَّه يتعدَّى إلى مفعولين؛ أحدهما بحرف، فإذا حذفتَ الحرف تعدَّى الفعل إليه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤١١.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤١١. قال الألوسي ١٢/ ١٩٠: والذي ينبغي أن يعوَّل عليه أنه عليه السلام إنما أحبه أكثر منهم لمَّا رأى فيه من مخايل الخير ما لم يَرَ فيهم، وزاد ذلك الحب بعد الرؤيا لتأكيدها تلك الأمارات عنده.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٦ و ٢١٤.

(٥) أي: في الطريق، والبيت لساعدة بن جؤية، وهو في شرح ديوان الهذليين ٣/ ١١٢٠، وسلف ٩/ ١٧٢.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥، وما قبله منه.

والقائل قيل: هو شمعون؛ قاله وهبُ بن منبِّه. وقال كعبُ الأحبار: دان. وقال مقاتل: روبيل[١]. فالله أعلم. والمعنى: أرضاً تبعد عن أبيه. فلابدَّ من هذا الإضمار؛ لأنه كان عند أبيه في أرض[٢].

﴿يَخْلُ﴾ جزمٌ؛ لأنَّه جوابُ الأمر؛ معناه: يَخلص ويصفو ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيُقْبِلُ عليكم بكلِّيته ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد الذنب، وقيل: من بعد يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي: تائبين، أي: تُحدِثوا توبةً بعد ذلك فيقبلها الله منكم[٣]؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتل مقبولةٌ، لأنَّ الله تعالى لم يُنكر هذا القولَ منهم. وقيل: «صَالِحِينَ» أي: يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أَثَرةٍ ولا تفضيل[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاثَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ القائلُ هو يهوذا، وهو أكبر وَلَدِ يعقوب؛ قاله ابن عباس[٥]. وقيل: روبيل، وهو ابن خالته، وهو الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية [يوسف: ٨٠]. وقيل: شمعون[٦].

﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البَصْرة وأهل الكوفة: ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾. وقرأ أهل المدينة: ﴿في غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾[٧] واختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه

---

(١) ذكر أقوالهم البغوي ٢/ ٤١١ .

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٣ ، وللنحاس ٣/ ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠١ ، وقد ذكره الواحدي عن ابن عباس.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١ .

(٥) ذكره ابن الجوزي ٤/ ١٨٤ من طريق أبي صالح عنه.

(٦) أخرج القولين الأخيرين الطبري ١٣/ ٢٠ - ٢١ ؛ الأول عن قتادة وابن إسحاق، والثاني عن مجاهد.

(٧) وهي قراءة نافع وأبي جعفر. السبعة ص٣٤٥ ، والتيسير ص١٢٧ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

على موضعٍ واحد ألقَوْه فيه، وأنكر الجمعَ لهذا. قال النحاس[١]: وهذا تضييقٌ في اللغة، «وغيابات» على الجمع يجوز [من وجهين]: حكى سيبويه: سِيرَ عليه عُشَيَّاناتٍ وأُصَيْلاناتٍ، يريد: عَشِيَّةً وأَصيلاً، فجعل كلَّ وقتٍ منها عَشِيَّةً وأصيلاً[٢]. فكذا جُعل كلُّ موضعٍ مما يُغيِّب غَيابة. والآخر: أن يكون في الجبِّ غَياباتٌ جماعة. ويقال: غاب يَغيبُ[٣] غَيْباً وغَيابة وغَياباً؛ كما قال الشاعر:

أَلَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ إلى ذَاكُمَا ما[٤] غَيَّبَتْني غَيابِيَا[٥]

قال الهرويّ[٦]: والغَيابة شبه لَجَفٍ[٧]، أو طاقٌ في البئر فُوَيْقَ الماء، يغيِّبُ الشيءَ عن العين. وقال ابن عُزَيْز[٨]: كلُّ شيء غيَّب عنك شيئاً فهو غَيابة. قلت: ومنه قيل: للقبر: غَيابة[٩]؛ قال الشاعر:

فإنْ أنا يوماً غَيَّبَتْني غَيَابَتي فَسِيروا بسَيْري في العَشِيرةِ والأَهلِ[١٠]

والجُبُّ: الرَّكِيَّة التي لم تُطْوَ، فإذا طُويت فهي بئر[١١]؛ قال الأعشى[١٢]:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣١٥ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) الكتاب ٣/ ٤٨٤ . قال سيبويه: قالوا: عُشيّانات، كأنهم سمَّوا كلَّ جزء منه عشية.

(٣) من قوله: غيابة والآخر...، إلى هذا الموضع من (م) وإعراب القرآن.

(٤) في (م): أنا ذاكما قد، وفي باقي النسخ: إلى ذاكما قد، والمثبت من إعراب القرآن وباقي المصادر على ما يأتي.

(٥) قائله ابن أحمر، كما في معاني القرآن للأخفش ١/ ١٨٧ ، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٧٧ وأمالي ابن الشجري ٣/ ٧٥ ، وهو بلا نسبة في المحتسب ٢/ ٢٢٧ ، والخزانة ١١/ ٧١ .
قال المرزقي: أراد بالغياب: الغَيابة؛ لذلك أنَّث. اهـ أي: أنَّث الفعل غيبتني.

(٦) في (ظ): المهدوي.

(٧) حفر في جانب البئر. القاموس (لجف).

(٨) في شرح غريب القرآن ص٣٤٣ .

(٩) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠١ - ٦٠٢ ، واللسان (غيب).

(١٠) قائله المنخَّل بن سُبَيْع العنبري، كما في مجاز القرآن ١/ ٣٠٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٥ . وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤ برواية: غيبتني منيتي.

(١١) تفسير الغريب لابن عزيز ص١٩٤ . والركيَّة: البئر. القاموس (ركو). وفي اللسان (طوي): طوى الركية طيًّا: عرشها بالحجارة والآجر.

(١٢) في ديوانه ص١٧٣ .

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

وسمِّيت جُبًّا لأنها قُطِعت في الأرض قَطْعاً. وجمعُ الجبِّ: جِببَة وجِبَاب وأَجْباب[١].

وجَمَع بين الغَيابة والجُبِّ؛ لأنه أراد: ألقُوه في موضعٍ مظلم من الجُبِّ حتى لا يَلحقه نظرُ الناظرين. قيل: هو بئرٌ ببيت المقدس[٢]. وقيل: هو بالأرْدُنّ؛ قاله وَهْب بن مُنبِّه. مقاتل: هو على ثلاثةِ فراسخَ من منزل يعقوب[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جزم على جواب الأمر. وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة: «تَلْتَقِطْهُ» بالتاء[٤]. وهذا محمولٌ على المعنى؛ لأنَّ بعض السّيارة سَيَّارة، وحكى سيبويه: سقطت بعضُ أصابعه، وأنشد:

وتَشْرَقَ بالقول الذي قد أذعْتَه كما شَرِقَتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ[٥]

وقال آخر:

أرَى مَرَّ السِّنينَ أخَذْنَ منِّي كما أخَذَ السِّرَارُ من الهلالِ[٦]

ولم يقل: شَرِق ولا أَخَذَتْ.

والسيّارة: الجمعُ الذين يسيرون في الطريق للسَّفر؛ وإنَّما قال هذا القائلُ هذا

---

(١) تهذيب اللغة ١٠/ ٥١١ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣١٨ ، والطبري ١٣/ ٢١ - ٢٢ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٣) الوسيط ٢/ ٦٠٢ .

(٤) القراءات الشاذة ص٦٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦ والكلام منه.

(٥) الكتاب ١/ ٥٢ ، والبيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٧٣ . وقوله: وتشرقَ، بالفتح، معطوف على ما قبله. يخاطب به يزيد بن مُسْهِر الشيباني فيقول: يعود عليك مكروهُ ما أذعتَ عنِّي من القول، ونَسَبْتَه إليَّ من القبيح، والشَّرَق بالماء كالغصص بالطعام. والشاهد فيه تأنيث فعل الصدر وهو مذكَّر؛ لأنه مضاف إلى مؤنث. شرح الشواهد للشنتمري ص٨٠ .

(٦) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٥٤٦ برواية: رأت مرَّ السنين. قال شارح الديوان: أراد: رأت السنين، والسِّرار ليلتان تبقيان من الشهر إذا كان تامًّا، وإذا كان ناقصاً كان سراره ليلة. اهـ وفي اللسان (سرر): استسرّ الهلال في آخر الشهر: خفي.

حتى لا يحتاجوا إلى حمله إلى موضعٍ بعيد، ويحصل المقصود؛ فإنَّ مَن التقطه من السيارة يحمله إلى موضعٍ بعيد، وكان هذا وجهاً في التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم، فربَّما لا يأذن لهم أبوهم، وربما يطَّلع على قَصْدهم.

الثالثة: وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ إخوة يوسف ما كانوا أنبياء أوّلاً ولا آخِراً[1]؛ لأنَّ الأنبياء لا يدبِّرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصيةً ثم تابوا.

وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلَّةُ نبيٍّ، فكانت هذه زلَّةً منهم. وهذا يردُّه أنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدَّمناه[2]. وقيل: ما كانوا في ذلك الوقت أنبياء ثم نبَّأهم الله[3]، وهذا أشبه، والله أعلم.

الرابعة: قال ابن وَهْب: قال مالك: طُرح يوسف في الجُبِّ وهو غلام. وكذلك روى ابن القاسم عنه، يعني أنَّه كان صغيراً، والدليل عليه قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ قال: ولا يُلتقَط إلَّا الصغير، وقولُه: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أمرٌ يختصُّ بالصغار[4]، وقولُهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الخامسة: الالتقاطُ: تَناوُلُ الشيء من الطريق، ومنه اللَّقِيط واللُّقَطَة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلَّت عليه الآيةُ والسُّنة، وما قال في ذلك أهل العلم واللغة.

قال ابن عرفة: الالتقاطُ وجود الشيء على غيرِ طَلَب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: يجده من غير أن يحتسبه.

---

(١) في (ف) و(م): لا أولاً ولا آخراً.

(٢) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤١٢ عن أبي عمرو بن العلاء. قال ابن كثير عند تفسير الآية السابعة من هذه السورة: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف... ومن الناس مَن يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدَّعي ذلك إلى دليل...الخ وينظر تتمة قوله هناك.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ - ١٠٦٦ .

وقد اختلف العلماء في اللَّقيط؛ فقيل: أصلُه الحريّة؛ لغَلَبة الأحرار على العبيد. ورُويَ عن الحسن بن عليٍّ أنّه قضى بأنَّ اللَّقِيط حُرٌّ، وتلا: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾. وإلى هذا ذهب أشهب صاحبُ مالك، وهو قولُ عمر بنِ الخطاب، وكذلك يُروى عن عليٍّ وجماعة. وقال إبراهيم النَّخَعي: إنْ نوى رِقَّه فهو مملوك، وإن نوى الحِسبةَ فهو حرٌّ[1].

وقال مالك في «موطّئه»[2]: الأمرُ عندنا في المنبوذ أنه حرٌّ، وأنَّ ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه. وبه قال الشافعيُّ؛ واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما الوَلَاءُ لمن أعتق»[3] قال: فنفَى الوَلَاء عن غير المعتِق.

واتفق مالكٌ والشافعيُّ وأصحابهما على أنَّ اللَّقيطَ لا يُوالي أحداً، ولا يرثُه أحدٌ بالوَلَاء. وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللَّقيط يوالي مَن شاء، فَمَن والاه فهو يرثُه ويعقِلُ عنه. وعند أبي حنيفة: له أنْ ينتقل بولائه حيث شاء، ما لم يعقِل عنه الذي والاه، فإنْ عَقَلَ عنه جنايةً، لم يكن له أن ينتقلَ عنه بولائه أبداً[4].

وذكر أبو بكر بنُ أبي شيبة[5] عن عليٍّ ﷺ: المنبوذُ حرٌّ، فإن أحبَّ أن يواليَ الذي التقطه والاه، وإن أحبَّ أن يواليَ غيرَه والاه. ونحوه عن عطاء[6]، وهو قولُ ابنِ شهابٍ وطائفةٍ من أهل المدينة[7]، وهو حرّ.

قال ابن العربيّ[8]: إنما كان أصل اللَّقيط الحرِّيةَ؛ لغَلَبةِ الأحرار على العبيد،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٦٦ عدا قول أشهب، وذكر قوله ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/١٥٦، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ٢/٧٣٨، وقول علي سيرد قريباً.

(٢) ٢/٧٣٨.

(٣) الاستذكار ٢٢/١٥٨، والحديث سلف ٨/ ٢٤٧.

(٤) الاستذكار ٢٢/١٥٨.

(٥) في مصنفه ١١/٤٠٦.

(٦) المصنف ١١/٤٠٧.

(٧) الاستذكار ٢٢/١٥٩.

(٨) في أحكام القرآن ٣/١٠٦٧ - ١٠٦٨.

فيقضَى[١] بالغالب، كما حُكم أنه مسلم أخذاً بالغالب؛ فإن كان في قريةٍ فيها نصارى ومسلمون؛ قال ابن القاسم: يُحكم بالأغلب، فإن وُجد عليه زِيُّ اليهود فهو يهوديٌّ، وإنْ وُجِد عليه زيُّ النصارى فهو نصرانيٌّ. وإلَّا فهو مسلم، إلَّا أنْ يكون أكثرُ أهل القرية على غير الإسلام[٢]. وقال غيره: لو لم يكن فيها إلا مسلمٌ واحد قُضي لِلَّقيط بالإسلام، تغليباً لحكم الإسلام الذي يعلو ولا يُعلَى عليه[٣]، وهو مقتضَى قولِ أشهب؛ قال أشهب: هو مسلم أبداً؛ لأني أجعله مسلماً على كلِّ حال، كما أجعله حرًّا على كلِّ حال[٤].

واختلف الفقهاء في المنبوذ تشهد البيِّنة أنَّه عبد؛ فقالت طائفةٌ من أهل المدينة: لا يُقبل قولها في ذلك. وإلى هذا ذهب أشهب؛ لقول عمر: هو حرٌّ. ومَن قضى بحرِّيته[٥] لم يقبل البيّنةَ في أنه عبد. وقال ابن القاسم: تُقبل البيِّنةُ في ذلك. وهو قولُ الشافعيِّ والكوفيّ[٦].

السادسة: قال مالك في اللقيط: إذا أنفق عليه الملتقِطُ، ثم أقام رجلٌ البيِّنةَ أنه ابنُه، فإنَّ الملتقِطَ يرجع على الأب إن كان طَرَحه متعمِّداً، وإن لم يكن طَرَحه ولكنه ضلَّ منه فلاشيءَ على الأب، والملتقِط متطوِّعٌ بالنفقة. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللَّقيط فهو متطوِّع، إلَّا أن يأمره الحاكم. وقال الأوزاعيُّ: كلُّ مَن أنفق على مَن لا تجب [له] عليه نفقةٌ؛ رَجَعَ بما أنفق[٧].

وقال الشافعيُّ: إن لم يكن للَّقيط مالٌ وجبت نفقتُه في بيت المال، فإن لم يكن

(١) في النسخ: فقضى والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) الاستذكار ٢٢/ ١٥٧ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٨ .

(٤) الاستذكار ٢٢/ ١٥٧ .

(٥) في المطبوع من الاستذكار ٢٢/ ١٥٦ (والكلام منه): ومن قضى بحديثه.

(٦) في الاستذكار: والكوفيين.

(٧) التمهيد ٣/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

ففيه قولان: أحدهما: يُستقرض له في ذمَّته. والثاني: يقسَّط على المسلمين من غير عِوَض[١].

السابعة: وأمَّا اللُّقَطةُ والضَّوَالُّ فقد اختلف العلماء في حكمهما؛ فقالت طائفة من أهل العلم: اللُّقَطَةُ والضَّوالُّ سواءٌ في المعنى، والحكمُ فيهما سواءٌ. وإلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاويُّ، وأنكر قولَ أبي عُبيد القاسم بنِ سلَّام - إنَّ الضالَّة لا تكون إلا في الحيوان، واللُّقطة في غير الحيوان - وقال: هذا غلَط؛ واحتجَّ بقوله ﷺ في حديث الإفك للمسلمين: «إنّ أمَّكم ضلَّت قِلادتَها» فأطلق ذلك على القِلادة[٢].

الثامنة: أجمع العلماء على أنَّ اللُّقَطةَ ما لم تكن تافهاً يسيراً، أو شيئاً لا بقاء له[٣]، فإنَّها تُعرَّف حولاً كاملاً. وأجمعوا أنَّ صاحبها إنْ جاء فهو أحقُّ بها من مُلتقِطِها إذا ثبت له أنه صاحبها. وأجمعوا أنَّ ملتقِطَها إنْ أَكَلَها بعد الحول وأراد صاحبُها أن يضمِّنه فإنَّ ذلك له، وإن تصدَّق بها فصاحبُها مخيَّر بين التضمين، وبين أن ينزل على أجرها، فأيَّ ذلك تَخَيَّر كان ذلك له بإجماع؛ ولا تنطلقُ يدُ ملتقطها عليها بصدقة، ولا تُصرَفُ قبل الحول. وأجمعوا أنَّ [آخِذ] ضالّة الغنم [في الموضع] المخوفِ عليها له أكلُها.

التاسعة: واختلف الفقهاء في الأفضل مِن تَرْكِها أو أخذها؛ فمِن ذلك أنَّ في الحديث دليلاً على إباحة التقاط اللُّقَطة وأَخْذِ الضالَّة ما لم تكن إبلاً. وقال في الشاة: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب» يحضُّه على أخذها، ولم يقل في شيء: دعوه حتى يضيع

---

(١) التنبيه للشيرازي ص١٣٤ .

(٢) التمهيد ٣/ ١١١ - ١١٢ ، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ ، وقول الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٩ ، والحديث بهذا اللفظ أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١١١ . وحديث الإفك أخرجه مطولاً البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) دون اللفظ المذكور، وينظر ما ورد من أحاديث في قصة إضاعة عائشة رضي الله عنها قلادتها فيما سلف ٦/ ٣٥٤ - ٣٥٧ .

(٣) في النسخ: لها، والمثبت من التمهيد ٣/ ١٠٧ ، والاستذكار ٢٢/ ٣٢٩ ، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منهما.

أو يأتيَه ربُّه. ولو كان تركُ اللُّقطة أفضلَ لأمر به رسول الله ﷺ كما قال في ضالَّة الإبل، والله أعلم[١].

وجملة مذهب أصحاب مالك أنه في سَعَة؛ إنْ شاء أَخَذَها، وإن شاء تركها؛ هذا قولُ إسماعيل بنِ إسحاق رحمه الله.

وقال المُزَنيُّ عن الشافعيِّ: لا أحبُّ لأحدٍ تَرْكَ لُقَطةٍ إنْ وجدها؛ إذا كان أميناً عليها، قال: وسواءٌ قليلُ اللُّقطة وكثيرُها[٢].

العاشرة: روى الأئمةُ؛ مالكٌ وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنيِّ قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فسأله عن اللُّقَطة، فقال: «اعْرِفْ عِفَاصَها ووِكَاءَها، ثم عَرِّفها سنةً، فإنْ جاء صاحبُها، وإلا فشأنَك بها». قال: فضالَّةُ الغنم يا رسول الله؟ قال: «لكَ أو لأخيكَ أو للذئب». قال: فضالةُ الإبل؟ قال: «ما لَكَ ولَها؟! معها سِقاؤُها وحِذاؤها، تَرِدُ الماءَ وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربُّها»[٣].

وفي حديث أُبيٍّ قال: «احفَظْ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها، فإنْ جاء صاحبُها، وإلَّا فاستمتِع بها». ففي هذا الحديثِ زيادةُ العدد؛ خرَّجه مسلم وغيره[٤].

وأجمع العلماء أنَّ عِفاص اللُّقَطة ووكاءَها من إحدى علاماتها وأَدَلّها عليها[٥]، فإذا أتى صاحب اللُّقَطة بجميع أوصافها دُفعت له؛ قال ابن القاسم: يُجبَر على دفعها، فإن جاء مستحقٌّ يَستحقُّها ببيِّنة أنها كانت له، لم يَضْمَن الملتقطُ شيئاً[٦]. وهل

(١) التمهيد ٣/ ١٠٨ ، وسيأتي حديث ضالة الإبل وضالة الغنم في المسألة التالية.

(٢) التمهيد ٣/ ١٠٩ و ١١٠ .

(٣) الموطأ ٢/ ٧٥٧ ، ومن طريق مالك أخرجه البخاري (٢٤٢٩)، ومسلم (١٧٢٢): (١)، وأخرجه بنحوه من غير طريق مالك أحمد (١٧٠٥٠). والعفاص: الوعاء الذي تكون فيه النفقة، من جلد أو خرقة أو غير ذلك. والوكاء: الخيط الذي تشد به الصرة والكيس. النهاية (عفص) و(وكا).

(٤) صحيح مسلم (١٧٢٣)، وهو عند أحمد (٢١١٦٦).

(٥) التمهيد ٣/ ١٠٧ .

(٦) التمهيد ٣/ ١٢٠ ، والاستذكار ٢٢/ ٣٣٩ .

يُحَلَّف مع الأوصاف أو لا؟ قولان: الأوّلُ لأشهب، والثاني لابن القاسم. ولا تلزمه بيِّنةٌ عند مالكٍ وأصحابه وأحمدَ بنِ حَنْبل وغيرهم[١].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: لا تُدفع له إلَّا إذا أقام بينةً أنها له. وهو بخلاف نصِّ الحديث، ولو كانت البيِّنةُ شرطاً في الدفعِ لمَا كان لذكرِ العِفاص والوِكاء والعَدد معنًى؛ فإنه يستحقُّها بالبينة على كلِّ حال، ولَمَا جاز سكوتُ النبيِّ ﷺ عن ذلك، فإنه تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة[٢]. والله أعلم.

الحادية عشرة: نَصَّ الحديث على الإبل والغنم وبيَّن حكمهما، وسكت عمَّا عداهما من الحيوان. وقد اختلف علماؤنا في البقر؛ هل تُلحَقُ بالإبل أو بالغنم؟ قولان. وكذلك اختلف أئمتنا في التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهرُ قولِ ابن القاسم أنَّها تلتقط، وقال أشهب وابن كنانة: لا تلتقط[٣]. وقول ابن القاسم أصحُّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «احفَظْ على أخيك المؤمنِ ضالَّته»[٤].

الثانية عشرة: واختلف العلماء في النفقة على الضَّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه ابنُ القاسم: إنْ أنفق الملتقِطُ على الدوابِّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواءٌ أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره، قال: وله أن يحبسَ بالنفقة ما أنفق عليه، ويكونُ أحقَّ به كالرهن. وقال الشافعيُّ: إذا أنفق على الضوالِّ مَن أخذها فهو متطوِّعٌ؛ حكاه عنه الرّبيع. وقال المُزنيُّ عنه: إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دَيْناً، وما ادَّعى قُبِل منه إذا كان مثلُه قَصْداً. وقال أبو حنيفة: إذا أنفق على اللُّقَطة والآبق[٥]

---

(١) المفهم ٥/ ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) المفهم ٥/ ١٩٠ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٣٥ - ١٣٦ ، والبيهقي ٤/ ١٥٣ . برواية: احبس، بدل: احفظ. قال الطحاوي: ففي هذا الحديث إباحة أخذ الضوال التي قد يُخاف عليها الضياع، وحبسها له (أي لصاحبها).

(٥) في (د) و(م): والإبل، وفي (ز) و(ظ) و(ف): والابن، والمثبت من مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٣٤٩ ، والتمهيد ٣/ ١٢٩ والكلام منه، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

بغير أمر القاضي فهو متطوِّع، وإن أنفق بأمر القاضي فذلك دَينٌ على صاحبها إذا جاء، وله أن يحبسها [بالنفقة] إذا حضر صاحبها، والنفقةُ عليها ثلاثةُ أيام ونحوها، حتى يأمر القاضي ببيع الشاة وما أشبهها ويقضي بالنفقة.

الثالثة عشرة: ليس في قوله ﷺ في اللّقطة بعد التعريف: «فاستَمتِعْ بها»[1] أو: «فشأنَكَ بها»[2] أو: «فهي لك»[3] أو: «فاستَنْفِقْها»[4] أو: «ثم كُلْها»[5] أو: «فهو مالُ الله يؤتيه مَن يشاء»[6] على ما في «صحيح» مسلم وغيره، ما يدلُّ على التمليك وسقوطِ الضَّمان عن الملتقط إذا جاء ربُّها، فإنَّ في حديث زيد بن خالد الجُهَنيِّ عن النبيِّ ﷺ: «فإنْ لم تعرف، فاستَنْفِقْها ولْتَكُنْ وديعةً عندك، فإنْ جاء صاحبُها يوماً من الدهر فأدِّها إليه»[7] في رواية: «ثم» كُلْها، فإن جاء صاحبُها فأدِّها إليه» خرَّجه البخاريُّ ومسلم[8].

وأجمع العلماء على أنَّ صاحبها متى جاء فهو أحقُّ بها، إلَّا ما ذهب إليه داود من أنَّ الملتَقِط يملك اللُّقطة بعد التعريف؛ لتلك الظواهر. ولا التفات لقوله؛ لمخالفة[9] الناس، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فأدِّها إليه»[10].

---

(١) سلف في المسألة العاشرة من حديث أبي ﷺ.

(٢) سلف في المسألة العاشرة من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) أخرج هذه الرواية أحمد (١٧٠٣٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٦).

(٤) أخرجها أحمد (١٧٠٦٠)، والبخاري (٢٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٢): (٣) و(٥).

(٥) أخرجها أحمد (٢١٦٨٦)، ومسلم (١٧٢٢): (٧)، وجميع هذه الروايات من حديث زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٤٨١)، وأبو داود (١٧٠٩)، والنسائي في الكبرى (٥٧٧٦)، وابن ماجه (٢٥٠٥) من حديث عياض بن حمار.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٢٢): (٥)، وبنحوه البخاري (٢٤٢٨).

(٨) صحيح البخاري (٩١)، وصحيح مسلم (١٧٢٢): (٧)، وهو عند أحمد (٢١٦٨٦) وقد سلف تخريجه في بداية هذه المسألة، ووقع عند البخاري: استمتع بها، بدل: ثم كلها.

(٩) في (ظ): لمخالفته.

(١٠) المفهم ٥/١٨٧ - ١٨٨ .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ قيل للحسن: أيحسُد المؤمنُ؟ قال: ما أنساكَ ببني يعقوب[1]! ولهذا قيل: الأبُ جلَّاب، والأخُ سلَّاب[2].

فعند ذلك أجمعوا على التفريقِ بينه وبين ولدِه بضربٍ من الاحتيال، وقالوا ليعقوب: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾. وقيل: لمَّا تفاوضوا وافترقوا على رأي المتكلِّمِ الثاني، عادوا إلى يعقوبَ عليه السلامُ وقالوا هذا القولَ. وفيه دليلٌ على أنَّهم سألوه قبلَ ذلك أن يَخرُج معهم يوسفُ فأَبى، على ما يأتي.

قرأ يزيدُ بنُ القَعْقَاع وعمرو بنُ عُبيد والزُّهريُّ: «لا تأمَنَّا» بالإدغام وبغير إشمامٍ، وهو القياسُ؛ لأنَّ سبيلَ ما يُدغَم أن يكونَ ساكناً.

وقرأ طلحةُ بن مُصرِّف: «لَا تَأْمَنُنَا» بنونَيْنِ ظاهرتين على الأصلِ.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وأبو رَزِين ـ وروي عن الأعمش ـ: «لا تِيمَنَّا» بكسرِ التاء، وهي لغةُ تميم؛ يقولون: أنت تِضْرب؛ وقد تقدَّم[3].

وقرأ سائر الناسِ بالإدغام والإشمام، ليدلَّ على حالِ الحرفِ قبل إدغامِه[4].

﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أي: في حفظِه وحيطتِه حتى نَردَّه إليك[5]. قال مقاتل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخير، وذلك أنَّ إخوة يوسفَ قالوا لأبيهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ الآية، فحينئذٍ قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ فقالُوا حينئذٍ جواباً لقوله: ﴿مَا لَكَ

---

(١) أخرجه هناد في الزهد (١٣٩٤)، وابن حبان في روضة العقلاء ص١٣٦ .

(٢) عرائس المجالس ص١١٤ .

(٣) ١/ ٢٢٦ و ٩/ ٢٩٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٦ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٨ ، ومختصر شواذ القرآن ص٦٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤ .

لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الآية ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء[١] ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾.

«غداً» ظرفٌ، والأصلُ عند سيبويهِ: غَدْوٌ، وقد نُطِق به على الأصل[٢]؛ قال النَّضر بنُ شُميل: ما بينَ الفجرِ وصلاةِ الصبح يُقال له: غُدْوةٌ، وكذا بُكْرة[٣].

«نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنون وإسكان العين قراءةُ أهل البصرة، والمعروفُ من قراءةِ أهلِ مكة: «نَرْتَعِ» بالنون وكسر العين، وقراءةِ أهل الكوفة: «يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» بالياء وإسكانِ العين. وقراءةِ أهلِ المدينة بالياء وكسرِ العين[٤]. القراءةُ الأولى من قولِ العرب: رَتَع الإنسانُ والبعير: إذا أكَلا كيف شاءا، والمعنى: نتسع في الخِصْب؛ وكلُّ مُخْصِب راتعٌ[٥]؛ قال:

فـارعَـيْ فـزارةُ لا هَـنَـاكِ الـمَـرْتَـعُ[٦]

وقال آخر:

تَـرْتَـعُ مـا غَـفَـلَـتْ حـتـى إذا ادَّكَـرتْ ... فـإنَّـمـا هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ[٧]

وقال آخر:

أكـفـراً بـعـد رَدِّ الـمـوتِ عـنِّـي ... وبـعـد عَـطـائِـكَ الـمـئـةَ الـرِّتـاعـا[٨]

أي: الراتعة لكثرةِ المَرْعَى. وروى مَعْمر عن قَتَادة: «ترتع»: تسعى؛ قال النحاس: أخذه من قولِه: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ» لأنَّ المعنى: نستبقُ في العَدْوِ إلى غايةٍ

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٤ - ٢٥ ، والتيسير ص١٢٨ ، والسبعة ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣ .

(٦) عجز بيت للفرزدق، وصدره: ومضت لمَسلَمَةَ الركابُ مودَّعاً، وهو في ديوانه ١/ ٤٠٨ .

(٧) البيت للخنساء في ديوانها ص٤٨ ، وسلف ٣/ ٥٤ .

(٨) البيت للقُطامي في ديوانه ص٣٧ ، وسلف ٥/ ١٠٥ .

بعينها؛ وكذا: «يرتع» بإسكان العين، إلا أنه ليوسف وحدَه ﷺ. و«يرتعِ» بكسر العين من رَعي الغنم، أي: ليتدربَ بذلك ويترجَّل؛ فمرةً يرتع، ومرةً يلعب لصغرِه. وقال القُتَبيُّ: «نرتع» نَتحارسُ ونَتَحافظُ، ويَرعى بعضُنا بعضاً؛ من قولِك: رعاكَ الله؛ أي: حفظَك. «ونلعب» من اللعب، وقيل لأبي عَمرو بنِ العلاء: كيف قالوا: «ونلعب» وهم أنبياءُ؟ فقال: لم يكونوا يومئذٍ أنبياء[١]. وقيل: المرادُ باللعبِ المباحُ من الانبساط، لا اللعبُ المحظور الذي هو ضدُّ الحقّ؛ ولذلك لم ينكر يعقوبُ قولَهم: «ونلعب»[٢]. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «فهَلَّا بِكْراً تُلاعبُها وتُلاعبك»[٣]. وقرأ مجاهد وقَتَادة: «يُرتِع»[٤]، على معنى يُرتِع مطيتَه، فحذف المفعول، «ويَلْعَبُ» بالرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هو ممَّن يلعبُ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كلِّ ما تخافُ عليه. ثم يحتملُ أنَّهم كانوا يخرجون ركباناً، ويحتمل أنَّهم كانوا رجَّالة. وقد نُقِل أنَّهم حَملُوا يوسفَ على أكتافِهم ما دام يعقوبُ يراهم، ثم لمَّا غابوا عن عينِه طَرحوه؛ ليغْدُو معهم إضراراً به[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ في موضع رفعٍ؛ أي: ذهابُكم

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٢ - ١٣، وزاد المسير ٤/ ١٨٨.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٣٠٦) والبخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥).

(٤) نسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٢٨٥ لأبي رجاء، وذكر ابن عطية وأبو حيان أنَّ قراءة مجاهد وقتادة نُرتع بضم النون وكسر التاء، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨٧ لأنس وأبي رجاء.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤.

به[١]. أخبر عن حزنه لغَيبتِه .﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّه رأى في منامِه أن الذئب شدَّ على يوسف، فلذلك خافَه عليه؛ قاله الكلبيُّ.

وقيل: إنه رأى في منامِه كأنه على ذِروة جبل، وكأنَّ يوسفَ في بطن الوادي، فإذا عَشَرةٌ من الذئاب قد احتَوشتْهُ تريدُ أكلَه، فدرأ عنه واحدٌ، ثم انشقَّتِ الأرض، فتوارَى يوسفُ فيها ثلاثةَ أيام، فكانتِ العشرةُ إخوتَه، لمَّا تَمالؤوا على قتله، والذي دافعَ عنه أخوه الأكبرُ يهوذا، وتَواريهِ في الأرضِ هو مُقامُه في الجبِّ ثلاثةَ أيام.

وقيل: إنَّما قال ذلك؛ لخوفِه منهم عليه، وأنَّه أرادَهم بالذئب، فخوفُه إنَّما كان من قتلِهم له، فكنَّى عنهم بالذئبِ مساترةً لهم، قال ابن عباس: فسمَّاهم ذئاباً. وقيل: ما خافَهم عليه، ولو خافَهم لَمَا أرسلَه معهم، وإنَّما خاف الذئبَ؛ لأنه أغلبُ ما يُخاف في الصَّحارَى[٢].

والذئبُ مأخوذٌ من تَذاءبتِ الريحُ: إذا جاءت من كلِّ وجهٍ؛ كذا قال أحمدُ بنُ يحيى؛ قال: والذئبُ مهموزٌ؛ لأنَّه يجيء من كل وجه.

وروى ورش عن نافع: «الذِّيبُ» بغيرِ همز؛ لما كانت الهمزةُ ساكنةً وقبلها كسرةٌ فخفَّفها؛ صارت ياء[٣].

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ أي: مشتغلون بالرعي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ نَرى الذئبَ ثم لا نَردُّه عنه[٤] ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ أي: في حِفظِنا أغنامَنا. أي: إذا كنَّا لا نقدرُ على دفعِ الذئب عن أخينا، فنحنُ أعجزُ أن ندفعه عن أغنامِنا. وقيل: «لَخَاسِرُونَ»:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٤ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ - ١٨٩ ، وعرائس المجالس ص١١٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ ، وقرأ: الذيب، بغير همز أيضاً أبو عمرو في رواية السوسي، والكسائي ووقفاً حمزة. السبعة ص٣٤٦ ، والتيسير ص١٢٨ .

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٢ ، وزاد المسير ٤/ ١٨٨ .

لجاهلون بحقِّه. وقيل: لعاجزون(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑮﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ﴾ «أنْ» في موضعِ نصب(٢)، أي: على أن يجعلوهُ في غَيابةِ الجُبِّ.

قيل في القصة: إنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا أرسلَه معهم أخذَ عليهم ميثاقاً غليظاً لَيحفظُنَّه، وسلَّمه إلى روبيل وقال: يا روبيل، إنَّه صغير، وتَعلَم يا بنيَّ شَفقتي عليه؛ فإن جاعَ فأطعِمه، وإن عَطِش فاسقِه، وإن أعيا فاحْمِلْه، ثم عَجِّل بردِّه إليَّ(٣). قال: فأخذوا يَحمِلونه على أكتافِهم، لا يضعُه واحدٌ إلا رَفعه آخر، ويعقوبُ يُشيِّعهم ميلاً ثم رجع، فلمَّا انقطعَ بصرُ أبيهم عنهم، رماهُ الذي كان يَحمِلُه إلى الأرضِ حتى كادَ ينكسر، فالتجأ إلى آخر، فوجدَ عندَ كلِّ واحدٍ منهم أشدَّ ممَّا عند الآخرِ من الغيظِ والعَسْف، فاستغاثَ بروبيل وقال: أنتَ أكبرُ إخوتي، والخليفةُ من بعدِ والدي عليَّ، وأقربُ الإخوة إليَّ، فارحمني وارحمْ ضَعفي، فلطَمَه لطمةً شديدة وقال: لا قرابةَ بيني وبينك، فادعُ الأحدَ عشرَ كوكباً فلتُنجك منَّا؛ فَعلِم أنَّ حقدَهم من أجل رؤياه، فتعلَّق بأخيهِ يهوذا، وقال: يا أخي، ارحمْ ضَعفي وعَجزي وحداثةَ سني، وارحمْ قلبَ أبيكَ يعقوب، فما أسرعَ ما تَناسيتُم وصيتَه، ونَقَضتُم عهدَه؛ فَرَقَّ قلبُ يهوذا فقال: واللهِ لا يَصِلون إليك أبداً ما دمتُ حيًّا، ثم قال: يا إخوتاه، إنَّ قتلَ النفسِ التي حرم الله من أعظمِ الخطايا، فَرُدُّوا هذا الصبيَّ إلى أبيه، ونُعاهِدُه ألا يُحدِّثَ والدَه بشيءٍ مما جرى أبداً، فقال له إخوتُه: والله ما تريدُ إلا أن تكون لك المكانةُ عند يعقوب، والله لئنْ لم تَدعْهُ لنقتلنَّك معه، قال: فإنْ أبيتم إلَّا ذلك فهاهنا هذا

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٩، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٨.

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ٣٠٦.

(٣) ينظر عرائس المجالس ص١١٥.

الجبُّ الموحشُ القفر، الذي هو مأوى الحياتِ والهوام، فألقُوه فيه، فإنْ أُصيبَ بشيءٍ من ذلك فهو المرادُ، وقد استرحتم من دمِه، وإنِ انفَلتَ على أيدي سيَّارة يذهبون به إلى أرضٍ فهو المرادُ؛ فأجمع رأيُهم على ذلك[1]، فهو قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وجوابُ «لمَّا» محذوفٌ؛ أي: فلما ذهبوا به، وأجمعوا على طرحِه في الجبِّ عَظُمت فتنتُهم[2]. وقيل: جوابُ «لما» قولُهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧]. وقيل: التقديرُ: فلما ذهبوا به من عندِ أبيهم، وأجمعوا أن يجعلوه في غيابةِ الجُبِّ جعلوه فيها، هذا على مذهب البصريين، وأمَّا على قولِ الكوفيين فالجوابُ: «أوحينا»[3] والواو مقحمةٌ، والواو عندهم تُزاد مع لما وحتى؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] أي: فتحت، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] أي: فار. قال امرؤُ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحيِّ وانتَحى[4]

أي: انتحى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٤] أي: ناديناه.

وفي قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على نبوَّته في ذلك الوقت. قال الحسنُ ومجاهدٌ والضَّحاك وقَتادة: أعطاهُ اللهُ النبوة وهو في الجُبِّ على حجرٍ مرتفعٍ عن الماء. وقال الكَلْبي: أُلقي في الجُبِّ وهو ابن ثماني عشرةَ سنة، فما كان صغيراً؛ ومَن قال: كان صغيراً فلا يبعدُ في العقلِ أن يتنبأ الصغيرُ ويُوحى إليه. وقيل: كان وحيَ إلهامٍ كقولِه:

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٣ - ٤١٤، والوسيط ٢/ ٦٠٣، وزاد المسير ٤/ ١٨٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥، والكشاف ٢/ ٣٠٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩.

(٣) وقال الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠: «وأجمعوا» هو الجواب.

(٤) وعجزه: بنا بطن حقف ذي ركام عقنقل، والبيت في ديوانه ص١٥. وانتحيت لفلان، أي: عرضت له. اللسان (نحي).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨]، وقيل: كان مناماً، والأوّلُ أظهرُ ـ والله أعلم ـ وأنَّ جبريل جاءه بالوحي[١].

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أوحَى إليه أنه سَيلقاهم ويُوبخُهم على ما صنعوا. فعلى هذا يكونُ الوحي بعدَ إلقائه في الجبِّ تقويةً لقلبه، وتبشيراً له بالسَّلامة.

الثاني: أنه أوحَى إليه بالذي يصنعونَ به؛ فعلى هذا يكون الوحيُ قبلَ إلقائه في الجُبِّ إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّك يوسف، وذلك أنَّ الله تعالى أَمره لمَّا أفضى إليه الأمر بمصرَ ألَّا يُخبر أباه وإخوتَه بمكانِه. وقيل: بوحي الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابنُ عباس ومجاهد[٢]. وقيل: «الهاء» ليعقوب[٣]، أوحى الله تعالى إليهِ ما فعلُوه بيوسف، وأنَّه سَيُعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم.

ومما ذُكر من قصتِه إذ أُلقي في الجُبِّ ما ذَكره السُّدِّيُّ وغيرُه، أنَّ إخوتَه لمَّا جعلوا يُدلونَه في البئرِ، تعلَّق بشفير البئرِ، فربطوا يديه، ونَزعوا قميصَه، فقال: يا إخوتاه! رُدُّوا عليَّ قميصي أتوارى به في هذا الجُبِّ، فإنْ متُّ كان كفني، وإن عِشتُ أُواري به عورتي؛ فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والأحدَ عشر كوكباً فلتُؤنِسكَ وتَكسُكَ؛ فقال: إني لم أر شيئاً. فدلَّوه في البئرِ حتى إذا بلغَ نصفَها أَلقَوْه إرادةَ أن يسقطَ فيموتَ، فكان في البئرِ ماءٌ، فسقطَ فيه، ثم آوى إلى صخرةٍ فقامَ عليها[٤].

وقيل: إنَّ شمعون هو الذي قطعَ الحبل إرادةَ أن يتفتتَ على الصخرة، وكان جبريلُ تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أَدرِك عبدي؛ قال جبريل: فأَسرعتُ

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣١ - ٣٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٤، والكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩، وزاد المسير ٤/ ١٩٠ - ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٤، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٥.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٠، وزاد المسير ٤/ ١٨٩ - ١٩٠.

وهبطتُ حتى عارَضْتُه بينَ الرمي والوقوعِ، فأقعدتُه على الصخرةِ سالماً، وكان ذلك الجبُّ مأوى الهوامِ، فقام على الصَّخرةِ وجعل يبكي، فنادَوه، فظنَّ أنها رحمةٌ عليه أدركَتْهم، فأجابهم؛ فأرادوا أن يرضخُوه بالصخرةِ، فَمنعَهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيهِ بالطعام، فلما وقعَ عرياناً نزل جبريلُ إليه؛ وكان إبراهيمُ حين أُلقيَ في النار عُرياناً أتاه جبريلُ بقميصٍ من حريرِ الجنةِ، فألبسه إياه، فكان ذلك عندَ إبراهيم، ثم وَرِثَه إسحاق، ثم وَرِثَه يعقوبُ، فلما شَبَّ يوسفُ جعلَ يعقوبُ ذلك القميصَ في تعويذةٍ، وجعله في عنقِه، فكان لا يفارقه، فلما أُلقي في الجُبِّ عرياناً أخرجَ جبريلُ ذلك القميصَ فألبسه إياه[1].

قال وهب: فلمَّا قام على الصخرةِ قال: يا إخوتاه، إنَّ لكل ميتٍ وصيةً، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلُّكم فآنسَ بعضُكم بعضاً، فاذكُروا وَحشَتي، وإذا أكلتم، فاذكُروا جُوعي، وإذا شَرِبتُم، فاذكُروا عطشي، وإذ رأيتم غريباً، فاذكُروا غُربتي، وإذا رأيتم شابًّا، فاذكروا شبابي. فقال له جبريلُ: يا يوسفُ! كُفَّ عن هذا، واشتغل بالدعاءِ، فإنَّ الدعاءَ عند الله بمكان. ثم علَّمه فقال: قلِ: اللهمَّ يا مؤنسَ كلِّ غريب، ويا صاحبَ كلِّ وحيد، ويا ملجأ كلِّ خائف، ويا كاشفَ كلِّ كربة، ويا عالمَ كلِّ نجوى، ويا منتهى كلِّ شكوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، يا حيُّ يا قيوم، أسألكَ أن تقذفَ رجاءك في قلبي، حتى لا يكونَ لي همٌّ ولا شغلٌ غيرَك، وأن تجعلَ لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيءٍ قدير. فقالت الملائكة: إلهنا، نسمعُ صوتاً ودعاءً، الصوتُ صوتُ صبيٍّ، والدعاءُ دعاءُ نبيٍّ.

وقال الضَّحاكُ: نزلَ جبريلُ عليه السلام على يوسف وهو في الجبِّ فقال له: ألا أُعلمك كلماتٍ إذا أنت قُلتهنَّ عجَّل الله لك خروجَك من هذا الجبِّ؟ فقال: نَعم! فقال له: قل: يا صانعَ كلِّ مصنوع، ويا جابرَ كلِّ كَسِير، ويا شاهدَ كلِّ نَجْوى، ويا حاضرَ كلِّ ملأ، ويا مفرِّج كلِّ كُرْبة، ويا صاحبَ كلِّ غريب، ويا مؤنسَ كلِّ وحيد،

(١) عرائس المجالس ص١١٥ - ١١٦، وتفسير الكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ٩٩.

ايتني بالفرجِ والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجوَ أحداً سواك. فردَّدها يوسفُ في ليلته مراراً، فأخرجه الله في صَبيحةِ يومِه ذلك من الجُبِّ[١].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أي: ليلاً، وهو ظرفٌ يكون في موضعِ الحال[٢]؛ وإنَّما جاؤوا عشاءً؛ ليكونوا أقدرَ على الاعتذارِ في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإنَّ الحياءَ في العينين، ولا تَعتذرْ بالنهارِ من ذنب فَتَتلجلج في الاعتذار[٣]، فروي أنَّ يعقوبَ عليه السلام لمَّا سمعَ بكاءَهم قال: ما بكم؟ أَجَرى في الغنمِ شيءٌ؟ قالوا: لا. قال: فأينَ يوسفُ؟ قالوا: ذَهبنا نستبقْ، فأكلَه الذئب، فبكى وصاحَ وقال: أينَ قميصُه؟ على ما يأتي بيانُه إن شاء الله[٤].

وقال السديُّ وابنُ حبَّان: إنَّه لمَّا قالوا: أكلَه الذئبُ خرَّ مغشيًّا عليه، فأفاضوا عليه الماءَ، فلم يتحرك، ونادَوه فلم يُجِب.

قال وهب: ولقد وَضَع يهوذا يده على مخارجِ نَفسِ يعقوب فلم يُحِسَّ بنَفَس، ولم يَتحرَّك له عِرقٌ، فقال لهم يهوذا: ويلٌ لنا من ديَّانِ يومِ الدِّين! ضيَّعنا أخانا، وقَتلنا أبانا، فلم يُفِق يعقوبُ إلا ببردِ السَّحَر[٥]، فأفاقَ ورأسُه في حِجْرِ روبيل، فقالَ: يا روبيل، أَلَم آتمِنْك على ولدي؟ ألم أَعهدْ إليك عهداً؟ فقال: يا أَبتِ! كُفَّ عنِّي بكاءَك أُخبِرْك، فكفَّ يعقوبُ بكاءَه فقالَ: يا أَبتِ ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

---

(١) عرائس المجالس ص١١٦، وزاد المسير ٤/ ١٩٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨.

(٣) عرائس المجالس ص١١٧، وينظر زاد المسير ٤/ ١٩١.

(٤) ينظر الوسيط ٢/ ٦٠٣، والكشاف ٢/ ٣٠٧، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١.

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٧.

الثانية: قال علماؤنا: هذه الآيةُ دليلٌ على أن بكاءَ المرء لا يدلُّ على صدقِ مقاله، لاحتمالِ أن يكونَ تَصنُّعاً؛ فمن الخلقِ مَن يقدرُ على ذلك، ومنهم مَن لا يقدر. وقد قيل: إن الدمعَ المصنوعَ لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشـتـبـكـتْ دمـوعٌ فـي خُـدودٍ تَـبَـيَّـنَ مَـنْ بَـكَـى مِـمَّـنْ تَـبَـاكَـى[1]

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «نَسْتَبِقُ» نفتعل، من المسابقة. وقيل: أي: نَنْتَضِل، وكذا في قراءةِ عبدِ الله: «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِل»، وهو نوعٌ من المسابقة؛ قاله الزَّجاج[2]. وقال الأزهريّ[3]: النِّضالُ في السِّهام، والرِّهانُ في الخيل، والمسابقةُ تجمعُهما. قال القُشيريُّ أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي: في الرَّمي، أو على الفرس، أو على الأقدام. والغرضُ من المسابقة على الأقدام تدريبُ النفسِ على العَدْوِ؛ لأنَّه الآلةُ في قتال العدوِّ، ودفعِ الذئبِ عن الأغنام[4]. وقال السُّدِّيُّ وابنُ حيان[5]: «نَسْتَبِقُ»: نَشتدُّ جرياً؛ لنرى أيُّنا أَسبق[6].

قال ابنُ العربي[7]: المسابقةُ شِرْعةٌ في الشَّريعة، وخَصْلةٌ بديعةٌ، وعَونٌ على

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٣ ، والبيت سلف ١٠/ ٣٣٦ .

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٩٥ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٣) في الزاهر ص٥٣٦ .

(٤) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠١ .

(٥) في (ظ): أبو حيان.

(٦) زاد المسير ٤/ ١٩١ - ١٩٢ ، عن السدي.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤ .

الحرب؛ وقد فَعلها[(١)] ﷺ بنفسِه وبخَيْله، وسابقَ عائشةَ رضي الله عنها على قدميهِ، فسبقَها؛ فلما كَبِر رسولُ الله ﷺ سابقَها فَسبقته، فقال لها: «هذهِ بتلك»[(٢)].

قلتُ: وسابقَ سَلَمةُ بنُ الأكوعِ رجلاً لمَّا رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينةِ، فسبقه سَلَمةُ. خرَّجه مسلمٌ[(٣)].

الثانية: وروى مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ سابقَ بينَ الخيل التي قد أُضمِرت من الحَفْيَاء، وكان أَمَدُها ثَنِيَّةَ الوداع، وسابقَ بينَ الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّةِ إلى مسجدِ بني زُرَيق، وأنَّ عبدَ الله بنَ عمر كان ممَّن سابقَ بها[(٤)].

وهذا الحديثُ مع صحتِه في هذا الباب تَضمَّن ثلاثةَ شروطٍ، فلا تجوزُ المسابقةُ بدونها، وهي: أنَّ المسافةَ لابدَّ أن تكونَ معلومةً. الثاني: أن تكونَ الخيلُ متساويةَ الأحوال. الثالث: ألَّا يُسابقَ المضمَّرُ مع غيرِ المضمَّر في أمدٍ واحدٍ وغايةٍ واحدة. والخيلُ التي يجبُ أن تَضمَّر ويُسابَق عليها وتقامَ هذه السُّنَّةُ فيها: هي الخيلُ المعدَّة لجهادِ العدوِّ لا لقتالِ المسلمين في الفتن[(٥)].

الثالثة: وأمَّا المسابقةُ بالنِّصال والإبل، فروى مسلمٌ[(٦)] عن عبدِ الله بنِ عمرو قال: سَافرنا مع رسولِ الله ﷺ، فَنزلنا منزِلاً، فمِنَّا مَن يُصلِحُ خباءَه، ومنَّا مَن يَنْتَضِل. وذكرَ الحديث.

---

(١) في النسخ الخطية وأحكام القرآن: فعله.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١١٨)، والنسائي في الكبرى (٨٨٩٤)، وابن ماجه (١٩٧٩).

(٣) في صحيحه برقم (١٨٠٧)، وهو عند أحمد (١٦٥٣٩) وذو قَرَد: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. معجم البلدان ٤/ ٣٢١.

(٤) في الموطأ ٢/ ٤٦٧ - ٤٦٨، وهو عند البخاري (٢٨٦٩)، ومسلم (١٨٧٠). والحفياء: موضع قرب المدينة أجرى منه رسول الله ﷺ الخيل في السباق. معجم البلدان ٢/ ٢٧٦.

وتضمير الخيل: هو أن يُظاهِر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لاتعلف إلا قوتاً لتخف. النهاية في غريب الحديث (خمر).

(٥) التمهيد ١٤/ ٨١ - ٨٢، والاستذكار ١٤/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٦) في صحيحه (١٨٤٤).

وخرَّج النسائيُّ[١] عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا سَبَقَ إلا في نَصْلٍ أو خُفٍّ أو حافرٍ». وثبتَ ذكرُ النَّصلِ من حديث ابن أبي ذئب، عن نافع بن أبي نافع، عن أبي هريرة. ذكره النَّسائي؛ وبه يقولُ فقهاءُ الحجازِ والعراق[٢].

وروى البخاريُّ[٣] عن أنس قال: كانَ للنبي ﷺ ناقةٌ تُسمَّى العَضْباءَ لا تُسبَق - قال حُمَيد: أو لا تكادُ تُسبَق - فجاءَ أعرابيٌّ على قَعُود، فَسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين حتى عَرَفه، فقال: «حقٌّ على اللهِ ألَّا يرتفعَ شيءٌ من الدنيا إلَّا وضعه».

الرابعة: أجمعَ المسلمون على أنَّ السَّبَق لا يجوزُ على وجهِ الرِّهانِ إلا في الخُفِّ والحافرِ والنَّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثةِ فالسَّبَقُ فيها قِمار.

وقد زادَ أبو البَخْتَرِيِّ القاضي في حديثِ الخُفِّ والحافر والنَّصل: «أو جَناح»، وهي لفظةٌ وضعَها للرشيدِ، فترك العلماءُ حديثَه لذلك ولغيرِه من موضوعاتِه، فلا يَكتُب العلماءُ حديثَه بحالٍ[٤]. وقد رُوي عن مالكٍ أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيلِ والرمي؛ لأنه قوَّة على أهلِ الحرب؛ قال: وسَبَقُ الخيلِ أَحبُّ إلينا من سَبَق الرمي[٥]. وظاهرُ الحديثِ يُسوِّي بينَ السَّبَق على النُّجُب[٦] والسَّبَقِ على الخيل. وقد منعَ بعضُ العلماء الرِّهانَ في كلِّ شيءٍ إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادةُ العرب المراهنةَ عليها. ورُوي عن عطاء أنَّ المراهنةَ في كل شيءٍ جائز[٧]. وقد تُؤُوِّل عليه[٨]؛ لأنَّ

(١) في الكبرى (٤٤١٠)، والمجتبى ٦/ ٢٢٦ .

(٢) التمهيد ١٤/ ٩٤ .

(٣) في صحيحه (٢٨٧٢).

(٤) التمهيد ١٤/ ٨٨ و ٩٤ ، وينظر تاريخ بغداد ١٣/ ٤٥٥ . وأبو البختري هو: وهب بن وهب بن كثير القاضي القرشي. قال أحمد: كان يضع الحديث وضعاً. ميزان الاعتدال ٤/ ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٥) التمهيد ١٤/ ٨٤ ، والاستذكار ١٤/ ٣١٠ .

(٦) جمع نجيبة، وهي من الإبل.

(٧) في (م): جائزة.

(٨) في (م): قوله.

حملَه على العمومِ في كلِّ شيءٍ يُؤدِّي إلى إجازة القمار، وهو محرَّمٌ باتفاق[١].

الخامسة: لا يجوزُ السَّبَقُ في الخيل والإبل إلا في غايةٍ معلومةٍ وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرميُ لا يجوزُ السَّبَقُ فيه إلا بغايةٍ معلومة ورَشْقٍ معلوم، ونوعٍ من الإصابةِ مشترط خَسْقاً[٢]، أو إصابة بغيرِ شرط.

والأسباقُ ثلاثةٌ: سَبَقٌ يعطيه الوالي - أو الرجلُ غيرُ الوالي - من ماله متطوِّعاً، فيَجعلُ للسابقِ شيئاً معلوماً، فمَن سبقَ أخذه. وسَبَقٌ يُخرجُه أحدُ المتسابقَين دون صاحبِه، فإن سَبَقه صاحبُه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبَه أَخذه، وحَسُنَ أن يمضيَه في الوجهِ الذي أخرجه له، ولا يَرجِع إلى مالِه، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه.

والسَّبقُ الثالث: اختُلِف فيه، وهو أن يُخرِج كلُّ واحد منهما شيئاً مثل ما يُخرِجُه صاحبُه، فأيُّهما سَبَق، أَحرزَ سبقَه وسَبَقَ صاحبِه. وهذا الوجهُ لا يجوزُ حتى يُدخِلا بينهما مُحلِّلاً لا يأمنا أن يَسبِقَهما، فإن سَبَقَ المحلِّلُ أَحرزَ السَّبَقين جميعاً وأخذهما وحدَه، وإن سبقَ أحدُ المتسابقَين، أحرزَ سبَقه وأخذَ سبَق صاحبه، ولا شيءَ للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبقَ الثاني منهما الثالثَ كان كمَن لم يسبقْ واحدٌ منهما.

وقال أبو علي بن خيران من أصحابِ الشافعي: وحكمُ الفرس المُحلِّل أن يكونَ مجهولاً جريُه؛ وسمي محلِّلاً؛ لأنه يُحلِّل السَّبَقَ للمتسابقَين أوْ لَهُ. واتفقَ العلماءُ على أنَّه إن لم يكن بينهما محلِّلٌ، واشترطَ كلُّ واحدٍ من المتسابقَين أنَّه إن سبقَ أخذَ سبقَه وسبَق صاحبِه: أنَّه قمارٌ ولا يجوزُ[٣].

وفي «سنن» أبي داود[٤]، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أدخلَ فرساً بينَ

---

(١) المفهم ٣/ ٧٠١.

(٢) خَسَق السهمُ الهدفَ خَسْقاً: إذا لم ينفُذ نفاذاً شديداً. وقال ابن فارس: إذا ثبت فيه وتعلق. وقال ابن القطاع: إذا نفذ من الرَّميَّة. المصباح المنير (خسق).

(٣) التمهيد ١٤/ ٨٥ - ٨٧، والاستذكار ١٤/ ٣١١ - ٣١٢، والمفهم ٣/ ٧٠١ - ٧٠٢، وإكمال المعلم ٦/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٤) برقم (٢٥٧٩) و(٢٥٨٠)، وهو عند أحمد (١٠٥٥٧).

فَرَسَيْن وهو لا يأمنُ أن يَسبِق؛ فليسَ بقِمار، ومَن أدخلَه وهو يأمنُ أن يَسبِقَ؛ فهو قِمار».

وفي «الموطأ»[١] عن سعيد بنِ المسيب قال: ليسَ برِهانِ الخيل بأسٌ إذا دخلَ فيها محلِّلٌ، فإن سبقَ أخذَ السَّبَقَ، وإن سُبِق لم يكن عليه شيءٌ.

وبهذا قال الشافعيُّ وجمهورُ أهلِ العلم. واختَلَف في ذلك قولُ مالك، فقال مرةً: لا يجبُ المحلِّلُ في الخيل، ولا نأخذُ فيه بقولِ سعيد، ثم قال: لا يجوزُ إلَّا بالمحلِّل، وهو الأجودُ من قوله[٢].

السادسة: ولا يُحمَلُ على الخيل والإبل في المسابقة إلا مُحتلِمٌ، ولو رَكِبَها أربابُها كان أولى؛ وقد رُويَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: لا يَركبِ الخيلَ في السباق إلا أربابُها. وقال الشافعي: وأقلُّ السَّبَقِ أن يسبقَ بالهادي أو بعضِه، أو بالكَفَلِ أو بعضِه. والسَّبَق بين[٣] الرماةِ على هذا النحوِ عنده، وقولُ محمد بنِ الحسن في هذا الباب نحوُ قولِ الشافعي[٤].

السابعة: رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سابقَ أبا بكر وعمرَ رضي الله عنهما، فسبقَ رسولُ الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر، وثَلَّثَ عمرُ[٥]. ومعنى: وصَلَّى أبو بكر. يعني أنَّ رأسَ فرسِه كان عندَ صَلَوي[٦] فرسِ رسولِ الله ﷺ، والصَّلَوَان: موضعُ العَجُز.

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابِنا وأقمشتِنا حارساً

(١) ٢/ ٤٦٨ .

(٢) الاستذكار ١٤/ ٣١١ ، والمفهم ٣/ ٧٠١ - ٧٠٢ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): من، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في التمهيد ١٤/ ٨٦ .

(٤) التمهيد ١٤/ ٧٩ - ٨٠ و ٨٦ . والهادي: العُنق. والكفلُ: العَجُز، أو رِدفُه، أو القَطَن. القاموس (هدي) و(كفل).

(٥) سلف ١/ ٢٥٩ .

(٦) في (م): صلا.

لها[١]. ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وذلك أنَّهم لمَّا سَمِعوا أباهم يقول: «وأخافُ أن يأكلَه الذئبُ» أخذوا ذلك من فيهِ، فَتحرَّموا[٢] به؛ لأنَّه كان أظهرَ المخاوفَ عليه. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أي: بمصدِّق[٣]. ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ أي: وإنْ كنَّا؛ قاله المبردُ[٤] وابنُ إسحاق[٥]. ﴿صَٰدِقِينَ﴾ في قولِنا، ولم يُصدِّقهم يعقوبُ؛ لِما ظهرَ له منهم من قوَّةِ التّهمةِ وكثرةِ الأدلةِ على خلافِ ما قالوه؛ على ما يأتي بيانُه. وقيل: «ولو كنا صادِقِين» أي: ولو كنَّا عندَك من أهلِ الثقةِ والصدقِ، ما صَدَّقتنا، ولاتَّهمتنا في هذه القضيةِ، لشدةِ محبتِك في يوسف؛ قال معناهُ الطبريُّ والزَّجاجُ وغيرُهما[٦].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «بِدَم كَذِب» قال مجاهد: كان دمَ سَخلةٍ أو جَدْيٍ ذبحوه. وقال قتادة: كان دمَ ظبية[٧]، أي: جاؤوا على قميصه بدمٍ مكذوبٍ فيه، فوصفَ الدم بالمصدر، فصار تقديره: بدمٍ ذي كذب، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ والفاعل والمفعول قد يُسمَّيان بالمصدر، يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه، وماءٌ سَكْبٌ، أي:

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤ .

(٢) أي: تمنَّعوا. القاموس (حرم).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٠٨ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٤) في الكامل ١/ ٣٦١ ، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٩٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٢ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٥ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٣٥ .

مسكوب، وماءٌ غَوْرٌ، أي: غائر، ورجلٌ عَدْلٌ، أي: عادل[١].

وقرأ الحسن وعائشة: «بِدَمٍ كَدِبٍ»، بالدَّال غير المعجمة[٢]، أي: بدم طرِيٍّ، يقال للدَّم الطريّ: الكَدِب. وحُكِيَ أنه المُتغيِّر، قاله الشعبي[٣]. والكَدِبُ أيضاً البياض الذي يخرج في أظفار الأحداث. فيجوز أن يكون شَبَّه الدَّم في القميص بالبياض الذي يخرج في الظُّفْر من جهة اختلاف اللَّونَيْن[٤].

الثانية: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: لمَّا أرادوا أن يجعلوا الدَّمَ علامةً على صِدقهم؛ قَرن الله بهذه العلامة علامةً تُعارضُها، وهي سلامةُ القميص من التَّنييب[٥]، إذ لا يمكن افتراسُ الذئب ليوسف وهو لابسٌ القميص ويَسلم القميص من التخريق[٦]. ولما تأمَّل يعقوب عليه السلام القميصَ، فلم يَجِدْ فيه خَرْقاً ولا أثراً؛ استدلَّ بذلك على كذبهم وقال لهم: متى كان هذا الذئب حليماً[٧] يأكل يوسفَ ولا يُخرِّق القميص؟! قاله ابن عباس وغيره[٨].

روى إسرائيل، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: كان الدمُ دمَ سَخْلةٍ. وروى سفيان عن سِماك، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: لمَّا نظر إليه قال: كذبتم، لو كان الذئب أكلَه لخرق القميص[٩].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٨/ ١٠٢ .

(٢) القراءات الشاذة ص٦٢ - ٦٣ عن الحسن، والمحتسب ١/ ٣٣٥ عن الحسن وابن عباس رضي الله عنهما. وعن عائشة رضي الله عنها ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٢٨٩ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥ .

(٤) ينظر المحتسب ١/ ٣٣٥ .

(٥) في (ظ): التخريق.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٥ .

(٧) في (ظ) و(م): حكيماً.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ . وأخرج هذا الأثر الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٧ .

(٩) أخرجهما الطبري ١٣/ ٣٦ - ٣٨ ، والأثر الثاني عنده من طريق سفيان عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وحكى الماورديّ أن في القميص ثلاثَ آيات: حين جاؤوا عليه بدمٍ كذب، وحين قُدَّ قميصُه من دُبُر، وحين أُلْقِيَ على وجه أبيه فارتدَّ بصيراً[١].

قلت: وهذا مردودٌ، فإن القميصَ الذي جاؤوا عليه بالدم غيرُ القميص الذي قُدَّ، وغيرُ القميص الذي أتاه البَشير به. وقد قيل: إنَّ القميص الذي قُدَّ هو الذي أُتيَ به فارتدَّ بصيراً، على ما يأتي بيانُه آخرَ السورة إن شاء الله تعالى[٢].

ورُويَ أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه. فاختلف قولهم، فاتَّهمهم، فقال لهم يعقوب: تزعُمون أن الذئبَ أكله، ولو أكله لَشَقَّ قميصَه قبل أن يُفضيَ إلى جِلده، وما أرى بالقميص مِن شَقٍّ، وتزعُمون أنَّ اللصوصَ قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصَه، هل يريدون إلّا ثيابَه؟! فقالوا عند ذلك: وما أنت بِمؤمِنٍ لنا ولو كنا صادِقِين؛ عن الحسن وغيره. أي: لو كنا موصوفين بالصِّدق لاتَّهمتنا[٣].

الثالثة: استدلَّ الفقهاءُ بهذه الآية في إعمال الأَمَارات في مسائلَ من الفقه، كالقَسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوبَ عليه السلام استدلَّ على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أنْ يلحَظَ الأماراتِ والعلاماتِ إذا تعارضَتْ، فما ترجَّح منها قضَى بجانب الترجيح، وهي قوة التُّهمَة، ولا خلاف بالحكم بها؛ قاله ابن العربي[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: رُويَ أن يعقوب لما قالوا له: «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ» قال لهم: ألم يترك الذئبُ له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟! ألم يترك لي ثوباً أَشَمُّ فيه رائحتَه؟! قالوا: بلى، هذا

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٥ . وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ .

(٢) الآية (٩٣).

(٣) ذكره المصنف قبل هذه الآية ونسبه للطبري والزجاج، وينظر مجمع البيان للطبرسي ١٢/ ٢٨ - ٢٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ .

قميصُه ملطوخٌ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. فبكى يعقوبُ عند ذلك وقال لبنيه: أَروني قميصَه، فأَرَوْه فشمَّه وقبَّله، ثم جعل يُقَلِّبه فلا يرى فيه شَقًّا ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيتُ كاليوم ذئباً أحلمَ[1] منه، أكل ابني واختلسه من قميصه ولم يُمزِّقه عليه. وعَلِمَ أنَّ الأمرَ ليس كما قالوا، وأن الذئبَ لم يأكله، فأعرض عنهم كالمُغضَب باكياً حزيناً، وقال: يا معشرَ ولدي، دُلُّوني على ولدي، فإنْ كان حيًّا رددتُه إليَّ، وإنْ كان ميتاً كفَّنتُه ودفنتُه. فقيل: قالوا حينئذ: ألم تَروا إلى أبينا كيف يُكذِّبنا في مَقالتنا؟! تعالَوْا نُخرجه من الجُبِّ ونقطعه عضواً عضواً، ونأتِ أبانا بأحدِ أعضائه، فيصدقنا في مقالتنا ويقطع يأسه، فقال يهوذا: والله، لئن فعلتُم لأكوننَّ لكم عدوًّا ما بقيتُ، ولأُخبرنَّ أباكم بسوء صنيعكم، قالوا: فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطَّخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاؤوا به يعقوبُ وقالوا: يا أبانا، إن هذا الذئب الذي يَحُلُّ بأغنامنا ويفترسها، ولعلَّه الذي أفجعنا بأخينا، لا نشكُّ فيه، وهذا دمه عليه، فقال يعقوب: أطلقوه، فأطلقوه، وتَبَصْبَصَ له الذئب، فأقبل يدنو منه ويعقوب يقول له: أُدنُ، أُدنُ، حتى ألصق خدَّه بخدِّهِ فقال له يعقوب: أيها الذئب، لِمَ فجعتَني بولدي وأورثتني حزناً طويلاً؟! ثم قال: اللهمَّ أَنطِقْهُ، فأنطقه الله تعالى: فقال: والذي اصطفاك نبيًّا، ما أكلتُ لحمه، ولا مزَّقت جلدَه، ولا نتفتُ شعرةً من شعراته، ووالله ما لي بولدك عهدٌ، وإنما أنا ذئبٌ غريبٌ أقبلتُ من نواحي مصر في طلب أخ لي فُقِدَ، فلا أدري أحيٌّ هو أم ميتٌ، فاصطادني أولادُك وأوثقوني، وإنَّ لحومَ الأنبياء حُرِّمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله، لا أقمتُ في بلاد يكذب فيها أولادُ الأنبياء على الوحوش. فأطلقه يعقوب وقال: والله، لقد أتيتُم بالحُجَّة على أنفسكم، هذا ذئبٌ بهيمٌ خرج يتبع ذِمَام أخيه، وأنتم ضيَّعتم أخاكم، وقد علمت

---

(١) في (م): أحكم.

أن الذئب بريء مما جئتم به[١].

﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زيَّنت. ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غيرَ ما تصفون وتذكرون. ثم قال توطئةً لنفسه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهي:

الثانية: قال الزجَّاج[٢]: أي فشأني ـ أو الذي أعتقده ـ صبرٌ جميلٌ. وقال قُطْرُب: أي: فصبري صبرٌ جميلٌ. وقيل: أي: فصبرٌ جميلٌ أولى بي، فهو مبتدأ، وخبره محذوفٌ. ويُروى أن النبيَّ ﷺ سُئل عن الصبر الجميل فقال: «هو الذي لا شكوى معه»[٣]. وسيأتي له مَزيد بيان آخرَ السورة إن شاء الله.

قال أبو حاتم: قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهلُ بن يوسف[٤]: «فصبراً جميلاً» قال: وكذا قرأ الأشهبُ العُقَيْلي، قال: وكذا في مصحف أنس وأبي صالح[٥]. قال المبرّد: «فصبرٌ جميلٌ» بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى: قال: ربِّ عندي صبرٌ جميل، قال[٦]: وإنما النصب على المصدر، أي: فلأَصْبِرنَّ صبراً جميلاً، قال:

شكا إليَّ جَمَلي طُولَ السُّرَى ... صَبْراً جميلاً فكِلانا مُبْتَلَى[٧]

والصبرُ الجميل هو الذي لا جَزَعَ فيه ولا شكوى. وقيل: المعنى: لا أُعاشركم على كآبة الوجه وعُبوس الجبين، بل أُعاشركم على ما كنت عليه معكم، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مُؤاخذتهم. وعن حبيب بن أبي ثابت، أن يعقوبَ كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقة، فقيل له: ما هذا؟ قال: طول الزمان وكثرةُ

(١) ينظر عرائس المجالس ص١١٧ - ١١٨ . وهذه القصة من الإسرائيليات.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٩٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤١ عن حبان بن أبي جبلة مرسلاً.

(٤) لعله سهل بن يوسف الأنماطي البصري، أبو عبد الرحمن. توفي سنة (١٩٠هـ). تهذيب الكمال ١٢/ ٢١٣ .

(٥) كذا في النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٨ (والكلام منه): أبي صالح، ولعل الصواب أُبَيّ، كما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٢٧ ، والبحر المحيط ٥/ ٢٨٩ .

(٦) يعني أبا جعفر النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣١٨ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى بن عمر في القراءات الشاذة ص٦٣ .

(٧) سلف ٣/ ٢٥٠ .

الأحزان، فأوحى الله إليه: أتشكوني يا يعقوب؟! قال: يا ربّ، خطيئةٌ أخطأتُها فاغْفِر لي[١].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ ابتداء وخبر ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على احتمال ما تَصِفون من الكذب.

الثالثة: قال ابن أبي رفاعة[٢]: ينبغي لأهل الرأي أن يتَّهموا رأيهم عند ظنّ يعقوب ﷺ وهو نبيّ، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فلم يُصِبْ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: رُفقةٌ مارَّةٌ يسيرون من الشام إلى مصر فأخطؤوا الطريقَ، وهاموا حتى نزلوا قريباً من الجُبّ، وكان الجبُّ في قَفْرةٍ بعيدةٍ من العُمران، إنما هو للرُّعاة والمُجتاز، وكان ماؤه مِلحاً، فَعَذُبَ حين أُلقيَ فيه يوسف[٣]. ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ فذكَّر على المعنى، ولو قال: فأرسلَتْ واردَها لكان على اللَّفظ[٤]، مثل «وجاءت». والواردُ الذي يَرِدُ الماء يستقي للقوم، وكان اسمه ـ فيما ذكر المفسرون ـ مالك بن دُعْر[٥]، من العرب العاربة[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢.

(٢) لم نعرفه، ولم نقف على قوله.

(٣) عرائس المجالس ص١١٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩.

(٥) في النسخ: ذعر، بالذال، وذكر الفيروز آبادي أنه تصحيف، وأن الصواب دعر، بالدال المهملة. القاموس (دعر) و(ذعر).

(٦) ينظر عرائس المجالس ص١١٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسله، يقال: أَدلى دلوَه: إذا أَرسلها لِيملأها، ودَلَاها أي: أخرجها. عن الأصمعي وغيره[١]. ودَلا من ذوات الواو، يدلو دَلْواً، أي: جذب وأخرج، وكذلك أَدلى: إذا أرسل، فلما ثقل رَدُّوه إلى الياء، لأنها أخفُّ من الواو، قاله الكوفيون. وقال الخليل وسيبويه: لمَّا جاوز ثلاثةَ أحرف رَجَعَ إلى الياء، اتباعاً للمستقبل. وجمع دَلْو في أقل العدد: أَدْلٍ، فإذا كثُرت قلت: دُلِيّ ودِلِيّ؛ فقلبت الواو ياءً، لأنَّ[٢] الجمعَ بابه التغيير، وليفرَّق بين الواحد والجمع، ودِلاء أيضاً.

فتعلَّق يوسف بالحبل، فلمَّا خرج إذا غلامٌ كالقمر ليلةَ البدر؛ أحسنُ ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من «صحيح» مسلم: «فإذا أنا بيوسفَ إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسن»[٣]. وقال كعب الأحبار: كان يوسفُ حَسَنَ الوجه، جَعْدَ الشعر، ضخمَ العينين، مُستوي الخَلْق، أبيضَ اللون، غليظَ الساعدين والعَضُدين، خَميصَ البطن، صغيرَ السُّرة، إذا ابتسم رأيتَ النور من ضواحكه، وإذا تكلَّم رأيتَ في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحدٌ وَصْفَه، وكان حُسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يُشبه آدمَ عليه السلام يوم خلقَه اللهُ ونفخ فيه من روحه قبل أن يُصيبَ المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدَّته سارة، وكانت قد أُعطيتْ سُدس الحُسن[٤].

فلما رآه مالك بن دُعر قال: ﴿يا بُشْرَايَ هذا غُلَامٌ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة[٥]، إلَّا ابن أبي إسحاق فإنه قرأ: «يَا بُشْرَيَّ هذا غُلَامٌ»[٦] فقلب الألف ياءً، لأن هذه الياء يُكسر ما قبلها، فلمَّا لم يَجُزْ كسرُ الألف كان قلبُها عوضاً. وقرأ أهل

---

(١) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٠٥.

(٢) في النسخ: إلا أن، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩، والكلام منه.

(٣) صحيح مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في مسند أحمد (١٢٥٠٥).

(٤) الوسيط ٢/ ٦٠٤، وينظر عرائس المجالس ص١١١ - ١١٢.

(٥) هي قراءة نافع المدني، وأبي عمرو البصري، وابن كثير المكي، وابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٢، والمحتسب ١/ ٣٣٦.

الكوفة: «يا بُشْرَى»[١] غير مضاف.

وفي معناه قولان: أحدهما: اسمُ الغلام، والثاني: معناه: يا أيتها البُشرى، هذا حِينُك وأوانُك. قال قتادة والسُّدِّيّ: لمَّا أدلى المُدلي دلوه تعلَّق بها يوسف فقال: يا بُشرايَ[٢] هذا غلام. قال قتادة: بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السُّديّ: نادى رجلاً اسمه بُشرى.

قال النحاس[٣]: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأتِ في القرآن تسميةُ أحد إلا يسيراً، وإنما يأتي بالكناية كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧]، وهو عُقبة بن أبي مُعيط، وبعده ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]، وهو أميةُ ابن خَلَف. قال النحاس[٤]: والمعنى في نداء البُشرى: التبشير لمن حضر، وهو أوكدُ من قولك: تبشَّرت، كما تقول: يا عجباه! أي: يا عجبُ هذا من أيامك ومن آياتك فاحضُرْ، وهذا مذهب سيبويه[٥]، وكذا قال السُّهيلي[٦]. وقيل: هو كما تقول: واسروراه! وأنَّ البشرى مصدر من الاستبشار. وهذا أصحُّ؛ لأنه لو كان اسماً علَماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلِّم؛ وعلى هذا يكون «بُشْرَايَ» في موضع نصب؛ لأنه نداءُ مضاف، ومعنى النداء هاهنا التنبيه، أي: انتبهوا لفرحتي وسروري، وعلى قول السُّدِّيّ يكون في موضع رفع كما تقول: يا زيدُ، هذا غلام. ويجوز أن يكونَ محلُّه نصباً كقولك: يا رجلاً، وقولِه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس:٣٠]، ولكنه لم يُنون «بُشْرَى» لأنه لا ينصرف[٧].

---

(١) السبعة ص٣٤٧ ، والتيسير ص١٢٨ ، والنشر ٢/ ٢٩٣ .

(٢) في (م): بشرى.

(٣) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩ ، وما قبله منه، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٤٣ - ٤٤ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٦ .

(٥) الكتاب ٢/ ٢١٧ ، وينظر ما سلف ٨/ ٣٥٨ .

(٦) في التعريف والإعلام ص٨٠ ، وما بعده منه.

(٧) ينظر الكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٥ .

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ الهاء كنايةٌ عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكنايةٌ عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين اشتَرَوْه[١]، وقيل: عن الوارد وأصحابه[٢]. «بِضَاعَةً» نصبٌ على الحال. قال مجاهد: أسرَّه مالك بن دُعْر وأصحابُه من التجار الذين معهم في الرُّفقة، وقالوا لهم: هو بضاعةٌ استبضعناها بعضَ أهل الشام، أو أهل هذا الماء إلى مصر، وإنما قالوا هذا خِيفةَ الشركة[٣]. وقال ابن عباس: أسرَّه إخوةُ يوسف بضاعةً لمَّا استُخرج من الجبِّ، وذلك أنهم جاؤوا فقالوا: بئس ما صنعتُم؛ هذا عبدٌ لنا أَبِق، وقالوا ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقِرَّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك، فقال: أنا أُقِرُّ لكم بالعبودية، فأقرَّ لهم فباعوه منهم[٤].

وقيل: إن يهوذا وصَّى أخاه يوسفَ بلسانهم أن اعترِفْ لإخوتك بالعبودية، فإني أَخشى إنْ لم تفعل قتلوك، فلعل الله أن يجعلَ لك مخرجاً، وتنجوَ من القتل، فكتَم يوسفُ شأنَه مخافةَ أن يقتله إخوته، فقال مالك: والله، ما هذه سِمة العبيد، قالوا: هو تَربَّى في حُجورنا، وتخلَّق بأخلاقنا، وتأدَّب بآدابنا، فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا، تربَّيت في حُجورهم، وتخلَّقت بأخلاقهم، فقال مالك: إنْ بعتموه مني اشتريتُه منكم، فباعوه منه[٥]، فذلك:

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يقال: شَريتُ بمعنى اشتريتُ، وشَريت بمعنى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٦ - ٤٧، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤١٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩ مختصراً.

(٥) عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ بنحوه.

بِعتُ لغةً[١]، قال الشاعر:

وشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَني مِن بَعْدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ[٢]

أي: بِعتُ. وقال آخر:

فلمَّا شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً وفي الصَّدرِ حُزَّازٌ من اللَّوْمِ حَامِزُ[٣]

﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾ أي: نقصٍ، وهو هنا مصدرٌ وُضِعَ موضع الاسم، أي: باعوه بثمنٍ مبخوس، أي: منقوص. ولم يكن قصدُ إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدونه من خُلوِّ وجه أبيهم عنه[٤].

وقيل: إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسفَ أُخرج من الجبِّ، فأخبر إخوته فجاؤوا وباعوه من الواردة. وقيل: لا، بل عادوا بعد ثلاثٍ إلى البئر يتعرَّفون الخبر، فرأوا أثرَ السيارة فاتَّبعوهم وقالوا: هذا عبدُنا أَبَقَ منَّا، فباعوه منهم[٥].

وقال قتادة: «بَخْس»: ظلم. وقال الضَّحَّاك ومقاتل والسّدِّيّ وابن عطاء: «بَخْس»: حرام[٦].

وقال ابن العربي[٧]: ولا وجهَ له، وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) قائله يزيد بن مُفَرِّغ الحميري، وسلف ٣/ ٣٩١ ، وبرد: اسم غلام ندم على بيعه. المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ . والهامة: من طيور الليل، كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يُدرَك بثأره تصير هامة فتزقُو عند قبره، تقول: اسقوني، اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت. الصحاح (هيم).

(٣) قائله الشمَّاخ بن ضرار، وهو في ديوانه ص١٩٠ ، وفيه: الوجد، بدل: اللوم. والحزَّاز: ما حزَّ في القلب. والحَمَازة: الشِّدَّة، وقد حَمُزَ الرجل، بالضم، فهو حميز الفؤاد وحامز. الصحاح (حزز) و(حمز).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٥) ينظر عرائس المجالس ص١١٨ - ١١٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٥٤ - ٥٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧ .

بالقيمة؛ لأن إخوته إنْ كانوا باعوه فلم يكن قصدُهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدُهم ما يستفيدون من خُلوّ وجه أبيهم عنه، وإنْ كان الذين باعوه الواردةَ، فإنهم أخفَوْه مقتطَعاً، أو قالوا لأصحابهم: أُرسلَ معنا بضاعةً، فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمناً، وأنّ ما أخذوا فيه ربحٌ كلّه.

قلت: قوله: وإنما الإشارةُ فيه إلى أنه لم يُستوفَ ثمنُه بالقيمة؛ يدلُّ على أنهم لو أخذوا القيمةَ فيه كاملةً كان ذلك جائزاً. وليس كذلك، فدلَّ على صحة ما قاله السُّديّ وغيره؛ لأنهم أوقعوا البيعَ على نفس لا يجوز بيعُها، فلذلك كان لا يحلُّ لهم ثمنُه.

وقال عِكرمة والشّعبي: قليل[1]. وقال ابن حيَّان: زَيْف[2]. وعن ابن عباس وابن مسعود باعوه بعشرين درهماً، أخذَ كلُّ واحد من إخوته درهمين، وكانوا عشرةً، وقاله قتادة والسُّدِّيّ. وقال أبو العالية ومقاتل: اثنين وعشرين درهماً، وكانوا أحدَ عشرَ، أخذَ كلُّ واحدٍ درهمين، وقاله مجاهد. وقال عِكرمة: أربعين درهماً[3]. وما رُويَ عن الصحابة أولى. و«بخسٍ» من نعت «ثمن».

﴿دَرَٰهِمَ﴾ على البدل والتفسير له. ويقال: دراهيم على أنه جمع دِرهام، وقد يكون اسماً للجمع عند سيبويه، ويكون أيضاً عنده على أنه مدَّ الكسرة فصارت ياءً، وليس هذا مثل مدِّ المقصور؛ لأن مدَّ المقصور لا يجوز عند البصريين في شعر ولا غيره. وأنشد النحويون:

تَنْفي يداها الحَصَى في كلِّ هاجِرةٍ نَفْيَ الدّراهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ[4]

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٥ .

(٢) أورده البغوي ٢/ ٤١٦ عن ابن عباس وابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٦ - ٥٩ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ ، وزاد المسير ٤/ ١٩٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ ، والبيت للفرزدق، وهو في الكتاب ١/ ٢٨ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٢٩ ، والخزانة ٤/ ٤٢٦ . ويصف فيه ناقته بسرعة السير في الهاجرة، فيقول: إن يديها لشدة وقعها في الحصى ينفيانه، فيقرع بعضه بعضاً، ويُسمع له صليل كصليل الدنانير إذ انتقدها الصَّيرفي، فنفى رديئَها عن جيّدها. وخصَّ الهاجرة لتعذر السير فيها. الخزانة.

﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ نعت، وهذا يدل على أن الأثمانَ كانت تجري عندهم عدًّا لا وزناً بوزن. وقيل: هو عبارةٌ عن قِلَّة الثمن؛ لأنها دراهمُ لم تبلغ أنْ تُوزن لِقلَّتها، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنون ما كان دون الأُوقِيَّة، وهي أربعون درهماً[(١)].

الثانية: قال القاضي ابن العربي[(٢)]: وأصلُ النقدين الوزن، قال ﷺ: «لا تبيعوا الذَّهبَ بالذهبِ، ولا الفضةَ بالفضة، إلا وزناً بوزن، مَن زادَ أو ازدادَ فقد أَرْبى»[(٣)]. والزِّنة لا فائدةَ فيها إلَّا المقدار، فأما عينُها فلا منفعةَ فيه، ولكن جرى فيها العدُّ تخفيفاً عن الخَلْق لِكَثْرة المُعاملة، فيشقُّ الوزن، حتى لو ضُرب مثاقيلُ أو دراهمُ لجاز بيعُ بعضها ببعض عدًّا إذا لم يكن بها نُقصان ولا رُجحان، فإن نقصَتْ عاد الأمرُ إلى الوزن، ولأجل ذلك كان كسرُها أو قَرْضُها من الفساد في الأرض حَسَبَ ما تقدَّم[(٤)].

الثالثة: واختلف العلماءُ في الدراهم والدنانير هل تتعيَّن أم لا؟ وقد اختلفت الروايةُ في ذلك عن مالك؛ فذهب أشهبُ إلى أن ذلك لا يتعيَّن، وهو الظاهرُ من قول مالك، وبه قال أبو حنيفة. وذهبَ ابن القاسم إلى أنها تتعيَّن، وحُكي عن الكَرْخيّ، وبه قال الشافعي. وفائدة الخلاف أنَّا إذا قلنا: لا تتعيَّن؛ فإذا قال: بعتك هذه الدنانير بهذه الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها، ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها.

الرابعة: رُويَ عن الحسن بن علي رضيَ الله عنهما أنه قضى في اللَّقيط أنه حرّ، وقرأ: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ وقد مضى القولُ فيه[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٨ - ١٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٧.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٢٩)، ومسلم (١٥٨٧) بنحوه مطولاً من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١٠٠٦)، والبخاري (٢١٧٦)، ومسلم (١٥٨٤)، وعن أبي بكرة ﷺ عند أحمد (٢٠٣٩٥) والبخاري (٢١٧٥) ومسلم (١٥٩٠). وعن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٧٥٥٨)، ومسلم (١٥٨٨).

(٤) ٣/ ٣٨٧، ص١٩٥-١٩٧ من هذا الجزء.

(٥) ص٢٦٦ من هذا الجزء، وسلف قول الحسن ثمة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ قيل: المراد إخوته. وقيل: السيَّارة. وقيل: الواردة، وعلى أيّ تقدير فلم يكن عندهم غَبيطاً، لا عند الإخوة؛ لأن المقصدَ زوالُه عن أبيه لا ماله. ولا عند السيَّارة؛ لقول الإخوة: إنه عبد أبَق منا؛ والزهد قِلَّة الرَّغبة. ولا عند الواردة؛ لأنهم خافوا اشتراكَ أصحابهم معهم، ورأَوْا أن القليل من ثمنه في الانفراد أولى[١].

السادسة: في هذه الآية دليلٌ واضحٌ على جواز شراء الشيء الخَطير بالثمن اليَسير، ويكون البيعُ لازماً، ولهذا قال مالك: لو باع دُرَّةً ذاتَ خطرٍ عظيمٍ بدرهمٍ ثم قال: لم أعلمْ أنها دُرَّةٌ وحَسِبتُها مَخْشَلَبَةً[٢] لزمه البيع، ولم يُلتفت إلى قوله. وقيل: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: في حُسنه؛ لأن الله تعالى وإنْ أعطى يوسفَ شَطْر الحُسن؛ صرف عنه دواعيَ نفوس القوم إليه إكراماً له. وقيل: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لم يعلموا منزلتَه عند الله تعالى[٣]. وحكى سيبويه والكسائي: زَهِدتُ وزَهَدتُ؛ بكسر الهاء وفتحها[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيل: الاشتراء هنا بمعنى الاستبدال، إذْ لم يكن ذلك عقداً، مثل: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦]. وقيل: إنهم ظنُّوه في ظاهر الحال اشتراءً، فجرى هذا اللفظُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٦٧ .

(٢) المَخْشَلبة: كلمة عراقية، ليس على بنائها شيء من العربية، وهي تُتَّخذ من الليف والخرز، أمثالَ الحليّ. اللسان (شخلب). ولم نقف على قول مالك المذكور.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦١ عن الضحاك وابن جريج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

على ظاهر الظنّ. قال الضَّحَّاك: هذا الذي اشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز. السُّهيلي[١]: واسمه قطفير. وقال ابن إسحاق: إطفير بن رويحب[٢]؛ اشتراه لامرأته راعيل؛ ذكره الماورديّ[٣]. وقيل: كان اسمها زَلِيخَاء، وكان اللهُ ألقى محبةَ يوسفَ على قلب العزيز، فأوصى به أهلَه، ذكره القُشيريّ. وقد ذكر القولين في اسمها الثّعلبيّ[٤] وغيره.

وقال ابن عباس: إنما اشتراه قطفير وزيرُ ملك مصر، وهو الريَّان بن الوليد. وقيل: الوليد بن الريَّان، وهو رجلٌ من العمالقة[٥]. وقيل: هو فرعون موسى[٦]، لقول موسى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٣٤]، وأنه عاشَ أربعَ مئة سنة. وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتي في «غافر» بيانه[٧].

وكان هذا العزيز الذي اشترى يوسفَ على خزائن الملك، واشترى يوسفَ من مالك بن دُعْر بعشرين ديناراً، وزاده حُلَّةً ونعلين[٨]. وقيل: اشتراه من أهل الرُّفقة. وقيل: تزايدوا في ثمنهِ فبلغ أضعافَ وَزْنه مِسْكاً وعنبراً وحريراً ووَرِقاً وذهباً ولآلئ وجواهرَ لا يعلم قيمتَها إلّا الله، فابتاعه قطفير من مالك بهذا الثمن، قاله وهب بن منبِّه[٩].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨٠ .

(٢) في تفسير الطبري ١٣/ ٦١ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥ : روحيب.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٩ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٦١ - ٦٢ .

(٤) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٠ أن اسمها راعيل، أو بكا بنت فيوش. وذكر الاسمين اللذين أوردهما المصنف رحمه الله ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣١ ، والبغوي في تفسيره ٢/ ٤١٦ .

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٦١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٠ ، قال ابن عطية: وهذا ضعيف.

(٧) في تفسير الآية (٣٤)، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨ .

(٨) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٩ .

(٩) عرائس المجالس ص١٢٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٦ .

وقال وهب أيضاً وغيره: ولمَّا اشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: هذا ما اشترى مالك بن دُعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه آبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيَّداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله. قال: فودَّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حَفِظكم الله وإنْ ضيَّعتموني، نَصَركم الله وإنْ خَذَلتموني، رَحِمكم الله وإن لم ترحموني. قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عَبِيطاً لشدّة هذا التوديع، وحملوه على قَتَبٍ بغير غطاء ولا وِطاء، مقيَّداً مكبَّلاً مُسلسلاً، فمرَّ على مقبرة آل كنعان، فرأى قبرَ أُمِّه، وقد كان وُكِّلَ به أسودُ يحرُسه، فَغَفَل الأسود، فألقى يوسفُ نفسَه على قبر أمّه، فجعل يتمرَّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه، ارفعي رأسَك تَرَيْ ولدك مكبَّلاً مقيَّداً مسلسلاً مغلولاً، فرَّقوا بيني وبين والدي، فاسألي اللهَ أن يجمع بيننا في مستقرِّ رحمته، إنه أرحمُ الراحمين، فتفقَّده الأسودُ على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياضٍ على قبر، فتأمَّله، فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرَّغه وضربه ضرباً وجيعاً، فقال له: لا تفعل، والله ما هربتُ ولا أَبقتُ، وإنما مررتُ بقبر أمي فأحببتُ أنْ أودِّعَها، ولن أرجع إلى ما تكرهون، فقال الأسود: واللهِ إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرةً وأمَّك أخرى! فهلَّا كان هذا عند مواليك، فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنْ كانت لي عندك خطيئةٌ أخلقت بها وجهي، فأسألك بحقّ آبائي إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ أن تغفرَ لي وترحمني. فضجَّت الملائكةُ في السماء، ونزل جبريلُ فقال له: يا يوسف، غُضَّ صوتَك، فلقد أبكيتَ ملائكةَ السماء، أفتريدُ أن أقلِبَ الأرض فأجعلَ عاليَها سافلَها؟ قال: تثبَّت يا جبريل، فإنَّ الله حليمٌ لا يعجَل، فضرب الأرضَ بجناحه فأظلمت، وارتفع الغبار، وكَسَفَت الشمس، وبقيت القافلةُ لا يعرِفُ بعضُها بعضاً، فقال رئيسُ القافلة: مَن أحدثَ منكم حدثاً؟ فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثلُ هذا، فقال الأسود: أنا لطمتُ ذلك الغلامَ العبرانيّ، فرفع يدَه إلى السماء وتكلَّم بكلامٍ لا أعرفه، ولا أشكُّ أنه دعا علينا، فقال له: ما أردتَ

إلا هلاكَنا! ايتِنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام، لقد لطمك هذا العبد[1]، فجاءنا ما رأيت، فإنْ كنتَ تقتصّ فاقتصَّ ممن شئت، وإنْ كنت تعفو فهو الظنّ بك، قال: قد عفوتُ رجاءَ أن يعفوَ الله عني، فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارقُ الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعَشيّ ويُكرمه، حتى وصل إلى مصر، فاغتسل في نيلها، وأذهب اللهُ عنه كآبةَ السفر، وردَّ عليه جمالَه، ودخل به البلد نهاراً، فسطعَ نورُه على الجُدران، وأوقفوه للبيع[2]، فاشتراه قطفير وزيرُ الملك؛ قاله ابن عباس على ما تقدَّم[3].

وقيل: إن هذا المَلِك لم يَمُتْ حتى آمنَ واتَّبع يوسفَ على دينه، ثم مات الملك ويوسفُ يومئذ على خزائن الأرض، فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى[4].

﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ أي: منزلَه ومُقامَه بطيب المَطْعم واللِّباس الحَسَن، وهو مأخوذ من ثوى بالمكان، أي: أقام به[5]، وقد تقدَّم في «آل عمران»[6] وغيره.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: يكفيَنا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾. قال ابن عباس: كان حَصُوراً لا يُولَد له، وكذا قال ابن إسحاق: كان قطفير لا يأتي النساء ولا يولَد له[7]. فإن قيل: كيف قال: «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» وهو مِلْكه، والوَلَدية مع

---

(١) قوله: هذا العبد، من (ظ).

(٢) الخبر من الإسرائيليات، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١١٩ - ١٢٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٥.

(٣) ص٢٩٩ من هذا الجزء.

(٤) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٨.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٠٩.

(٦) ٥/ ٣٥٧.

(٧) قول ابن عباس ﷺ ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٥، والرازي في تفسيره ١٨/ ١٠٩ دون نسبة. وقول ابن إسحاق أخرجه الطبري ١٣/ ٦٣.

العَبْديّة[1] تتناقض؟ قيل له: يُعْتِقُه ثم يتَّخذه ولداً بالتَّبنّي، وكان التَّبنّي في الأُمَم معلوماً عندهم، وكذلك كان في أوّل الإسلام، على ما يأتي بيانه في «الأحزاب»[2] إن شاء الله تعالى.

وقال عبد الله بن مسعود: أحسنُ الناس فِراسةً ثلاثة، العزيزُ حين تفرَّس في يوسف، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾، وبنتُ شُعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وأبو بكر حين استخلفَ عمرَ[3].

قال ابن العربي[4]: عجباً للمفسرين في اتِّفاقهم على جلب هذا الخبر! والفِراسةُ هي علم غيب[5]، على ما يأتي بيانه في سورة الحجر[6]، وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدِّيق إنما ولَّى عمرَ بالتجربة في الأعمال والمواظبة على الصُّحبة وطُولها، والاطِّلاع على ما شاهد منه من العلم والمِنَّة، وليس ذلك من طريق الفِراسة، وأما بنتُ شعيب؛ فكانت معها العلامةُ البينة على ما يأتي بيانُه في «القَصَص»[7]. وأما أمرُ العزيز فيمكن أن يُجعلَ فِراسةً؛ لأنه لم يكن معه علامةٌ ظاهرةٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: وكما أنقذناه من إخوته ومن الجُبِّ؛ فكذلك مكنَّا له، أي: عطَّفنا عليه قلبَ الملك الذي اشتراه حتى تمكَّن من الأمر والنهي في البلد الذي الملِكُ مستولٍ عليه[8].

---

(١) في (ظ): والوالدية مع العبودية.

(٢) في تفسير الآيتين (٤) و(٣٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٦٨ ، وقول ابن مسعود ﷺ السالف فيه.

(٥) في (م): غريب، وفي أحكام القرآن لابن العربي: غريبٌ حدُّه.

(٦) في تفسير الآية (٧٥).

(٧) في تفسير الآية (٢٦).

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٠ .

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: فعلنا ذلك تصديقاً لقول يعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦]. وقيل: المعنى مكنّاه لِنُوحيَ إليه بكلام منّا، ونعلِّمه تأويلَه وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتمَّ الكلام[١].

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الهاء راجعةٌ إلى الله تعالى، أي: لا يغلِبُ اللهَ شيءٌ، بل هو الغالبُ على أمر نفسه فيما يُريده أن يقول له: كُنْ، فَيَكُونُ. وقيل: ترجع إلى يوسف، أي: الله غالبٌ على أمر يوسف يُدبِّره ويَحوطه ولا يَكِلُه إلى غيره، حتى لا يصِلَ إليه كَيْدُ كائد[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يطَّلعون على غَيبِه. وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحداً لا يعلم الغيب. وقيل: هو مُجرى على ظاهره، إذْ قد يُطلِعُ من يُريد على بعض غَيبه. وقيل: المعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله غالبٌ على أمره، وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقَدَر[٣].

وقالت الحكماء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ حيث أمره يعقوبُ ألَّا يقصَّ رؤياه على إخوته، فغلب أمرُ الله حتى قَصَّ، ثم أراد إخوته قتلَه، فغلبَ أمرُ الله حتى صار مَلِكاً وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أنْ يَخْلُوَ لهم وجهُ أبيهم، فغلب أمرُ الله حتى ضاق عليهم قلبُ أبيهم وافتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، ثم تدبَّروا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، أي: تائبين، فغلب أمرُ الله حتى نسوا الذنبَ وأصرُّوا عليه حتى أقرّوا بين يدي يوسف في آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: إنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ، ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص، فغلب أمرُ الله، فلم ينخدع، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣]، ثم احتالوا في أنْ تزولَ محبته من قلب أبيهم، فغلب أمرُ الله

(١) المصدر السابق.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤١٧ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٠ .

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٠٦ .

فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دَبَّرت امرأةُ العزيز أنها إن ابتدرتْه بالكلام غلبته، فغلب أمرُ الله حتى قال العزيز: «اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ» [يوسف:٢٩]، ثم دَبَّر يوسف أن يتخلّص من السجن بذكر الساقي، فغلب أمرُ الله فَنَسِيَ الساقي، ولَبِثَ يوسفُ في السجن بِضع سنين[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ «أَشُدَّه» عند سيبويه جمع، واحده شِدَّة. وقال الكسائي: واحده شَدٌّ، كما قال الشاعر:

عَهْدِي به شَدَّ النَّهارِ كأنَّما خُضِبَ البَنانُ[٢] ورأسُه بالعِظْلِمِ[٣]

وزعم أبو عُبيدة[٤] أنه لا واحدَ له من لفظه عند العرب، ومعناه استكمال القوَّة، ثم يكون النقصان بعد. وقال مجاهد وقتادة: الأَشُدُّ ثلاثٌ وثلاثون سنة. وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس: الأَشُدُّ بلوغ الحُلُم[٥]، وقد مضى ما للعلماء في هذا في «النساء» و«الأنعام» مستوفًى[٦].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيل: جعلناه المُستوليَ على الحُكْم، فكان يحكم في سلطان الملك، أي: وآتيناه عِلماً بالحُكْم[٧]. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوَّة[٨].

---

(١) الكلام بنحوه في زاد المسير ٤/ ١٩٩ .

(٢) في (م): اللَّبان، وهي رواية كما في الخزانة ٩/ ٤٩٢ ، واللَّبان: الصدر.

(٣) قائله عنترة العبسي، وهو في ديوانه ص٢٧ ، وفيه: مدَّ النهار، بدل: شدَّ النهار ـ وهما روايتان كما في الخزانة ـ وقد أورد البيت بلفظ المصنف النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢١ ، والكلام منه، والعظلم: صبغ أحمر. اللسان (عظلم).

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): أبو عبيد، والمثبت من (ف) وإعراب القرآن للنحاس، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ ، والأقوال السالفة أخرجها الطبري ١٣/ ٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٨ -٢١١٩ .

(٦) ٦/ ٦٠ - ٦١ (النساء) و ٩/ ١١١ - ١١٢ (الأنعام).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٦٨ وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١١٩ ، بلفظ: العقل والعلم قبل النبوة.

وقيل: الحُكْم النبوّة[١]، والعِلم عِلم الدين، وقيل: علم الرؤيا[٢]، ومن قال: أوتي النبوَّة صبيًّا قال: لمَّا بلغ أَشُدَّه زِدْناه فهماً وعلماً.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني المؤمنين. وقيل: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف، قاله الضحاك[٣]. وقال الطبريّ[٤]: هذا وإن كان مخرجُه ظاهراً على كل مُحسِن؛ فالمراد به محمد ﷺ، يقول الله تعالى: كما فعلتُ هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيتُه ما أعطيتُه، كذلك أُنجيك من مُشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة، وأُمكِّن لك في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها. وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين. والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ؛ وقيل: هي من رُويد؛ يقال: فلان يمشي رُوَيْداً، أي: برفق؛ فالمراودة: الرفق في الطلب؛ يقال في الرجل: راوَدَها عن نفسها، وفي المرأة: راوَدَتْه عن نفسه. والرَّوْد: التأنِّي؛ يقال: أَرْوَدَني: أمهلني.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ غلّق للتكثير، ولا يقال: غلَقَ الباب، وأغلقَ يقع للكثير والقليل، كما قال الفَرَزْدق في أبي عمرو بن العلاء:

ما زلتُ أُغلقُ أبواباً وأفتحُها ... حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمَّارِ[٥]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٢٠ عن السدي.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢١، وزاد المسير ٤/ ٢٠١.

(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٠١ دون نسبة.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٦٩.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، والبيت في أدب الكاتب ص٤٦١، والبيان والتبيين ١/ ٣٢١ وهو =

يقال: إنَّها كانت سبعةَ أبواب غلَّقَتْها ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ وأَقْبِلْ وتَعالَ، ولا مصدرَ له ولا تصريف[١].

قال النحاس[٢]: فيها سبعُ قراءات، فمِن أجلِّ ما فيها وأصحِّه إسناداً ما رواه الأعمش عن أبي وائِل قال: سمعتُ عبدَ الله بن مسعود يقرأ: «هَيْتَ لَكَ» قال: فقلت: إنَّ قوماً يقرؤونها: «هِيتُ لك»، فقال: «إنَّما أقرأُ كما عُلِّمت»[٣].

قال أبو جعفر[٤]: وبعضهم يقول: عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ، ولا يبعُدُ ذلك؛ لأنَّ قوله: إنَّما أقرأ كما علِّمت، يدلُّ على أنه مرفوع. وهذه القراءةُ بفتح التاء والهاء هي الصحيحةُ من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة. وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصمٌ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيّ[٥].

قال عبد الله بن مسعود: لا تَنَطَّعوا[٦] في القرآن؛ فإنما هو مِثْلُ قول أحدِكم: هَلمَّ وتَعالَ[٧].

وقرأ ابن أبي إسحاق النَّحْويُّ: «وقَالَتْ هَيْتِ لَكَ»؛ بفتح الهاء وكسر التاء. وقرأ

= فيهما برواية: ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها. وقد يأتي غلَّق مع المفرد، فيقال: غلَّقْتُ الباب، وذلك إذا أغلقت باباً واحداً مراراً، أو أحكمت إغلاق باب. مفردات الراغب (غلق).

(١) الوسيط ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٠٤) و(٤٠٠٥)، وقد قيد صاحب بذل المجهود ١٦/ ٣٣٢ «هيت» الثانية في إحدى الروايتين بكسر الهاء وسكون الياء وضم التاء، والرواية الثانية مثلها ولكن بهمزة بدل الياء، أي: «هِئْتُ». وقد أخرجه مختصراً البخاري (٤٦٩٢).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢ .

(٥) السبعة ص٣٤٧ ، والتيسير ص١٢٨ عن أبي عمرو وحمزة وعاصم والكسائي.

(٦) في (د) و(م): تقطعوا.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢١٠ ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٠ ، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨٨ ، والطبري ١٣/ ٧٧ . قال ابن الأثير في النهاية (نطع): أراد النهي عن الملاحاة في القراءات المختلفة، وأنَّ مرجعها إلى وجه واحد من الصواب، كما أن هلم بمعنى تعال.

أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وابن كثير: «هَيْتُ لَكَ»؛ بفتح الهاء وضمِّ التاء[١]؛ قال طَرَفة:

لـيـس قـومـي بـالأبْـعَـدِيـنَ إذا مـا قـال داعٍ مـن الـعَـشـيـرة هَـيْـتُ[٢]

فهذه ثلاثُ قراءاتٍ الهاءُ فيهنَّ مفتوحة.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ: «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسر الهاء وفتح التاء[٣].

وقرأ يحيى بن وثَّاب: «وَقَالَت هِيتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها ياءٌ ساكنة والتاءُ مضمومة. ورُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ وابن عباس ومجاهد وعكرمة: «وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ» بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة[٤].

وعن ابن عامر وأهلِ الشام: «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء[٥].

قال أبو جعفر[٦]: «هيتَ لَكَ» بفتح التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنه صوتٌ نحو: مَهْ وصَهْ، يجب ألَّا يُعْرَب، والفتح خفيف[٧]؛ لأنَّ قبلَ التاء ياءً مثل: أيْنَ وكيفَ. ومَن كَسَر التاء فإنَّما كَسَرها لأنَّ الأصل الكسر؛ لأنَّ الساكن إذا حرِّك حرِّك إلى الكسر، ومَن ضمَّ فلِأنَّ فيه معنى الغاية، أي: قالت: دعائي لك، فلما حُذفت الإضافة بُني على الضم، مثل: حيثُ وبعدُ.

وقراءة أهل المدينة فيها قولان: أحدهما: أن يكون الفتحُ لالتقاء الساكنين كما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٢) ديوان طرفة ص١٤٣.

(٣) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٣ عن نافع وأبي جعفر وابن ذكوان راوي ابن عامر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢١، وقراءة علي وابن عباس ـ ﷺ ـ في المحتسب ١/ ٣٣٧.

(٥) السبعة ص٣٤٧، والتيسير ص١٢٨ وهي من رواية هشام عن ابن عامر.

(٦) هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٢، وما قبله منه.

(٧) إلى هذا الموضع كلام النحاس، وما بعده من معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠.

مرَّ. والآخَر: أن يكون فعلاً من: هَاءَ يَهِيء، مثل: جاء يجيء. فيكون المعنى في «هِيتَ» أي: حَسُنَتْ هَيئتُك [وخفف الهمزة]، ويكون «لَكَ» من كلامٍ آخر، كما تقول: لكَ أعني[1].

ومَن هَمَزَ وضمَّ التاء فهو فِعْلٌ بمعنى: تهيَّأتُ لك، وكذلك مَن قرأ: «هِيتُ لَكَ». وأنكر أبو عمرو هذه القراءة؛ قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى[2]: سئل أبو عمرو عن قراءةِ مَن قرأ بكَسْر الهاء وضمِّ التاء مهموزاً، فقال أبو عمرو: باطل، جَعَلَها مِن تهيَّأتُ، اذهب فاستَعْرِض العربَ حتى تنتهيَ إلى اليمن؛ هل تعرفُ أحداً يقول هذا؟ وقال الكسائيُّ أيضاً: لم تُحكَ «هِئتُ» عن العرب. قال عِكرمة: «هِئتُ لَكَ» أي: تَهيَّأتُ لك وتَزيَّنْتُ وتحسَّنْتُ[3]، وهي قراءةٌ غيرُ مَرْضِيَّة؛ لأنَّها لم تُسمع في العربية.

قال النحاس[4]: وهي جيِّدة عند البَصْريِّين؛ لأنه يقال: هَاءَ الرجلُ يَهاءُ ويَهِيءُ هَيْئَةً، فهاء يَهيء مثلُ جاء يجيء، وهِئتُ مثل: جئت.

وكَسْرُ الهاء في «هِيت» لغةٌ لقوم يُؤْثِرون كَسْرَ الهاء على فَتْحِها.

قال الزجَّاج[5]: أجودُ القراءات: «هَيْتَ» بفتح الهاء والتاء. قال طَرَفة:

لـيـس قـومـي بـالأبْـعـدِيـنَ إذا مـا ... قـال داعٍ مـن الـعـشـيـرة هَـيْـتُ[6]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٢ - ٣٢٣، وما سلف بين حاصرتين منه. وكذلك القول في «هئتَ» التي بالهمز وفتح التاء. الدر المصون ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٥.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٣) قول عكرمة وقول الكسائي أخرجهما الطبري ١٣/ ٧٥ و ٧٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤١٠.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٠٠.

(٦) سلف هذا البيت قريباً، ووقع بعده في (م): بفتح الهاء والتاء. ولكن ذكر هذا البيت في هذا الموضع وهم من المصنف رحمه الله، فقد ذكر الزجاج في هذا الموضع البيتين اللذين سيردان بعده في علي ﷺ، ثم قال: وحكى قطرب أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة...، شاهداً على قراءة «هيتُ» بضم التاء، ويدل على ذلك أنه قرن به بيتاً آخر من نفس القصيدة والتي هي بضم التاء في القافية.

وقال الشاعر في علي بن أبي طالب ﷺ:

أَبـلـغْ أمـيـرَ الـمـؤمـنـ ... ـيـنَ أخـا الـعـراقِ إذا أَتـيـتَـا
أنَّ الـعـراقَ وأهـلَـهُ ... سِـلْـمٌ إلـيـك فَـهَـيْـتَ هَـيْـتَـا[1]

قال ابن عباس والحسن: «هيت» كلمة بالسريانية؛ تَدْعوه إلى نفسها[2]. وقال السُّدِّيُّ: معناها بالقبطية: هلمّ لك[3].

قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول: هي لغةٌ لأهل حَوْران وقعت إلى أهل الحجاز، معناه: تعالَ. قال أبو عبيد: فسألت شيخاً عالماً من حَوْرَان، فذَكَر أنها لغتهم[4]. وبه قال عِكْرمة[5].

وقال مجاهد وغيره: هي لغةٌ عربيةٌ تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمةُ حثٍّ وإقبالٍ على الأشياء[6].

قال الجوهريّ[7]: يقال: هَوَّتَ به وهَيَّتَ به: إذا صاح به ودعاه. قال:

قـد رَابَـنـي أنَّ الـكَـرِيَّ أَسْـكَـتَـا ... لـو كـان مَـعْـنِـيًّـا بـهـا لَـهَـيَّـتَـا[8]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٠٥ ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٧٠ ، والحجة للفارسي ٤/ ٤١٧ ، والصحاح (هيت)، ونسبه الطبري في التاريخ ٤/ ٥٦٤ لرجل من أهل العراق، وروايته في المصادر: عُنُق، بدل: سلم. ومعنى عُنُق، أي: أقبلوا إليك بجماعتهم، وقيل: هم مائلون إليك ومنتظرون. اللسان (عنق)، والبيتان فيه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣ ، وزاد المسير ٤/ ٢٠٣ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٢ ، جميعهم عن الحسن، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٢ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٧٤ .

(٥) علقه البخاري قبل الحديث (٤٦٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ٧٢ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤١٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٧٣ .

(٧) في الصحاح (هيت).

(٨) الحجة للفارسي ٤/ ٤١٨ ، والصحاح (هيت)، والفائق ٢/ ٣١٥ . ونسبه الفارسي لبعض البغداديين.

أي: صاحَ. وقال آخر:

يَـحْـدو بـهـا كـلُّ فـتًـى هَـيَّـاتِ[١]

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتِني إليه، وهو مصدر، أي: أعوذ بالله مَعاذاً، فيُحذف المفعول[٢] وينتصِبُ المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى اسم الله كما يضاف المصدر إلى المفعول، كما تقول: مررتُ بزيد مرورَ عمرو، أي: كمروري بعمرو.

﴿إِنَّهُ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجَها، أي: هو سيِّدي، أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسُّدّيّ[٣]. وقال الزجَّاج: أي إنَّ الله ربِّي تَوَلَّاني بلُطْفِه؛ فلا أركب ما حرَّمه[٤]. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وفي الخبر أنها قالت له: يا يوسفُ، ما أَحْسَنَ صورةَ وَجْهِكَ! قال: في الرَّحِم صوَّرني ربِّي. قالت: يا يوسفُ، ما أحسَنَ شَعْرك! قال: هو أولُ شيء يَبْلَى منِّي في قبري. قالت: يا يوسف، ما أَحْسَنَ عَيْنَيْك! قال: بهما أنظر إلى ربِّي. قالت: يا يوسف، ارفع بصرك فانظر في وجهي، قال: إنِّي أخاف العَمَى في آخِرتي. قالت: يا يوسف، أدنو منكَ وتتباعَدُ منِّي؟! قال: أريد بذلك القربَ من ربِّي. قالت: يا يوسف، القَيْطَون فرشتُه لك فادخل معي، قال: القَيْطُونُ لا يسترني من ربِّي. قالت: يا يوسف، فراش الحرير قد فرشتُه لك، قم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب من الجنة نصيبي. إلى غير ذلك من كلامها وهو يُراجعها إلى أنْ همَّ بها[٥].

---

(١) هو في الصحاح (هيت)، وأساس البلاغة (هيت).

(٢) في (ظ): فيحذف الفعل.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ٧٨ - ٧٩. قال البغوي ٢/ ٤١٨: هذا قول أكثر المفسرين.

(٤) كذا ذكر المصنف وكذلك نقل الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٣ عن الزجاج، والذي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١: ﴿إِنَّهُ رَبِّيٓ﴾ أي: إن العزيز صاحبي... فيكون هذا القول كالذي قبله.

(٥) نوادر الأصول ص٢٤٩، والوسيط ٢/ ٦٠٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٨٠ مختصراً عن السدي. =

وقد ذكر بعضُهم: ما زال النساء يَمِلْنَ إلى يوسف مَيْلَ شهوةٍ حتى نبَّأه الله، فألقى عليه هيبةَ النبوَّة، فشَغَلت هيبتُه كلَّ مَن رآه عن حُسْنه.

واختلف العلماء في همِّه، ولا خلافَ أنَّ همَّها كان المعصيةَ، وأمَّا يوسفُ فهمَّ بها ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ولكنْ لمَّا رأى البرهانَ ما همّ؛ وهذا لوجوبِ العصمةِ للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فإذاً في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه همَّ بها[1].

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريبَ القرآن على أبي عبيدة، فلما أتيتُ على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير. كأنه أراد: ولقد همَّت به، ولولا أنْ رأى برهان ربِّه لهمَّ بها [أي: لم يهمَّ بها][2].

وقال أحمد بن يحيى: أي: همَّت زليخاء بالمعصية وكانت مُصِرَّةً، وهمَّ يوسف ولم يواقِعْ ما همَّ به؛ فبينَ الْهَمَّيْنِ فرق[3]، ذكر هذين القولين الهَرَويُّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثَينةَ لو بَدَا ... شَفيتُ غلَيلاتِ الهوَى من فُؤاديَا[4]

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني ... تَركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ[5]

= والقيطون: المخدع بلغة أهل مصر. الصحاح (قطن). وقوله آخر الخبر: همَّ بها، لا يلتفت إليه، لأن الله تعالى قال: ﴿وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾. فامتنع الهمُّ لوجود البرهان، كما سيرد.

(١) إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري ٢/ ٧٢١، والأضداد له ص٤١٢، والمكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٢٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤١٨. قال ابن الأنباري: فالوقف في هذا المذهب على: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ﴾.

(٢) القطع والائتناف للنحاس ١/ ٣٣١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٣٨٢، والوسيط ٢/ ٦٠٨، وأحمد بن يحيى هو ثعلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤.

(٥) قائله ضابئ بن الحارث البُرْجُميُّ، كما في الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٤١١، وطبقات فحول الشعراء ١/ ١٧٤، والخزانة ٩/ ٣٢٣. وكان قد هم بقتل عثمان ﷺ، فأُعلم بذلك، فضربه وحبسه وفي ذلك قال الأبيات التي منها هذا البيت الخزانة ٩/ ٣٢٦.

فهذا كلُّه حديثُ نفسٍ من غير عَزم.

وقيل: همَّ بها: تمنَّى زَوْجيَّتها(١).

وقيل: همَّ بها، أي: بضَرْبها ودَفْعِها عن نفسه، والبرهانُ كفُّه عن الضَّرْب؛ إذ لو ضَرَبها لأَوْهَم أنه قَصَدَها بالحرام، فامتنعت، فضَرَبها(٢).

وقيل: إنَّ همَّ يوسفَ كان معصيةً، وأنه جلس منها مجلسَ الرجل من امرأته. وإلى هذا القول ذهب معظَمُ المفسِّرين وعامَّتُهم، فيما ذكر القُشيريُّ أبو نصر، وابنُ الأنباريِّ والنحاسُ والماورديُّ وغيرهم(٣)؛ قال ابن عباس: حلَّ الهِمْيَان وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد ابن جُبير: أطلق تِكَّةَ سراويله. وقال مجاهد: حلَّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلسَ الرجل من امرأته(٤).

قال ابن عباس: ولـمَّا قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال له جبريل: ولا حين هَمَمْتَ بها يا يوسف؟ فقال عند ذلك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾(٥). قالوا: والانكفافُ

---

(١) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الأضداد لابن الأنباري ص٤١١ .

(٣) الأضداد ص٤١٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥ .

(٤) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٨٢ - ٨٥ وكلها من الإسرائيليات المكذوبة. قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥ : طوَّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفسَّاق، والذي أختاره أن يوسف لم يقع منه هم البتة، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفتَ لولا أن عصمك الله... وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة، والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدَّروا جواب «لولا» محذوفاً ولا يدل عليه دليل... إلى آخر كلامه. وذكر الألوسي في روح المعاني ١٢/ ٢١٥ عن الطيبيِّ قوله: وجلُّ هذه الروايات بل كلها مأخوذ من مسألة أهل الكتاب.

(٥) أخرجه الحارث (٧١٦) (بغية الباحث)، والطبري ١٣/ ٢١٠ ، والبيهقي في الشعب (٧٢٩٠). قال الحارث: لا يصح، والأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها. اهـ. ثم إن سياق الآية يردُّ الخبر فإن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾... ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾... مما حكاه الله تعالى عن امرأة العزيز وليس هو من كلام يوسف، إذ لم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك. ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

في مثل هذه الحالة دالٌّ على الإخلاص، وأعظمُ للثواب.

قلت: وهذا كان سببَ ثناء الله تعالى على ذي الكِفل، حَسْبَ ما يأتي بيانه في (ص) إن شاء الله تعالى[١].

وجوابُ «لولا» على هذا محذوف، أي: لولا أنْ رأى برهان ربِّه لَأمضَى ما همَّ به[٢]، ومثله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] وجوابُه: لم تتنافسوا.

قال ابن عطية[٣]: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعةٍ من السَّلَف، وقالوا: الحكمةُ في ذلك أن يكون مَثَلاً للمذنبين ليروا أن توبتَهم ترجع [بهم] إلى عفو الله تعالى، كما رجعت بمن[٤] هو خيرٌ منهم، ولم يُوْبِقْه القُرْبُ من الذنب، وهذا كلُّه على أنَّ همَّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقةُ إلى أنْ جلس بين رجلَيْ زليخاء، وأخذ في حلِّ ثيابه وتِكَّته ونحو ذلك، وهي قد استَلْقَتْ له. حكاه الطبريّ[٥].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: وابنُ عباس ومَن دونَه لا يختلفون في أنه همَّ بها، وهُمْ أعلمُ بالله وبتأويل كتابه، وأشدُّ تعظيماً للأنبياء من أن يتكلَّموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يذكر معاصيَ الأنبياء ليعيِّرهم بها، ولكنَّه ذَكَرها لكيلا تيأسوا من التوبة[٦].

قال الغَزْنَويُّ: مع أنَّ لزلَّة الأنبياء حِكَماً: زيادةَ الوَجَل، وشدَّةَ الحياء بالخجل، والتخلِّيَ عن عُجْبِ العمل، والتلذُّذَ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونَهم أئمةَ رجاءِ أهل الزلل.

---

(١) لم يذكر المصنف في قصته شيئاً في (ص)، وذكرها في تفسير سورة الأنبياء، الآية (٨٥).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (ظ) و(ف): من، وفي باقي النسخ: ممن، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٨٠ - ٨٦ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٣ - ٤١٤ ، وكلام أبي عبيد، يمكن أن يسلّم به؛ فيما لو صحت تلك الروايات، وهيهات هيهات!

قال القُشيريُّ أبو نصر: وقال قوم: جرى من يوسفَ همٌّ، وكان ذلك الهمُّ حركةَ طَبْعٍ من غير تصميمٍ للعَقْد على الفعل، وما كان من هذا القَبِيل لا يؤاخَذ[١] به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائمٌ شربَ الماء البارد، وتناولَ الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمِّم عَزْمَه على الأكل والشرب، لا يؤاخذ بما هَجَس في النفس، والبرهانُ صَرَفَه عن هذا الهمِّ حتى لم يَصِرْ عَزْماً مصمماً.

قُلت: هذا قولٌ حسن. وممَّن قال به الحسن.

قال ابن عطية[٢]: الذي أقول به في هذه الآية: إنَّ كونَ يوسفَ نبيًّا في وقتِ هذه النازلة لم يصحّ، ولا تظاهرت به روايةٌ، وإذا كان كذلك، فهو مؤمنٌ قد أوتيَ حُكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادةُ الشيء دون مُواقَعتِه، وأن يستصحب الخاطرَ الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيًّا في ذلك الوقت، فلا يجوز عليه عندي إلَّا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصحُّ عليه شيءٌ مما ذُكر من حلِّ تِكَّته ونحوِه؛ لأنَّ العصمة مع النبوَّة. وما روي من أنَّه قيل له: تكونُ في ديوان الأنبياء وتَفْعَلُ فِعْلَ السفهاء؟![٣] فإنما معناه العِدَةُ بالنبوَّة فيما بعد.

قلت: ما ذكره من التفصيل صحيح، لكنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ يدلُّ على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قولُ جماعة من العلماء، وإذا كان نبيًّا فلم يَبْقَ إلَّا أن يكون الهمُّ الذي همَّ به ما يَخْطُر في النفس ولا يَثْبُتُ في الصدر، وهو الذي رفع الله فيه المؤاخذةَ عن الخلق؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف على دَفْعِه، ويكون قولُه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ ـ إنْ كان من قول يوسفَ ـ أي: مِن هذا الهمّ، أو يكون ذلك منه على طريق التواضعُ والاعتراف بمخالفة[٤] النفس لمَا زكِّي به قبلُ وبُرِّئ؛ وقد أخبر الله تعالى

---

(١) في (م): يؤخذ.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٨٩ - ٩٠ عن قتادة، وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٢ عن ابن عباس مطولاً، وسيذكره المصنف قريباً في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

(٤) في النسخ: لمخالفة، والمثبت من الشفا للقاضي عياض ٢/ ٣٧٥ ، والكلام منه.

عن حال يوسف من حين بلوغه فقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] على ما تقدَّم بيانه، وخَبَرُ الله تعالى صِدْقٌ، ووَصْفُه صحيح، وكلامُه حقٌّ، فقد عمل يوسف بما علَّمه الله من تحريم الزِّنى ومقدِّماته، وخيانةِ السيد والجار والأجنبي في أهله، فما تعرَّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المُراودة، بل أدبر عنها وفرَّ منها؛ حكمةً خُصَّ بها، وعملاً بمقتضى ما علَّمه الله[1].

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربِّ ذاك عبدُك يريد أن يعمل سيئةً، وهو أَبْصَرُ به، فقال: ارقُبُوه، فإنْ عَمِلَها فاكتبوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكتبوها له حَسَنةً؛ إنَّما تَرَكَها من جَرَّاي»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام مُخبِراً عن ربِّه: «إذا همَّ عبدي بسيئةٍ فلمْ يَعْمَلْها، كُتبتْ حسنة»[3] فإنْ كان ما يَهُمُّ به العبد من السيئة يُكتب له بتَرْكها حسنة؛ فلا ذنب. وفي الصحيح: «إنَّ الله تَجاوَزَ لأمتي عما حدَّثتْ به أَنْفُسَها ما لم تَعْمَل أو تَكلَّمْ به» وقد تقدَّم[4].

قال ابن العربي[5]: كان بمدينة السلام إمامٌ من أئمة الصوفية - وأيُّ إمام - يُعرف بابن عطاء، تكلَّم يوماً على يوسفَ وأخبارِه حتى ذكر تَبْرِئته مما نُسب إليه من مكروه،

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٠ . وقال أيضاً: وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس، والغَفَلة من العلماء في نسبتهم إليه ما لا يليق به، وأقل ما اقتحموا من ذلك أنه هتك السراويل، وهم بالفتك فيما رأوه من تأويل، وحاش لله ما علمت عليه من سوء، بل أبرِّئه مما برَّأه الله منه... فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثاً، ويقولون: فعل وفعل، والله إنما قال: همَّ بها. اهـ. وقد استفاض الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره ١٨/ ١١٥ - ١٢٠ في الكلام على هذه المسألة، وفي إثبات العصمة ليوسف عليه السلام مما نسب إليه، وذكر أن أصحاب هذه المقالة ما ذكروا آية يحتج بها، ولا حديثاً صحيحاً يعوَّل عليه في تصحيح مقالتهم.

(٢) صحيح مسلم (١٢٩)، وهو عند أحمد (٨٢١٩). قوله: «من جرَّاي» أي: من أجلي. المفهم ١/ ٣٤٢ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٢٩٦)، والبخاري (٧٥٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه مسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ٤/ ٤٨٧ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٠ - ١٠٧١ .

فقام رجلٌ من آخِر مجلسه ـ وهو مشحونٌ بالخليقة من كلِّ طائفةٍ ـ فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذاً يوسفُ همَّ وما تَمَّ؟ قال: نعم، لأنَّ العناية مِن ثَمَّ. فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلِّم، وانظر إلى فِطْنة العاميِّ في سؤاله، وجوابِ العالم في اختصاره واستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية: إنَّ فائدة قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ إنَّما أعطاه ذلك إبَّان غَلَبة الشهوة لتكون له سبباً للعصمة.

قلت: وإذا تقرَّرتْ عصمتُه وبراءتُه بثناءِ الله تعالى عليه، فلا يصحُّ ما قال مُصْعَب ابن عثمان: إنَّ سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فاشتاقته امرأة، فسَامَتْه نَفْسَها، فامتنع عليها وذكَّرها، فقالت: إن لم تفعل لأُشهِّرنَّك. فخرج وتركها، فرأى في منامه يوسفَ الصِّديقَ عليه السلام جالساً فقال: أنت يوسف؟ فقال: أنا يوسف الذي هممتُ، وأنت سليمانُ الذي لم تَهمّ[1]. فإنَّ هذا يقتضي أن تكون درجةُ الولاية أرفعَ من درجة النبوَّة، وهو مُحال؛ ولو قدَّرنا يوسف غيرَ نبيٍّ فدرجتُه الولاية، فيكون محفوظاً كهو، ولو غلِّقت على سليمان الأبوابُ، وروجع في المقال والخطاب، والكلامِ والجواب، مع طول الصُّحبة، لخِيفَ عليه الفتنةُ وعظيمُ المحنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ «أن» في موضعِ رفع؛ أي: لولا رؤيةُ برهانِ ربِّه، والجوابُ محذوفٌ لعِلْمِ السامع[2]، أي: لكان ما كان. وهذا البرهانُ غيرُ مذكور في القرآن؛ فرُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنَّ زليخاء قامت إلى صنمٍ مكلَّلٍ بالدُّرِّ والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب، فقال: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أَوْلَى أن أستحي من الله[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٩٠ - ١٩١ ، والبيهقي في الشعب (٧١١١) و(٧٢٨٠)، وإسناده منقطع كما ذكر الذهبي في السير ٤/ ٤٤٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ .

(٣) أخرجه عن علي ﷺ أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٨١ . وأخرجه الثعلبي في العرائس ص١٢٣ عن علي بن الحسين، وكذا ذكره البغوي في التفسير ٢/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، عن علي بن الحسين.

وهذا أحسن ما قيل فيه؛ لأنَّ فيه إقامةَ الدليل.

وقيل: رأى مكتوباً في سقف البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢][1].

وقال ابن عباس: بَدَتْ كفٌّ مكتوبٌ عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠][2].

وقال قوم: تذكَّرَ عهدَ الله وميثاقَه.

وقيل: نودي يا يوسف! أنت مكتوبٌ في ديوان الأنبياء، وتعملُ عملَ السفهاء؟![3]

وقيل: رأى صورةَ يعقوبَ على الجدران[4] عاضًا على أُنملته يتوعَّدُه، فسكن، وخرجت شهوتُه من أنامله. قاله قَتادةُ ومجاهد والحسن والضَّحاك وأبو صالح وسعيد ابن جُبير[5].

وروى الأعمش عن مجاهد قال: حلَّ سراويلَه، فتَمثَّل له يعقوبُ فقال له: يا يوسف! فولَّى هارباً. وروى سفيان، عن أبي حصين، عن سعيد بن جُبير قال: مَثَلَ له يعقوبُ، فضرب صدره، فخرجت شهوته من أنامله[6]. قال مجاهد: فولد لكلِّ واحدٍ من أولاد يعقوبَ اثنا عشر ذكراً، إلَّا يوسفَ لم يولد له إلَّا غلامان، ونقص بتلك

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٩٨ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) أخرجه مطولاً الثعلبي في العرائس ص١٢٢ ، والواحدي في الوسيط ٢/ ٦٠٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) سلف ص٣١٤ من هذا الجزء عن ابن عباس وقتادة.

(٤) في (ز) و(ظ): الجدار.

(٥) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٩٠ - ٩٧ .

(٦) ذكر الخبرين النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤١٢ ، وخبر سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٣/ ٩١ و ٩٢ . قال أبو حيان في البحر ٥/ ٢٩٥ : والبرهان الذي رآه يوسف هو ما آتاه الله من العلم الدال على تحريم ما حرمه الله.

الشهوة ولده[١].

وقيل غير هذا. وبالجملة: فذلك البرهانُ آيةٌ من آيات الله، أراها اللهُ يوسفَ حتى قويَ إيمانه، وامتنع عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الكاف من «كَذَلِكَ» يجوز أن تكون رفعاً، بأن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف، التقدير: [أَمْرُ] البراهين كذلك، و[يجوز أن] يكون نعتاً لمصدر محذوف؛ أي: أريناه البراهين رؤيةً كذلك[٢].

والسوء: الشَّهوة، والفحشاءُ: المباشرة. وقيل: السوء: الثناء القبيح، والفحشاءُ: الزنى. وقيل: السوءُ: خيانةُ صاحبه، والفحشاء: ركوبُ الفاحشة. وقيل: السوء: عقوبةُ الملك العزيز[٣].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿المُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصوا طاعةَ الله. وقرأ الباقون بفتح اللام، وتأويلُها: الذين أَخْلَصهم اللهُ لرسالته، وقد كان يوسف ﷺ بهاتين الصفتين؛ لأنه كان مخلِصاً في طاعة الله تعالى، مُسْتَخلَصاً لرسالة الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

فيه مسألتان:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٥ ، وبنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٣) تنظر هذه الأقوال في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٢ ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦ ، والقراءتان في السبعة ص٣٤٨ ، والتيسير ص١٢٨ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قال العلماء: وهذا من اختصار القرآن المعجِز الذي يجتمع فيه المعاني؛ وذلك أنه لمَّا رأى برهان ربِّه؛ هرب منها، فتَعادَيا؛ هي لتردَّه إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فأدركته قبل أن يخرج، فقَدَّتْ قميصَه من دُبُرٍ ـ أي: من خَلْفه ـ قبضت في أعلى قميصِه فتخرَّق القميص عند طَوْقه، ونزل التَّخريقُ إلى أسفلِ القميص[١]. والاستباقُ: طَلَبُ السَّبْق إلى الشيء، ومنه السِّباق. والقَدُّ: القطع، وأكثرُ ما يستعمل فيما كان طولاً؛ قال النابغة:

تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ[٢]

والقَطُّ: بالطاء يُستعمل فيما كان عَرْضاً[٣].

وقال المفضَّل بن حرب: قرأتُ في مصحف: «فَلَمَّا رأى قميصَهُ عُطَّ من دُبُرٍ»[٤] أي: شُقَّ. قال يعقوب[٥]: العَطُّ: الشَّقُّ في الجلد الصحيح والثوبِ الصحيح.

وحذفت الألف من «اسْتَبَقَا» في اللفظ؛ لسكونها وسكونِ اللام بعدها، كما يقال: جاءني عبدَ الله؛ في التثنية، ومِن العرب مَن يقول: جاءني عبدا الله؛ بإثبات الألف بغير همزٍ، يَجمع بين ساكنين؛ لأنَّ الثاني مُدْغَم، والأوّل حرف مدٍّ ولين. ومنهم مَن يقول: عبدا ألله بإثبات الألف والهمز، كما تقول في الوقف[٦].

الثانية: في الآية دليلٌ على القياس والاعتبار، والعمل بالعرف والعادة؛ لمَا ذُكر

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص١١، وسلف ص٢١٨ من هذا الجزء برواية: تَجُذُّالسَّلوقيَّ...

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٥.

(٤) ذكرها الزمخشري في أساس البلاغة (عطط)، والصَّغَاني في العباب الزاخر (عطط) عن المفضل، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ دون نسبة. قال الصغاني: لم أعلم أحداً من أهل الشَّوَاذِّ قرأ بها. اهـ. ولم نقف على المفضل بن حرب.

(٥) هو ابن السكيت، وكلامه في تهذيب الألفاظ ١/ ١٠٤ مختصر بلفظ: العط: الشق، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٨٦.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

من قدِّ القميص مُقْبِلاً ومُدْبِراً، وهذا أمرٌ انفرد به المالكية في كتبهم، وذلك أنَّ القميص إذا جُبِذ من خلف، تمزَّق من تلك الجهة، وإذا جُبِذ من قدَّام، تمزَّق من تلك الجهة، وهذا هو الأغلب[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ أي: وجدا العزيزَ عند الباب، وعُنيَ بالسيِّد الزوجُ، والقبطُ يسمُّون الزوجَ سيِّداً[2]. يقال: ألْفاه وصادفه ووارَطه ووالَطه ولاطَه، كلُّه بمعنًى واحد. فلمَّا رأت زوجها طلبت وجهاً للحيلة وكادت، ف ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي: زنًى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تقول: يُضرب ضرباً وجيعاً.

و«ما جَزَاءُ» ابتداء، وخبرُه: «أنْ يُسْجَنَ». «أوْ عَذَابٌ» عطف على موضعِ «أنْ يُسْجَنَ»؛ لأنَّ المعنى: إلَّا السجنُ. ويجوز: أو عذاباً أليماً، بمعنى: أو يعذَّب عذاباً أليماً؛ قاله الكسائيّ[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال العلماء: لمَّا برَّأت نفسها، ولم تكن صادقةً في حبِّه ـ لأنَّ من شأن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧١ و ١٠٧٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٤ ، وقرأ: «أو عذاباً أليماً» زيد بن علي، كما في البحر ٥/ ٢٩٧ .

المحبِّ إيثارَ المحبوب ـ قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ نطق يوسفُ بالحقِّ في مقابلةِ بَهْتِها وكذبها عليه. قال نوفٌ الشاميُّ وغيره: كان يوسف عليه السلام لم يَبِنْ عن[1] كشف القضية، فلما بَغَت غضب فقال الحق[2].

الثانية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ لأنَّهما لمَّا تَعارَضا في القول، احتاج الملك إلى شاهدٍ ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهدٌ من أهلها، أي: حَكَم حاكمٌ من أهلها؛ لأنَّه حُكْمٌ منه، وليس بشهادة[3].

وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة:

الأوّل: أنه طفلٌ في المهد تكلَّم. قال السُّهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبيِّ ﷺ؛ وهو قوله: «لم يتكلَّمْ في المهد إلا ثلاثةٌ» وذكر فيهم شاهدَ يوسف[4]. وقال القُشيريُّ أبو نصر: قيل: كان صبيًّا في المهد في الدار وهو ابن خالتها. وروى سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» فذكر منهم شاهدَ يوسف[5]، فهذا قول.

الثاني: أنَّ الشاهد قَدُّ القميص؛ رواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد[6]. وهو مَجازٌ صحيح من جهة اللغة؛ فإنَّ لسان الحال أبلغُ من لسان المقال. وقد تضيف العرب الكلامَ إلى الجمادات، وتُخبر عنها بما هي عليه من الصفات، وذلك كثيرٌ في أشعارها وكلامها، ومن أحلاه قولُ بعضهم: قال الحائط للوتد: لِمَ تَشُقُّني؟ قال له: سَلْ مَن يَدقُّني. إلَّا أن قول الله تعالى بعدُ: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ يُبْطِلُ أن يكون القميص[7].

---

(١) في (د) والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ (والكلام منه): على.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٠٤ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧ - ٢٨.

(٤) التعريف والإعلام ص٨٠ - ٨١، والحديث سلف ٥/ ١٣٩.

(٥) أخرجه أحمد (٢٨٢٢)، والبزار (٥٤ - كشف)، والطبري ١٣/ ١٠٦، والحاكم ٢/ ٤٩٦ - ٤٩٧ مرفوعاً، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٨٢١) موقوفاً.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١١١.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٢، ووقع فيه: ومن أجلاه، بدل: ومن أحلاه.

الثالث: أنه خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله تعالى ليس بإنسيٍّ ولا بجنيٍّ. قاله مجاهدٌ أيضاً[(١)].
وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

الرابع: أنه رجلٌ حكيم ذو عقل، كان الوزير يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعتُ الاستِبْدارَ[(٢)] والجَلَبة من وراء الباب، وشَقَّ القميص، فلا يُدرى أيُّكما كان قدَّامَ صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدَّامه فأنتِ صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوقٌ من خلف. هذا قول الحسن وعِكرمة وقتادةَ والضَّحَّاك ومجاهد أيضاً والسدّي. قال السدّي: كان ابنَ عمها. وروي عن ابن عباس، وهو الصحيح في الباب. والله أعلم.

وروي عن ابن عباس ـ رواه عنه إسرائيل، عن سِماك، عن عِكرمة ـ قال: كان رجلاً ذا لحية. وقال سفيان، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصَّة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيٍّ، ولكن كان رجلاً حكيماً. وروى سفيان عن منصور، عن مجاهد قال: كان رجلاً[(٣)].

قال أبو جعفر النحاس[(٤)]: والأشبهُ بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً شاوره الملك، فجاء بهذه الدلالة، ولو كان طفلاً لكانت شهادته ليوسف ﷺ تُغني عن أن يأتيَ بدليل من العادة؛ لأنَّ كلام الطفل آيةٌ معجزة، فكانت أوضحَ من الاستدلال بالعادة، وليس هذا بمخالفٍ للحديث: «تكلَّم أربعةٌ وهم صغار» منهم صاحب يوسف. يكون المعنى: صغيراً ليس بشيخ، وفي هذا دليلٌ آخَرُ، وهو أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما روى الحديث عن النبيِّ ﷺ، وقد تَواترت الروايةُ عنه أنَّ صاحب يوسفَ ليس بصبيّ.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٢٨ (١١٥٠٦). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا قول غريب.

(٢) في (ظ): الاستباق، ووقع في الوسيط ٢/ ٦٠٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢١١ : الاشتداد.

(٣) أخرج جميع ما سلف من أخبار في القول الرابع الطبري ١٣/ ١٠٧ - ١١٠ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ .

قلت: قد رُوي عن ابن عباس وأبي هُريرة وابنِ جُبير وهلال بن يَساف والضّحاك أنه كان صبيًّا في المهد[١]. إلَّا أنه لو كان صبيًّا تكلَّم، لكان الدليلُ نفسَ كلامه، دون أن يحتاج إلى استدلالٍ بالقميص، وكان يكون ذلك خرقَ عادة، ونوعَ معجزة. والله أعلم. وسيأتي مَن تكلَّم في المهد من الصبيان في سورة البروج[٢] إن شاء الله.

الثالثة: إذا تَنزَّلْنا على أنْ يكون الشاهد طفلاً صغيراً، فلا يكون فيه دلالةٌ على العمل بالأمارات كما ذكرنا، وإذا كان رجلاً، فيصِحُّ أن يكون حجةً بالحُكم بالعلامة في اللُّقَطة وكثير من المواضع، حتى قال مالك في اللصوص: إذا وُجدت معهم أمتعة، فجاء قوم فادَّعَوْها وليست لهم بيِّنة، فإنَّ السلطان يَتَلَوَّم لهم في ذلك، فإن لم يأت غيرُهم دفعها إليهم[٣]. وقال محمد في متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل: إنَّ ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل[٤]. وكان شُرَيح وإياس بنُ معاوية يعملان على العلامات في الحكومات، وأصل ذلك هذه الآية[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ «كان» في موضع جزمٍ بالشرط، وفيه من النَّحو ما يُشْكِل؛ لأنَّ حروف الشرط تَردُّ الماضي إلى المستقبل، وليس هذا في «كان»؛ فقال المبرِّد محمد بنُ يزيد: هذا لقوَّةِ «كان»، وأنه يعبَّر بها عن جميع الأفعال. وقال الزجَّاج[٦]: المعنى: إن يكن، أي: إن يُعلَم، والعلم لم يقع، وكذا الكونُ؛ لأنَّه يؤدِّي عن العلم. «قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» فخبَّر عن «كان» بالفعل الماضي، كما قال زهير:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦ ، وأخرج قولهم الطبري ١٣/ ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢) عند تفسير الآيات (٤ - ٧) منها.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١ . والتلوُّم: الانتظار والتمكُّث. الصحاح (لوم).

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧١ ، ومحمد هو ابن الحسن الشيباني.

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣١ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٤ وما قبله منه.

وكـان طَـوَى كَـشْـحـاً عـلـى مُـسْـتَـكِـنَّـةٍ فـلا هـو أبـداهَـا ولـم يَـتـقـدَّمِ[(١)]

وقرأ يحيى بن يعمر وابنُ أبي إسحاق: «مِن قُبُلُ» بضم القاف والباء واللام، وكذا «دُبُرُ»[(٢)]؛ قال الزجاج[(٣)]: يجعلهما غايتين كقَبْلُ وبَعْدُ، كأنه قال: من قُبُلِه ومن دُبُرِه، فلما حذف المضاف إليه ـ وهو مرادٌ ـ صار المضافُ غايةَ نفسه بعد أن كان المضاف إليه غايةً له.

ويجوز: «من قُبُلَ» و«من دُبُرَ» بفتح الراء واللام تشبيهاً بما لا ينصرف؛ لأنَّه معرفةٌ ومزالٌ عن بابه[(٤)].

وروى محبوبٌ عن أبي عمرو: «من قُبْلٍ» و«من دُبْرٍ» مخفَّفان مجروران[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ قيل: قال لها ذلك العزيزُ عند قولها: «ما جَزَاءُ مَن أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءاً»[(٦)]. وقيل: قاله لها الشاهد. والكيد: المكر والحيلة. وقد تقدَّم في «الأنفال»[(٧)]. ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وإنَّما قال: «عَظِيمٌ» لِعظَم فتنتهنَّ واحتيالهنَّ في التخلُّص من ورطتهنّ.

وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ كيدَ النساء أعظمُ من كيد الشيطان؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾»[(٨)].

---

(١) ديوان زهير ص٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ (والكلام منه)، والخزانة ٣/ ١٤، و ٤/ ٣. قال البغدادي: يقال: طوى كشحه على فعلة: إذا أضمرها في نفسه. والمستكنَّة: المستترة، أي: أضمر على غَدْرة مستترة. والكشح: الجنب، وقيل: الخاصرة.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص٦٣، والمحتسب ١/ ٣٣٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ١٠٣، وذكره أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥.

(٥) ذكرها عن أبي عمرو ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٦، وهي في القراءات الشاذة ص٦٣ عن الحسن.

(٦) كذا قال المصنف رحمه الله، وقد ذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٠٣ أن المعنى: إن قولكِ: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...، من كيدكن.

(٧) ٩/ ٤٧٩.

(٨) لم نقف عليه. وإسناده في غاية الضعف، مقاتل ـ وهو ابن سليمان ـ كذبوه وهجروه ورُمي بالتجسيم، =

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ القائلُ هذا هو الشاهد. و«يوسف» نداءٌ مفرَد، أي: يا يوسف. فحذف. «أَعْرِضْ عن هذا» أي: لا تَذْكُره لأحدٍ واكْتُمْه. ثم أقبل عليها فقال: وأنتِ استغفري لذنبكِ يقول: استغفري زوجَك من ذنبك؛ لا يعاقبك.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنَّه قَصَدَ الإخبار عن المذكَّر والمؤنَّث، فغلَّب المذكَّر، والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين، مثل: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢][(١)].

وقيل: إنَّ القائلَ ليوسف: أعرض، ولها: استغفري، زوجُها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غَيُوراً؛ فلذلك كان ساكتاً. وعدمُ الغَيرة في كثير من أهل مصرَ موجود. الثاني: أنَّ الله تعالى سَلبَه الغَيرةَ، وكان فيه لطفٌ بيوسف حتى كُفي بادِرتَه وحَلُم عنها[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ ويقال: «نُسوة» بضمِّ النون، وهي قراءةُ

= كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب، ثم إن يحيى بن أبي كثير لا يروي عن الصحابة.

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٢ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): وعفا عنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٢٩ ، والكلام منه عدا قوله: وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود، وما كان ينبغي للمصنف رحمه الله أن يقول هذا!

الأعمش والمفضَّل والسُّلَميّ، والجمعُ الكثير: نساء[١]. ويجوز: وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل: قالت الأعراب وقال الأعراب.

وذلك أنَّ القصة انتشرت في أهل مصر، فتحدَّث النساء. قيل: امرأة ساقي العزيز، وامرأة خبازه، وامرأة صاحب دوابِّه، وامرأة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب. عن ابن عباس وغيره[٢].

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الفتى في كلام العرب: الشابّ، والمرأة فتاة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيل: شَغَفَها: غَلَبها[٣]. وقيل: دخل حبُّه في شَغافها. عن مجاهد[٤] وغيره. وروى عمرو بن دينار، عن عِكرمة، عن ابن عباس قال: دخل تحت شَغافها[٥]. وقال الحسن: الشَّغاف[٦]: باطن القلب. السُّدِّيُّ وأبو عبيدة[٧]: شَغافُ القلب: غِلافُه؛ وهو جلدةٌ عليه. وقيل: هو وَسَطُ القلب[٨]. والمعنى في هذه الأقوال متقارب، والمعنى: وصل حبُّه إلى شَغَافها، فغلب عليه[٩]؛ قال النابغة:

وقد حال هَمٌّ دون ذلك داخلٌ ... دخولَ الشَّغافِ تبتغيه الأصابع[١٠]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ ، دون ذكر القراءة، وذكرها العكبري في الإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٣٠ دون نسبة.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٣ - ١٢٤ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٥٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢١٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٢٦ .

(٣) أخرج الطبري ١٣/ ١١٦ هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١١٦ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٥ من طريق عمرو عن عكرمة قوله.

(٦) في النسخ: الشغف، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٣٠ ، ومفردات الراغب (شغف)، وفيهما قول الحسن.

(٧) في (د) و(م): وأبو عبيد. وكلام أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣٠٨ ، وذكره عن السدي الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٠ .

(٨) مفردات الراغب (شغف).

(٩) في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ (والكلام منه): فغلب على قلبها.

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ ، وللزجاج ٣/ ١٠٥ ، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص٧٩ =

وقد قيل: إنَّ الشَّغاف داء. وأنشد الأصمعيُّ للراجز:

يتبعها وهي له شَغَافُ[١]

وقرأ جعفر[٢] بن محمد وابن محيصن والحسن: «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة[٣]. قال ابن الأعرابي: معناه أحرق حبُّه قلبها. قال: وعلى الأوّل العمل[٤].

قال الجوهريّ[٥]: وشَعفَه الحبُّ: أحرق قلبه. وقال أبو زيد: أَمْرَضَه. وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف. وقرأ الحسن: «قَدْ شَعَفَهَا» قال: بَطَنَها حبًّا.

قال النحاس[٦]: معناه عند أكثر أهل اللغة: قد ذهب بها كلَّ مذهب؛ لأنَّ شِعَاف الجبال أعاليها، وقد شُغِف بذلك شَغْفاً بإسكان الغين[٧]: إذا أُولع به، إلا أن أبا عبيد[٨] أنشد بيت امرئ القيس:

أيقتلني[٩] وقد شَعَفْتُ فؤادَها كَمَا شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرّجلُ الطَّالي[١٠]

= برواية: شاغلٌ مكان، بدل: داخل دخول. وذكره البغدادي في الخزانة ٢/ ٤٥٦ وقال: تبتغيه الأصابع: أي تلتمسه أصابع المتطبِّبين؛ هل انحدر نحو الطحال فيُتوقع على صاحبه الموت؟.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤١٩ .

(٢) في (ف) و(م): أبو جعفر، وهو خطأ.

(٣) المحتسب ١/ ٣٣٩ .

(٤) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٢٧٤ دون نسبة.

(٥) في الصحاح (شعف).

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٧) في (ز) و(ف) ومطبوع معاني القرآن: شعف بذلك شعفاً بإسكان العين، والمثبت من باقي النسخ وهو موافق لما في اللسان وتاج العروس (شغف).

(٨) في النسخ عدا (د): أبا عبيدة، والمثبت من (د) ومعاني القرآن.

(٩) في (م): لتقتلني، وفي (د) و(ز): ليقتلني، وفي (ظ): فتقتلني، والمثبت من (ف) والمصادر على ما يأتي.

(١٠) أمالي القالي ١/ ٢٠٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ ، وهو في الديوان برواية: شغفت... كما شغف، بالمعجمة، وقال شارح الديوان: ويروى: شَعَفْتُ، بالعين غير المعجمة، والمعنى: بلغتُ الغاية حتى غَلَبْتُها على فؤادها، كما يبلغ القطران من الناقة المهنوءة، وهي المَطْلِيَّةُ بالقطران، وهي تستلذُّه حتى تكاد يغشى عليها.

قال: فشبِّهت لوعةُ الحبّ وجَوَاه بذلك. ورُوي عن الشَّعْبيِّ أنه قال: الشَّغف بالغين المعجمَة حُبٌّ، والشَّعف بالعين غيرِ المعجمة جنونٌ[1].

قال النحاس[2]: وحُكي: «قد شَغِفَها» بكسر الغين، ولا يُعرف في كلام العرب إلا «شَغَفها» بفتح الغين، وكذا «شَعَفها»، أي: تركها مشعوفة.

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة عن الحسن: الشَّغاف حجاب القلب[3]، والشَّعاف سويداء القلب، فلو وصل الحبُّ إلى الشَّعاف لماتت. وقال الحسن: ويقال: إنَّ الشَّغاف الجلدةُ اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدةُ البيضاء[4]، فلصق حبُّه بقلبها كلُصُوق الجلدة بالقلب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في هذا الفعل. وقال قَتَادة: «فَتَاهَا» وهو فتى زوجها؛ لأنَّ يوسف كان عندهم في حكم المماليك، وكان يَنْفُذ أمرُها فيه. وقال مقاتلٌ، عن أبي عثمان النَّهْديِّ، عن سلمان الفارسيِّ قال: إنَّ امرأة العزيز استوهبت زوجها يوسف، فوهبه لها وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتَّخذه ولداً، قال: هو لك، فربَّته حتى أيْفَعَ وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتتزيَّن وتدعوه من وجه اللطف، فعصمه الله[5].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بغيبتهنَّ إياها، واحتيالهنَّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنَّ واستكْتَمتهنَّ[6] فأفشَيْنَ سرَّها، فسمِّي ذلك مكراً.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١، وأخرجه الطبري ١٣/ ١١٦ - ١١٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣١ (١١٥٢٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم نقف عليه عن الحسن، فقد سلف قول الحسن: الشغاف باطن القلب.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠ عن السدي وسفيان بنحوه، ولم نقف عليه عن الحسن.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (م): استأمنتهن، وفي (د): استمكنتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠، والكلام منه.

وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ في الكلام حذف، أي: أرسلت إليهن تدعوهنَّ إلى وَليمةٍ لتُوقِعَهنَّ فيما وقعت فيه[١]؛ فقال مجاهد عن ابن عباس: إنَّ امرأة العزيز قالت لزوجها: إني أريد أن أتَّخذ طعاماً فأدعوَ هؤلاء النِّسوة. فقال لها: افعلي. فاتخذت طعاماً، ثم نَجَّدت لهنَّ البيوت ـ نَجَّدت، أي: زيَّنت، والنَّجْد: ما يُنجَّد به البيت من المتاع، أي: يُزيَّن، والجمعُ: نُجود؛ عن أبي عُبيد، والتَّنجيد: التزيين[٢] ـ وأرسلت إليهنَّ أن يحضُرن طعامَها، ولا تتخلَّفْ منكنَّ امرأةٌ ممن سمَّيتُ.

قال وهب بن مُنَبِّه: إنهنَّ كنَّ أربعين امرأة[٣]، فجئن على كَرْهٍ منهنّ، وقد قال فيهنَ أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت:

حتَّى إذا جئنَها قسراً ... ومهَّدت لهنّ أنضاداً وكبابا[٤]

ويُروى: أنماطاً.

قال وهب: فجئن وأخذنَ مجالسهنّ. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: هيَّأت لهنَّ مجالسَ يتَّكِئْنَ عليها. قال ابن جُبير: في كلِّ مجلس جَامٌ فيه عسل وأُتْرُجٌّ وسكِّين حادّ.

وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير: «مُتْكاً» مخفَّفاً غيرَ مهموز[٥]، والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط. وكذلك فسره مجاهد؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد قال: المُتَّكأ مثقَّلاً: الطعام، والمُتْك مخفَّفاً: الأتْرُجّ[٦]؛ وقال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٥ .

(٢) الصحاح (نجد).

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٤٢٣ .

(٤) كذا في النسخ، ولم نقف عليه. وأنضاداً جمع نَضَد، وهو ما نُضِد من متاع، أو خياره. ونَضَدْتُ المتاع ونضَّدْتُه: ضممت بعضه إلى بعض متَّسِقاً أو مركوماً. ينظر أساس البلاغة والقاموس (نضد).

(٥) عرائس المجالس ص١٢٤ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٣٩ عن ابن عباس وابن عمر وقتادة وغيرهم.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٢٧ . والأترج: من فصيلة الحمضيات، يسمى بالشام الكُبَّاد، واحدته أُتْرُجَّة. معجم متن اللغة (ترج).

نَشْربُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً وتَرَى المُتْك بَيْنَنَا مُسْتَعَارَا[١]

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة: الأُترجَّة: المُتْكَة.

قال الجوهريُّ: المُتْكُ: ما تُبقيه الخاتنة، وأصل المُتْك: الزُّماوَرْد. والمَتْكَاء من النّساء: التي لم تُخْفَض. قال الفرّاء: حدثني شيخ من ثقات أهل البصرة أنَّ المُتْك مخفَّفاً: الزُّماوَرْد. وقال بعضهم: إنه الأترجّ. حكاه الأخفش[٢]. ابن زيد: أترجًا وعسلاً يؤكل به[٣]؛ قال الشاعر:

فَظلِلْنا[٤] بنعمةٍ واتَّكأنا وشَرِبْنا الحلالَ من قُللِه[٥]

أي: أكلنا.

النحاس: قوله تعالى: «وَأَعْتَدَتْ» من العَتَاد، وهو كلُّ ما جعلته عُدَّة لشيء. «مُتَّكَأً» أصح ما قيل فيه، ما رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلساً. وأمَّا قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام، فيجوز على تقدير: طعامَ متكأ، مثل: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ودلَّ على هذا الحذف: «وآتَتْ كُلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً»؛ لأنَّ حضور النساء معهنَّ سكاكينُ إنَّما هو لطعامٍ يُقطع بالسكاكين. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن»[٦] له.

---

(١) سلف ٩/ ٢١١ .

(٢) الصحاح (متك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢ . قوله: الزُّمَاوَرْد، هو طعام من البيض واللحم، معرب. اللسان (ورد). وقوله: لم تخفض، الخفض: ختان الجارية. اللسان (خفض).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٢٩ .

(٤) في (م): فظلنا.

(٥) قائله جميل بثينة، وهو في ديوانه ص١٨٩ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٤٥٧ ، والخزانة ١٠/ ٢١ . قوله: الحلال، ذكر البغدادي عن الشيرازي أنه قال: هو النبيذ، وسماه حلالاً على وجه الخلاعة. قال البغدادي: ولا يَخْفَى أنَّ حَمْلَه على ظاهره أنْسب؛ لأن قائله مؤمن، وكان في عرفة في موسم الحج. والقلل جمع قلة، وهو إناء للعرب كالجرة.

(٦) ٢/ ٣٢٦ .

وقال في كتاب «معاني القرآن»[١]: وروى مَعْمَر عن قَتَادة قال: «المتَّكأ»: الطعام. وقيل: «المتكأ»: كلُّ ما اتُّكِئَ عليه عند طعامٍ أو شرابٍ أو حديث، وهذا هو المعروفُ عند أهل اللغة، إلَّا أنَّ الروايات قد صحت بذلك. وحكى القُتبيّ[٢] أنه يقال: اتكأنا عند فلان، أي: أكلنا.

والأصل في «متكأ»: موتكأ، ومثله: مُتَّزن ومُتَّعد؛ لأنه من وَزَنْتُ ووَعَدْتُ ووَكأْتُ، ويقال: اتَّكأَ يَتَّكِئ اتِّكاءً[٣].

﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ مفعولان. وحكى الكسائيُّ والفراء أنَّ السِّكِّين يذكَّر ويؤنَّث؛ وأنشد الفراء:

فَعَيَّثَ في السَّنَامِ غَدَاةَ قُرٍّ ... بسكِّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصَابِ[٤]

الجوهريُّ: والغالبُ عليه التذكير؛ وقال:

يُرى ناصحاً فيما بَدَا فإذا خَلَا ... فذلك سكِّينٌ على الحَلْقِ حَاذقُ[٥]

الأصمعي لا يَعْرِفُ في السكِّين إلا التذكير[٦].

قوله تعالى: ﴿وقالتُ اخرج عليهن﴾ بضمِّ التاء لالتقاء الساكنين؛ لأنَّ الكسرة تَثْقلُ إذا كان بعدها ضمة، وكَسْرُ[٧] التاء على الأصل[٨].

---

(١) ٣/ ٤٢١.

(٢) في تفسير الغريب ص٢١٦، وتأويل المشكل ص١٣٨.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦.

(٤) المذكر والمؤنث للفراء ص٢٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ (والكلام منه)، والمذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٨، ومجالس العلماء للزجاجي ص١٠١، والمخصص لابن سيده ١٧/ ١٦، واللسان (عيث) و(سكن)، وقال ابن منظور: عيَّث في السنام بالسكين: أثَّر.

(٥) الصحاح (سكن)، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥١. وقال شارح الديوان. ويروى: على الحلق حالق.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، وينظر المذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري ١/ ٣٨٩.

(٧) في (م): وكسرت.

(٨) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بكسر التاء، والباقون من السبعة بضمها. السبعة ص٣٤٨ والتيسير ص٧٨.

قيل: إنَّها قالت لهنَّ: لا تقطعنَ ولا تأكلن حتى أُعْلِمَكُنّ، ثم قالت لخادمها: إذا قلت لك: ادعُ لي إيلا، فادعُ يوسف. وإيل: صنمٌ كانوا يعبدونه. وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدَّ مِئزره وحسَرَ عن ذراعيه، فقالت للخادم: ادعُ لي إيلا، أي: ادعُ لي الربَّ، وإيل بالعبرانية: الربُّ. قال: فعَجِبَت النسوة وقلن: كيف يجيء؟! فصعدت الخادمُ فدعت يوسفَ، فلمَّا انحدر قالت لهنّ: اقطَعْنَ ما معكنّ. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالمُدَى، حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ قاله وهب ابن مُنَبِّه.

سعيد بن جُبير: لم يخرج عليهنَّ حتى زيَّنته، فخرج عليهم فجأةً فدهشن فيه، وتحيَّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه، فجعلن يقطِّعْنَ أيديهنّ، ويحسبن أنَّهن يقطِّعن الأُتْرجّ.

واختلف في معنى: «أَكْبَرْنَهُ»؛ فروى جُوَيبر، عن الضَّحاك، عن ابن عباس: أَعْظَمْنَه وهِبْنَه[1].

وعنه أيضاً: أَمْنَيْنَ وَأَمْذَين من الدَّهَش؛ وقال الشاعر:

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قارَةٍ صَهَلْنَ وأَكْبَرْنَ المنيَّ المدفَّقَا[2]

وقال ابن سمعان عن عِدَّةٍ من أصحابه أنهم قالوا: أَمْذَيْن عشقاً.

وَهْب بن مُنبّه: عشقنَه حتى مات منهنّ عشرةٌ في ذلك المجلس دَهَشاً وحيرة ووَجْداً بيوسف[3].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ - ١٣٢ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥٣) من طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول الجمهور.

(٢) أخرج الشعر والقول قبله أبو الشيخ عن الكميت، كما في الدر المنثور ٤/ ١٦ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس. والقارة: الجُبَيْل الصغير المنقطع عن الجبال، أو الصخرة العظيمة. القاموس (قار).

(٣) عرائس المجالس ص١٢٤ .

وقيل: معناه: حِضْن من الدَّهش؛ قَاله قتادة ومقاتل والسُّديّ[١]. قال الشاعر:

نأتي النّساءَ على أطهارهنّ ولا نأتي النّساءَ إذا أكْبَرنَ إكْبارًا[٢]

وأنكر ذلك أبو عبيدة[٣] وغيره، وقالوا: ليس ذلك في كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حِضْنَ من شدَّة إعظامهنَّ له، وقد تفزع المرأة، فتُسقط ولدها أو تَحِيض.

قال الزجاج[٤]: يقال: أكبرنه، ولا يقال: حِضْنه، فليس الإكبار بمعنى الحيض.

وأجاب الأزهري[٥] فقال: يجوز أَكْبَرَتْ بمعنى حاضت؛ لأنَّ المرأة إذا حاضت في الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر، قال: والهاءُ في «أَكْبَرْنَهُ» يجوز أن تكون هاءَ الوقف لا هاءَ الكناية.

وهذا مزيَّف؛ لأن هاء الوقف تسقط في الوصل، وأَمْثَلُ منه قولُ ابن الأنباريِّ: إنَّ الهاء كنايةٌ عن مصدرِ الفعل، أي: أكبرن إكباراً، بمعنى حِضْن حَيْضاً. وعلى قول ابن عباس الأولِ تعود الهاء إلى يوسف؛ أي: أعظمن يوسف وأجْلَلْنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ قال مجاهد: قطَّعنها حتى ألقينها[٦]. وقيل: خَدَشْنها. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: حزًّا بالسكّين؛ قال النحاس[٧]: يريد

(١) لم نقف عليه عنهم، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣١ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٥ (١١٥٥١) و(١١٥٥٢) من طريق عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جده ابن عباس. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ : هذا قول ضعيف من معناه منكور، وليس عبد الصمد من رواة العلم رحمه الله. اهـ وينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٢١٢ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٦ ، وتفسير الطبري ١٣/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ . قال الطبري: لا أحسب له أصلاً؛ لأنه ليس بالمعروف عند الرواة. وقال ابن عطية: البيت مصنوع مختلق.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٠٩ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٠/ ٢١١ - ٢١٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩ وأخرجه الطبري ١٣/ ١٣٥ . قال ابن عطية: فظاهِرُ هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٢٢ ، وما قبله منه، وأخرج قول مجاهد الطبري ١٣/ ١٣٣ .

مجاهدٌ أنه ليس قطعاً تَبِينُ منه اليد، إنَّما هو خَدْشٌ وحزّ، وذلك معروفٌ في اللغة أنْ يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه: قطع يده.

وقال عِكرمة: «أَيْدِيَهُنّ»: أكمامَهنّ، وفيه بُعْد. وقيل: أناملَهنّ، أي: ما وجدن ألَماً في القطع والجرح، أي: لشغلِ قلوبهنَّ بيوسف.

والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى أنَّ كلَّ واحدةٍ[1] جرحت يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهنّ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذَ الله. وروى الأصمعيُّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿وقُلْنَ حاشا لله﴾ بإثبات الألف وهو الأصل[2]، ومَن حَذَفها جعل اللام في (لله) عوضاً منها. وفيها أربع لغات، يقال: حَاشَاكَ، وحَاشَا لَكَ، وحاشَ لَكَ، وحَشَا لَكَ. ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيداً؛ قال النحاس[3]: وسمعت عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمد بن يزيد يقول: النَّصْبُ أَوْلى؛ لأنه قد صحَّ أنها فعلٌ؛ لقولهم: حاشَ لزيد، والحرفُ لا يُحذف منه[4]، وقد قال النابغة:

وَلَا أُحاشِي مِن الأقوامِ مِن أَحَدِ[5]

وقال بعضهم: حاشَ حرفٌ، وأُحاشي فعل. ويدلُّ على كون حاشا فعلاً وقوعُ حرف الجرِّ بعدها[6]. وحكى أبو زيد عن أعرابيٍّ: اللهمَّ اغفر لي ولمن يَسمع، حاشا

---

(١) في (م): أن يرجع الكثرة إلى واحدة، وفي (د) و(ز) و(ظ): إلى كل واحدة، والمثبت من (ف).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦ ، وقراءة أبي عمرو في السبعة ص٣٤٨ ، والتيسير ص١٢٨ ، ورواية الأصمعي عن نافع أخرجها ابن مجاهد في السبعة ص٣٤٨ ، وليست هي المشهورة عنه.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٦ ، وما قبله منه.

(٤) يعني حذف الألف من «حاشا»، والحذف إنما يكون في الفعل. أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص١٩١ .

(٥) وصدره: ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه، وهو في ديوان النابغة ص٣٣ ، والخزانة ٣/ ٤٠٣ . قال البغدادي: قوله: ولا أحاشي، أي: لا أستثني أحداً ممن يفعل الخير. والشاهد فيه: تصرُّف الفعل حاشا، والتصرُّف من خصائص الأفعال. أسرار العربية ص١٩١ .

(٦) ينظر أسرار العربية ص١٩٠ - ١٩٢ . وقال أبو البركات: وحرف الجر إنما يتعلق بالفعل؛ لأن الحرف لا يتعلق بالحرف.

الشيطانَ وأبا الأصبغ، فنَصَبَ بها[١].

وقرأ الحسن: «وَقُلْنَ حَاشْ لِلهِ» بإسكان الشين، وعنه أيضاً: «حاشَ الإلهِ». ابن مسعود وأُبَيٌّ: «حَاشَى[٢] اللهِ» بغير لام، ومنه قول الشاعر:

حَاشَا أبي ثَوْبانَ إنَّ بِهِ ضَنًّا عنِ المَلْحَاةِ والشَّتْمِ[٣]

قال الزجَّاج: وأصلُ الكلمة من الحاشية، والحَشَا بمعنى الناحية، تقول: كنت في حَشَا فلانٍ، أي: في ناحيته، فقولك: حاشا لزيدٍ، أي: تَنحَّى زيدٌ من هذا وتَباعَدَ عنه، والاستثناء إخراجٌ وتنحيةٌ عن جملة المذكورين[٤].

وقال أبو عليٍّ: هو «فاعَلَ» من المحاشاة؛ أي: حاشا يوسفُ وصار في حاشيةٍ وناحيةٍ مما قُرِف به[٥]، أو مِن أن يكون بشراً؛ فحاشا وحاشَ في الاستثناء حرفُ جرٍّ عند سيبويه[٦]، وعلى ما قال المبرِّد وأبو عليٍّ فعل.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه: «ما» بمنزلة ليس؛ تقول: ليس زيدٌ قائماً، و﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ و﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة: ٢]. وقال الكوفيون: لمَّا

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢، وشرح المفصل ٢/ ٨٥، والمغني ص١٦٥.

(٢) في (د) و(ز) و(م): حاش، وكذلك وقعت في القراءات الشاذة ص٦٣، والمثبت موافق لما في المحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٣٩، والبحر ٥/ ٣٠٣، والدر المصون ٦/ ٤٨٦. وينظر ما سلف من القراءات في هذه المصادر.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣١٠، والحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢، والمحتسب ١/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٠. وهو في المفضليات ص٣٦٧، والأصمعيات ص٢١٨، منسوب للجميح الأسدي برواية:

حاشا أبا ثوبانَ إنَّ أبا ثوبان ليس ببُكمةٍ فَدْمِ
عمرو بن عبد الله إن به ضنًّا عن المَلْحاة والشَّتْمِ

(٤) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٧.

(٥) بنحوه في الحجة للفارسي ٤/ ٤٢٢ - ٤٢٣، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٨٦، وتقدير الكلام على ما ذكر في هذين المصدرين: «حاش لله» أي: بَعُد يوسف عن هذا الذي رمي به لله، أي: لخوفه اللهَ ومراقبته له. وسيذكر المصنف نحوه عن أبي نصر القشيري.

(٦) الكتاب ٢/ ٣٤٩.

حذفت الباء نصبت، وشرحُ هذا ـ فيما قاله أحمد بن يحيى ـ أنك إذا قلت: ما زيدٌ بمنطلق، فموضعُ الباء موضعُ نصب، وهكذا سائرُ حروف الخفض، فلما حذفت الباء نصبت لتدلَّ على محلِّها، قال: وهذا قولُ الفرّاء، قال: ولم تعمل «ما» شيئاً، فألزمهم البصريون أن يقولوا: زيدٌ القمرَ؛ لأنَّ المعنى: كالقمر. فردَّ أحمد بن يحيى بأن قال: الباء أَدْخَلُ في حروف الخفض من الكاف؛ لأنَّ الكاف تكون اسماً.

قال النحاس[1]: لا يصحُّ إلّا قولُ البصريين، وهذا القول يتناقض؛ لأنَّ الفرَّاء أجاز نصًّا: ما بمنطلقٍ زيدٌ، وأنشد:

أَمَا واللهِ أنْ لو كنتَ حُرًّا ... وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ[2]

ومَنَعَ نصًّا النصبَ، ولا نعلم بين النَّحْويين اختلافاً أنه جائزٌ: ما فيك براغبٍ زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون. وحكى البصريون والكوفيون: ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغةُ تَميم، وأنشدوا:

أتيماً تَجعلون إليَّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لِذِي حَسَبٍ نَدِيدُ[3]

النِّدُّ والنَّديد والنَّدِيدةُ: المِثْلُ والنَّظير[4]. وحكى الكسائي أنها لغةُ تِهامةَ ونَجْد. وزعم الفرَّاء أنَّ الرفع أقوى الوجهين. قال أبو إسحاق: وهذا غلط؛ كتابُ الله عزَّ وجلَّ ولغةُ رسول الله ﷺ أقوى وأولى[5].

قلت: وفي مصحف حَفصةَ رضي الله عنها: «مَا هَذَا بِبَشَرٍ» ذكره الغَزْنويّ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨، وينظر قول سيبويه في الكتاب ١/ ٥٧ - ٦٩ و ١٢٢، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٤، والخزانة ٤/ ١٤١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١، والخزانة ٣/ ٢٧، ورواية الديوان: أتيمٌ، بدل: أتيماً.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٦، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٢، وكلام أبي إسحاق وهو الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ١٠٨.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: وذكرت النِّسوة أنَّ يوسفَ أحسنُ من صورة البشر، بل هو في صورة مَلَك، وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] والجمعُ بين الآيتين أنَّ قولهنّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئةٌ ليوسف[1] عمَّا رمته به امرأة العزيز من المراودة، أي: بَعُدَ يوسف عن هذا، وقولهنّ: (لله) أي: لخوفه، أي براءةٌ لله من هذا، أي: قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء، والمعنى: أنه في التبرئة عن المعاصي كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقُض.

وقيل: المرادُ تنزيهُه عن مُشابَهة البشر في الصورة؛ لفَرْطِ جماله، وقولُه: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا المعنى قالت النسوة ذلك ظنًّا منهنَّ أنَّ صورةَ المَلَك أحسن، وما بلغهنَّ قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، فإنه من كتابنا. وقد ظنَّ بعضُ الضَّعَفَةِ أنَّ هذا القولَ لو كان ظنًّا باطلاً منهنّ، لوَجَبَ على الله أن يردَّ عليهنّ، ويبيِّن كذبهنّ، وهذا باطلٌ؛ إذ لا وجوبَ على الله تعالى، وليس كلُّ ما يخبر به الله سبحانه من كُفْر الكافرين وكذبِ الكاذبين يجب عليه أن يَقْرُنَ به الردَّ عليه، وأيضاً أهلُ العرف قد يقولون في القبيح: كأنَّه شيطان، وفي الحَسَن: كأنه مَلَك، أي: لم يُرَ مِثْلُه؛ لأنَّ الناس لا يَرَوْن الملائكة، فهو بناءٌ على ظنٍّ في أنَّ صورة الملَك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبُعْدِه عن التُّهَم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي: ما هذا إلا مَلَك، وقال الشاعر:

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ ... تنزَّلَ من جَوِّ السماءِ يَصُوبُ[2]

وروي عن الحسن: «ما هذا بِشِرًى»؛ بكسر الباء والشين، أي: ما هذا عبداً مُشترًى، أي: ما ينبغي لِمثْلِ هذا أن يُباع، فوضع المصدر موضعَ اسم المفعول، كما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: ٩٦] أي: مَصِيدُه، وشِبْهُه كثير. ويجوز أن يكون المعنى: ما هذا بثمن، أي: مثلُه لا يثمنُ ولا يقوَّم، فيراد بالشراء على هذا:

---

(١) في (ظ): أن قوله حاش لله تنزيه ليوسف.

(٢) سلف ١/ ٣٩٣.

الثَّمنُ المشتَرَى به، كقولك: ما هذا بألفٍ، إذا نفيتَ قولَ القائل: هذا بألف. فالباءُ على هذا متعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو الخبر[١]، كأنه قال: ما هذا مقدَّراً بشراء.

وقراءة العامة أشبهُ؛ لأنَّ بعده: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مبالغةً في تفضيله في جنس الملائكة تعظيماً لشأنه، ولأنَّ مثلَ «بِشْرًى» يُكتب في المصحف بالياء[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لمَّا رأت افْتِتَانَهنَّ بيوسف أظهرت عُذْرَ نفسها بقولها: «لُمْتُنَّني فِيهِ» أي: في حبِّه.

و«ذلك» بمعنى «هذا»، وهو اختيارُ الطَّبريّ[٣]. وقيل: الهاء للحُب، و«ذلك» على بابه[٤]، والمعنى: ذلكنَّ الحُبُّ الذي لُمتنَّني فيه، أي: حبُّ هذا هو ذلك الحبّ. واللومُ: الوصف بالقبيح. ثم أقرَّت وقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع.

وسمِّيت العصمةُ عصمةً لأنَّها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل: «استعصم» أي: استعصى[٥]، والمعنى واحد.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ عاودَتْه المراودةَ بمحضَرٍ منهنّ، وهتكتْ جِلبابَ الحياء، ووعدتْ بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخشَ لَوْماً ولا مقالاً، خلافَ أوّلِ أمرها إذ كان ذلك بينه وبينها.

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الأذِلَّاء. وخطُّ المصحف: «وليكوناً» بالألف، وتقرأ بنون مخفَّفة للتأكيد، ونونُ التأكيد تثقَّل وتخفَّف، والوقفُ على قوله: «لَيُسْجَنَنَّ» بالنون لأنها مثقَّلة، وعلى «ليكوناً» بالألف لأنها مخفَّفة، وهي تشبه نون الإعراب في

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٣، وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٣.

(٣) في تفسيره ١٣/ ١٤١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤١، وقوله: على بابه، أي: في الإشارة إلى غائب، كما ذكر ابن عطية.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٢ عن قتادة. ووقع في (ظ): استعف، بدل: استعصى.

قولك: رأيت رجلاً، وزيداً، وعمراً، ومثله قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] ونحوها، الوقفُ[1] عليها بالألف، كقول الأعشى:

وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا[2]

أراد: فاعبداً[3]، فلمَّا وقف عليه كان الوَقفُ بالألف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي: دخولُ السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزَّجَّاج والنحَّاس[4]. «أَحَبُّ إليَّ» أي: أسهلُ عليَّ وأهونُ من الوقوع في المعصية، لا أنَّ دخول السجن مما يُحَبُّ على التحقيق.

وحُكي أنَّ يوسف عليه السلام لمَّا قال: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أوحى الله إليه: «يا يوسف! أنت حَبَسْتَ نفسك حيث قلتَ: السجنُ أحبُّ إليَّ، ولو قلتَ: العافيةُ أحبُّ إليَّ، لعُوفِيْتَ»[5].

وحكى أبو حاتم أنَّ عثمان بن عفان ﷺ قرأ: «السَّجْن» بفتح السين، وحكى أنَّ ذلك قراءةُ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن الأعرجِ ويعقوبَ، وهو مصدرُ: سَجَنه سَجْناً[6].

---

(١) في (ظ): والوقف. والمثبت من باقي النسخ. وتفسير الطبري ١٣/ ١٤٢ - ١٤٣ ، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٤٣ ، وصدره عنده: وصلِّ على حين العشيَّات والضحى، وهو في الديوان ص١٨٧ برواية:

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنَّه ولا تعبد الشيطان...

(٣) في تفسير الطبري: فاعبُدَنْ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٠٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٧٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٩٥ ، وهو من العشرة.

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي: كيدَ النّسوان. وقيل: كيدَ النّسوة اللاتي رأينه؛ فإنهنَّ أَمَرْنه بمطاوعةِ امرأةِ العزيز، وقلن له: هي مظلومةٌ، وقد ظلمتَها. وقيل: طلبت كلُّ واحدةٍ أن تخلوَ به للنصيحة في امرأة العزيز، والقصدُ بذلك أن تَعذِلَه في حقِّها، وتأمرَه بمساعدتها، فلعلَّه يُجيب، فصارت كلُّ واحدةٍ تخلو به على حِدَةٍ فتقول له: يا يوسف، اقضِ لي حاجتي فأنا خيرٌ لك من سيدتك. تدعوه كلُّ واحدةٍ لنفسها وتُراودُه، فقال: يا ربِّ كانت واحدةً فصِرْنَ جماعة.

وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة، وكَنَى عنها بخطاب الجمع؛ إمَّا تعظيماً لشأنها[١] في الخطاب، وإمَّا ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيدُ: الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سمِّيت الحربُ كيداً؛ لاحتيال الناس فيها؛ قال عمر بن لَجَأ:

نَراءتْ كَيْ تكيدَكَ أمُّ بِشْرٍ وكيدٌ بالتَّبَرُّجِ مَا تَكيدُ[٢]

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جواب الشرط، أي: أَمِلْ إليهنَّ؛ من صبا يصبو: إذا مال واشتاق، صُبُوًّا وصَبْوة[٣]؛ قال:

إلى هندٍ صَبَا قَلْبي وهِندٌ مِثْلُها يُصْبِي[٤]

أي: إن لم تَلْطُف بي في اجتناب المعصية وقعتُ فيها[٥]. ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: ممن يرتكب الإثمَ ويستحقُّ الذَّمّ، أو ممن يعمل عَمَلَ الجُهَّال؛ ودلَّ هذا على أنَّ

---

(١) في (د) و(ز) و(م): لتعظيم شأنها، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ٣٤، والكلام منه.

(٢) الموشَّى لأبي الطيب الوشَّاء ص١١٢ برواية: ... أم عمرو وكيدك...، ومنتهى الطلب ٧/ ٢٩٩ برواية:

بدتْ فتبرَّجَتْ لك أمُّ بدرٍ وكيداً بالتبرج...

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٤.

(٤) قائله يزيد بن ضبة، كما في مجاز القرآن ١/ ٣١١، والأغاني ٧/ ١٠٢، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٤٥ دون نسبة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨.

أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلَّا بعون الله؛ ودلَّ أيضاً على قُبْحِ الجهل والذمِّ لصاحبه.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لمَّا قال: «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»؛ تعرَّض للدعاء، وكأنه قال: اللهمَّ اصرِفْ عنِّي كيدهنّ؛ فاستجاب له دعاءَه، ولَطَفَ به، وعصمه عن الوقوع في الزنى. «كَيْدَهُنَّ» قيل: لأنهنَّ جمعٌ قد راودنَه عن نفسه. وقيل: يعني كيدَ النساء. وقيل: يعني كيدَ امرأة العزيز، على ما ذُكر في الآية قبلُ، والعموم أولى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر للعزيز وأهلِ مَشُورته ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: علامات براءة يوسف ـ من قَدِّ القميص من دُبُر، وشهادةِ الشاهد، وحَزِّ الأيدي، وقلةِ صبرهنّ عن لقاء يوسف ـ أن يسجنوه كتماناً للقصة ألَّا تشيع في العامَّة، وللحيلولة بينه وبينها. وقيل: هي البركاتُ التي كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم. والأول أصحّ.

قال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ قال: [قَدُّ] القميص من الآيات، وشهادةُ الشاهد من الآيات، وقطعُ الأيدي من الآيات، وإعظامُ النساء إياه من الآيات[(١)].

وقيل: ألجأها الخجلُ من الناس، والوجلُ من اليأس، إلى أنْ رضيت بالحجاب مكانَ خَوْفِ الذهاب، لتشتفيَ إذا مُنعت من نظره؛ قال:

وما صَبابةُ مشتاقٍ على أمَلٍ ... مِنَ اللِّقاء كمشتاقٍ بلا أمَلِ[(٢)]

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢١ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٣٩ (١١٥٨٢) من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ: من الآيات: قد القميص، وأثر السكين.

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص٣٣٦ .

أو كادته رجاء أن يَمَلَّ حَبْسَه فيبذلَ نفسه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ «يَسْجُنُنَّهُ» في موضع الفاعل، أي: ظهر لهم أن يسجنوه. هذا قول سيبويه. قال المبرِّد: وهذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملةً، ولكن الفاعل ما دلَّ عليه «بَدَا»، وهو مصدر، أي: بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف [الفاعل] لأنَّ الفعل يدلُّ عليه، كما قال الشاعر:

وحُـقَّ لـمـن أبـو مـوسـى أبـوهُ يُـوَفِّـقـه الـذي نَـصـبَ الـجـبـالَا[1]

أي: وحقَّ الحقُّ، فحذف.

وقيل: المعنى: ثم بدا لهم رأيٌ لم يكونوا يعرفونه، وحُذف هذا لأنَّ في الكلام دليلاً عليه، وحذف أيضاً القول، أي: قالوا: لَيَسْجننه[2]. واللامُ جوابٌ ليمينٍ مضمَر. قاله الفرّاء[3]، وهو فعل مذكَّر لا فعل مؤنَّث، ولو كان فعلاً مؤنَّثاً لكان: لَيَسْجُنَّانِّهِ، ويدلُّ على هذا قوله: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل: لهنّ، فكأنَّه أخبر عن النسوة وأعوانهنَّ، فغلَّب المذكَّر. قاله أبو عليّ.

وقال السُّدِّيّ: كان سببُ حَبْس يوسفَ أنَّ امرأة العزيز شَكَتْ إليه أنه شَهَّرها ونَشَر خبرها[4]، فالضمير على هذا في «لَهُمْ» للملك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مدَّةٍ غيرِ معلومة. قاله كثير من المفسِّرين[5]. وقال ابن عباس: إلى انقطاعِ ما شاع في المدينة[6]. وقال سعيد بن

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٠.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٥.

(٦) ذكره الرازي ١٨/ ١٣٣، وأورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٢، والبغوي ٢/ ٤٢٥ عن عطاء.

جُبَير: إلى ستة أشهر[(١)]. وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثةَ عَشَر شهراً[(٢)]. عِكْرِمة: سبع سنين[(٣)]. الكَلْبيُّ: خمس سنين[(٤)]. مقاتل: [اثنتي عشرة سنة][(٥)]. وقد مضى في «البقرة»[(٦)] القول في الحين وما يرتبط به من الأحكام. وقال وهب: أقام في السجن اثنتي عشرة سنة[(٧)]. و«حتى» بمعنى إلى، كقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وجعل الله الحبسَ تطهيراً ليوسف ﷺ من هَمِّه بالمرأة. وكأنَّ العزيز ـ وإن عرف براءةَ يوسف ـ أطاع المرأة في سَجْن يوسف. قال ابن عباس: عَثَر يوسفُ ثلاثَ عثرات، حين هَمَّ بها فسُجِن، وحين قال للفتى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضعَ سنين، وحين قال لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[(٨)].

الرابعة: أُكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام [فيه] خمسة أعوام، وما رضي بذلك لعظيم منزلته وشريفِ قَدْره، ولو أُكره رجلٌ بالسجن على الزِّنى ما جاز له [ذلك] إجماعاً. فإن أكره بالضرب، فقد اختلف فيه العلماء؛ والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يَسقط عنه إثمُ الزنى وحدُّه. وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحدّ، وهو ضعيف؛ فإنَّ الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩١) وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤.

(٢) كذا في النسخ، والذي في أحكام القرآن للكيا ٣/ ٢٣٧ : ثلاث عشرة سنة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): تسع سنين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر، وقد أخرجه الطبري ١٣/ ١٥١، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤١ (١١٥٩٢)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦١، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٥.

(٥) قوله: اثنتي عشرة سنة، سقط من النسخ الخطية، والمثبت من الوسيط ٢/ ٦١٣، وتفسير الرازي ١٨/ ١٣٣.

(٦) ١/ ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٣ بلفظ: لبث يوسف في السجن سبع سنين، وكذا ذكر الجصاص في احكام القرآن ٣/ ١٧٣.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ١٤٩. والحاكم ٢/ ٣٤٦. وقال الذهبي في تلخيصه: وهو خبر منكر.

ولا يُصرِّفه بين بلاءين؛ فإنه من أعظم الحرج في الدين[(١)]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. وسيأتي بيانُ هذا في «النحل» إن شاء الله[(٢)]. وصبرَ يوسفُ [على السجن]، واستعاذ به من الكيد[(٣)]، فاستجاب له على ما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ «فَتيان» تثنيةُ فتى، وهو من ذوات الياء، وقولهم: الفُتُوَّة، شاذ[(٤)]. قال وَهْب وغيره: حُمل يوسف إلى السجن مقيَّداً على حمار، وطِيف به: هذا جزاءُ من يَعْصي سيدته[(٥)]، وهو يقول: هذا أيسرُ من مُقَطَّعات النِّيران، وسرابيلِ القَطِران، وشرابِ الحميم، وأَكْلِ الزَّقوم.

فلمَّا انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم، واشتدَّ بلاؤهم، فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا تُؤجروا، فقالوا له: يا فتى، ما أحسن حديثك!

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤ ، وما سلف بين حاصريتن منه، إلا أنه وقع فيه. وأقام فيه سبعة أعوام، بدل: خمسة أعوام.

(٢) عند تفسير الآية (١٠٦) منها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨ ، ووقع في (م): الفتو، بدل: الفتوة. والفُتُوُّ ـ على فُعول ـ جمع فتى. قال سيبويه: أبدلوا الواو في الجمع والمصدر بدلاً شاذاً. الصحاح (فتا).

(٥) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٢ عن ابن عباس نحوه، إلا أن فيه: ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيدته، فهذا جزاؤه أن يسجن.

لقد بورك لنا في جوارك، مَن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفيِّ الله يعقوبَ، ابنِ ذبيحِ الله إسحاق، ابنِ خليل الله إبراهيم(١).

وقال ابن عباس: لمَّا قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبرانيَّ قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن، فكان يُعزِّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلِّي الليل كلَّه، ويبكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفُها والأبواب، وطَهُر به السجن، واستأنس به أهل السجن، فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبَّه صاحبُ السجن فوسَّع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحببتك حبًّا لم أحبَّ شيئاً حبَّك، فقال: أعوذ بالله من حبِّك! قال: ولِمَ ذلك؟ فقال: أحبَّني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبَّتني سيدتي فنزل بي ما ترى. فكان في حبسه حتى غضب الملك على خَبَّازه وصاحبِ شرابه، وذلك أنَّ الملك عُمِّر فيهم فملُّوه، فدسُّوا إلى خَبَّازه وصاحبِ شرابه أن يَسُمَّاه جميعاً، فأجاب الخبَّاز وأبى صاحب الشّراب، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾.

وقد قيل: إن الخبَّاز وضع السمَّ في الطعام، فلما حضر الطعام قال السَّاقي: أيها الملك! لا تأكل فإنَّ الطعام مسموم. وقال الخبَّاز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشربْ. فشرب فلم يضرَّه، وقال للخباز: كُلْ. فأبى، فجرَّب الطعام على حيوان فنفقَ مكانَه، فحبسهما سنة، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف(٢).

واسم الساقي منجا، والآخر مجلث؛ ذكره الثعلبيُّ عن كعب. وقال النقاش:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/١٥٧ - ١٥٨ عن قتادة مطولاً، وفي هذا الخبر نظر، فالذبيح هو إسماعيل على الصحيح.

(٢) ينظر عرائس المجالس ص١٢٤ - ١٢٦، وتفسير البغوي ٢/٤٢٥، والمحرر الوجيز ٣/٢٤٣، وزاد المسير ٤/٢٢٢.

اسم أحدهما شرهم، والآخر سرهم؛ الأوّل بالشين المعجمة، والآخر بالسين المهملة. وقال الطّبريُّ: الذي رأى أنه يعصر خمراً هو نبو، قال السُّهيليُّ: وذَكَر اسمَ الآخَرِ ولم أقيِّده[١].

وقال «فَتَيان» لأنهما كانا عبدين، والعبد يسمَّى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماورديّ[٢].

وقال القُشيريّ: ولعلَّ الفتى كان اسماً للعبد في عُرْفهم؛ ولهذا قال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾. ويحتمِل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً، ويمكن أن يكون حَبْسُهما مع حَبْس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً. كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبرُ الأحلام، فقال أحد الفتَيَين لصاحبه: تعال حتى نجرِّب هذا العبد العبرانيّ، فسألاه من غير أن يكونا رَأيا شيئاً. قاله ابن مسعود[٣].

وحكى الطّبريّ[٤]: أنهما سألاه عن علمه، فقال: إنِّي أعبُرُ الرؤيا، فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدقٍ رَأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صَدَق تأويلها[٥]. وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبيِّ ﷺ: «أصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً»[٦].

---

(١) التعريف والإعلام ص٨١، وعنه نقل المصنف قول الطبري والنقاش. وقول الطبري في تفسيره ١٣/ ١٥١ - ١٥٢؛ أخرجه عن ابن إسحاق، وذكر فيه أن اسم الآخَر: مجلث.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ و ١٦٧ - ١٦٨.

(٤) في تفسيره ١٣/ ١٥٢ - ١٥٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٦، إلا أنه وقع فيه: ابن إسحاق، بدل: ابن عباس، وكذلك أخرجه الطبري ١٣/ ١٥٣ - ١٥٤ عن مجاهد وابن إسحاق.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٦٤٢)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة ﷺ.

وقيل: إنَّها كانت رؤيا كذبٍ سألاه عنها تجريباً، وهذا قولُ ابن مسعود والسُّدّيّ[١].

وقيل: إنَّ المصلوب منهما كان كاذباً، والآخَر صادقاً. قاله أبو مِجْلَز[٢].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَحلَّمَ كاذباً؛ كُلِّف يومَ القيامة أن يَعقِد بين شَعِيرتين [ولن يَعقِد بينهما]». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[٣].

وعن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كَذَبَ في حُلْمه؛ كُلِّف يومَ القيامة عَقْد شَعِيرة». قال: حديث حسن[٤].

قال ابن عباس: لمَّا رأيا رؤياهما أصبحا مَكْروبَيْن، فقال لهما يوسف: ما لي أراكما مكروبَين؟ قالا: يا سيدنا، إنَّا رأينا ما كَرِهْنا، قال: فقُصَّا عليَّ، فقَصَّا عليه، قالا: نبِّئْنا بتأويل ما رأينا. وهذا يدلُّ على أنها كانت رؤيا منام[٥].

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانُه أنَّه كان يَعود المرضى ويُداويهم، ويُعزِّي الحَزَانَى[٦]. قال الضّحاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسَّع له، وإذا احتاج جَمَع له، وسأل له[٧].

وقيل: «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي: العالِمين الذين أحسنوا العلم؛ قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) أخرجه عن السدي الطبري ١٣/ ١٥٣ ، وسلف عن ابن مسعود.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٦ .

(٣) سنن الترمذي (٢٢٨٣)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٦)، والبخاري (٧٠٤٢). وأخرجه أحمد (١٠٥٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) سنن الترمذي (٢٢٨١)، وهو عند أحمد (٥٦٨).

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٢٣ من طريق أبي صالح عن ابن عباس.

(٦) ذكره ابن الجوزي ٤/ ٢٢٣ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٧) عرائس المجالس ص١٢٥ - ١٢٦ ، وفيه: وسأله ربه، بدل: وسأل له، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٥٦-١٥٧ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٤٥ .

وقال ابن إسحاق: مِن الْمُحْسِنِينَ لنا إن فَسَّرته[١]، كما تقول: افعل كذا وأنت مُحْسِن.

قال: فما رأيتما؟ قال الخبَّاز: رأيت كأني اختَبَزْتُ في ثلاثة تنانيرَ، وجعلته في ثلاث سِلالٍ، فوضعتُه على رأسي، فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيتُ كأنّي أخذت ثلاثةَ عناقيدَ من عنبٍ أبيضَ، فعصرتُهن في ثلاث أوانٍ، ثم صفَّيته فسقيتُ الملك كعادتي فيما مضى[٢]، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنباً، بلغة عُمان؛ قاله الضَّحاك[٣]. وقرأ ابن مسعود: «إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عِنَباً»[٤]. وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابيًّا ومعه عنبٌ فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى «أَعْصِرُ خَمْراً» أي: عنبَ خمرٍ، فحذف المضاف[٥]. ويقال: خَمْرةٌ وخَمْر وخُمُور، مثل تمرةٍ وتمرٍ وتُمور[٦].

﴿قَالَ﴾ لهما يوسف: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعامٌ من منزلكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أنّي أعلم تأويلَ رؤياكما، فقالا: افعل! فقال لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبيَّن أنَّ الله خصَّه بهذا العلم؛ لأنه ترك ملَّة قومٍ لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك.

ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما، والعلم بدين الله، فاسمعوا أوّلاً ما يتعلَّق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبِّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/١٥٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣٧.

(٢) عرائس المجالس ص١٢٥، وتفسير البغوي ٢/٤٢٥، وزاد المسير ٤/٢٢٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/١٥٥.

(٤) المحتسب ١/٣٤٣.

(٥) الوسيط ٢/٦١٣، وخبر الأصمعي عن المعتمر ذكره أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/٢٤٣.

(٦) الصحاح (خمر).

﴿ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآية كلّها، على ما يأتي.

وقيل: علم أنَّ أحدهما مقتولٌ، فدعاهما إلى الإسلام ليَسْعَدا به.

وقيل: إنَّ يوسف كره أن يعبِّر لهما ما سألاه؛ لِمَا عَلِمه من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ في النوم ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ بتفسيره في اليقظة؛ قاله السُّديّ[1]. فقالا له: هذا من فِعْل العَرَّافين والكَهَنة! فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علَّمنيه ربِّي[2]، إنِّي لا أخبركما به تكهُّناً وتنجيماً، بل هو بوحيٍ من الله عزَّ وجلَّ.

وقال ابن جُرَيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً، فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا: «تُرْزَقَانِهِ»، أي: يجري عليكما من جهة الملك أو غيره[3]. ويحتمل: يرزقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام[4]. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلّان بها إخبارَهما بالغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لأنَّهم أنبياءُ على الحقّ ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ﴿لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ «مِنْ» للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد. وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إشارةٌ إلى عصمته من الزنى ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك.

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ إذ جعلنا أنبياء، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا الرسلَ إليهم .﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ على نعمه بالتوحيد[5] والإيمان.

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٤ .

(٢) عرائس المجالس ص١٢٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٦ .

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧ .

(٥) في (م): على نعمة التوحيد.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا ساكنَيِ السجن، وذَكَر الصُّحبة لطول مُقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار[1]. ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: في الصغر والكبر والتوسُّط، أو متفرِّقون في العدد. ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السِّجن، وكان بين أيديهم أصنامٌ يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاماً للحجة، أي: آلهةٌ شتَّى لا تضرُّ ولا تنفع «خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القَهَّارُ» الذي قهر كلَّ شيء، نظيره: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]. وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدَّد الإله، لتفرَّقوا في الإرادة ولَعَلَا بعضُهم على بعض، وبيَّن أنها إذا تفرَّقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ بيَّن عجزَ الأصنام وضعفَها، فقال: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِه» أي: من دون الله، إلا ذواتَ أسماءٍ لا معانيَ لها. ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسمَّيات، أي: ما تعبدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيءٌ إلَّا الاسم؛ لأنها جمادات.

وقال: «مَا تَعْبُدُونَ» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قَصَدَ جميعَ من هو على مِثْلِ حالهما من الشِّرك[2].

﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ فحذف المفعول الثاني للدلالة، والمعنى: سمَّيتموها آلهةً من عند أنفسكم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذلك في كتاب. قال سعيد بن جُبير:

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٧.

﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة[1]. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ الذي هو خالقُ الكلّ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾. ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾. أي: القويم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: قال للسَّاقي: إنك تُردُّ على عملك الذي كنت عليه مِن سَقْي الملك بعد ثلاثة أيام، وقال للآخر: وأمَّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام، فتصلبُ فتأكل الطيرُ من رأسك، قال: والله ما رأيتُ شيئاً؛ قال: رأيتَ أوْ لم تَرَ ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[2].

وحكى أهل اللغة أنَّ سَقَى وأسْقَى لغتان بمعنًى واحد، كما قال الشاعر:

سقَى قومي بَني مَجْدٍ وأسْقَى ... نُمَيْراً والقبائلَ من هلالِ[3]

قال النحاس[4]: الذي عليه أكثرُ أهل اللغة أنَّ معنى سقاه: ناولَه فشرب، أو صبَّ الماء في حَلْقِه. ومعنى أسقاه: جَعَل له سُقْيا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

الثانية: قال علماؤنا[5]: إن قيل: مَن كَذَبَ في رؤياه ففسَّرها العابِرُ له، أيلزمه حُكْمُها؟ قلنا: لا يلزمه، وإنما كان ذلك في يوسف لأنه نبيّ، وتعبيرُ النبيِّ حُكْم، وقد قال: إنه يكون كذا وكذا، فأَوْجَدَ اللهُ تعالى ما أَخْبَر كما قال، تحقيقاً لنبوَّته.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٠.

(٢) أخرج هذا الكلام بنحوه الطبري ١٣/ ١٦٧ - ١٦٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره.

(٣) قائله لبيد، وقد سلف البيت ٢/ ١٣٥.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٠، وما قبله منه.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٥.

فإن قيل: فقد رَوى عبد الرزاق[(١)]، عن مَعْمَر، عن قَتادة قال: جاء رجل إلى عمر ابنِ الخطاب فقال: إنِّي رأيتُ كأنِّي أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، ثم أعْشَبْتُ، ثم أجْدبتُ، فقال له عمر: أنت رجلٌ تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافراً؛ فقال الرجل: ما رأيت شيئاً! فقال له عمر: قد قُضي لك ما قُضي لصاحب يوسف.

قلنا: ليست لأحدٍ بعد عمر؛ لأن عمر كان محَدَّثاً، وكان إذا ظنَّ ظنًّا كان، وإذا تكلَّم به وقع، على ما ورد في أخباره، وهي كثيرة؛ منها: أنه دخل عليه رجلٌ، فقال له: أظنُّك كاهناً، فكان كما ظنّ. خرَّجه البخاريّ[(٢)].

ومنها: أنه سأل رجلاً عن اسمه، فقال له فيه أسماءَ النار كلَّها[(٣)]، فقال له: أَدْرِكْ أهلَك فقد احترقوا، فكان كما قال. خرَّجه «الموطأ»[(٤)]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيان في سورة الحجر[(٥)] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيْقَن، في قول أكثرِ المفسرين. وفسَّره قتادة على الظنِّ الذي هو خلافُ اليقين؛ قال: إنما ظنَّ يوسفُ نجاتَه؛ لأنَّ العابِرَ يظنُّ ظنًّا، وربُّك يخلق ما يشاء. والأوّل أصحُّ، وأشبهُ بحال

---

(١) في مصنفه (٢٠٣٦٢).

(٢) في صحيحه (٣٨٦٦) مطولاً.

(٣) في أحكام القرآن: فقال له أسماء فيها النار كلها.

(٤) ٢/ ٩٧٣ عن يحيى بن سعيد عن عمر، وهو منقطع، وأخرجه عبد الرزاق (١٩٨٦٤) عن معمر، عن رجل، عن ابن المسيب. وعزاه ابن حجر في الإصابة ٢/ ١٢٨ لعبد الرزاق ولكنه قال: عن الزهري، عن ابن المسيب. وأخرجه أبو القاسم بن بشران من طريق موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما كما في الإصابة ٢/ ١٢٨ .

(٥) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

الأنبياء، وأنَّ ما قاله للفَتَيَيْن في تعبير الرؤيا كان عن وحي، وإنما يكون ظنًّا في حكم الناس، وأما في حقِّ الأنبياء فإنَّ حكمهم حقٌّ كيفما وقع(١).

الثانية: قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدِك، وذلك معروفٌ في اللغة أن يقال للسيِّد: ربّ؛ قال الأعشى:

رَبِّي كريمٌ لا يُكدِّرُ نعمةً وإذا تُنوشِد بالمَهارِق أنشدا(٢)

أي: اذكر ما رأيتَه، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملِك، وأخبره أنِّي مظلومٌ محبوسٌ بلا ذنب.

وفي «صحيح» مسلم وغيرِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقُلْ أحدُكم: اسقِ ربَّك، أطعم ربَّك، وضِّئ ربَّك، ولا يقل أحدُكم: ربِّي، ولْيقل: سيِّدي، مولاي، ولا يقل أحدُكم: عبدي أمتي، وليقل: فتايَ فتاتي غلامي»(٣).

وفي القرآن: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: صاحبي، يعني العزيز. ويقال لكلِّ مَن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له(٤).

قال العلماء: قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا يَقُلْ أحدُكم» «ولْيقلْ» من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأَوْلى، لا أنَّ إطلاق ذلك الاسم محرَّم؛ ولأنه قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام: «أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا»(٥) أي: مالكَها وسيِّدَها، وهذا موافقٌ

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٦ - ٢٤٧، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ١٧١.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٢٨، والبيت في ديوان الأعشى ص٢٧٩ برواية: يناشَد. ووقع في (ظ) و(م): في المهارق، وكذا ذكره ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٤٧ وقال: في بمعنى الباء، وقال في شرحه: لا يكدِّر نعمة بالمنّ، وإذا ناشدوه بالمهارق - وهي كتب الأنبياء - أنشدهم، أي: أجابهم.

(٣) صحيح مسلم (٢٢٤٩): (١٥)، وأخرجه أحمد (٨١٩٧) والبخاري (٢٥٥٢)، وسلف ٥/ ١٨٨ مختصراً.

(٤) ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ١٧٧، وإكمال المعلم ٧/ ١٨٨.

(٥) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه أحمد (٩٥٠١)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩): (٥) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ١/ ٢١١ برواية: ربتها.

للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ، فكان محلُّ النَّهي في هذا الباب ألَّا نتَّخذَ هذه الأسماءَ عادةً فنترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إنَّ قول الرجل: عبدي وأمتي، يجمع معنيين:

أحدهما: أنَّ العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى، ففي قول الواحد من الناس لمملوكه: عبدي وأمتي، تعظيمٌ عليه، وإضافةٌ له إلى نفسه بما أضافه اللهُ تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غيرُ جائز.

والثاني: أنَّ المملوك يدخله من ذلك شيءٌ في استصغاره بتلك التسمية، فيَحْمِلُه ذلك على سوء الطاعة.

وقال ابن شعبان في «الزاهي»: لا يقل السيِّد: عبدي وأَمتي، ولا يقل المملوك: ربِّي ولا ربَّتي[1]. وهذا محمولٌ على ما ذكرناه.

وقيل: إنما قال النبيُّ ﷺ: «لا يقل العبدُ: ربِّي، وليقل: سيِّدي»؛ لأنَّ الربَّ من أسماء الله تعالى المستعملةِ بالاتفاق، واختُلف في السيِّد؛ هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا: ليس من أسماء الله، فالفرقُ واضح؛ إذ لا التباسَ ولا إشكال [يلزم من إطلاقه]. وإذا قلنا: إنه من أسمائه، فليس في الشُّهرة والاستعمال كلفظ الربِّ، فيحصل الفرق[2].

وقال ابن العربي[3]: يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسفَ عليه السلام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في «فَأَنْسَاهُ» فيه

---

(١) إكمال المعلم ٧/ ١٨٧ ، وقال القاضي عياض بعد أن ذكر قول ابن شعبان: وذكر حديثاً في ذلك، وهو نحوٌ مما في كتاب مسلم. اهـ وابن شعبان هو محمد بن القاسم بن شعبان العمَّاري المصري، أبو إسحاق، شيخ المالكية، من ولد عمار بن ياسر، ويعرف بابن القُرْطي نسبة إلى بيع القرط. توفي سنة (٣٥٥هـ). السير ١٦/ ٧٨ .

(٢) المفهم ٥/ ٥٥٤ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٧ .

قولان:

أحدهما: أنه عائدٌ إلى يوسف عليه السلام، أي: أنساه الشيطان ذِكرَ الله عزَّ وجلَّ؛ وذلك أنه لمَّا قال يوسف لساقي الملك ـ حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك ـ: «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسيَ في ذلك الوقتِ أن يشكوَ إلى الله ويستغيثَ به، وجَنَحَ إلى الاعتصام بمخلوق(١)؛ فعوقب باللَّبث.

قال عبد العزيز بنُ عُمير الكِنديُّ(٢): دخل جبريل على يوسف النبيِّ عليه السلام في السجن، فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذِرين! ما لي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهِرَ الطَّاهِرين(٣)! يُقرئك السلامَ ربُّ العالمين ويقول: أمَا استَحَيْتَ إذ استغثْتَ بالآدميِّين؟! وعزَّتي لأُلبثنَّك في السجن بِضْعَ سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عنِّي راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة(٤).

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام جاءه فعاتَبَه عن الله تعالى في ذلك وطوَّل سَجْنَه، وقال له: يا يوسف! مَن خلَّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الجُبّ؟ قال: الله تعالى، قال: فمن عَصَمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صَرَفَ عنك كيدَ النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وَثِقْتَ بمخلوقٍ وتركت ربَّك فلم تسأله؟! قال: يا ربِّ، كلمةٌ زلَّت مني، أسألك يا إلهَ إبراهيمَ وإسحاق والشيخِ يعقوبَ عليهم السلام أن ترحَمَني؛ فقال له جبريل: فإنَّ عقوبتك أن تلبثَ في السجن بِضْعَ سنين(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ٤/ ٢٣٤ في الطبقة السادسة من أهل الشام، وقال: أصله من خُراسان، لكنه سكن دمشق.

(٣) في (م): ابن الطاهرين.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٦٣ ، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧ ، والواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ دون نسبة . وذكره البغوي ٢/ ٤٢٨ عن الحسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٩ - ٢١٥٠ (١١٦٤٢) عن أنس ﷺ بنحوه، وذكره بنحوه أيضاً مختصراً الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧ .

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله يوسف، لولا الكلمةُ التي قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضعَ سنين»[١].

وقال ابن عباس: عوقب يوسفُ بطول الحبس بضع سنين لمَّا قال للذي نجا منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولو ذَكَر يوسفُ ربَّه لخلَّصه[٢].

وروى إسماعيل بنُ إبراهيم، عن يونس، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمةُ يوسفَ - يعني قولَه: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ - ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يبكي الحسنُ ويقول: نحن يَنزل بنا الأمرُ فنشكو إلى الناس[٣].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على النَّاجي، فهو الناسي، أي: أنسى الشيطانُ الساقيَ أن يذكرَ يوسفَ لربِّه، أي: لسيِّده. وفيه حذف، أي: أنساه الشيطانُ ذِكْرَه لربه[٤]. وقد رجَّح بعض العلماء هذا القولَ فقال: لولا أنَّ الشيطان أنسى يوسف ذِكْرَ الله لَمَا استحقَّ العقابَ باللَّبث في السجن؛ إذ الناسي غيرُ مؤاخَذ.

وأجاب أهل القول الأوَّلِ: بأنَّ النسيان قد يكون بمعنى التَّرْك، فلمَّا ترك ذِكْرَ الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب.

ردَّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، فدلَّ على أنَّ الناسيَ هو الساقي لا يوسفُ، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكيف يصحُّ أن يضاف نسيانُه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟!

قيل: أمَّا النسيان فلا عصمةَ للأنبياء عنه إلا في وجهٍ واحد، وهو الخبرُ عن الله

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠٦)، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٤٨ (١١٦٣٤).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٠ (١١٦٤٣) دون قوله: ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص١٠٣ ، والطبري ١٣/ ١٧٣ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٢٨ .

تعالى فيما يبلِّغونه، فإنهم معصومون فيه، وإذا وقع منهم النسيانُ حيث يجوز وقوعه؛ فإنه يُنسَب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم [أو يخبرون به عن أنفسهم]، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم(١)؛ قال ﷺ: «نَسِيَ آدمُ، فنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُه». وقال: «إنَّما أنا بشرٌ أنسى كما تَنْسَوْن». وقد تقدَّم(٢).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البِضعُ: قطعةٌ من الدَّهر مختلَفٌ فيها؛ قال يعقوبُ عن أبي زيد: يقال: بَضْع وبِضْع، بفتح الباء وكسرِها(٣)، قال أكثرهم: ولا يقال: بضعٌ ومئة، وإنما هو إلى التسعين(٤).

وقال الهَرَويُّ: العرب تستعمل البِضع فيما بين الثلاث إلى التسع. والبِضعُ والبِضْعةُ واحد، ومعناهما: القطعة من العدد.

وحَكَى عن أبي عبيدة أنه قال(٥): البضع ما دون نصفِ العَقد. يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء.

وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصدِّيق ﷺ: «وكم البِضعُ؟» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «اذهبْ فزايِدْ في الخَطَر»(٦).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٦ - ١٠٧٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) تقدم الحديث الأول ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤ ، والحديث الثاني ٨/ ٤٢١ .

(٣) بنحوه في إصلاح المنطق ص٣٦ ، وتهذيب اللغة ١/ ٤٨٨ .

(٤) هو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ١٧٧ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وحكى أبو عبيدة أنه قال، وينظر تهذيب اللغة ١/ ٤٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ .

(٦) الخَطَر: الذي يوضع في النضال والرهان، فمن سبق أخذه. تهذيب اللغة ٧/ ٢٢٤ . وقال ذلك رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ عند مراهنته المشركين في غَلْب الروم لفارس. وقد أخرجه الطبري ١٨/ ٤٥٥-٤٥٦ من حديث ابن مسعود ﷺ بلفظ: «اذهب فزايدهم وازدد سنتين» وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند تفسير أول آيات سورة الروم من حديث البراء بن عازب ﷺ بلفظ: «تعرَّضْ لهم وأَعْظِم الخطر...». وأخرجه بنحوه أحمد (٢٤٩٥)، والترمذي (٣١٩١) و(٣١٩٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه بنحوه =

وعلى هذا أكثرُ المفسرين، أنَّ البضع سبع؛ حكاه الثعلبيّ[١]. قال الماورديُّ: وهو قولُ أبي بكر الصديق ﷺ وقُطْرُب.

وقال مجاهد: من ثلاثٍ إلى تسع. وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة[٢]. وحكى الزَّجَّاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفرَّاء: والبِضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المئة[٣].

وفي المدة التي لبث فيها يوسفُ مسجوناً ثلاثةُ أقاويل:

أحدها: سبع سنين؛ قاله ابنُ جُرَيج وقتادةُ ووهب بنُ مُنَبِّه؛ قال وهب: أقام أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

الثاني: اثنتا عَشْرَةَ سنةً؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أربعَ عَشْرةَ سنة؛ قاله الضحَّاك[٤].

وقال مقاتل، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: مكثَ يوسف في السجن خمساً وبِضْعاً. واشتقاقُه من بضعتُ الشيء، أي: قطعته، فهو قطعةٌ من العدد، فعاقب الله يوسفَ بأن حُبِس سبعَ سنين، أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضعُ مدَّةُ العقوبة، لا مدَّةُ الحبس كلِّه[٥].

= أيضاً الترمذي (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي، وقال: صحيح حسن غريب. ولم يقع في أيٍّ من هذه الروايات أن البضع من الثلاث إلى السبع، وإنما وقع في بعضها أنه من الثلاث إلى التسع، وفي بعضها أنه مادون العشر.وكذا استدل به ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٧ على أن البضع من الثلاث إلى التسع.

(١) في عرائس المجالس ص١٢٧ ، وكذلك حكى الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٤ ، والبغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ١٧٦ ، وأخرج عن ابن عباس أن البضع ما دون العشرة، وكذا ذكره عنه البغوي ٢/ ٤٢٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠ ، وكلام الزجاج في معانيه ٣/ ١١٢ ، وقد رجح فيه قول مجاهد والأصمعي.

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠ - ٤١ ، عدا قول وهب بن منبه، وسيأتي تخريج خبره.

(٥) ذكر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٧ نحوه عن الكلبي.

قال وهْب بن مُنَبِّه: حُبس يوسف في السجن سبعَ سنين، ومكث أيوبُ في البلاء سبعَ سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبعَ سنين[١].

وقال عبد الله بن راشد البصريُّ[٢] عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إنَّ البضع ما بين الخمس إلى الاثنتي عشرةَ سنةً.

الخامسة: في هذه الآيةِ دليلٌ على جواز التعلُّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلاً، فإنَّ الأمور بيد مُسبِّبها، ولكنَّه جعلَها سلسلة، وركَّبَ بعضها على بعض، فتحريكُها سُنَّة، والتعويلُ على المنتهى يقين. والذي يدلُّ على جواز ذلك نسبةُ ما جرى من النسيان إلى الشيطان، كما جرى لموسى في لُقيا الخَضِر؛ وهذا بيِّنٌ فتأمَّلوه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ لمَّا دنا فَرَجُ يوسف عليه السلام، رأى الملكُ رؤياه، فنزل جبريل، فسلَّم على يوسف، وبشَّره بالفرَج وقال: إنَّ الله مُخْرِجُك من سجنك، ومُمكِّنٌ لك في الأرض، يَذِلُّ لك ملوكُها، ويطيعك جبابرتُها، ومُعطيك الكلمةَ العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كَيْتَ وكيت، وتأويلُها كذا وكذا. فما لبث في السجن أكثرَ مما رأى الملكُ الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أوَّلاً ليوسف بلاءً وشدَّة، وجَعَلَها آخِراً بشرى ورحمة.

وذلك أنَّ الملك الأكبر الريَّان بنَ الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهرٍ يابسٍ سبعُ بقراتٍ سِمَان، في أثرهنَّ سبعٌ عِجاف ـ أي: مهازيل ـ وقد أقبلت العِجَاف على

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٣ ، والطبري ١٣/ ١٧٥ ، ووقع عند عبد الرزاق: وعذب بختنصر حُوِّل في السباع سبع سنين، وعند الطبري مثله إلا أنه قال: يجول، بدل: حوِّل.

(٢) لم نقف على ترجمته.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧ .

السِّمان، فأخذن بآذانهنَّ فأكَلْنَهنّ، إلَّا القَرنين، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خُضْرٍ قد أقبل عليهن سبعٌ يابِساتٌ، فأكلنهنَّ حتى أتين عليهنّ، فلم يبقَ منهنَّ شيءٌ وهنَّ يابسات، وكذلك البقرُ كنَّ عِجافاً، فلم يزد فيهنّ شيءٌ من أكْلِهنَّ السِّمان، فهالَتْه الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبَصَرِ بالكَهَانة والنِّجَامة والعَرَافة والسِّحر، وأشرافِ قومه، فقال: «ياأَيُّهَا المَلأُ أَفْتُوني في رُؤْيَايَ»، فقصَّ عليهم، فقال القوم: أَضْغَاثُ أَحْلَام»[1].

قال ابن جريج: قال لي عطاء: إنَّ أضغاث الأحلام: الكاذبةُ المخطئةُ من الرؤيا. وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس قال: إن الرؤيا: منها حقّ، ومنها أضغاث أحلام، يعني بها الكاذبة[2].

وقال الهَرَويّ: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام[3]. والضِّغث في اللغة: الحُزْمة من الشيء، كالبَقْل والكلأ وما أشْبَهِهما، أي: قالوا: ليست رؤياك ببيِّنة، والأحلام: الرؤيا المختلطة[4].

وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا: أهاويلُها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث: ما لا تأويلَ له من الرؤيا[5].

قوله تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقاً بين المذكَّر والمؤنث. «سِمَانٍ» مِن نَعْتِ البقرات، ويجوز في غير القرآن: سبعَ بقراتٍ سِماناً،

---

(١) بنحوه في عرائس المجالس ص١٢٧، والوسيط ٢/ ٦١٥، وتفسير البغوي ٢/ ٤٢٨.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرج الطبري ١٣/ ١٨٠، من طريق جويبر وغيره نحوه عن الضحاك قوله.

(٣) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١ هذا القول عن معمر وقتادة.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١، وتهذيب اللغة ٨/ ٤ - ٦.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢، وقول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن ١/ ٣١٢. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٢٦.

نعتٌ للسبع، وكذا خُضراً؛ قال الفرَّاء: ومثلُه: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣](١). وقد مضى في سورة البقرة اشتقاقُها ومعناها(٢).

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة، فإن كانت سِماناً فهي سِنيُّ رخاءٍ، وإن كانت عِجافاً كانت شِداداً، وإن كانت المدينة مدينةَ بحرٍ وإبَّانَ سفر، قدمت سفنٌ على عددها وحالها، وإلَّا كانت فِتَناً مُتَرادِفةً، كأنها وجوهُ البقر ـ كما في الخبر: «يُشبه بعضُها بعضاً»(٣). وفي خبر آخرَ في الفتن: «كأنَّها صَيَاصِيُّ البقر».(٤) يريد: لتَشَابُهِها ـ إلَّا أنْ تكون صُفْراً كلُّها، فإنها أمراضٌ تدخل على الناس، وإن كانت مختلفةَ الألوان، شنيعةَ القرون، وكان الناس ينفرون منها، أو كان النار والدخان يخرج من أفواهها، فإنَّه عسكر أو غارة، أو عدوٌّ يضرب عليهم وينزل بساحتهم(٥).

وقد تدلُّ البقرة على الزوجة والخادم والغلَّة والسَّنَة؛ لمَا يكون فيها من الولد والغلَّة والنبات.

﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ من عَجُف يَعجُف؛ على وزن: عَظُم يَعظُم، وروي: عَجِف يَعجَف؛ على وزن: حَمِد يَحمَد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ جَمْعُ الرؤيا: رُؤًى، أي: أخبروني بحُكْم هذه الرؤيا. ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارةُ مشتقَّةٌ من عُبور النهر، فمعنى عَبَرتُ النهر: بلغت شاطئه، فعابِرُ الرؤيا يَعْبُر بما يؤول إليه أمرُها. واللام في «للرؤيا»

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٤٧.

(٢) ٢/ ١٧٨.

(٣) قطعة من حديث حذيفة ﷺ أخرجه أحمد (٢٣٣٢٨) بلفظ: «فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر». وقد سلف بنحوه ٢/ ١٨٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٠٤) من حديث عبد الله بن حوالة ﷺ. وصياصي البقر: قرونها. اللسان (صيص).

(٥) ذُكر هذا الكلام في كتاب تفسير الأحلام المنسوب لابن سيرين ص٢١٤ دون نسبة.

للتَّبيين، أي: إن كنتم تَعبُرون، ثم بَيَّن فقال: للرؤيا؛ قاله الزجَّاج[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ قال الفرَّاء: ويجوز: أضغاثَ أحلام[٢]؛ قال النحاس: النصبُ بعيد؛ لأنَّ المعنى: لم ترَ شيئاً له تأويلٌ، إنما هي أضغاثُ أحلام[٣]، أي: أخلاط. وواحد الأضغاث ضِغث، يقال لكلِّ مختلِطٍ من بَقْلٍ أو حشيشٍ أو غيرهما: ضِغث[٤]؛ قال الشاعر:

كضِغثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حالِمُهْ[٥]

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ قال الزجَّاج: المعنى: بتأويل الأحلام المختلِطة[٦]. نَفَوا عن أنفسهم علمَ ما لا تأويلَ له، لا أنَّهم نفَوْا عن أنفسهم علمَ التأويل.

وقيل: نفَوا عن أنفسهم علمَ التعبير. والأضغاثُ على هذا: الجماعاتُ من الرؤيا التي منها صحيحةٌ ومنها باطلة، ولهذا قال الساقي: «أنا أُنبِّئُكم بتأويله»، فعَلِم أنَّ القوم عجزوا عن التأويل، لا أنهم ادَّعَوا ألَّا تأويل لها.

وقيل: إنهم لم يقصِدوا تفسيراً، وإنما أرادوا مَحْوَها من صدر المَلِك حتى لا تَشْغَلَ باله[٧]، وعلى هذا أيضاً فعندهم علم.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ١١٢ . قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٢٣ : وعَبَرت الرؤيا ـ بالتخفيف ـ هو الذي اعتمده الأثبات.

(٢) يعني في اللغة، لا في القراءة، أي: رأيتَ أضغاثَ أحلام. معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ .

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٣١ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣١ .

(٥) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣١ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٨ .

و«الأَحْلَامُ» جمع حُلْم، والحُلْم بالضمِّ: ما يراه النائم؛ تقول منه: حَلَم بالفتح واحْتَلَم، وتقول: حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال:

فحلمتُها وبنو رُفَيْدةَ دونَها لا يَبْعَدَنَّ خَيالُها المحلومُ[1]

وأصله: الأناة، ومنه الحِلْم ضدُّ الطَّيش؛ فقيل لِمَا يُرى في النوم: حُلْم؛ لأنَّ النوم حالةُ أناةٍ وسكونٍ وَدَعة[2].

الثانية: في الآية دليلٌ على بُطْلان قولِ مَن يقول: إن الرؤيا على أوَّل ما تُعْبَر[3]؛ لأنَّ القوم قالوا: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ» ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسَّرها على سِنِيِّ الجَدْب والخِصب، فكان كما عبَر، وفيها دليلٌ على فساد [الرواية] أنَّ الرؤيا على رِجلِ طائر، فإذا عُبِرَتْ وقعت[4].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعني ساقيَ الملك. ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد

---

(١) الصحاح (حلم)، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص٨٨ . ورفيدة: أبو حي من العرب يقال لهم: الرفيدات. اللسان (رفد).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢ .

(٣) أخرج ابن ماجه (٣٩١٥) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «... والرؤيا لأول عابر». قال الحافظ في الفتح ١٢/ ٤٣٢ : وهو حديث ضعيف فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه بسند حسن وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي...، وينظر هذا الشاهد في التعليق الذي سيأتي.

(٤) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٣٢ ، ونقله الكيا عن أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٣ ، وما سلف بين حاصرتين منهما: وقوله: الرؤيا على رجل طائر... هو حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٦١٨٢) وأبو داود (٥٠٢٠) والترمذي (٢٢٧٩) وابن ماجه (٣٩١٤) من حديث أبي رزين العقيلي ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال السندي في شرح سنن ابن ماجه ٢/ ٤٥١ : قوله: «رجل طائر» بكسر الراء، كأنها معلقة بطائر، قيل: هذا مَثَل، والمراد أنها لا يستقر قرارها ما لم تعبَر.

حين؛ عن ابن عباس وغيره[١]، ومنه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨] وأصلُه: الجملةُ من الحين.

وقال ابن دَرَستويه[٢]: والأُمَّةُ لا تكون الحينَ إلَّا على حذفِ مضاف، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، كأنه قال ـ والله أعلم ـ: وادَّكر بعد حينِ أمَّةٍ، أو بعد زمنِ أُمَّة، وما أَشْبَهَ ذلك، والأمَّةُ: الجماعةُ الكثيرة من الناس.

قال الأخفش: هو في اللفظ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ. وكلُّ جنسٍ من الحيوان أمَّة؛ وفي الحديث: «لولا أنَّ الكلاب أمَّةٌ من الأمم لأمرتُ بقَتْلِها»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكَّر حاجةَ يوسف، وهي قوله: «اذْكُرْني عند رَبِّكَ». وقرأ ابن عباس فيما روى عفَّان، عن همَّام، عن قتادة، عن عِكرمة، عنه: «وادَّكر بعدَ أَمَهٍ»؛ النحاس[٤]: والمعروف من قراءة ابنِ عباس وعِكرمة والضَّحاك[٥]: «وادَّكَر بعدَ أَمَهٍ»، بفتح الهمزة وتخفيف الميم، أي: بعد نسيان؛ قال الشاعر:

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنسى حديثاً كذاكَ الدهرُ يُودِي بالعقولِ[٦]

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي[٧]: «بعد أَمْهٍ» بفتح الألف وإسكان الميم وهاءٍ

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ١٨١ - ١٨٤ .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان، أبو محمد الفارسي النحوي، تلميذ المبرد، وكان ناصراً لنحو البصريين، توفي سنة (٣٤٧هـ). السير ١٥/ ٥٣١ .

(٣) الصحاح (أمم). والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٨٨) وأبو داود (٢٨٤٥) والترمذي (١٤٨٦) والنسائي ٧/ ١٨٥ وابن ماجه (٣٢٠٥) من حديث عبد الله بن مغفل المزني ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٢ ، وما قبله منه، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤ .

(٥) قوله: والضحاك، ليس في معاني القرآن، وأخرج القراءة عنه وعن ابن عباس وعكرمة وغيرهم الطبري ١٣/ ١٨٤ - ١٨٦ .

(٦) الصحاح (أمه).

(٧) اضطرب الاسم في النسخ الخطية، والمثبت من (م) وهو الصواب، قال الحافظ في التقريب: شُبَيْل ـ بالتصغير ـ بن عَزْرة بفتح المهملة بعدها زاي ساكنة ثم راء، أبو عمرو البصري النحوي، وقال في التهذيب ٢/ ١٥٢ : روى عن أنس وغيره، وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل البصرة وقُرَّائهم. اهـ. والقراءة ـ التي ستأتي ـ ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٤٩ . وأخرجها الطبري ١٣/ ١٨٦ عن مجاهد.

خالصة. وهو مثل الأَمَه، وهما لغتان، ومعناهما: النِّسيان. ويقال: أَمِهَ يأمَهُ أَمَهاً: إذا نَسيَ؛ فعلى هذا: «وادَّكَرَ بعدَ أَمَهٍ»؛ ذكره النحاس[1]. ورجلٌ أَمِهٌ[2]: ذاهِبُ العقل.

قال الجوهريُّ: وأمَّا ما في حديث الزُّهريِّ: «أَمِهَ» بمعنى: أقرَّ واعترف، فهي لغةٌ غيرُ مشهورة[3].

وقرأ الأشهب العُقَيليُّ: «بَعْدَ إِمَّةٍ»، أي: بعد نعمة، أي: بعد أن أنعم اللهُ عليه بالنَّجاة[4].

ثم قيل: نسي الفتى يوسفَ؛ لقضاء الله تعالى في بقائه في السجن مُدة. وقيل: ما نسي، ولكنه خاف أن يذكِّرَ الملكَ الذنبَ الذي بسببه حُبس هو والخبَّاز، فقوله: «وادَّكَرَ» أي: ذَكَر وأخبر.

قال النحاس[5]: أصل ادَّكَر: اذْتكر، والذالُ قريبةُ المَخرج من التاء، ولم يَجُز إدغامُها فيها؛ لأنَّ الذال مجهورةٌ، والتاء مهموسةٌ، فلو أدغموا ذهب الجهر، فأبدلوا من موضع التاء حرفاً مجهوراً، وهو الدال، وكان أَوْلى من الطاء؛ لأنَّ الطاء مُطْبَقة، فصار: اذْدَكَر، فأدغموا الذال في الدال [فصار: ادَّكر. وحكى الخليل وسيبويه أنَّ من العرب مَن يقول: اذَّكر، فيدغم الدال في الذال] لرخاوة الذَّال[6] ولِيْنِها.

ثم قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أنا أخبركم. وقرأ الحسن: «أنا آتيكم

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٨: يقال: أَمِه يأمَه أَمَهاً وأمْهاً بفتح الميم وسكونها.

(٢) بعدها في (د) و(ف): ووامه، وفي (ز): وأمة، وفي (ظ): وأمَّة، والمثبت من (م). وجاء في تهذيب اللغة ٦/ ٤٧٥ عن الفراء: أمِه الرجل فهو مأموه، وهو الذي ليس له عقل.

(٣) الصحاح (أمه). وحديث الزهري هو: من امتُحن في حدٍّ فأمِهَ ثم تبرَّأ، فليست عليه عقوبة: غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٤٧٧.

(٤) المحتسب ١/ ٣٤٤، وهي أيضاً في القراءات الشاذة ص٦٤.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: الدال، والمثبت من إعراب القرآن، وهو الصواب لأن الدال من الحروف الشديدة.

بتأويلِهِ»، وقال: كيف ينَبِّئهم العِلْج؟! قال النحاس[١]: ومعنى: «أَنبَّئُكُمْ» صحيحٌ حسن، أي: أنا أُخبركم إذا سألتُ.

﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ خاطَبَ الملكَ ولكنْ بلفظ التعظيم، أو خاطب الملك وأهلَ مجلسه. ﴿يُوسُفُ﴾ نداءٌ مفرَد، وكذا ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: الكثيرُ الصِّدق[٢]. ﴿أَفۡتِنَا﴾ أي: فأرسَلوه، فجاء إلى يوسف فقال: أيها الصِّدِّيق، وسأله عن رؤيا الملك. ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: إلى الملك وأصحابه. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ التعبير، أو «لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ» مكانَك من الفضل والعلم فتخرج. ويحتمل أن يريدَ بالناس الملكَ وحده تعظيماً له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾ لمَّا أعلمه بالرؤيا جعل يفسِّرها له، فقال: السبعُ من البقرات السِّمان والسُّنبلاتِ الخضر سبعُ سنين مُخْصِبات، وأمَّا البقرات العِجافُ والسُّنبلاتُ اليابساتُ فسبعُ سنين مُجْدِبات، فذلك قوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ أي: متواليةً متتابعة، وهو مصدرٌ على غير المصدر[٣]؛ لأنَّ معنى «تَزْرَعُونَ»: تدأبون[٤] كعادتكم في الزراعة سبعَ سنين. وقيل: هو حال، أي: دائبين. وقيل: صفةٌ لسبع سنين، أي: دائبةً.

وحكى أبو حاتم عن يعقوبَ: «دَأَباً» بتحريك الهمزة، وكذا روى حفصٌ عن

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣ ، وما قبله منه، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣١ .

(٣) في (د) و(ز): الصدر.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ . وهذا القول ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٥١٠ عن المبرد، وأنه من باب. قعدت القرفصاء. قال السمين: وفيه نظر؛ لأنه ليس نوعاً خاصاً به، بخلاف القرفصاء مع القعود. وذَكر عن سيبويه: أنه منصوب بفعل مقدَّر، تقديره: تدأبون.

عاصم، وهما لغتان، وفيه قولان: قولُ أبي حاتم: أنه من دَئِب. قال النحاس[1]: ولا يَعرف أهلُ اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر: أنه حُرِّك لأنَّ فيه حرفاً من حروف الحَلْق؛ قاله الفرَّاء، قال[2]: وكذلك كلُّ حرفٍ فُتح أوَّلُه وسكِّن ثانيه، فتثقيلُه جائزٌ إذا كان ثانيه همزةً، أو هاء، أو عيناً، أو غيناً، أو حاء، أو خاء، وأصلُه العادة؛ قال:

كـدأبـكَ مِـن أُمِّ الـحُـوَيـرث قَـبْـلَـهـا

وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[3].

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يتسوَّس، وليكونَ أبقى؛ وهكذا الأمرُ في ديار مصر. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرِجوا ما تحتاجون إليه بقَدْرِ الحاجة؛ وهذا القولُ منه أمر، والأولُ خبر. ويَحْتَمِل أن يكون الأولُ أيضاً أمراً وإن كان الأظهرُ منه الخبر؛ فيكون معنى: «تَزْرَعُونَ»، أي: ازرعوا[4].

الثانية: هذه الآيةُ أصلٌ في القول بالمصالح الشرعية؛ التي هي: حِفظُ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكلُّ ما تَضَمَّن تحصيلَ شيءٍ من هذه الأمور فهو مصلحة، وكلُّ ما يُفوِّت شيئاً منها فهو مفسدة، ودفعُه مصلحة، ولا خلافَ أنَّ مقصود الشرائع إرشادُ الناس إلى مصالحهم الدُّنْيويَّة؛ ليحصُلَ لهم التمكُّنُ من معرفة الله تعالى وعبادته الموصِلتَيْن إلى السعادة الأُخْرَوِيَّة، ومراعاةُ ذلك فضلٌ من الله عزَّ وجلَّ ورحمةٌ رَحِمَ بها عبادَه، من غير وجوبٍ عليه ولا استحقاق؛ هذا مذهبُ كافَّةِ المحقِّقين من أهل السُّنَّة أجمعين؛ وبسطُه في أصول الفقه.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٢ ، وما قبله منه. وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٢٩ ، وقراءة حفص في السبعة ص٣٤٩ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤٧ .

(٣) ٥/ ٣٥ ، وسلف البيت ثَمَّ، وهو لامرئ القيس، وعجزه: وجارتِها أم الرباب بمأسل، وهو في ديوانه ص٩ برواية: كدِينك، بدل: كدأبك.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٢٥ ، وقال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٠٩ : ولا مدخل لأمره لهم بالزراعة؛ لأنهم يزرعون على عادتهم، أَمَرهم أو لم يأمرهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السِّنينَ المُجْدِبَات. ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مَجاز، والمعنى: يأكل أهلُهنّ. ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: ما ادَّخرتم لأَجْلِهنّ[1]؛ ونحوُه قولُ القائل:

نـهـارُك يـا مـغـرورُ سـهـوٌ وغـفـلـةٌ ... ولـيـلُـكَ نـومٌ والـرَّدَى لـكَ لازمُ[2]

والنهارُ لا يَسهو، والليل لا ينام؛ وإنما يُسهى في النهار، ويُنام في الليل.

وحكى زيد بنُ أَسْلَمَ عن أبيه: أنَّ يوسف كان يضع طعام اثنين، فيقرِّبُه إلى رجلٍ واحدٍ، فيأكل بعضَه، حتى إذا كان يومٌ قَرَّبه له فأكله كلَّه، فقال يوسف: هذا أوَّلُ يومٍ من السَّبع الشِّداد[3].

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء. ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: ممَّا تَحبسون لتزرعوا[4]؛ لأن في استبقاء البَذْر تحصينَ الأقوات. وقال أبو عبيدة: تُحْرِزون[5]. وقال قتادة: «تُحْصِنُونَ»: تدَّخرون[6]. والمعنى واحد، وهو يدلُّ على جواز احتكارِ الطعام إلى وقت الحاجة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢.

(٢) نسبه ابن رشيق في العمدة ١/ ٣٧، والعاملي في الكشكول ٢/ ٣٨٢ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى. وجاء في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص٣٣١، وصفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٢٤-١٢٥ أن عمر كان يتمثل به. وهو في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٠ - ١٩١ دون نسبة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣١٣، وأخرجه الطبري ١٣/ ١٩٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩١ - ١٩٢.

الثانية: هذه الآية أصلٌ في صحَّة رؤيا الكافر، وأنها تُخرَّج على حَسَب ما رأى، لا سيَّما إذا تعلَّقتْ بمؤمن، فكيف إذا كانت آيةً لنبيٍّ، ومعجزةً لرسول، وتصديقاً لمصطفًى للتبليغ، وحجَّةً للواسطة بين الله جلَّ جلالُه وبين عبادِه[١]؟

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبرٌ من يوسف عليه السلام عمَّا لم يكن في رؤيا الملك، ولكنه مِن علم الغيب الذي آتاه الله؛ قال قَتَادة: زاده الله عِلمَ سَنَةٍ لم يسألوه عنها[٢]، إظهاراً لفضله، وإعلاماً بمكانه من العلم ومعرفته.

﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الإغاثة أو الغوث؛ غَوَّثَ الرجل، قال: واغَوْثاه، والاسم: الغَوْث والغُوَاث والغَوَاث، واستغاثني فلانٌ فأغثته، والاسم: الغِياث؛ صارت الواو ياءً لكسرةِ ما قَبْلَها. والغيث: المطر، وقد غاث الغيثُ الأرضَ، أي: أصابها؛ وغاث اللهُ البلادَ يَغِيثُها غَيْثاً، وغِيثَتِ الأرضُ تُغاث غَيْثاً، فهي أرضٌ مَغِيثة ومَغْيوثة[٣]. فمعنى: «يُغَاثُ النَّاسُ»: يُمطَرون.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعصرون الأعناب والدُّهن؛ ذكره البخاريّ[٤].

وروى حجَّاجٌ عن ابن جُرَيج قال: [قال ابن عباس:] يعصرون العنب خمراً، والسِّمسِمَ دُهناً، والزيتون زيتاً[٥].

وقيل: أراد حلبَ الألبان لكثرتها[٦]؛ ويدلُّ ذلك على كثرة النبات.

وقيل: «يَعْصِرُونَ» أي: يَنجُون، وهو من العُصْرة، وهي المَنْجاة؛ قاله

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٣، وما بعده من كلام ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٧٨.

(٣) الصحاح (غوث) و(غيث).

(٤) قبل الحديث (٦٩٩٢)، ووصله الطبري ١٣/ ١٩٤.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ١٩٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: فيه يحلبون.

أبو عبيدة[١]. والعَصَر بالتحريك: المَلْجأ والمَنْجاة، وكذلك العُصْرة؛ قال أبو زُبَيد[٢]:

صادِياً يَستغِيثُ غَيرَ مُغَاثٍ ولقد كانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود: الفَزِع[٣]. واعتصرتُ بفلان وتَعصَّرتُ، أي: التجأت إليه. قال أبو الغوث: «يَعْصِرُونَ»: يَسْتَغِلُّونَ؛ وهو من عَصْر العنب. واعتصرت مالَه، أي: استخرجته من يده[٤].

وقرأ عيسى: «تُعْصَرُونَ» بضمِّ التاء وفتح الصاد[٥]، ومعناه: تُمطَرون؛ من قول الله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، وكذلك معنى «تُعصِرون» بضمِّ التاء وكسر الصاد، فيمَن قرأه كذلك[٦].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ أي: فذهب الرسولُ فأخبر الملك، فقال:

---

(١) في (د) و(م): قال أبو عبيدة، والمثبت من باقي النسخ، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (عصر) وما بعده منه. وقد ردَّه الطبري ١٣/ ٢٠٥ وقال: يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين.

(٢) حرملة بن منذر الطائي، ويقال: المنذر بن حرملة. كان نصرانياً واختلف في إسلامه. وهو أحد المعمَّرين، يقال عاش مئة وخمسين سنة. الإصابة ١١/ ١٥٤ . والبيت في تفسير الطبري ١٣/ ١٩٧، وأمالي اليزيدي ص٨ ، والصحاح (عصر)، والاقتضاب ص٣٩٠ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٣٥ .

(٤) الصحاح (عصر)، وأبو الغوث الأعرابي ممن سمع منهم الجوهري، وقد ورد ذكره في الصحاح في غير موضع.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ٣١٦، وذكر عن عيسى أيضاً أنه قرأ: «يُعصَرون» بضم الياء وفتح الصاد، وكذلك ذكرها عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٤ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٤ .

(٦) لم نقف على هذه القراءة.

ائتوني به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: يأمره بالخروج، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أي: حال النسوة ﴿ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. فأبى أن يَخرجَ إلَّا أن تصحَّ براءتُه عند الملك مما قُذِف به، وأنه حُبس بلا جُرْم[١].

وروى الترمذيُّ عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الكريم ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بن إبراهيم». قال: «ولو لبِثْتُ في السِّجن ما لَبِث، ثم جاءني الرسولُ، أَجَبْتُ»، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ قال: «ورحمةُ الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ فما بَعَثَ اللهُ من بعده نبيًّا إلَّا في ذِرْوةٍ من قومه»[٢].

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرْحمُ اللهُ لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السِّجن ما لَبِثَ يوسفُ لأَجَبْتُ الدَّاعي، ونحن أحقُّ من إبراهيم إذ قال له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠][٣]».

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسفَ، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثتُ في السجن ما لَبِثَه؛ أجبتُ الداعيَ ولم ألتمس العُذْر»[٤]. وروي نحوُ هذا الحديثِ من طريق عبد الرحمن بنِ القاسم صاحبِ مالك، في كتاب التفسير من «صحيح» البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيرُه[٥]. وفي رواية الطَّبريّ[٦]:

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٢، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٧٩.

(٢) سنن الترمذي (٣١١٦)، وهو عند أحمد (٨٣٩١). وقد سلفت القطعة الأخيرة منه ص١٨١ من هذا الجزء. والعبارة الأولى أخرجها أحمد (٨٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجها أيضاً (٥٧١٢)، والبخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) صحيح البخاري (٤٦٩٤)، وهو عند أحمد (٨٣٢٨ - ٨٣٢٩)، ومسلم (١٥١). وسلف ٤/ ٣١٠.

(٤) أخرج نحوه أحمد (٨٥٥٤)، والطبري ١٣/ ٢٠٠ - ٢٠١، والحاكم ٢/ ٣٤٦. من حديث أبي هريرة ﷺ. وكلام المصنف في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢، والحديث المشار إليه عند البخاري هو حديث أبي هريرة السالف.

(٦) في تفسيره ١٣/ ٢٠٠.

«يرحم الله يوسفَ، لو كنت أنا المحبوسَ ثم أُرسل إليَّ، لخرجتُ سريعاً، إنْ كان لحليماً ذا أناة».

وقال ﷺ: «لقد عجبتُ من يوسف وصبرِه وكرمه، واللهُ يغفر له حين سئل عن البقرات، لو كنت مكانَه لَمَا أخبرتُهم حتى أَشْتَرِطَ أن يُخْرِجوني، ولقد عجبتُ منه حين أتاه الرسولُ، ولو كنتُ مكانَه لبادَرْتُهم الباب»[1].

قال ابن عطية[2]: كان هذا الفعلُ من يوسفَ عليه السلام أناةً وصبراً، وطَلَباً لبراءة الساحة، وذلك أنه ـ فيما روي ـ خشي أن يخرج وينالَ من الملك مرتبةً، ويسكت عن أمرِ ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأةَ مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن يبيِّن براءته، ويحقِّق منزلته[3] من العِفَّة والخير، وحينئذٍ يخرج للإحظاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: ارجع إلى ربِّك وقل له: ما بالُ النسوة؟ ومقصدُ يوسفَ عليه السلام إنما كان: وقل له: يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري، هل سُجنت بحقٍّ أو بظلم. ونَكَب عن [ذِكْر] امرأة العزيز حُسنَ عِشرةٍ، ورعايةً لذِمام الملك العزيزِ له.

فإن قيل: كيف مَدَح النبيُّ ﷺ يوسفَ بالصبر والأناة وتركِ المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالةٍ قد مَدح بها غيره؟

فالوجه في ذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أخذ لنفسه وجهاً آخَرَ من الرأي، له جهةٌ أيضاً من الجودة، يقول: لو كنتُ أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيانَ عذري بعد ذلك. وذلك أنَّ هذه القصصَ والنوازل [إنما] هي معرَّضةٌ لأنْ يقتديَ الناسُ بها إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حَمْلَ الناس على الأَحْزَمِ من الأمور؛ وذلك أنَّ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٠٢ ، والطبراني (١١٦٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٧٩ .

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٢ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في المحرر الوجيز: أن تبين براءته، وتتحقق منزلته.

المُتَعمِّق[١] في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصةَ الخروجِ من مثلِ ذلك السجن، ربما نَتَج له [من ذلك] البقاءُ في سجنه، وانصرفت نفسُ مُخْرِجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أَمِن من ذلك بعلمه من الله؛ فغيرُه من الناس لا يأمن ذلك، فالحالةُ التي ذهب النبيُّ ﷺ بنفسه إليها حالةُ حزمٍ [ومدح]، وما فَعَلَه يوسفُ عليه السلام صبرٌ عظيمٌ وجَلدٌ.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ذَكرَ النِّساءَ جملةً ليدخل فيهنَّ امرأة العزيز، مدخلَ العمومِ بالتلويح، حتى لا يقعَ عليها تصريح؛ وذلك حُسنُ عِشرةٍ وأدب، وفي الكلام محذوف، أي: فاسأله أن يتعرَّفَ ما بالُ النِّسوة.

قال ابن عباس: فأرسل الملكُ إلى النسوة وإلى امرأة العزيز ـ وكان قد مات العزيز ـ فدعاهنَّ فَـ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: ما شأنكنّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وذلك أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كلَّمت يوسف في حقِّ نفسها، على ما تقدَّم[٢]، أو أراد قولَ كلٍّ واحدة: قد ظلمتَ امرأةَ العزيز، فكان ذلك مراودةً منهنّ. ﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: زِنًى. ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا رأت إقرارَهنَّ ببراءة يوسف، وخافت أن يَشهدنَ عليها إن أنكرت، أقرَّت هي أيضاً، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف.

و«حَصْحَصَ الْحَقُّ» أي: تبيَّن وظَهر، وأصله: حَصَصَ، فقيل: حَصْحَصَ، كما قال: كُبْكِبُوا، في كُبِبوا، وكَفكَف في كَفَفَ؛ قاله الزجَّاج وغيره[٣].

وأصل الحَصِّ: استئصال الشيء؛ يقال: حصَّ شعرَه: إذا استأصله جَزًّا[٤]؛ قال

(١) في النسخ: وذلك أن ترك الحزم في مثل، والمثبت من المحرر الوجيز، ويعني بالمتعمِّق: المبالغ في الأمر المتشدِّد فيه.

(٢) ص٣٤٠ من هذا الجزء.

(٣) ذكره عن الزجاج الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧، وقاله أيضاً النحاس في معاني القرآن ٥/ ٨٩، والطبري ١٣/ ٢٠٦.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٦.

أبو قيس بنُ الأَسْلَت[١]:

قـد حَـصَّـت الـبـيـضـةُ رأسـي فـمـا أَطـعَـمُ نـومـاً غـيـرَ تَـهْـجـاعِ

وسَنَةٌ حصَّاء، أي: جرداءُ لا خيرَ فيها؛ قال جَرير:

يـأوي إلـيـكـم بـلا مَـنٍّ ولا جَـحَـدٍ مَـن سـاقَـه الـسَّـنـةُ الـحـصَّـاءُ والـذِّيـبُ

كأنه أراد أن يقول: والضَّبعُ، وهي السنة المُجْدِبة؛ فوضع الذئب موضعَه لأجل القافية[٢]؛ فمعنى «حَصْحَصَ الْحَقُّ»، أي: انقطع عن الباطل بظهوره وثباته؛ قال:

أَلَا مُـبْـلِـغٌ عـنِّـي خِـدَاشـاً فـإنَّـهُ كَذوبٌ إذا ما حَصحصَ الحقُّ ظالمُ[٣]

وقيل: هو مشتقٌّ من الحِصَّة؛ فالمعنى: بانت حِصَّةُ الحقِّ من حِصَّة الباطل[٤]. وأصله[٥] مأخوذٌ من قولهم: حَصَّ شَعْرَه: إذا استأصل قطعةً [فظهرت مواضعه]، ومنه: الحِصَّة من الأرض: إذا قُطعت منها. والحِصْحِص بالكسر: التراب والحجارة؛ ذكره الجوهري[٦].

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا القولُ منها ـ وإن لم يكن سأل عنه ـ إظهارٌ لتوبتها، وتحقيقٌ لصدق يوسف وكرامته؛ لأنَّ إقرار المُقِرِّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه، فجمع اللهُ تعالى ليوسف لإظهار صدقِه الشهادةَ والإقرار، حتى لا يخامرَ نفساً ظنٌّ، ولا يخالطَها شكٌّ[٧].

---

(١) الأوسي، مختلف في اسمه، فقيل: صيفي، وقيل: الحارث، وقيل: عبد الله، وقيل صِرْمة. واختلف في إسلامه. الإصابة ١١/ ٣٠٩. والبيت في المفضليات ص٢٨٤، والكامل ١/ ٢٣٥، والصحاح (حصص)، والخزانة ٣/ ٤١١.

(٢) الصحاح (حصص)، والبيت في ديوان جرير ١/ ٣٤٩ (بشرح ابن حبيب).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٥، وزاد المسير ٤/ ٢٣٧.

(٥) وقع قبلها في النسخ قوله: وقال مجاهد وقتادة، وهو وهم، والكلام في النكت والعيون ٣/ ٤٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في الصحاح (حصص).

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

وشُدِّدت النون في «خَطْبُكُنَّ» و«رَاوَدْتُنَّ» لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكَّر[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ اختُلف فيمن قاله، فقيل: هو مِن قول امرأة العزيز، وهو متَّصل بقولها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾[2] أي: أقررتُ بالصدق ليعلمَ أني لم أخنه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي[3]: بالكذب عليه، ولم أذكره بسوءٍ وهو غائب، بل صدقتُ وحِدت عن الخيانة، ثم قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ بل أنا راودته، وعلى هذا هي كانت مُقِرَّةً بالصانع، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقيل: هو من قول يوسف، أي: قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلتُه من ردِّ الرسول «لِيَعْلَمَ» العزيزُ ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. قاله الحسن وقَتادة وغيرهما[4].

ومعنى «بالغيب»: وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة المَلِك، وقال: «لِيَعْلَمَ» على الغائب؛ توقيراً للملك. وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسولُ وهو في السجن بعدُ، قال ابن عباس: جاء الرسولُ إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه، فقال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي: لم أَخُن سيِّدي بالغيب؛ فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف، ولا حين حَلَلْت الإزارَ، وجلستَ مجلسَ الرجلِ من المرأة؟! فقال يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾ الآية[5]. وقال السّديُّ: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف؟! فقال

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤ .

(٣) قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾، أي، من (م).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، والنكت العيون ٣/ ٤٧ .

(٥) سلف في الصفحة ٣١٢ من هذا الجزء، وينظر ما ذكرنا ثمة من ردود العلماء على هذا الخبر وما شابهه من الأخبار التي تنافي عصمة الأنبياء.

يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾[١].

وقيل: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ من قول العزيز، أي: ذلك ليعلم يوسفُ أني لم أَخُنه بالغيب، وأني لم أغفُل عن مُجازاته على أمانته[٢]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ معناه: أنَّ الله لا يهدي الخائنين بكيدهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ قيل: هو من قول المرأة. وقال القُشَيريُّ: فالظاهر أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من قول يوسف.

قلت: إذا احتمل أن يكون من قول المرأة؛ فالقولُ به أولى حتى نبرِّئ يوسفَ من حَلِّ الإزار والسَّراويل، وإذا قدَّرناه من قول يوسف؛ فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدَّمناه من القول المختار في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [الآية: ٢٤].

قال أبو بكر الأنباريُّ[٤]: من الناس مَن يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ من كلام امرأة العزيز، لأنه متصل بقولها: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا مذهبُ الذين يَنفون الهمَّ عن يوسف عليه السلام، فَمَن بنى على قولهم قال: من قوله: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كلامٌ متصلٌ بعضُه ببعض، ولا يكون فيه وقفٌ تامٌّ على حقيقة، ولسنا نختار هذا القولَ ولا نذهب إليه.

وقال الحسن: لمَّا قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كره نبيُّ الله أن يكون قد زكَّى نفسَه فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾[٥] لأن تزكيةَ النفس مذمومةٌ، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، وقد بيَّناه في «النساء»[٦].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٢٤ - ٧٢٥.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٦) ٦/ ٤٠٧ وما بعدها.

وقيل: هو من قول العزيز، أي: وما أُبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف[١].

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: مُشتهيةٌ له. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ في موضع نصب بالاستثناء[٢]، و«ما» بمعنى مَنْ، أي: إلا مَن رَحِمَ ربي فعصمه، و«ما» بمعنى مِن كثير، قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]. وهو استثناءٌ منقطع؛ لأنه استثناء المرحوم بالعصمة مِن النفس الأمارة بالسوء[٣]. وفي الخبر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما تقولون في صاحبٍ لكم؛ إنْ أنتم أكرمتُموه وأطعمتُموه وكسوتُموه أفضى بكم إلى شرِّ غاية، وإنْ أهنتُموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية» قالوا: يا رسولَ الله، هذا شرُّ صاحب في الأرض. قال: «فوالذي نفسي بيده، إنها لَنفوسكم التي بين جُنوبكم»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ لمَّا ثبت للملِك براءتُه مما نُسب إليه، وتحقَّق في القصة أمانتَه، وفهِمَ أيضاً صبرَه وجَلَده؛ عظُمت منزلتُه عنده، وتيقَّن حسنَ خِلاله قال: «ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي». فانظر إلى قول الملك أولاً ـ حين تحقق عِلمَه ـ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ [يوسف: ٥٠] فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾[٥].

ورُوي عن وهب بن مُنبِّه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب، فقال: حسبي ربِّي من خَلقه، عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، ولا إلهَ غيرُه. ثم دخل، فلمَّا نظر إليه الملِك نزل

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١، وتفسير الرازي ١٨/ ١٥٧.

(٤) لم نقف عليه، والله أعلم بصحته.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٥.

عن سريره فخرَّ له ساجداً، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. ﴿قَالَ﴾ له يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائن ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصرفاتها[١]. وقيل: حافظٌ للحساب، عليمٌ بالألسن[٢].

وفي الخبر: «يرحَم اللهُ أخي يوسفَ، لو لم يَقُلْ: اجعَلْني على خزائن الأرض لاستعملَه مِن ساعته، ولكن أخَّر ذلك سنة»[٣].

وقيل: إنما تأخَّر تمليكه إلى سنة؛ لأنه لم يقل: إن شاء اللهُ[٤].

وقد قيل في هذه القصة: إنَّ يوسفَ عليه السلام لمَا دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرِّه وشرِّ غيره، ثم سلَّم على الملك بالعربية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: هذا لسان عَمِّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال: ما هذا اللسان؟! قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكان الملك يتكلَّم بسبعين لساناً، فكلَّما كلَّم يوسفَ[٥] بلسانٍ أجابه يوسفُ بذلك اللسان، فأعجب الملكَ أمرُه، وكان يوسفُ إذ ذاك ابنَ ثلاثين سنة، ثم أجلسه على سريره وقال: أُحبُّ أن أسمع منك رؤيايَ، قال يوسف: نعم أيها الملك، رأيتَ سبعَ بقرات سِمانٍ شُهْباً غُرًّا حِساناً[٦]، كشف لك عنهن النِّيلُ، فطلعن عليك من شاطئه تَشخَب أخلافُها لبناً، فبينا أنت تنظر إليهنَّ وتتعجب من حسنهنَّ إذ نَضَب النِّيلُ، فغار ماؤه،

---

(١) عرائس المجالس ص١٢٨ - ١٢٩ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢١٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢٤٣ .

(٣) أخرجه الثعلبي في عرائس المجالس ص١٢٩ - ١٣٠ من طريق إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، ومن طريق الثعلبي أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦١٨ ، قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٠ : وهذا إسناد ساقط.

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٥) في (م): فكلَّما تكلَّم الملك، والمثبت موافق لعرائس المجالس ص١٢٩ ، وهذه القصة بطولها فيه وفي تفسير البغوي ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢ ، وهي التي تكلم في إسنادها الحافظ ابن حجر كما سلف.

(٦) كذا في النسخ: شهباً غرًّا حساناً، وفي عرائس المجالس وتفسير البغوي: شهب غرٌّ حسان.

وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه وَوَحَله سبعُ بقرات عِجافٍ شُعْثٍ غُبْرٍ مُقَلَّصات البطون، ليس لهنَّ ضروعٌ ولا أخلاف، لهنَّ أنيابٌ وأضراس، وأكفٌّ كأكُفِّ الكلاب، وخراطيمُ كخراطيم السِّباع، فاختلطْنَ بالسِّمان، فافترسنهنّ افتراسَ السِّباع، فأكلن لحومَهنَّ، ومزَّقن جلودَهنَّ، وحطَّمن عظامَهنَّ، ومَشَّشْنَ[1] مُخَّهنَّ، فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غَلَبْنهنَّ وهنَّ مهازيل، ثم لم يظهر فيهنّ[2] سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبعِ سنابلَ خُضرٍ طَريات ناعماتٍ ممتلئات حبًّا وماءً، وإلى جانبهنَّ سبعٌ يابسات ليس فيهنَّ ماءٌ ولا خُضرة في مَنْبِتٍ واحد، عروقُهنَّ في الثرى والماء، فبينا أنت تقول في نفسك: أيُّ شيء هذا؟! هؤلاء خضرٌ مُثمرات، وهؤلاء سودٌ يابسات، والمَنْبِتُ واحد، وأصولُهنَّ في الماء، إذْ هبَّت ريحٌ فذَرت الأوراقَ من اليابسات السود على الخُضر المُثمرات، فأشعلَتْ فيهن النارَ، فأحرقتهنَّ، فَصِرْنَ سوداً مُغبَّراتٍ، فانتبهتَ مذعوراً أيها الملك، فقال الملك: واللهِ، ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجباً بأعجبَ مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصدِّيق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعامَ، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المُخصِبة، فإنك لو زَرَعْتَ على حَجر أو مَدَر لَنبت، وأظهر اللهُ فيه النَّماءَ والبركة، ثم ترفع الزرع بقصبه وسنبله، وتبني له المخازنَ العِظام، فيكون القصب والسُّنبل عَلَفاً للدوابّ، وحبُّه للناس، وتأمر الناسَ فيرفعون من طعامهم إلى أهْرَائك[3] الخُمْسَ، فَيكفيك من الطعام الذي جمعتَه لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخَلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحدٍ قبلَك، فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعتُ أهلَ مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أُمناء، فقال يوسف عليه السلام عند ذلك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على خزائن أرضك، وهي جمعُ خِزانة،

---

(١) التمشيش: استخراج المُخ. القاموس المحيط (مشش).

(٢) في (ز) و(ف) و(م): منهن.

(٣) الأهراء، جمع: هُرْي، وهو بيت كبير يُجمع فيه طعام السلطان. القاموس المحيط (هرو).

ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لهم شِيمَةٌ لم يُعْطِهَا اللهُ غَيْرَهُمْ مِنَ الجُودِ والأَحْلَامُ غيرُ كَوَاذِبِ[١]

قوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ﴾ جزم لأنه جواب الأمر[٢]؛ وهذا يدلُّ على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ جَرَى في السِّجن. ويَحتمل أنه جرى عند الملك، ثم قال في مجلس آخر: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ تأكيداً ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۖ﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، أفوّض إليه أمرَ مملكتي، فذهبوا فجاؤوا به، ودلَّ على هذا: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: كلَّم الملكُ يوسفَ، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف، فـ ﴿قَالَ﴾ الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: متمكِّنٌ نافذُ القول، «أَمِينٌ» لا تخاف غدراً[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالكَ بن أنس يقول: مصرُ خِزَانةُ الأرض، أما سمعت إلى قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ﴾[٤] أي: على حِفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وُلِّيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمره[٥]. وفي التفسير: إني حاسبٌ كاتب، وأنه أوّل من كتب في القراطيس[٦]. وقيل: «حَفِيظٌ» لتقدير الأقوات، «عَلِيمٌ» بسِني المجاعات[٧]. قال

---

(١) ديوان النابغة ص١٢، وفيه: عوازب، بدل: كواذب، وسلف البيت ٤/ ١٧١ وقوله: الأحلام: جمع حِلم، وهو الأناة والعقل. اللسان (حلم).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) لم نقف عليه عند سعيد بن منصور، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ عن مالك.

(٥) الوسيط ٢/ ٦١٨.

(٦) ذكره العسكري في الأوائل ٢/ ٢٠٢.

(٧) عرائس المجالس ص١٢٩.

جُويبر، عن الضّحاك، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أخي يوسفَ لو لم يقل: اجعلني على خزائن الأرض، لاستعمله من ساعته، ولكن أَخَّر ذلك عنه سنةً»[١].

قال ابن عباس: لمَّا انصرفت[٢] السَّنةُ من يوم سأل الإمارة؛ دعاه المَلِك، فتَوجَّه ورَدَّاه بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب، مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت، وضرب عليه حُلَّة من إِسْتَبرق، وكان طولُ السرير ثلاثين ذراعاً وعرضُه عشرةَ أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مِرْفَقة[٣]، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجاً، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظرُ وجهَه في[٤] صفاء لون وجهه، فجلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملكُ بيته مع نسائه، وفوَّض إليه أمرَ مِصر، وعزل قطفيرَ عما كان عليه، وجعل يوسفَ مكانه[٥].

قال ابن زيد: كان لفرعون ملكِ مصر خزائنُ كثيرةٌ غير الطعام، فسلَّم سلطانه كلَّه إليه[٦]، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوَّج الملكُ يوسفَ راعيلَ امرأةَ العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصدِّيق، لا تَلُمني، فإني كنت امرأةً حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعَلَك اللهُ مِن الحُسن، فغَلبتني نفسي. فوجدَها يوسفُ عذراءَ، فأصابها، فولدت له رجلين: إفرائيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف[٧].

---

(١) سلف ص٣٧٨ من هذا الجزء. وسلف ذكر قول الحافظ ابن حجر فيه: إن إسناده ساقط.

(٢) في (م): انصرمت.

(٣) المرفقة: المخدَّة. القاموس المحيط (رفق).

(٤) في (د) و(ف) و(م): من.

(٥) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢١٨.

(٧) عرائس المجالس ص١٣٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣.

وقال وَهْب بنُ مُنَبِّه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلتَي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسفُ في السجن، وذهب مالُها وعَمِيَ بصرُها بكاءً على يوسف، فصارت تَتَكَفَّف الناسَ، فمنهم مَن يرحمها ومنهم مَن لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كلِّ أسبوع مرةً في موكب زُهَاء مئة ألف من عظماء قومه، فقيل لها: لو تعرَّضْتِ له لعله كان يُسعفك بشيء، ثم قيل لها: لا تفعلي، فربما ذكر بعضَ ما كان منك من المُراودة والسجن فَيُسيء إليكِ، فقالت: أنا أعلم بخُلُق حبيبي منكم. ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه؛ قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان مَن جعل الملوكَ عبيداً بمعصيتهم، وجعل العبيدَ ملوكاً بطاعتهم، فقال يوسف: ما هذه؟ فأَتَوْا بها، فقالت: أنا التي كنتُ أخدُمك على صدور قدميَّ[1]، وأُرَجِّل جُمَّتك بيديَّ، وتربَّيتَ في بيتي، وأكرمتُ مثواك، لكن فرطَ ما فرطَ من جهلي وعُتوّي، فذقتُ وبالَ أمري، فذهبَ مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلِّي، وعَميَ بصري، وبعد ما كنت مغبوطةَ أهل مصر؛ صِرت مرحومتَهم، أتكفَّفُ الناسَ، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيتِ تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: واللهِ لنظرة إلى وجهك أحبُّ إليّ من الدنيا بحذافيرها، لكن ناولني صدرَ سوطك. فناولها فوضعته على صدرها، فوجدَ للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خَفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله، فأرسل إليها رسولاً: إن كنتِ أَيِّماً تزوّجناك، وإن كنتِ ذات بعل أغنيناك، فقالت للرسول: أعوذ بالله من أن يستهزئ بي الملك، لم يُردْني أيامَ شبابي وغناي ومالي وعزّي، أفيريدُني اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة؟! فأعلمه الرسولُ بمقالتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرَّضت له، فقال لها: ألم يُبلغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرةً واحدة إلى وجهك أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها. فأمر بها، فأصلح من شأنها وهُيئت، ثم زُفَّت إليه، فقام يوسف يصلِّي ويدعو اللهَ، وقامت وراءه،

---

(١) في (ظ): كنت أقدمك على صدور قومي، وفي (ز) و(ف): أنا الذي كنت أخدمك على صدور قومي.

فسأل اللهَ تعالى أن يعيدَ إليها شبابها وجمالَها وبصرَها، فردَّ اللهُ عليها شبابها وجمالها وبصرَها حتى عادت أحسنَ ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لمَّا عَفَّ عن محارم الله، فأصابها، فإذا هي عذراء[1]، فسألها، فقالت: يا نبيَّ الله، إن زوجي كان عِنِّيناً لا يأتي النساء، وكنتَ أنت من الحُسن والجمال بما لا يُوصف، قال: فعاشا في خَفْضِ عيشٍ، في كل يوم يُجدِّد اللهُ لهما خيراً، وولدت له ولدَين: إفراثيم ومنشا[2].

وفيما روي أن اللهَ تعالى ألقى في قلب يوسف من محبتها أضعافَ ما كان في قلبها، فقال لها: ما شأنُكِ لا تُحبينني كما كنتِ في أوّل مرةٍ؟ فقالت: لما ذقتُ محبةَ اللهِ تعالى شغلني ذلك عن كل شيء[3].

الثانية: قال بعضُ أهل العلم: في هذه الآية ما يُبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطانِ الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعلٍ لا يُعارضه فيه[4]، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره، فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصةً، وهذا اليومَ غيرُ جائز. والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم.

قال الماورديُّ[5]: فإن كان المُولِّي ظالماً فقد اختلف الناس في جواز الولاية من

---

(١) قال العلامة الآلوسي في تفسيره ١٣/ ٥ : وشاع عند القُصَّاص أنها عادت شابَّة بكراً إكراماً له عليه السلام.. وهذا مما لا أصل له، وخبر تزوجها أيضاً مما لا يُعوَّل عليه عند المحدثين.

(٢) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في المنتظم ١/ ٣١٥ بنحوها، وذكر في آخرها أنها ولدت اثني عشر ولداً. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ قسماً منها، ثم قال: ورُوي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته ويطول الكلام بسوقه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): في فصل لا يعارض فيه، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٦ (والكلام منه): في فصل ما لا يعارض فيه، والمثبت من (د) و(م).

(٥) في النكت والعيون ٣/ ٥٠ ، وما بين حاصرتين الآتي منه.

قِبَله على قولين:

أحدهما: جوازها إذا عمل بالحقّ فيما تقلَّده؛ لأن يوسفَ وُلِّي من قِبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقِّه بفعله؛ لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولِّي الظالمين بالمعونة لهم، وتزكيتهم بتنفيذ[1] أعمالهم، فأجاب من ذَهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قِبَل فرعون بجوابين:

أحدهما: أن فرعون يوسفَ كان صالحاً، وإنما الطاغي فرعونُ موسى.

الثاني: أنه نظر [له] في أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبِعة فيه.

قال الماورديُّ[2]: والأصحُّ من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يجوز لأهله فعلُه من غير اجتهادٍ في تنفيذه؛ كالصدقات والزكَوات، فيجوز تولِّيه من جهة الظالم، لأن النصّ على مستحقّه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرُّد أربابه به قد أغنى عن التقليد.

والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفرَّدوا به، ويلزم الاجتهادُ في مَصْرِفه، كأموال الفَيْء، فلا يجوز تولِّيه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حقٍّ، ويجتهد فيما لا يستحقّ.

والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه أهلُه[3]، وللاجتهاد فيه مدخل، كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد [فيه] محلول، فإن كان النظر تنفيذاً للحكم بين متراضِيَين، وتوسطاً بين مجبورين؛ جاز، وإنْ كان إلزامَ إجبارٍ لم يَجُزْ.

---

(١) في (م): بتقلّد.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٥١ .

(٣) في (م): لأهله، ووقع في (ف): ما لا يجوز أن يتولّاه لأهله.

الثالثة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على جواز أن يَخطب الإنسانُ عملاً يكون له أهلاً[١]، فإن قيل: فقد روى مسلمٌ، عن عبد الرحمن بن سَمُرة، قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عبدَ الرحمن، لا تسأل الإمارةَ؛ فإنك إنْ أُعطيتَها عن مَسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»[٢].

وعن أبي بُرْدة، قال: قال أبو موسى: أقبلتُ إلى النبيِّ ﷺ ومعي رجلان من الأشعريِّين، أحدهما عن يميني، والآخرُ عن يساري، فكلاهما سأل العملَ، والنبيُّ ﷺ يَستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس -» قال: قلت: والذي بعثك بالحقِّ، ما أطلعاني على ما في أنفُسهما، وما شعرتُ أنهما يَطلبان العملَ، قال: وكأني أنظر إلى سِواكه تحتَ شفتِه وقد قَلَصت، فقال: «لن، أو: لا نَستعملُ على عملنا مَن أراده» وذكر الحديث، خرَّجه مسلمٌ أيضاً وغيره[٣].

فالجواب: أولاً: أنَّ يوسف عليه السلام إنما طلب الولايةَ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامَه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى أنَّ ذلك فرضٌ متعيِّن عليه، فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكمُ اليومَ؛ لو عَلِمَ إنسان من نفسه أنه يقوم بالحقّ في القضاء أو الحسبة، ولم يكن هناك مَن يصلح ولا يقوم مقامَه؛ لَتَعيَّن ذلك عليه، ووجب أن يتولَّاها ويسألَ ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقُّها به مِن العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأمَّا لو كان هناك من يقوم بها ويَصلح لها، وعَلِمَ بذلك فالأولى ألَّا يطلب؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة». وأيضاً، فإنَّ في سؤالها والحرصِ عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبةِ التخلُّص منها دليلٌ على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومَن كان هكذا يُوشك أن تغلبَ عليه نفسُه فيهلِكَ، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «وُكِل إليها»، ومَن أباها لعلمه بآفاتها، ولخوفِه من التقصير في حقوقها [و] فَرَّ منها، ثم إن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٠ .

(٢) صحيح مسلم (١٦٥٢)، وهو عند أحمد (٢٠٦١٨)، والبخاري (٦٦٢٢).

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٦ (١٧٣٣): (١٥)، وهو عند أحمد (١٩٦٦٦)، والبخاري (٢٢٦١).

ابتُلي بها، فيُرجى له التخلصُ منها، وهو معنى قوله: «أُعِينَ عليها»[١].

الثاني: أنه لم يَقل: إني حسيبٌ كريم، وإن كان كما قال النبيُّ ﷺ: «الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بنِ إبراهيم»[٢] ولا قال: إني جميلٌ مَليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألها بالحفظِ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما قال ذلك عند مَن لا يعرفه فأراد تعريفَ نفسِه، وصار ذلك مستثنًى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

الرابع: أنه رأى ذلك فرضاً مُتعيِّناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره[٣]، وهو الأظهر، واللهُ أعلم.

الرابعة: ودلَّت الآيةُ أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصفَ نفسَه بما فيه من علمٍ وفضل، قال الماورديُّ[٤]: وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوصٌ فيما اقترن بوصله، أو تعلَّق بظاهرٍ من مَكْسب، وممنوعٌ منه فيما سواه؛ لِما فيه من تزكيةٍ ومُراءاة، ولو تنزَّه[٥] الفاضلُ عنه لكان أليقَ بفضله، فإنَّ يوسفَ دعته الضرورةُ إليه لِما سبق من حاله، ولِما يَرجو من الظَّفر بأهله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: ومثل

---

(١) المفهم ٤/ ١٦، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٣) القول الثاني والثالث والرابع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٠.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٥٢، والقول الرابع الذي قبله منه.

(٥) في النسخ: ميزه، والمثبت من النكت والعيون.

هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب المِلك، وإنجائه من السجن؛ مكَّنا له في الأرض، أي: أَقدرناه على ما يُريد[١].

وقال الكِيَا الطَّبَريُّ، قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دليلٌ على إجازة الحيلة في التوصُّل إلى المباح، وما فيه الغِبطةُ والصلاح، واستخراج الحقوق، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، وحديثُ أبي سعيد الخُدْرِيّ في عامل خَيْبر، والذي أدَّاه من التَّمْر إلى رسول الله ﷺ، وما قاله[٢].

قلت: وهذا مردودٌ على ما يأتي[٣]. يقال: مَكَّنَّاه ومكَّنَّا له، قال اللهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

قال الطَّبريُّ[٤]: استخلف المَلِكُ الأكبرُ الوليدُ بن الريَّان يوسفَ على عمل إطفير وعَزَله، قال مجاهد: وأسلم على يديه[٥]. قال ابن عباس: ملَّكه بعد سنة ونصف[٦]. وروى مقاتل أن النبيَّ ﷺ قال: «لو أن يوسف قال: إني حفيظٌ عليم إن شاء اللهُ لَمُلِّك في وقته ذلك»[٧].

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦١٩ .

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، لكن الذي فيه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [الآية: ٧٦] هي دليل إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح.. وسيأتي ص٤١٧ من هذا الجزء. وحديث عامل خيبر أخرجه البخاري (٢٢٠١) و(٢٢٠٢)، ومسلم (١٥٩٣) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، ولفظه: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جَنيب، فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟» قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، بِعِ الجَمْعَ بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جَنيباً». وهو بنحوه عند أحمد (١١٤١٢). والجَنيب: نوع جيد معروف من أنواع التمر، والجَمْع: نوع مختلط من أنواع متفرقة ليس مرغوباً فيه. النهاية (جنب) و(جمع).

(٣) ص٤١٦-٤١٧ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ١٣/ ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٢ ، والأقوال التي بعده منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٢ .

(٦) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ .

(٧) لم نقف عليه، وهو هكذا مرسل، وقد سلف نحوه ص٣٧٨ من هذا الجزء، وهو ضعيف أيضاً.

ثم مات إطفير فزوَّجه الوليدُ بزوجة إطفير راعيل، فدخل بها يوسفُ، فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفراثيمَ ومنشا ابني يوسف. ومَن زَعم أنها زَلِيخَاء قال: لم يتزوَّجها يوسف، وإنها لمَّا رأته في موكبه بَكَت، ثم قالت: الحمدُ للهِ الذي جعَل الملوكَ عبيداً بالمعصية، والحمدُ للهِ الذي جعل العبيدَ بالطاعة ملوكاً، فضمَّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتَتْ عنده، ولم يتزوَّجها، ذكره الماورديُّ، وهو خلاف ما تقدَّم عن وهب[1]، وذكره الثعلبيُّ، فالله أعلم.

ولما فوَّض الملِكُ أمرَ مصر إلى يوسف تلطَّف بالناس، وجعل يَدْعُوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدلَ، فأحبَّه الرجالُ والنساء.

قال وهب والسُّدِّيُّ وابنُ عباس وغيرُهم: ثم دخلت السنون المُخصِبةُ، فأمر يوسفُ بإصلاح المزارع، وأمرَهم أن يتوسَّعوا في الزراعة، فلمَّا أدركت الغَلَّة؛ أمر بها فَجُمعت، ثم بنى لها الأَهْرَاءَ، فجمعت فيها في تلك السنة غَلَّة ضاقت عنها المخازنُ لِكَثرتها، ثم جمع عليه غلَّةُ كلِّ سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبعُ المُخصبة وجاءت السنون المُجدبة نزَل جبريل وقال: يا أهلَ مصر، جوعوا، فإنَّ اللهَ سلَّط عليكم الجوعَ سبع سنين.

وقال بعضُ أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان: إحداهما: أن النفسَ تحب الطعامَ أكثَر من العادة، ويُسرع إليها الجوعُ خلافَ ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوقَ الكفاية. والثانية: أن يُفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزَّ إلى الغاية.

فاجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجالُ والنساء والصبيان ينادون: الجوع الجوع، ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي: الجوع الجوع، قال: فدعا له يوسف فأبرَأه اللهُ من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلِّها: معاشرَ الناس، لا يزرع أحدٌ زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهولٍ عظيم لا يُوصف.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٢ ، وسلفت القصة مطولة ص٣٨٢-٣٨٣ من هذا الجزء، وينظر ما نقلناه عن الآلوسي ثمة.

قال ابن عباس: لمَّا كان ابتداء القحط، بينا الملك في جوف الليل أصابه الجوعُ في نصف الليل، فهتف الملك: يا يوسف، الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط، فلمّا دخلت أوّلُ سنة من سِني القحط؛ هلَك فيها كلُّ شيءٍ أعدُّوه في السنين المُخصِبة، فجعل أهلُ مصر يَبتاعون الطعامَ من يوسف، فباعهم أولَ سنة بالنقود، حتى لم يبقَ بمصر دينار ولا درهم إلا قَبَضه، وباعهم في السنة الثانية بالحُليِّ والجواهر، حتى لم يبقَ في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدوابِّ، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى احتوى على الكلِّ، وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضِّياع، حتى ملَكها كلَّها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقَّهم جميعاً، وباعهم في السنة السابعة برقابهم، حتى لم يبقَ[1] بمصر حرٌّ ولا عبدٌ إلا صار عبداً له، فقال الناسُ: واللهِ، ما رأينا مَلِكاً أجلَّ ولا أعظمَ من هذا، فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيتَ صُنعَ ربي فيما خوَّلني، والآن كلُّ هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوَّضتُ إليك الأمرَ، فافعل ما شئتَ، وإنما نحن لك تبعٌ، وما أنا بالذي يَستنكفُ عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض مماليكك، وخَوَلٌ مِن خَوَلِك، فقال يوسفُ عليه السلام: فإني لم أُعتقهم من الجوع لأستعبدَهم، ولم أُجِرْهم من البلاء لأكون عليهم بلاءً، وإني أُشهِدُ اللهَ وأُشهدك أني أعتقتُ أهلَ مصر عن آخرهم، ورددتُ عليهم أموالَهم وأملاكهم، ورددتُ عليك مُلكَك بشرط أن تَسْتنَّ بسنتي.

ويُروى أن يوسفَ عليه السلام كان لا يشبعُ من طعامٍ في تلك السنين، فقيل له: أتَجوع وبيدك خزائنُ الأرض؟! فقال: إني أخاف إنْ شَبِعتُ أن أنسى الجائعَ. وأمر يوسفُ طبَّاخَ الملكِ أن يجعل غَدَاءه نصفَ النهار، حتى يذوقَ المَلِكُ طعمَ الجوع، فلا ينسى الجائعين، فمِن ثَمَّ جعل الملوكُ غَداءَهم نصفَ النهار[2].

---

(١) بعدها في (م): في السنة السابعة.

(٢) عرائس المجالس ص١٣٠ - ١٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤ .

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: بإحساننا، والرحمةُ النعمةُ والإحسان[1]. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ثوابَهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين[2]؛ لصبره في الجُبِّ، وفي الرِّقّ، وفي السِّجن، وصبرِه عن محارم اللهِ عمَّا دعته إليه المرأة.

وقال الماورديُّ[3]: واختلف فيما أُوتيَه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثوابٌ من الله تعالى على ما ابتلاه. الثاني: أنه أَنعم[4] عليه بذلك تفضُّلاً منه عليه، وثوابُه باقٍ على حاله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ما نُعطيه في الآخرة خيرٌ وأكثرُ مما أعطيناه في الدنيا، لأن أجرَ الآخرة دائمٌ، وأجرَ الدنيا ينقطع[5]، وظاهرُ الآية العمومُ في كلِّ مؤمن متَّقٍ، وأنشدوا:

أَمَا في رسولِ اللهِ يوسفَ أُسوةٌ ... لمثلكَ محبوساً على الظُّلم والإفْكِ
أقام جَميلَ الصَّبر في الحبس بُرهةً ... فآلَ به الصّبرُ الجميلُ إلى الْمُلكِ[6]

وكتب بعضُهم إلى صديقٍ له:

وراء مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ ... وأوّل مَفروحٍ به آخرُ الحزنِ
فلا تيأسنْ[7] فاللهُ مَلَّكَ يوسفا ... خزائنَه بعد الخلاصِ من السِّجنِ[8]

وأنشد بعضُهم:

---

(١) الرحمة صفة من صفات الله عز وجل ثابتة له، وأما إحسانه ونعمته فهي صفة أخرى له سبحانه وتعالى.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٣ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٤) في (م): أنعم الله.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٥٣ .

(٦) البيتان للبحتري، وهما في ديوانه ٣/ ١٥٦٤ ، وفيه: السجن، بدل الحبس.

(٧) في (د): فلا تبتئس.

(٨) البيتان في عرائس المجالس ص١٣٠ دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧ لزيد ابن محمد بن زيد العلوي.

إذا الحادثات بلغن النُّهى وكادت تذوبُ لهنَّ المُهَجْ
وحلَّ البلاءُ وقلَّ العزاء فعند التَّناهي يكونُ الفَرَجْ[(١)]

والشعر في هذا المعنى كثيرٌ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أي: جاؤوا إلى مصر لمَّا أصابهم القحطُ ليمتاروا. وهذا من اختصار القرآن المُعجِز[(٢)].

قال ابن عباس وغيرُه: لمَّا أصاب الناسَ القحطُ والشدَّةُ، ونزل ذلك بأرض كنعان بَعث يعقوبُ عليه السلام ولدَه للمِيرة، وذاع أمرُ يوسف عليه السلام في الآفاق، لِلِينه وقُربه ورحمته ورأفته وعدلِه وسيرتِه[(٣)]، وكان يوسفُ عليه السلام حين نزلت الشدَّة بالناس يجلِسُ للناس عند البيع بنفسه، فيُعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلَّفوه صبيًّا، ولم يتوهَّموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة[(٤)]، مع طول المدّة، وهي أربعون سنةً. وقيل: أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملِكٌ كافر: وقيل: رأوه لابس حرير، وفي عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاجٌ، وقد تزيّا بزِيِّ فرعون مصر، ويوسف رآهم على ما كان عَهِدهم في المَلْبس والحِلية. ويَحتمِل أنهم رأَوْه وراء سترٍ فلم يعرفوه[(٥)]. وقيل: أنكروه لأمر خارقٍ امتحاناً امتَحَن اللهُ به يعقوبَ.

---

(١) ذكرهما أبو علي التنوخي في الفرج بعد الشدة ٥/ ٢٣ دون نسبة، وابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٨٠ ونسبهما لمنصور الفقيه، وعندهما: المدى، بدل: النهى، وعند التنوخي: وجَلَّ، بدل: وحلَّ، وعند ابن عبد البر: الوفاء، بدل: العزاء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ .

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٥) الأقوال السالفة في عرائس المجالس ص١٣١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ ، وتفسير الرازي ١٨/ ١٦٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقال: جَهَّزتُ القومَ تَجهيزاً، أي: تكلَّفت لهم بجَهازهم للسفر، وجَهاز العروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج، وجوّز بعض الكوفيين الجِهاز بكسر الجيم[١]، والجَهاز في هذه الآية الطعام الذي امتاروه من عنده[٢]. قال السُّديُّ: وكان مع أخوة يوسف أحدَ عشرَ بعيراً، وهم عشرةٌ، فقالوا ليوسف: إنَّ لنا أخاً تخلَّف عنا، وبعيرُه معنا، فسألهم: لِمَ تخلَّف؟ فقالوا: لحبِّ أبيه إياه، وذكروا له أنه كان له أخٌ أكبرُ منه، فخرج إلى البرِّيَّة فهلَكَ؛ فقال لهم: أردت أن أرَى أخاكم هذا الذي ذكرتم، لأعلمَ وجهَ محبةِ أبيكم إيَّاه، وأعلمَ صدقَكم، ويُروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينةً، حتى يأتوا بأخيه بنيامين[٣].

وقال ابن عباس: قال يوسف للتُّرجُمان: قل لهم: لغتكم مخالفةٌ للغتِنا، وزِيُّكم مخالفٌ لزِيِّنا، فلعلَّكم جواسيسُ، فقالوا: واللهِ، ما نحن بجواسيسَ، بل نحن بَنُو أبٍ واحدٍ، فهو شيخٌ صدِّيق. قال: فكم عِدَّتكم؟ قالوا: كنا اثني عشرَ، فذهب أخٌ لنا إلى البرِّيَّة، فهلَك فيها. قال: فأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا. قال: فمن يعلمُ صدقَكم؟ قالوا: لا يعرِفنا هاهنا أحدٌ، وقد عرَّفناك أنسابَنا، فبأيِّ شيءٍ تسكنُ نفسُك إلينا؟ فقال يوسف: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إن كنتم صادقين، فأنا أرضى بذلك ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي: أُتمُّه ولا أبخسه، وأزيدكم حِملَ بعيرٍ لأخيكم ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ توعَّدهم ألَّا يبيعَهم الطعامَ إن لم يأتوا به[٤].

---

(١) تهذيب اللغة ٦/ ٣٥ - ٣٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٣ - ٢٢٤ بنحوه.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧ .

قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ يَحتمِلُ وجهين: أحدهما: أنه رخَّص لهم في السعر، فصار زيادةً في الكيل.

والثاني: أنه كالَ لهم بمكيالٍ وافٍ.

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني[1] خير المضيفين؛ لأنه أحسنَ ضيافتَهم، قاله مجاهد. الثاني: وهو مُحتمِل، أي: خير مَن نَزلتم عليه من المأمونين. وهو على التأويل الأوّل مأخوذٌ من النُّزْل، وهو الطعام، وعلى الثاني من المنزل، وهو الدار[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي: فلا أَبيعكم شيئاً فيما بعد؛ لأنه قد وفَّاهم كيلَهم في هذه الحال. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: لا أُنزلكم عندي منزلةَ القريب، ولم يُرِدْ أن[3] يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حَثَّهم.

قال السُّدّيُّ: وطلب منهم رهينةً حتى يرجِعوا، فارتهن شمعونَ عنده. قال الكَلْبيُّ: إنما اختار شمعون منهم؛ لأنه كان يومَ الجُبِّ أجملَهم قولاً، وأحسنَهم رأياً[4].

و«تَقْرَبُونِ» في موضع جزمٍ بالنهي، فلذلك حُذفت منه النون، وحُذفت الياء؛ لأنه رأسُ آية، ولو كان خبراً لكان «تقربونَ» بفتح النون[5].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنطلبه منه، ونسأله أن يُرسلَه معنا. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أي: لَضامنون المَجيء به[6]، ومُحتالون في ذلك.

---

(١) في (م): أنه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٥٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٥.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أنهم، وفي (ظ): أنه، وثمة سقط في هذا الموضع في (ف)، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٥٥، والكلام منه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٥٥.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤.

(٦) الوسيط ٢/ ٦٢٠.

مسألة: إن قيل: كيف استجاز يوسفُ إدخالَ الحزن على أبيه بطلب أخيه؟ قيل له: عن هذا أربعةُ أجوبة:

أحدها: يجوز أن يكون اللهُ عزَّ وجلَّ أَمَره بذلك ابتلاءً ليعقوب؛ لِيعظِم له الثواب، فاتَّبع أمرَه فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن يُنبِّه يعقوبَ على حال يوسفَ عليهما السلام.

الثالث: لِتتضاعفَ المَسرَّة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع: ليقدم سرورَ أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته، لميلٍ كان منه إليه.

والأول أظهر[١]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ هذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[٢]، وهو اختيارُ أبي حاتم والنحاس وغيرهما، وقرأ سائرُ الكوفيين: «لِفِتْيَانِهِ» وهو اختيار أبي عُبيد، وقال: هو في مصحف عبد اللهِ كذلك[٣].

قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان، مثل الصِّبيان والصِّبية[٤]. قال النحاس[٥]: «لِفِتْيَانِهِ» مُخالفٌ للسواد الأعظم؛ لأنه في السَّواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يُترَك السوادُ المُجتمِع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضاً فإن «فتيةً» أشبهُ من فتيان؛ لأن

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٥٥، وزاد المسير ٤/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٤٩، والتيسير ص١٢٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤ دون قوله: وهو اختيار أبي حاتم.

(٤) وهو قول البغوي في تفسيره ٢/ ٤٣٥.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤.

«فتية» عند العرب لأقلِّ العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة في الرحال أشبهُ.

وكان هؤلاء الفتيةُ يُسوُّون جَهازهم، ولهذا أمكنهم جعلَ بضاعتهم في رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحراراً، وكانوا أعواناً له.

وبضاعتهم أثمانُ ما اشترَوْه من الطعام. وقيل: كانت دراهمَ ودنانير. وقال ابن عباس: النِّعال والأدَم ومتاعُ المسافر[1]، ويسمى رَحْلاً. قال ابن الأنباريِّ[2]: يقال للوعاء: رَحْل، وللبيت: رَحْل.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجواز ألَّا تسلم في الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعامَ إلا بثمنه. قيل: لِيستعينوا بذلك على الرُّجوع لشراء الطعام. وقيل: استقبحَ أن يأخذَ من أبيه وإخوته ثمنَ الطعام. وقيل: لِيرَوْا فضلَه، ويرغبوا في الرجوع إليه[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾[4] وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم[5]، وأن شمعونَ مُرتهَنٌ حتى يعلم صدقَ قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: قالوا

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٥.

(٢) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ٨١.

(٣) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٥٩، وزاد المسير ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٤.

(٥) بعدها في (د) و(ز) و(م): إياه.

عند ذلك: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ والأصل: نكتال، فَحُذفت الضَّمة من اللام للجزم، وحُذفت الألفُ لالتقاء الساكنين.

وقراءةُ أهلِ الحرمين وأبي عمرو وعاصم: «نَكْتَلْ» بالنون[1]، وقرأ سائرُ الكوفيين: «يَكْتَل» بالياء، والأوّل اختيارُ أبي عُبيد، ليكونوا كلُّهم داخلين فيمن يَكتال. وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحدَه. قال النحاس[2]: وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلامُ من أحد جِهتين: أن يكون المعنى: فأرسل أخانا يكتل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقديم والتأخير، فيكون في الكلام دليلٌ على الجميع، لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يناله سوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قد فرَّطتم في يوسفَ فكيف آمَنُكم على أخيه؟!.

﴿فَاللهُ خَيْرٌ حِفْظاً﴾ نصب على البيان، وهذه قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم[3]. وقرأ سائرُ الكوفيين: «حَافِظاً» على الحال. وقال الزَّجاج: على البيان[4]؛ وفي هذا دليلٌ على أنه أجابَهم إلى إرساله معهم، ومعنى الآية: حِفْظُ اللهِ له خيرٌ من حِفظِكم إيَّاه.

قال كعب الأحبار: لمَّا قال يعقوب: «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً» قال اللهُ تعالى: وعزَّتي وجلالي لَأَرُدَّنَّ عليك ابنَيك كِلَيهما بعدما توكلت عليَّ[5].

---

(١) وافقهم ابن عامر الشامي. السبعة ص٣٤٩ - ٣٥٠ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥ ، وما قبله منه.

(٣) ووافقهم ابن كثير المكي وابن عامر الشامي، وقراءة عاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٣٥٠ ، والتيسير ص١٢٩ .

(٤) في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٨ ، وقد ذكر الزجاج أن «حافظاً» منصوب على الحال، ثم قال: ويجوز أن يكون منصوباً على البيان. وقد نقل المصنف قول الزجاج بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٢١ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٣٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ الآية ليس فيها معنًى يُشكل. ﴿مَا نَبْغِى﴾ «ما» استفهامٌ في موضع نصب، والمعنى: أيُّ شيء نطلب وراءَ هذا؟! وفَّى لنا الكيل. وردَّ علينا الثمنَ؛ أرادوا بذلك أن يُطيِّبوا نفسَ أبيهم.

وقيل: هي نافية، أي: لا نَبغي منك دراهمَ ولا بضاعة، بل تَكفينا بضاعتُنا هذه التي رُدَّت إلينا[1].

ورُويَ عن عَلْقَمة: «رِدَّتْ إِلَيْنَا» بكسر الراء؛ لأن الأصلَ رُدِدَتْ، فلما أُدغم قُلبت حركة الدال على الراء[2]. وقوله: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نَجلِبُ لهم الطعامَ، قال الشاعر:

بَعَثْتُكَ مائِراً فمكَثْتَ حَوْلاً مَتَى يأتِي غِيَاثُك مَن تُغِيثُ[3]

وقرأ السُّلَميّ بضم النون[4]، أي: نُعينهم على المِيرة. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: حِمْل بعير لبنيامين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونِ﴾ أي: تُعطوني ﴿مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً يوثَق

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٤٣٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٥، وقراءة علقمة في المحتسب ١/ ٣٤٥.

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ١٣/ ٢٣٣، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠ دون نسبة. وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٥٠، والزمخشري في المستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٣ ونسباه لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، وعندهما: بعثتك قابساً.. وهو الصواب فيما ذكره ابن منظور في اللسان (غوث).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٠.

به[١]؛ قال السُّدِّيّ: حَلَفوا بالله ليَرُدُّنَّه إليه ولا يُسْلِمونه[٢]، واللامُ في ﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ لامُ القسم[٣].

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ قال مجاهد: إلَّا أن تَهْلِكوا أو تموتوا. وقال قتادةُ: إلَّا أن تُغلَبوا عليه[٤]. قال الزجَّاج: وهو في موضع نصب[٥]. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ أي: حافظٌ للحَلِف. وقيل: حفيظٌ للعهد، قائمٌ بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآيةُ أصلٌ في جواز الحَمَالة[٦] بالعين والوثيقةِ بالنفس، وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالكٌ وجميعُ أصحابه وأكثرُ العلماء: هي جائزةٌ إذا كان المتحمَّل به مالاً. وقد ضعَّف الشافعيُّ الحَمَالةَ بالوجه في المال، وله قولٌ كقول مالك[٧]. وقال عثمان البَتِّيّ: إذا تكفَّل بنفسٍ في قصاصٍ أو جراحٍ؛ فإنَّه إنْ لم يَجِيءْ به لزمه الديةُ وأَرْشُ الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاصَ على الكفيل[٨]، فهذه ثلاثةُ أقوال في الحَمالة بالوجه. والصوابُ تَفْرِقةُ مالكٍ في ذلك، وأنَّها تكون في المال، ولا تكون في حدٍّ أو تعزير، على ما يأتي بيانه[٩].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٢٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٥٣ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٨ بلفظ: حلَّفهم بالله.

(٣) يعني: اللام الواقعة في جواب القسم، قال السمين في الدر المصون ٦/ ٥٢١ : هذا جواب للقسم المضمر في قوله: «موثقاً»؛ لأنه في معنى: حتى تحلفوا لي لتأتنَّني به.

(٤) قولا مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣١٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٩ ، وقال الزجاج: والمعنى: لتأتنَّني به إلا لإحاطةٍ بكم، وهذا يسمى مفعولاً له. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢١ .

(٦) الحمالة: الكَفالة. الزاهر للأزهري ص٣٣٠ ، وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ : الكَفالة والحَمالة: هما لفظتان معناهما الضمان. وقال الجوهري في الصحاح (حمل): الحمالة: ما تتحمله عن القوم من الدية أو الغرامة.

(٧) الإشراف ١/ ١٢٥ ، وقال الأزهري في الزاهر ص٣٣١ : وأراد الشافعي رحمه الله بكفالة الوجه: الكفالة بالبدن. وقال الكاساني في بدائع الصنائع ٧/ ٣٩٩ : إذا أضاف الكفالة إلى جزء جامع كالرأس والوجه والرقبة ونحوها، جازت؛ لأن هذه الأشياء يعبر بها عن جملة البدن.

(٨) الاستذكار ٢٢/ ٢٧٧ .

(٩) ص٤٠٩-٤١١ من هذا الجزء، وينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: لمَّا عزموا على الخروج خَشِيَ عليهم العينَ، فأمرهم ألَّا يدخلوا مصرَ من بابٍ واحد، وكانت مصرُ لها أربعةُ أبواب، وإنما خاف عليهم العينَ لكونهم أَحَدَ عَشَرَ رجلاً لرَجُلٍ[1] واحد، وكانوا أهلَ جَمالٍ وكمالٍ وبَسْطة؛ قاله ابن عباس والضَّحاك وقَتَادة وغيرهم[2].

الثانية: وإذا كان هذا معنى الآيةِ؛ فيكون فيها دليلٌ على التحرُّز من العين، والعينُ حقٌّ، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العين لتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ والجَمَلَ القِدْرَ»[3]. وفي تعوُّذه عليه الصلاة والسلام: «أعوذُ بكلمات الله التامَّة من كلِّ شيطانٍ وهامَّة ومن كلِّ عينٍ لامَّة»[4] ما يدلُّ على ذلك.

وروى مالك، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيْف، أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهلُ بنُ حُنيف بالخرَّار، فنزع جُبَّةً كانت عليه، وعامر بنُ ربيعة ينظر، قال: وكان سهلٌ رجلاً أبيضَ حَسَنَ الجِلْدِ، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كاليوم، ولا جلدَ عَذْراءَ! فوُعِكَ سهلٌ مكانَه واشتدَّ وَعْكُه، فأُتيَ رسولُ الله ﷺ،

---

(١) في (ظ): كرجل.

(٢) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٩٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٥٧)، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٢٤٤ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٢١١٢)، والبخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه عند البخاري: كان رسول الله ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوِّذ بها إسماعيل وإسحاق»: أعوذ بكلمات الله...، وقوله: «وهامة» هي واحدةُ الهوامّ ذوات السموم، وقيل: المراد كل نسمة تهمُّ بسوء. الفتح ٦/ ٤١٠ . وقوله: «لامّة» أي: ذات لمم، واللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان. النهاية (لمم).

فأُخبر أن سهلاً وُعِك، وأنه غيرُ رائحٍ معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهلٌ بالذي كان من شأن عامر، فقال رسول الله ﷺ: «عَلَامَ يقتلُ أحدُكم أخاه؟! أَلَا بَرَّكْتَ؟! إنَّ العينَ حقٌّ، تَوضَّأْ له». فتوضَّأ له عامر، فراح سهلٌ مع رسول الله ﷺ ليس به بأس[1]. في رواية: «اغتسِلْ له»، فغَسَلَ عامر[2] وجهَه ويديه ومِرْفَقَيْه وركبتيه وأطرافَ رجليه وداخِلَ إزارِه في قدحٍ، ثم صُبَّ عليه، فراح سهلٌ مع الناس[3] ليس به بأس[4].

وركب سعد بن أبي وَقَّاص يوماً، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت: إنَّ أميركم هذا ليعلم أنه أَهْضَمُ الكَشْحَيْن، فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغَسَلَتْ له[5].

ففي هذين الحديثين أنَّ العين حقٌّ، وأنَّها تقتل كما قال النبيُّ ﷺ[6]. وهذا قولُ علماءِ الأمَّة، ومذهبُ أهلِ السُّنة، وقد أنكرته طوائفُ من المبتدِعة، وهم محجوجون بالسنَّة وإجماعِ علماءِ هذه الأمَّة، وبما يشاهَدُ من ذلك في الوجود، فكم من رجل أدخلته العينُ القبرَ، وكم من جَمَلٍ ظَهِيرٍ أدخلته القِدْر، لكنَّ ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢][7].

قال الأصمعيُّ: رأيت رجلاً عَيُوناً سمع بقرةً تُحلَب، فأعجبه شخْبُها فقال: أيَّتهنَّ هذه؟ فقالوا: الفلانيةُ، لبقرةٍ أخرى يُوَرُّون عنها، فهَلَكَتا جميعاً، المُورّى بها

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٨، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٠). والخرار: ماء بالمدينة. معجم البلدان ٢/ ٣٥٠.

(٢) في (م): اغتسل فغسل له عامر، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٣) في (م): فراح سهل مع رسول الله ﷺ، والمثبت من النسخ الخطية والمصادر.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٣٩، وهو عند أحمد (١٥٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٧٥٧٢).

(٥) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١١٣، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٢٤١. وأهضم الكشحين، أي: دقيق الخصرين. النهاية (كشح).

(٦) التمهيد ٦/ ٢٣٧.

(٧) المفهم ٥/ ٥٦٥.

والمورّى عنها. قال الأصمعيُّ: وسمعته يقول: إذا رأيتُ الشيء يُعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني[(١)].

الثالثة: واجبٌ على كلِّ مسلمٍ أعجبه شيءٌ أن يُبَرِّكَ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صُرِفَ المحذورُ لا محالةَ، ألَا ترى قولَه عليه الصلاة والسلام لعامر: «ألَا برَّكْتَ؟!». فدلَّ على أنَّ العين لا تَضُرُّ ولا تعدو إذا بَرَّك العائن، وأنَّها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريكُ أن يقول: تبارك الله أحسنُ الخالقين! اللهمَّ بارِكْ فيه[(٢)].

الرابعة: العائنُ إذا أصاب بعينه ولم يُبرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُجبَر على ذلك إنْ أباه؛ لأنَّ الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يُخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحدٍ أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يَضُرُّه هو، ولا سيما إذا كان بسببه، وكان الجاني عليه[(٣)].

الخامسة: مَن عُرِف بالإصابة بالعين مُنع من مداخلة الناس دفعاً لضرره، وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته، وإن كان فقيراً رَزَقَه ما يقوم به، ويَكُفّ أذاه عن الناس[(٤)]. وقد قيل: إنه يُنفَى. وحديثُ مالكٍ الذي ذكرناه يَردُّ هذه الأقوال، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر في عامر بحبسٍ ولا بنَفْيٍ، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يُقدح فيه ولا يُفسَّقُ به[(٥)]، ومَن قال: يُحبس ويُؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياطٌ ودفعُ ضررٍ، والله أعلم.

السادسة: روى مالك عن حُمَيْد بن قيس المكّيِّ أنه قال: دُخِل على رسول الله ﷺ بابنَيْ جعفر بن أبي طالب، فقال لحاضِنَتِهما: «ما لي أراهما ضَارِعَيْنِ؟» فقالت حاضنتُهما: يا رسول الله ! إنه تُسْرِعُ إليهما العين، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقيَ لهما إلّا أنَّا

---

(١) التمهيد ١٣/ ٧٠ ، والشخب: صوت اللبن عند الحلب. معجم متن اللغة (شخب).

(٢) التمهيد ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) التمهيد ٦/ ٢٤١ .

(٤) المفهم ٥/ ٥٦٨ .

(٥) ينظر التمهيد ١٣/ ٦٩ .

لا ندري ما يُوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «اسْتَرْقُوا لهما، فإنه لو سَبَق شيءٌ القدَرَ سَبَقَتْه العين»(١). وهذا الحديثُ منقطِعٌ، ولكنَّه محفوظٌ لأسماءَ بنتِ عُمَيس الخَثْعميةِ عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ ثابتةٍ متَّصلةٍ صِحاح(٢)، وفيه أنَّ الرُّقَى مما يُستَدفع به البلاء، وأنَّ العين تؤثِّر في الإنسان وتَضْرَعه ـ أي: تُضْعِفُه وتُنْحِله ـ وذلك بقضاء الله تعالى وقَدَرِه(٣). ويقال: إنَّ العين أسرعُ إلى الصِّغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

السابعة: أمَر ﷺ في حديث أبي أُمامة العائنَ بالاغتسال للمَعِين، وأمَر هنا بالاسْتِرْقاء؛ قال علماؤنا: إنما يُسترقى من العين إذا لم يُعرف العائِنُ، وأمَّا إذا عُرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء، على حديث أبي أمامة(٤)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من شيءٍ أحْذَرُه عليكم(٥)، أي: لا ينفع الحذر مع القَدَر. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: الأمرُ والقضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ ووثِقت ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من أبوابٍ شتَّى ﴿مَّا

---

(١) الموطأ ٢/ ٩٣٩ - ٩٤٠ . قوله: «ضارعين»، أي: ضعيفين ضئيلين ناحِلَيْن. وحاضنتهما قد تكون أمهما أسماء بنت عميس، وجائز أن تكون حاضنتهما غيرها. ينظر التمهيد ٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥ .

(٢) التمهيد ٢/ ٢٦٦ ، وأخرجه من حديث أسماء بنت عميس أحمد (٢٧٤٧٠)، والترمذي (٢٠٥٩)، وابن ماجه (٣٥١٠). وأخرجه أحمد (١٤٥٧٣)، ومسلم (٢١٩٨) من حديث جابر ﷺ.

(٣) التمهيد ٢/ ٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) النكت و العيون ٣/ ٥٩ ، وقال الماوردي: فأشار عليهم في الأول، وفوَّض إلى الله في الآخر.

كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن أراد إيقاعَ مكروهٍ بهم ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليس من الأول[١] ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أي: خاطِر خَطَرَ بقلبه، وهو وصيَّته أن يتفرَّقوا، قال مجاهد: خشيةَ العين[٢]، وقد تقدَّم القول فيه.

وقيل: لئلَّا يرى الملكُ عددهم وقوَّتهم، فيبطشَ بهم حسداً أو حذراً؛ قاله بعضُ المتأخِّرين[٣]، واختاره النحاس[٤]، وقال: ولا معنى للعين هاهنا.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ المسلم يجب عليه أن يُحذِّر أخاه ممَّا يخاف عليه، ويُرشدَه إلى ما فيه طريقُ السلامة والنجاة، فإنَّ الدِّينَ النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني يعقوب ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: بأمر دينه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ما يعلم يعقوبُ عليه السلام من أمر دينه. وقيل: «لَذُو عِلْمٍ» أي: عمل[٥]، فإنَّ العلم أوَّلُ أسباب العمل، فسُمِّي بما هو بسببه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قال قتادةُ: ضمَّه إليه، وأنزله معه[٦]. وقيل: أمر أن ينزل كلُّ اثنين في منزل، فبقي أخوه منفرداً، فضمَّه إليه وقال: أشفقتُ عليه من الوَحدة، وقال له سِرًّا من إخوته: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ لمَّا عرف بنيامين أنه يوسفُ قال له: لا تَردَّني إليهم. فقال: قد علمتَ اغتمامَ يعقوبَ بي، فيزداد غمُّه!

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٦ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٣٩ ، وهو تفسير مجاهد ١/ ٣١٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٥٩ .

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٣٦ .

(٥) أخرج هذا القول الطبري ١٣/ ٢٤٠ - ٢٤١ عن قتادة وسفيان.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٦٠ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤١ - ٢٤٢ عن السدي وابن إسحاق مطولاً.

فأبى بنيامين الخروجَ، فقال يوسف: لا يمكن حبسُك إلّا بعد أن أَنْسِبكَ إلى ما لا يَجْمُل بك. فقال: لا أبالي![١] فدسَّ الصاع في رَحْلِه؛ إمَّا بنفسه من حيث لم يطَّلع عليه أحد، أو أَمَر بعضَ خواصِّه بذلك. والتَّجهيزُ: التسريح[٢] وتنجيزُ الأمر، ومنه: جَهَز على الجريح، أي: قتله[٣] ونجز أمره. والسِّقايةُ والصُّوَاعُ شيءٌ واحد: إناءٌ له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويُكال الطعامُ بالرأس الآخَر؛ قاله النقاش عن ابن عباس[٤]، وكلُّ شيء يُشرب به فهو صُواع[٥]، وأنشد:

نَشربُ الخمرَ بالصُّواع جِهَارًا[٦]

واختُلف في جنسه؛ فروى شعبةُ، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: صُواع[٧] الملك: شيءٌ من فضة يشبه الْمَكُّوك، من [ذهبٍ و] فضة مرصعٌ بالجوهر، يُجعل على الرأس، وكان للعباس واحدٌ في الجاهلية[٨]. وسأله نافع بن الأزرق: ما الصُّواعُ؟ قال: الإناء؛ قال فيه الأعشى:

لـه دَرْمَـكٌ فـي رأسـه ومَـشـارِبٌ ... وقِـدْرٌ وطَـبَّـاخٌ وصـاعٌ ودَيْـسَـقُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٤٣٨، وعرائس المجالس ص١٣٤ عن كعب.

(٢) في (ظ): التسرع.

(٣) وأجهز كذلك. مجمل اللغة ١/ ٢٠١، واللسان (جهز).

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦١ عن ابن عباس. ووقع في (ظ): وكل إناء يشرب به...

(٦) سلف ٩/ ٢١١ برواية: نشرب الإثم.

(٧) قبلها في (د) و(م): كان.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٤٤، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٢٤٩-٢٥١.

(٩) أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ٨٦ مطولاً، وهو في ديوان الأعشى ص٢٦٧ مجموع بيتين في وصف حصن بناه - على قول الشاعر - سليمان عليه السلام، قال شارح الديوان: المعنى: في أعلاه غرف الشراب فرشت بالطنافس، وخدم وطباخ وأقداح وخِوان. اهـ والديسق: خِوان من فضة. اللسان (دسق).

وقال عِكرمة: كان من فضة. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان من ذهب، وبه كالَ طعامهم مبالغةً في إكرامهم[(١)]. وقيل: إنما كان يُكال به لعزَّةِ الطعام[(٢)].

والصاع يُذكَّر ويؤنَّث، فمَن أنَّثه قال: أَصْوُع، مثل أَدْوُر، ومَن ذكَّره قال: أَصْوَاع، مثل أثواب[(٣)].

وقال مجاهد وأبو صالح: الصاعُ: الطِّرْجِهَالة بلغة حِمْيَر[(٤)].

وفيه قراءات: «صُوَاع» قراءةُ العامَّة، و«صُوْغ» بالغين المعجمة، وهي قراءةُ يحيى ابن يَعمر[(٥)]؛ قال: وكان إناءً صِيْغَ[(٦)] من ذهب. «وصَوْع» بالعين غير المعجمة قراءةُ أبي رجاء[(٧)]. «وصُوْع» بصادٍ مضمومةٍ وواوٍ ساكنة وعينٍ غيرِ معجمةٍ قراءةُ أُبيّ[(٨)]. «وصيَاع» بياء بين الصَّاد والألف، قراءةُ سعيد بن جُبير[(٩)]. «وصاع» بألف بين الصَّاد والعين، وهي قراءة أبي هريرة[(١٠)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٦١ ، وخبرا عكرمة وابن زيد أخرجهما الطبري ١٣/ ٢٤٦ ، ٢٥٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٤ .

(٣) في (د): أبواب، وكذا في تهذيب اللغة ٣/ ٨٢ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه عن مجاهد ابن الأنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان كما في الإتقان للسيوطي ١/ ٤١٨ . قال الجوهري في الصحاح (طرجهل): الطرجهالة: كالفنجانة، معروفة.

(٥) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٦ ، إلا أن ابن جني قيدها بفتح الصاد، ولم يقيدها ابن خالويه، وذكرها الطبري ١٣/ ٢٤٩ وقال: كأنه وجَّهه إلى أنه مصدر من قولهم: صاغ يصوغ صَوْغاً. وقال أبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠ : وقرأ الحسن وابن جبير: «صُواغ» بالغين المعجمة على وزن: غُراب، وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلا أنه يحذف الألف ويسكِّن الواو. وينظر الدر المصون ٦/ ٥٢٧ .

(٦) في (د) و(م): أصيغ.

(٧) وهي بفتح الصاد كما قيدها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٤ .

(٨) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٦ ، وأبو حيان في البحر ٥/ ٣٣٠ عن عبد الله بن عون بن أبي أرطبان.

(٩) أخرجها عنه ابن الأنباري كما في الدر المنثور ٤/ ٢٧ .

(١٠) القراءات الشاذة ص٦٤ ، والمحتسب ١/ ٣٤٦ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أي: نادى منادٍ وأعْلَمَ، و«أَذَّنَ» للتكثير، فكأنه نادى مراراً: «أَيَّتُهَا العِيرُ». والعِير: ما امْتِيرَ عليه من الحمِير والإبل والبغال[1]. قال مجاهد: كان عِيرُهم حَمِيراً[2]. قال أبو عبيدة: العِيرُ: الإبلُ المَرْحولَةُ المركوبة[3]. والمعنى: يا أصحابَ العير. كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[4] [يوسف: ٨٢]، و: يا خيلَ الله اركبي، أي: يا أصحابَ خيلِ الله، وسيأتي.

وهنا اعتراضان: الأوّل: إن قيل: كيف رضيَ بنيامينُ بالقعود طَوْعاً، وفيه عقوقُ الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نَسَب يوسفُ السرقةَ إلى إخوته وهم بَرَاء، وهو الثاني.

فالجواب عن الأوّل: أنَّ الحزن كان قد غَلَبَ على يعقوبَ بحيث لا يؤثِّر فيه فَقْدُ بنيامين كلَّ التأثير، أَوَلا تَراه لمَّا فَقَدَه قال: «يا أَسَفا على يُوسُف»، ولم يعرِّج على بنيامين؟ ولعل يوسفَ إنَّما وافقه على القعود بوَحْي، فلا اعتراض.

وأمَّا نسبةُ يوسفَ السرقةَ إلى إخوته؛ فالجواب: أنَّ القوم كانوا قد سَرَقوه من أبيه فأَلْقَوْه في الجُبِّ، ثم باعوه، فاستحقُّوا هذا الاسمَ بذلك الفِعْل، فصَدَقَ إطلاقُ ذلك عليهم.

جوابٌ آخَرُ: وهو أنه أراد: أيتها العيرُ حالُكم حالُ السُّرَّاق، والمعنى: إنَّ شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملكِ ولا عِلْمِه.

جوابٌ آخر: وهو أنَّ ذلك كان حيلةً لاجتماعِ شَمْلِه بأخيه، وفَصْلِه عنهم إليه[5]، وهذا بناء على أنَّ بنيامين لم يعلم بدَسِّ الصاع في رَحْله، ولا أخبره بنفسه.

---

(١) تهذيب اللغة ٣/ ١٦٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٤٨ .

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٠ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٢ - ١٠٨٣ .

وقد قيل: إنَّ معنى الكلامِ الاستفهامُ، أي: أوَإنَّكم لسارقون[١]؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي: أوَتلك نعمةٌ تمنُّها عليَّ؟ والغرض ألَّا يُعزَى إلى يوسف ﷺ الكذبُ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ البعير هنا الجملُ في قول أكثر المفسرين[٢]. وقيل: إنه الحمار، وهي لغةٌ لبعض العرب؛ قاله مجاهدٌ واختاره[٣]. وقال مجاهد: الزعيم هو المؤذِّنُ الذي قال: «أَيَّتُهَا الْعِيرُ»[٤]. والزعيمُ والكَفيل والحَمِيل والضَّمين والقَبِيل سواءٌ، والزعيم: الرئيس.

قال امرؤ القيس[٥]:

وإنِّـي زَعـيـمٌ إنْ رَجـعـتُ مُـمَـلَّـكـاً ... بِـسَـيْـرٍ تَـرَى مِـنـهُ الـفُـرَانِـقَ أزوَرَا[٦]

وقالت ليلى الأَخْيَليةُ ترثي أخاها[٧]:

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٣/ ٩٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٥٣، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣١٨.

(٥) قوله: امرؤ القيس، من (ظ).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٦٦. والفُرانق: الأسد، أو سَبُع يصيح بين يديه وهو شبيه بابن آوى وهو معرَّبُ «بروانك». معجم متن اللغة (فرنق). وأزور: مائل، أو الذي يُقْبل على شِقٍّ إذا اشتد السير. القاموس (زور).

(٧) كذا ذكر المصنف، والذي ذكره أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص٢٣ أنها قالت هذه الأبيات في توبة الحميري. وهو الصواب، وقصة توبة بن الحميِّر مع ليلى الأخيلية مشهورة. ينظر الأغاني ١١/ ٢٠٣ - ٢٥٠.

ومُخَرَّقٍ عنهُ القميصُ تَخالُهُ وسطَ البيوت من الحياءِ سَقِيمَا[١]
حَتَّى إذا رُفِعَ اللِّوَاءُ رأيتَهُ يومَ الهِيَاجِ على الخَمِيسِ زَعِيمَا[٢]

الثانية: إن قيل: كيف ضَمِنَ حِمْلَ البعيرِ وهو مجهول، وضمانُ المجهولِ لا يصحّ؟ قيل له: حِمْلُ البعير كان معيَّناً معلوماً عندهم كالوَسْق، فصحَّ ضمانه[٣]. غير أنَّه كان بَدَلَ مالٍ للسارق، ولا يَحلُّ للسَّارِق ذلك، فلعله كان يصحُّ في شَرْعهم. أو كان هذا جِعالةً وبَذْلَ مالٍ لمن[٤] يفتِّش ويطلب.

الثالثة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليلان: أحدهما: جوازُ الجُعْل، وقد أُجيز للضرورة؛ فإنه يجوز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره[٥]. فإذا قال الرجل: مَن فَعَل كذا فله كذا، صحّ. وشأنُ الجُعْل أن يكون أحدُ الطرفين معلوماً، والآخَرُ مجهولاً للضرورة إليه، بخلاف الإجارة؛ فإنه يتقدَّر فيها العِوَضُ والمُعَوَّضُ من الجهتين[٦]. وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فَسْخُه، إلَّا أنَّ المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع وبعده إذا رضِيَ بإسقاط حقِّه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شَرَع المجعولُ له في العمل[٧]. ولا يُشترط في عقد الجُعْل حضورُ المتعاقدين كسائر العقود؛ لقوله: «وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ». وبهذا كلِّه قال الشافعي[٨].

---

(١) في النسخ: يوم اللقاء، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٢) الشعر والشعراء ٢/ ٧٠٤، وأمالي القالي ١/ ٢٤٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٠٩، وذكر القالي عن الأصمعي أنه كان يرويها لحميد بن ثور، وهما في ديوان حميد ص١٣١. ووقع في هذه المصادر: تحت اللواء، بدل: يوم الهياج. والخميس يعني الجيش. تهذيب اللغة ٧/ ١٩٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٦٢.

(٤) بعدها في (م): كان.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٣.

(٦) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤ - ١٠٨٥.

(٧) ينظر المنتقى ٥/ ١١١.

(٨) المهذب ١/ ٤١٨ - ٤١٩، إلا أن الشيرازي ذكر أنه يجوز فسخُ الجاعلِ العقدَ بعد الشروع في العمل، ويلزمه أجرة المثل لما عُمِل.

الرابعة: متى قال الإنسان: مَن جاء بعبدي الآبقِ فله دينارٌ، لزمه ما جَعَلَه فيه إذا جاء به، فلو جاء به من غير ضمانٍ، لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن جاء بآبِقٍ فله أربعونَ درهماً»[١] ولم يَفْصِل بين مَن جاء به مِن عقدِ ضمانٍ أو غيرِ عقد. قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: ولهذا قال أصحابنا: إنَّ مَن فَعَلَ بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك، وكان له أجرُ مثلِه إنْ كان ممن يفعل ذلك بالأجر[٢].

قلت: وخالَفَنا في هذا كلِّه الشافعيُّ[٣].

الخامسة: الدليل الثاني: جوازُ الكفالة على الرجل؛ لأنَّ المؤذِّن الضامنَ هو غيرُ يوسفَ عليه السلام، قال علماؤنا: إذا قال الرجل: تحمَّلتُ، أو تكفَّلتُ، أو ضمنتُ، أو أنا حَميلٌ لك، أو زعيم، أو كَفيل، أو ضامن، أو قَبيل، أو هو لك عندي، أو عليَّ، أو إليَّ، أو قِبَلي، فذلك كلُّه حَمَالةٌ لازمة[٤].

وقد اختلف الفقهاء فيمَن تكفَّل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: مَن تكفَّل بنَفْسِ رجلٍ لم يلزمه الحقُّ الذي على المطلوب إن مات، وهو أحدُ قولي الشافعيِّ في المشهور عنه. وقال مالك والليث والأوزاعيُّ: إذا تكفَّل بنفسه وعليه مالٌ، فإنَّه إنْ لم يأتِ به غَرِمَ المال، ويَرْجِعُ به على المطلوب، فإن اشتَرط ضمانَ نفسه أو وجهه وقال: لا أضمن المالَ، فلا شيءَ عليه من المال.

والحجةُ لمن أوجب غُرْمَ المال: أنَّ الكفيل قد علم أنَّ المضمونَ وَجْهُه لا يُطلب

---

(١) لم نقف عليه مرفوعاً، وأخرجه محمد بن الحسن في الحجة ٢/ ٧٣٤ - ٧٤١، والبيهقي ٦/ ٢٠٠ عن ابن مسعود ﷺ موقوفاً. وأخرجه ابن أبي شيبة كما في نصب الراية ٣/ ٤٧٠ عن عمر ﷺ موقوفاً أيضاً. وينظر المحلى ٨/ ٢٠٨.

(٢) ينظر عقد الجواهر الثمينة ٣/ ٥.

(٣) ينظر المهذب ١/ ٤١٩، والتنبيه ص١٢٦.

(٤) عقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٧.

بدم، وإنما يُطلب بمال، فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوَّته عليه، وعزَّه[١] منه؛ فلذلك لزمه المال. واحتجَّ الطَّحَاويُّ للكوفيين فقال: أمَّا ضمانُ المال بموت المكفول به فلا معنى له؛ لأنه إنما تكفَّلَ بالنفس ولم يتكفَّل بالمال، فمحالٌ أن يلزمه ما لم يتكفَّل به[٢].

السادسة: واختلف العلماء إذا تكفَّلَ رجلٌ عن رجلٍ بمال؛ هل للطالب أن يأخذ مَن شاء منهما؟ فقال الثوريُّ والكوفيُّون والأوزاعيُّ والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ: يأخذ مَن شاء منهما[٣] حتى يستوفيَ حقَّه، وهذا كان قولَ مالكٍ، ثم رجع عنه فقال: لا يؤخذ الكفيلُ إلَّا أن يُفلِسَ الغريمُ أو يغيب؛ لأنَّ التَّبْدِيَةَ بالذي عليه الحقُّ أولى، إلَّا أنْ يكون مُعْدَماً؛ فإنه يؤخذ من الحميل؛ لأنه معذور في أَخْذه في هذه الحالة. وهذا قولٌ حسن. والقياسُ: أنَّ للرجل مطالبةَ أيِّ الرجلين شاء.

وقال ابن أبي ليلى: إذا ضمن الرجلُ عن صاحبه مالاً تحوَّلَ على الكفيل، وبرِئَ صاحبُ الأصل، إلَّا أن يشترط المكفولُ له عليهما أن يأخذ أيَّهما شاء. واحتجَّ ببراءة الميت من الدَّين بضمان أبي قتادة، وبنحوه قال أبو ثور[٤].

السابعة: الزعامةُ لا تكون إلَّا في الحقوق التي تجوز النيابةُ فيها، مما يتعلَّق بالذمَّة من الأموال، وكان ثابتاً مستقرًّا، فلا تصحُّ الحَمالةُ بالكتابة؛ لأنَّها ليست بدينٍ ثابتٍ مستقرٍّ؛ لأنَّ العبد إن عجز؛ رَقَّ وانفسخت الكتابة، وأمَّا كلُّ حقٍّ لا يقوم به أحدٌ

---

(١) في (د) و(ظ): وغره.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٥ ، واختلاف الفقهاء للطبري ص٢٠٨ - ٢١١ .

(٣) قوله: منهما، من (ظ).

(٤) ينظر مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٤/ ٢٥٥ - ٢٥٨ ، والإشراف لابن المنذر ١/ ١١٨ - ١١٩ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٧٥ - ٢٧٦ . والحديث أخرجه أحمد (١٦٥١٠)، والبخاري (٢٢٩٥) عن سلمة بن الأكوع ﷺ أن النبي ﷺ أتي بجنازة ليصلي عليها... فقال: «هل عليه من دين؟» قالوا: نعم، قال: «صلُّوا على صاحبكم» قال أبو قتادة: عليَّ دينُه يا رسول الله. فصلى عليه. وأخرجه أحمد (١٤١٥٩) من حديث جابر ﷺ، و(٢٢٥٤٣) من حديث أبي قتادة ﷺ.

عن أحد كالحدود؛ فلا كفالةَ فيه[١]، ويُسجَن المُدَّعى عليه الحدُّ حتى يُنظر في أمره.

وشذَّ أبو يوسف ومحمدٌ فأجازا الكَفالةَ في الحدود والقِصاص، وقالا: إذا قال المقذوف أو المُدَّعِي القِصاصَ: بيِّنتي حاضرةٌ، كَفِلَه ثلاثةَ أيام[٢]، واحتجَّ لهم الطَّحَاويُّ بما رواه حمزةُ بن عمرو عن عمر[٣]. وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهم حكموا بالكَفالة بالنفس بمحضَر الصحابة[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُروى أنهم كانوا لا ينزلون على أحدٍ ظلماً، ولا يَرْعَونَ زَرْعَ أحد، وأنهم جعلوا[٥] على أفواه إبلهم الأكِمَّة[٦]؛ لئلَّا تعيث في زروع الناس. ثم قال[٧]: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ يُروى أنهم ردُّوا البضاعة التي كانت في رِحالهم؛ أي: فَمَن رَدَّ ما وَجَد؛ فكيف يكون سارقاً؟![٨].

---

(١) ينظر الإشراف ١/ ١٢٤ - ١٢٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٤، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٥٥.

(٢) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٣٢٧، وينظر مختصر اختلاف الفقهاء للطبري ص٢١٤.

(٣) الخبر في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤، وشرح معاني الآثار ٣/ ١٤٧ مطول، وأخرجه مختصراً البخاري (٢٢٩٠) عن حمزة بن عمرو الأسلمي: أن عمر ﷺ بعثه مصدِّقاً، فوقع رجل على جاريةِ امرأته، فأخذ حمزةُ من الرجل كفيلاً حتى قدم على عمر، وكان عمر قد جلده مئة جلدة، فصدَّقهم وعَذَره بالجهالة.

(٤) ذكره البخاري إثر خبر حمزة بن عمرو معلقاً مختصراً، ووصله البيهقي مطولاً ١٠/ ١٦٩، وذكره الطحاوي مطولاً كذلك، كما في مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): جمعوا.

(٦) جمع كمامة، وهي ما يُكَمُّ به فم البعير. الصحاح (كمم).

(٧) في (ظ): قالوا.

(٨) ذكر هذا الخبر الثعلبي في عرائس المجالس ص١٣٤، والبغوي ٢/ ٤٣٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٥، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦٠ لأبي صالح عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ المعنى: فما جزاءُ الفاعلِ إنْ بانَ كذبُكم؟ فأجاب إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: يُسْتعبَدُ ويُسْتَرقُّ. «فَجَزَاؤُهُ» مبتدأ، و«مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ» خبرُه، والتقدير: جزاؤه استعبادُ مَن وُجِد في رَحْله، فهو كنايةٌ عن الاستعباد. وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاءُ مَن سرق القطعُ فهذا جزاؤه[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كذلك نفعل في الظالمين إذا سرقوا أن يُسترَقُّوا، وكان هذا من دين يعقوبَ عليه السلام وحُكْمِه. وقولُهم هذا قولُ مَن لم يَسْتَرِبْ بنفسه[(٢)]؛ لأنهم التزموا استرقاقَ مَن وُجد في رَحْله، وكان حُكْم السارق عند أهل مصر أن يُغرَّمَ ضِعْفَي ما أخذ؛ قاله الحسن والسُّدِّي وغيرُهما[(٣)].

مسألة: قد تقدَّم في سورة المائدة أنَّ القطع في السرقة ناسخٌ لِمَا تقدَّم من الشرائع، أو لِمَا كان في شرع يعقوبَ من استرقاقِ السارق[(٤)]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأ يوسفُ برحالهم لنَفْي التهمة والرِّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه. والوِعاءُ؛ يقال بضمِّ الواو وكسرها، لغتان[(٥)]، وهو ما يُحفظ فيه المتاع ويصونه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٨.

(٢) في (م): نفسه.

(٣) لم نقف عليه عن الحسن والسدي، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ عن الضحاك.

(٤) ينظر ٧/ ٤٤٩ وما بعدها.

(٥) وضم الواو قراءة الحسن. ينظر المحتسب ١/ ٣٤٨.

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ يعني بنيامين، أي: استخرج السِّقاية، أو الصُّواعَ؛ عند مَن يؤنِّث[١]، وقال: «ولِمَنْ جاء به»؛ فذكَّر.

فلمَّا رأى ذلك إخوتُه نكسوا رؤوسهم، وظنُّوا الظنون كلَّها، وأقبلوا عليه وقالوا: ويلك يا بنيامين، ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أمُّك راحيل أخوين لِصَّين! قال لهم أخوهم: والله ما سرقتُه، ولا عِلْمَ لي بمَن وضعه في متاعي. ويروى أنهم قالوا له: يا بنيامين، أسرقت؟ قال: لا والله! قالوا: فَمَن جَعَل الصُّواعَ في رَحْلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

ويقال: إنَّ المفتِّش كان إذا فرغ من رَحْلِ رجلٍ استغفر الله عزَّ وجلَّ تائباً مِن فِعْله ذلك. وظاهِرُ كلامِ قَتَادةَ وغيرِه أنَّ المستغفر كان يوسفَ؛ لأنه كان يفتِّشهم ويعلم أين الصُّواعُ، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رَحْل بنيامين فقال: ما أظنُّ هذا الفتى رضيَ بهذا ولا أَخَذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح[٢] حتى تُفتِّشَهُ، فهو أطيبُ لنفسك ونفوسنا، ففتَّش، فأخرج السِّقاية، وهذا التفتيشُ من يوسف يقتضي أنَّ المؤذِّن سَرَّقهم برأيه. فيقال: إنَّ جميع ذلك كان بأمرٍ من الله تعالى، ويقوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «كِدْنَا» معناه: صَنَعْنا؛ عن ابن عباس[٤]. القُتَبيُّ: دبَّرنا[٥].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٣٩.

(٢) في (د): لا تبرح.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٦، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٢٥ - ٣٢٦، والطبري ١٣/ ٢٥٩-٢٦٠. وينظر عرائس المجالس ص١٣٥.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٦١، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤، عن الضحاك والسدي وابن جريج.

(٥) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٤ هذا القول عن ابن عيسى، ولفظ ابن قتيبة في تفسير الغريب ص٢٢٠: «كدنا ليوسف» أي: احتلنا، والكيد: الحيلة.

ابن الأنباريّ[(١)]: أردنا؛ قال الشاعر:

كـادتْ وكِـدْتُ وتِـلـك خـيـرُ إرادةٍ لو عاد مِن عهد الصِّبَا ما قد مَضَى[(٢)]

وفيه جوازُ التوصُّلِ إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تُخالفْ شريعةً، ولا هَدَمت أصلاً، خلافاً لأبي حنيفة في تجويزه الحيل، وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل[(٣)].

الثانية: أجمع العلماء على أنَّ للرجل قبل حلول الحَوْل التصرُّف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينوِ الفرارَ من الصدقة، وأجمعوا على أنه إذا حال الحَوْل وأظلَّ الساعي أنه لا يَحِلُّ له التحيُّل ولا النقصان، ولا أن يفرِّق بين مجتَمِعٍ، ولا أن يَجْمَع بين متفرِّق. وقال مالك: إذا فوَّت من ماله شيئاً ينوي به الفرارَ من الزكاة قبل الحول بشهرٍ أو نحوه، لزمته الزكاةُ عند الحول، أخذاً منه بقوله عليه الصلاة والسلام: «خشيةَ الصَّدقة». وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرُّه؛ لأنَّ الزكاة لا تلزم إلَّا بتمام الحول، ولا يتوجَّه إليه معنى قوله: «خَشْيةَ الصَّدَقة» إلا حينئذ[(٤)].

قال ابن العربي[(٥)]: سمعت أبا بكر محمد بنَ الوليد الفِهْرِيَّ وغيرَه يقول: كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بنُ عليٍّ الدَّامَغَاني[(٦)] صاحب عشرة آلاف

---

(١) في الأضداد ص٩٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩ ، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧ ، وهو فيهما برواية: لو عاد من لهو الصبابة ما مضى.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨ .

(٤) الكلام من بداية المسألة قاله ابن بطال كما في فتح الباري ١٢/ ٣٣١ . وقوله: «خشية الصدقة» سيأتي تخريجه عن أنس ـ ﷺ ـ في حديث كتاب أبي بكر ﷺ الذي كتبه له في فريضة الصدقة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الحنفي، مفتي العراق، ولد بدامَغان، وتفقَّه بخراسان، وقدم بغداد شابًّا، ودام في القضاء ثلاثين سنة، وفي أولاده أئمة وقضاة، توفي سنة (٤٧٨هـ). السير ١٨/ ٤٨٥ .

دينار من المال[١]، فكان إذا جاء رأسُ الحول دعا بنيه فقال لهم: كَبِرَتْ سِنِّي، وضَعُفت قوَّتي، وهذا مالٌ لا أحتاجه فهو لكم. ثم يُخرجه، فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دُورِ بنيه، فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمرٍ قالوا: يا أبانا إنما أمَلْنا حياتُك، وأما المال فأيُّ رغبةٍ لنا فيه ما دمتَ حياً، أنت ومالك لنا، فخذه إليك. ويسير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيردُّه إلى موضعه. يريد بتبديل الملكِ إسقاطَ الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرِّق، وهذا خَطْبٌ عظيم، وقد صنَّف البخاريّ ﷺ [عليه] في جامعه كتاباً مقصوداً فقال: كتاب الحِيَل[٢].

قلت: وترجم فيه أبواباً منها: باب الزكاة وألَّا يفرَّق بين مجتَمِعٍ ولا يُجمع بين متفرِّق خشيةَ الصدقة. وأدخل فيه حديثَ أنس بن مالك، وأنَّ أبا بكر كتب له فريضةَ الصدقة[٣]...، وحديثَ طلحةَ بنِ عبيد الله أنَّ أعرابيًّا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائرَ الرأس، الحديثَ، وفي آخره: «أفْلَحَ إنْ صَدَق» أو: «دَخَل الجنةَ إنْ صَدَقَ». وقال بعض الناس: في عشرين ومئةِ بعيرٍ حِقَّتان، فإنْ أهلكها متعمِّداً، أو وَهَبَها، أو احتال فيها فِراراً من الزكاة، فلا شيءَ عليه[٤]. ثم أردف بحديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون كنزُ أحدِكم يومَ القيامة شجاعاً أَقْرَعَ له زبِيبتان، ويقولُ: أنا كنزك» الحديث[٥].

قال المهلَّب[٦]: إنما قَصَدَ البخاريُّ في هذا الباب أنْ يُعرِّفكَ أنَّ كلَّ حِيلةٍ يتحيَّلُ بها أحدٌ في إسقاط الزكاة فإنَّ إثْمَ ذلك عليه؛ لأن النبيَّ ﷺ لمَّا مَنَعَ من جمع الغَنَم

---

(١) في (م): عشرات.

(٢) صحيح البخاري طبعة فتح الباري ١٢/ ٣٢٦.

(٣) صحيح البخاري (٦٩٥٥)، وأخرجه مطولاً أحمد (٧٢).

(٤) صحيح البخاري (٦٩٥٦)، وحديث طلحة أخرجه أيضاً أحمد (١٣٩٠)، ومسلم (١١).

(٥) صحيح البخاري (٦٩٥٧)، وسلف ٥/ ٤٣٨.

(٦) كلامه بنحوه في فتح الباري ١٢/ ٣٣١

وتفريقِها خشيةَ الصدقة، فُهِم منه هذا المعنى، وفُهِم من قوله: «أَفْلَحَ إنْ صَدَق» أنَّ مَن رامَ أن ينقُضَ[١] شيئاً من فرائض الله بحيلةٍ يحتالُها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عُذْرُه عند الله، وما أجازه الفقهاءُ من تصرُّفِ صاحبِ المال في ماله قُرْبَ حلولِ الحَوْلِ إنما هو ما لم يُرِدْ بذلك الهربَ من الزكاة، ومَن نوى ذلك فالإثمُ عنه غيرُ ساقط، واللهُ حَسِيبُه، وهو كَمَن فرَّ من[٢] صيام رمضانَ قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفراً لا يحتاج إليه رغبةً عن فَرْضِ الله الذي كتبه الله على المؤمنين، فالوعيدُ متوجِّهٌ عليه، أَلَا ترى عقوبةَ مَن مَنَعَ الزكاة يوم القيامة بأيٍّ وجهٍ متعمِّداً كيف تَطَؤه الإبل[٣]، ويمثَّلُ له مالُه شجاعاً أقرع؟! وهذا يدلُّ على أنَّ الفرار من الزكاة لا يَحِلُّ، وهو مُطالَبٌ بذلك في الآخرة.

الثالثة: قال ابن العربيِّ[٤]: قال بعض علماء الشافعية: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾[٥] دليلٌ على وجه الحيلة إلى المباح[٦] واستخراج الحقوق. وهذا وهمٌ عظيم. وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قيل فيه: كما[٧] مكَّنا ليوسفَ مِلك نفسه عن امرأة العزيز مكَّنَّا له مِلْكَ الأرض عن العزيز. أو مِثْلُه مما لا يُشْبِه[٨] ما ذَكَره.

---

(١) في (د) وفتح الباري: ينقص.

(٢) في (د) والفتح: عن.

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (٧٥٦٣)، ومسلم (٩٨٧)، ومختصراً البخاري (٦٩٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٨٨ .

(٥) في (د) و(ز) وأحكام القرآن: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض، وفي (م): وكذلك مكنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣ ، وعنه نقل ابن العربي، وإياه عنى بقوله: قال بعض علماء الشافعية. وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٦ . وقد سلف كلام الكيا الطبري ص٣٨٧ من هذا الجزء.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي والكيا الطبري: دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى المباح.

(٧) في النسخ الخطية: لما، والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) في النسخ الخطية: إذ مثله لا يشبه.

قال الشَّفْعَوي(١): ومثلُه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، وهذا ليس حيلةً، إنما هو حَمْلٌ لليمين على الألفاظ أو على المقاصد.

قال الشفعويُّ: ومثلُه حديث أبي سعيد الخدريِّ في عاملِ خيبر، أنه أتى النبيَّ ﷺ بتمرٍ جَنِيب، الحديثَ. ومقصودُ الشافعية من هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أمره أن يبيع جمعاً ويبتاع جَنِيباً من الذي باع منه الجمع أو من غيره(٢).

وقالت المالكية: معناه: مِن غيره؛ لئلَّا يكون جَنِيباً بجمعٍ والدارهمُ رباً، كما قال ابن عباس: جريرةٌ بجريرة والدراهمُ رباً(٣).

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: سلطانِه؛ عن ابن عباس(٤). ابن عيسى: عادَتِه(٥)، أي: يظلم بلا حجة. مجاهد: في حكمه(٦)، وهو استرقاق السُّرَّاق. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلَّا بأن يشاء الله أنْ يجعل السِّقاية في رَحْله تَعِلَّةً وعذراً له. وقال قتادة: بل كان حكم الملك الضربُ والغُرْم ضعفين، ولكن شاء الله أن يُجريَ على ألسنتهم حكمَ بني إسرائيل، على ما تقدَّم(٧).

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي: بالعلم والإيمان. وقُرئ: ﴿نرفعُ درجاتٍ من نَّشَاءُ﴾ بمعنى: نرفع مَن نشاءُ درجاتٍ، وقد مضى في «الأنعام»(٨).

---

(١) نسبة إلى الإمام الشافعي رحمه الله، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٣٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٨ وعنه نقل المصنف.

(٢) قوله: أو من غيره، من (م) وأحكام القرآن لابن العربي، وسلف الكلام وتخريج الحديث ص٣٨٧.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٩، وخبر ابن عباس سلف نحوه ٢/ ٢٩٧ بلفظ: نهى ابن عباس عن دراهم بدراهم بينهما حريرة.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤.

(٥) في (م): عاداته، والمثبت من النسخ الخطية موافق لما في النكت والعيون ٣/ ٦٤، والكلام منه.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٦٤ - ٢٦٦ عن قتادة والسدي وغيرهما.

(٧) ص٤١٢ من هذا الجزء، وخبر قتادة ذكره الواحدي عنه وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الوسيط ٢/ ٦٢٤.

(٨) ٨/ ٤٤٥، وقرأ بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي. السبعة ص٢٦١، والتيسير ص١٠٤.

وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ روى إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرمةَ، عن ابن عباس قال: يكون ذا أعلمَ مِن ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوقَ كلِّ عالم[١].

وروى سفيان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن جُبير قال: كنا عند ابن عباس رحمه الله، فتحدَّث بحديث فتعجَّبَ منه رجل فقال: سبحان الله! وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ، فقال ابن عباس: بئسَ ما قلت! الله العليم وهو فوقَ كلِّ عالم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ المعنى: أي: اقتَدَى بأخيه، ولو اقتَدَى بنا ما سَرَق، وإنَّما قالوا ذلك ليَبْرؤوا[٣] من فعله؛ لأنه ليس من أُمِّهم، وأنه إن سرق فقد جَذَبَه عِرْقُ أخيه السَّارق؛ لأنَّ الاشتراكَ في الأنساب يُشاكِلُ في الأخلاق.

وقد اختلفوا في السَّرقة التي نَسَبُوا إلى يوسف: فرُوي عن مجاهد وغيره أنَّ عمةَ يوسف بنتَ إسحاق كانت أكبرَ من يعقوب، وكانت صارت إليها مِنْطقةُ إسحاقَ لسنِّها؛ لأنَّهم كانوا يتوارثون بالسِّنِّ، وهذا مما نُسِخَ حكمُه بشرعنا، وكان مَن سَرَق استُعبِد، وكانت عمةُ يوسف حَضَنته وأحبَّته حبًّا شديداً، فلمَّا ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب: سَلِّمي يوسفَ إليَّ، فلستُ أقدِرُ أن يغيب عنِّي ساعةً، فولِعَتْ به، وأشفقَتْ

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٢٦٨ - ٢٦٩، وابن أبي حاتم ٧/٢١٧٧ (١١٨٣٠)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، ووقع عند الطبري: سالم، بدل: سماك.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/٣٢٦، والطبري ١٣/٢٦٨، وفيهما: الحمد لله، بدل: سبحان الله.

(٣) في (ظ): ليتبروا.

من فِراقه، فقالت له: دَعْهُ عندي أياماً أنظُرْ إليه، فلما خرج من عندها يعقوبُ عَمَدَت إلى مِنطَقة إسحاق فحزمَتْها على يوسفَ من تحت ثيابِه، ثم قالت: لقد فقدت مِنطقةَ إسحاق، فانظروا مَن أخذَها ومَن أصابها، فالتُمِسَتْ، ثم قالت: اكشفوا أهلَ البيت، فكشفوا فوُجِدَت مع يوسف، فقالت: إنَّه والله لي سَلَمٌ أصنعُ فيه ما شئتُ، ثم أتاها يعقوبُ فأخبرته الخبرَ، فقال لها: أنتِ وذلك، إن كان فعلَ ذلك فهو سَلَمٌ لكِ، فأمسكَتْه حتى ماتت، فبذلك عيَّره إخوتُه في قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[(١)]، ومن هاهنا تعلَّم يوسفُ وضعَ السِّقاية في رَحْلِ أخيه كما عمِلَتْ به عمتُه[(٢)].

وقال سعيد بنُ جُبير: إنما أمرته [أُمُّه] أن يسرِقَ صنماً كان لجدِّه أبي أُمِّه، فسرقه وكسَرَه وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر، فرمَوه بالسَّرقة وعيَّروه بها، وقاله قتادة. وفي كتاب الزجَّاج: أنه كان صنم ذهبٍ[(٣)].

وقال عطية العَوْفيُّ: إنه كان مع إخوته على طعامٍ، فنظر إلى عَرْقٍ[(٤)] فخبَّأه، فعيَّروه بذلك.

وقيل: إنه كان يسرِقُ من طعامِ المائدةِ للمساكين؛ حكاه ابنُ عيسى.

وقيل: إنهم كَذَبوا عليه فيما نَسَبوه إليه؛ قاله الحسن[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: أسرَّ في نفسه قولَهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ قاله ابنُ شجرة وابنُ عيسى. وقيل: إنه أسرَّ في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ثم جهر فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٧٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٨٧.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٦٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) العَرْق بفتح العين وسكون الراء: العظم إذا أُخذ عنه معظم اللحم. النهاية: (عرق)، وهذا القول في النكت والعيون ٣/ ٦٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٥.

تَصِفُونَ﴾[١]. قاله ابن عباس[٢]، أي: أنتم شرٌّ مكاناً ممَّن نسبتُموه إلى هذه السرقة.

ومعنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: الله أعلمُ أنَّ ما قلتُم كذبٌ، وإن كانت لله رضاً. وقد قيل: إنَّ إخوةَ يوسفَ في ذلك الوقتِ ما كانوا أنبياء.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ خاطَبوه باسم العزيز؛ إذ كان في تلك اللحظة بِعَزْلِ الأولِ أو موته. وقولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ أي: كبيرَ القدر، ولم يريدوا كِبَرَ السنِّ؛ لأنَّ ذلك معروفٌ من حال الشَّيخ[٣].

﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ أي: عبداً بَدَلَه، وقد قيل: إنَّ هذا مجازٌ؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصحُّ أخذُ حرٍّ يُستَرقُّ بدَلَ مَن قد أَحكمت السُّنةُ عندهم رِقَّه، وإنما هذا كما تقولُ لمن تَكره فعلَه: اقتُلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنتَ لا تريدُ أن يقتُلَكَ، ولكنَّك مبالِغٌ في استنزالِهِ. ويحتَمِلُ أن يكون قولُهم: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ حقيقةً، وبعيدٌ عليهم وهم أنبياءُ أن يَرَوا استرقاقَ حُرٍّ، فلم يبقَ إلا أن يريدوا بذلك طريقَ الحَمَالة؛ أي: خُذْ أحدنا مكانَه حتى ينصرِفَ إليك صاحبُك، ومقصِدُهم بذلك أن يصل بنيامينُ إلى أبيه، ويعرف يعقوب جليَّةَ الأمر، فمنع يوسفُ عليه السلام من ذلك؛ إذ الحَمَالةُ في الحدود ونحوِها ـ بمعنى إحضارِ المضمون فقط ـ جائزةٌ مع التراضي، غيرُ لازمةٍ إذا أَبَى الطالبُ، وأما الحَمالة في مثل هذا على أن يَلزم الحَمِيلَ ما كان يلزمُ المضمونَ من عقوبةٍ، فلا يجوز إجماعاً. وفي «الواضحة»: إن الحَمالة في الوجهِ فقط في جميعِ الحدود جائزةٌ، إلا في النَّفْس[٤]. وجمهورُ الفقهاء على جواز الكَفَالة في النَّفْس. واختُلِف فيها عن الشافعي فمرَّةً ضعَّفها، ومرَّةً أجازها [على المال][٥].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٢٧٦ دون قوله: ثم جهر فقال.

(٣) النكت والعيون ٣/٦٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/٢٦٨ .

(٥) ينظر الاستذكار ٢٢/٢٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يَحتمِلُ أن يريدوا وصفَهُ بما رأوا من إحسانه في جميع أفعالِه معهم، ويحتمِلُ أن يُريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسدَيْتَها إلينا، وهذا تأويلُ ابن إسحاق[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ في موضع نصبٍ، أي: من أن نأخُذَ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا﴾ في موضع نصبٍ بـ «نأخُذَ» ﴿مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: مَعَاذ الله أن نأخذَ البريءَ بالمُجرم، ونُخالف ما تعاقَدْنا عليه. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أي: إن نأخُذ غيرَه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: يَئِسوا، مثل عَجِبَ واستعجَبَ، وسَخِرَ واستسخَرَ. ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي: انفردوا، وليس هو معهم. ﴿نَجِيًّا﴾ نصبٌ على الحال من المُضمَر في «خَلَصُوا»، وهو واحد يؤدِّي عن جمعٍ، كما في هذه الآية، ويقعُ على الواحد كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وجمعُه أَنجِيَة، قال الشاعر:

إِنِّـي إذا مـا الـقـومُ كـانـوا أَنـجِـيَـهْ   واضـطَـربَ الـقـومُ اضـطِـرابَ الأَرْشِـيَـهْ

هـنـاكِ أوصـيـنـي ولا تُـوصـي بِـيَـهْ[2]

وقرأ ابنُ كثير: «استايَسُوا»، «ولا تايَسُوا» «إنه لا يايَسُ» [٨٧] «أفلم يايَس» [الرعد: ٣١] بألفٍ من غير همزٍ على القلب[3]، قُدِّمت الهمزةُ وأُخِّرت الياءُ، ثم قُلِبت

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٦٩.

(٢) الرجز نسبه في اللسان: (نجا) إلى سُحَيم بن وَثِيل اليَرْبُوعيّ، وذكر أن هناكِ بكسر الكاف بخط علي بن حمزة، وبخطه أيضاً: أَوْصيني ولا توصي، بإثبات الياء؛ لأنه يخاطب مؤنثاً. وهي في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ من غير نسبة. والأرشية، جمع رِشاء: وهو الحبل. القاموس (رشا). وقيل في معنى الرجز: إنه ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم، وقيل غير ذلك. اللسان (نجا).

(٣) هي قراءة ابن كثير في رواية البزي بخُلْف عنه، وكذلك قول: «استايس» [الآية: ١١٠] والوجه الثاني للبزي كالجماعة. السبعة ص٣٥ ، والتيسير ص١٢٩ .

الهمزة ألفاً؛ لأنها ساكنةٌ قبلَها فتحة، والأصلُ قراءةُ الجماعة؛ لأنَّ المصدرَ ما جاءَ إلا على تقديم الياء: يَأْساً، والإياسُ ليس بمصدرِ أَيِسَ، بل هو مصدرُ أُسْتُهُ أَوْساً وإِياساً، أي: أعطيتُه[1]. وقال قوم: أَيِسَ ويَئِسَ لغتان.

أي: فلما يَئِسُوا من رَدِّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يُخالِطُهم غيرُهم من الناس، يتناجون فيما عَرَضَ لهم. والنَّجِيُّ: فعيلٌ بمعنى المُناجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ قال قتادة: هو روبيل، كان أكبرَهم في السِّنِّ. مجاهد: هو شمْعون، كان أكبرَهم في الرأي. وقال الكلبيُّ: يهوذا، وكان أعقلَهم[2]. وقال محمد بنُ كعب وابنُ إسحاق: هو لاوي، وهو أبو الأنبياء.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهداً من الله في حفظِ ابنه وردِّه إليه. ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ «ما» في محلِّ نصبٍ عطفاً على «أنَّ» والمعنى: ألم تعلموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وتعلموا تفريطَكم في يوسف، ذكره النحَّاس[3] وغيرُه. و«من» في قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ متعلِّقةٌ بـ «تعلموا». ويجوز أن تكون «ما» زائدةً، فيتعلَّق الظَّرفان اللذان هما «من قبلُ» و«في يوسف» بالفعل وهو «فرَّطتُم». ويجوز أن تكون «ما» والفعلُ مصدراً، و«من قبلُ» متعلِّقاً بفعلٍ مضمَرٍ، التقدير: تفريطُكم في يوسف وقع[4] من قبلُ، فـ «ما» والفعلُ في موضع رفع بالابتداء، والخبرُ هو الفعل المضمَر الذي يتعلق به «من قبلُ»[5].

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾[6] أي: ألزَمُها، ولا أبرحُ مقيماً فيها، يقال: بَرِحَ بَراحاً

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ٤٣٤.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٢.

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٣٤١.

(٤) في النسخ: واقع، وكلاهما صحيح، والمثبت أنسب لسياق الكلام. ينظر الدر المصون ٦/ ٥٣٩.

(٥) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٠ - ٣٤١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٤ - ١٢٥.

(٦) بعدها في (ظ): أي من الأرض.

وبُرُوحاً، أي: زال، فإذا دخل النفيُ صار مثبتاً. ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالرجوع؛ فإني أستحي منه. ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالمسير[1] مع أخي فأمضي معه إلى أبي. وقيل: المعنى: أو يحكم الله لي بالسَّيف فأُحارِبَ وآخُذَ أخي، أو أعجَزَ فأنصرف بعُذرٍ، وذلك أنَّ يعقوب قال: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ ومن حارب وعَجَز فقد أُحيط به. قال ابن عباس: وكان يهوذا إذا غضِبَ وأخَذَ السَّيف فلا يردُّ وجهَه مئة ألف، يقومُ شعرُه في صدره مثل المَسَالِّ فتنفُذُ من ثيابه.

وجاء في الخبر: أنَّ يهوذا قال لإخوته ـ وكان أشدَّهم غضباً ـ: إما أن تكفُوني الملِكَ ومَن معه، أكْفِكم أهلَ مصر، وإما أن تكفوني أهلَ مصر، أكفِكم الملِكَ ومَن معه، قالوا: بل اكفِنا الملكَ ومَن معه، نكفِكَ أهلَ مصر، فبعث واحداً مِن إخوته فعدُّوا أسواقَ مصر، فوجدوا فيها تسعةَ أسواقٍ، فأخَذَ كلُّ واحدٍ منهم سوقاً، ثم إنَّ يَهوذا دخل على يوسفَ وقال: أيُّها الملك، لئن لم تُخَلِّ معنا أخانا لأصيحنَّ صيحةً لا تبقى في مدينتك حامل[2] إلا أسقطتْ ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصًّا[3] فيهم عند الغضب؛ فأغضَبَه يوسفُ وأسمعَه كلمةً، فغضب يَهوذا واشتدَّ غضبُه، وانتفجَتْ شعراتُه؛ وكذا كان كلُّ واحدٍ من بني يعقوبَ؛ كان إذا غضب، اقشعرَّ جلدُه، وانتفَخَ جسدُه، وظهرت شعراتُ ظهرِه من تحت الثوب، حتى تقطُر من كلِّ شعرةٍ قطرةُ دمٍ؛ وإذا ضرب الأرضَ برجله، تزلزلت وتهدَّم البنيانُ، وإن صاح صيحةً، لم تسمعْه حاملٌ من النساء والبهائمِ والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غيرَ تمام، فلا يَهدأُ غضبُه إلا أن يَسفك دماً، أو تُمسِكه يدٌ مِن نَسْل يعقوب؛ فلما عَلم يوسفُ أنَّ غَضَبَ أخيه يهوذا قد تمَّ وكَمُلَ، كَلَّم ولداً له صغيراً بالقبطيَّة، وأمَرَه أن يَضع يدَه بين كَتِفَي يهوذا مِن حيث لا يراه؛ ففَعَل، فسكن غضبُه، وألقى السيفَ، فالتفتَ يميناً

---

(١) في (د) و(م): بالممر.

(٢) في (م): حاملاً.

(٣) في (م): خاصة.

وشمالاً لعله يَرى أحداً مِن إخوتِه، فلم يَرَهُ؛ فخرج مسرعاً إلى إخوتِه وقال: هل حضَرني منكم أحدٌ؟ قالوا: لا! قال: فأين ذَهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل، فخرج فلَقِيَه وقد احتمل صخرةً عظيمةً، قال: ما تَصنع بهذه؟ قال: أذهبُ إلى السوق الذي وقع في نَصيبي أَشدخ بها رؤوسَ كلِّ مَن فيه، قال: فارجِع فرُدَّها، أو ألقها في البحر، ولا تُحدثنَّ حَدَثاً، فوالذي اتخذَ إبراهيمَ خليلاً، لقد مَسَّني كَفٌّ مِن نَسْل يعقوبَ! ثم دخلوا على يوسفَ، وكان يوسفُ أشدَّهم بطشاً، فقال: يا معشرَ العِبْرانيين! أتظنون أنَّه ليس أحدٌ أشدَّ منكم قوَّة؟ ثم عَمد إلى حَجَرٍ عظيم مِن حجارة الطاحونة، فرَكَلة برِجْله، فَدَحا به مِن خَلْفِ الجدار ـ الرَّكْلُ: الضَّرْبُ بالرِّجْل الواحدة، وقد رَكَله يَرْكُلُه؛ قاله الجوهري[1] ـ ثم أمسكَ يَهوذا بإحدى يدَيْه، فصَرَعه لجنبه، وقال: هاتِ الحدَّادين[2] أقطعُ أيديَهم وأرجلَهم، وأضْرِب أعناقَهم، ثم صعد على سريرِه، وجلس على فراشه، وأَمَرَ بصُواعِه، فوُضِعَ بين يدَيْه، ثم نَقَره نقرةً، فخرج طنينه، فالتفتَ إليهم وقال: أتردّونَ ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنَّه يقول: إنه ليس على قلبِ أبي هؤلاء همٌّ ولا غَمٌّ ولا كَرْبٌ إلا بسببِهم، ثم نَقَر نقرةً ثانية وقال: إنَّه يخبرني أنَّ هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً، فحسدوه ونَزعوه مِن أبيهم، ثم أتلفوه. فقالوا: أيُّها العزيز! استر علينا، ستَر اللهُ عليكَ، وامنُن علينا، منَّ اللهُ عليك، فنقَره نقرةً ثالثة وقال: إنَّه يقول: إنَّ هؤلاءِ طَرَحوا صغيرَهم في الجُبِّ، ثم باعوه بيعَ العبيدِ بثمن بَخْسٍ، وزعموا لأبيهم أنَّ الذئبَ أكَلَه، ثم نقَره رابعةً وقال: إنَّه يُخبِرني أنَّكم أذنبتُم ذَنْباً منذ ثمانينَ سنةً، لم تَستغفروا اللهَ منه، ولم تتوبوا إليه، ثم نقَره خامسةً وقال: إنَّه يقول: إنَّ أخاهم الذي زعموا أنَّه هَلَكَ لن تَذهبَ الأيَّامُ حتى يرجعَ فيخبرَ الناسَ بما صَنعوا، ثم نقَره سادسةً وقال: إنَّه يقول: لو كنتم أنبياءَ أو بني أنبياء، ما كذبتم، ولا عَقَقْتم والدكم، لأجعلنَّكم نَكالاً للعالمين، ايتوني بالحدَّادين[3] أقطع

(١) قوله: الركل الضرب، إلى هذا الموضع، ليس في (ظ)، وينظر الصحاح (ركل).

(٢) في (د): الجدادين، وفي (ظ): الجلادين.

(٣) في (ظ): بالجلادين.

أيديَهم وأرجلَهم، فتضرَّعوا وبَكَوْا، وأظهروا التوبةَ وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسفَ إذ هو حيٌّ لنكونَنَّ طوعَ يدِه، وتراباً يَطَأُ علينا برِجْله؛ فلما رأى ذلك يوسفُ مِن إخوته، بكى، وقال لهم: اخرجُوا عنِّي، قد خلَّيت سبيلَكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتُكم نكالاً[1].

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ قاله الذي قال: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وقرأ ابنُ عباس والضَّحَّاك وأبو رزين: «إِنَّ ابنَكَ سُرِّقَ»[2]. النحَّاس[3]: وحدثني محمد بنُ أحمد بنِ عمر قال: حدّثنا ابنُ شَاذَان، قال: حدّثنا أحمدُ بنُ أبي سُرَيج البغداديُّ قال: سمعتُ الكسائيَّ يقرأ: «يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ» بضمِّ السينِ وتشديدِ الرَّاء مكسورةً؛ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ أي: نُسب إلى السرقةِ ورُمي بها، مثل خوَّنته وفسَّقته وفجَّرته: إذا نسبته إلى هذه الخِلال.

وقال الزجَّاج[4]: «سُرِّقَ» يحتمل معنيين: أحدهما: عُلم منه السَّرَق، والآخر: اتُّهم بالسَّرَق. قال الجوهري[5]: والسَّرِق والسَّرِقة ـ بكسر الراء فيهما ـ هو اسم الشيء المسروق، والمصدر: سَرَق يَسْرِق سَرَقاً، بالفتح.

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير ١٣/ ٢٧٧ - ٢٧٩ ، وفي تاريخه ١/ ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٧٩ (١١٨٣٨)، عن السُّدِّي، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٢ ، وعرائس المجالس للثعلبي ص١٣٥ - ١٣٦ ، والنكت والعيون ٣/ ٦٥ - ٦٦ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، وجاء في المصادر أن الداخل على الملك هو روبيل، وليس يهوذا.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٠ .

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٥٢ ، وإعراب القرآن ٢/ ٣٤١ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥ .

(٥) في الصحاح (سرق).

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» يريدون ما شهدنا قطُّ إلا بما عَلمنا، وأما الآن فقد شَهدنا بالظاهر وما نعلمُ الغيبَ؛ كأنَّهم وقعتْ لهم تُهمةٌ مِن قول بنيامين: دَسَّ هذا في رحلي مَن دَسَّ بضاعَتكم في رحالكم؛ قال معناه ابنُ إسحاق.

وقيل: المعنى: ما شَهدنا عند يوسفَ بأنَّ السارقَ يُسْتَرَقُّ إلا بما عَلمنا مِن دِيْنك؛ قاله ابنُ زيد[1].

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: لم نعلم وقتَ أخَذْناه منكَ أنه يَسْرِق، فلا نأخذه[2]. وقال مجاهد وقتادة: ما كنَّا نَعلم أنَّ ابنكَ يُسترقُّ ويَصير أمرُنا إلى هذا، وإنَّما قلنا: نَحفظُ أخانا فيما نُطيق[3]. وقال ابنُ عباس: يَعنون أنه سَرَق ليلاً وهم نيام. والغيبُ هو الليلُ بلغة حِمْيَر[4]؛ وعنه: ما كنَّا نَعلم ما يَصنع في ليلِه ونهارِه وذهابِه وإيابِه[5]. وقيل: ما دام بمرأى منَّا، لم يَجْرِ خَلَلٌ، فلما غاب عنَّا خَفيت عنَّا حالاته. وقيل معناه: قد أُخِذت السَّرِقةُ مِن رَحْله، ونحن أَخرجناها وننظرُ إليها، ولا عِلْمَ لنا بالغيب، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِقْ.

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ الشهادة بأيِّ وجهٍ حصل العِلْمُ بها؛ فإنَّ الشهادةَ مرتبطةٌ بالعِلْم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممَّن عَلِم، ولا تُقبَل إلا منهم[6]، وهذا هو الأصلُ في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابُنا: شهادةُ الأعمى جائزةٌ، وشهادةُ المستمِع جائزةٌ، وشهادةُ الأخرس ـ إذا فُهمت إشارتُه ـ جائزةٌ، وكذلك الشهادةُ على الخطِّ

(١) ذكر خبر ابن زيد الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٦٨ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) ينظر الوسيط ٢/ ١٧٣ .

(٣) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٤/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩٠ .

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٢٦ ، والبغوي ٢/ ٤٤٣ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠ .

ـ إذا تيقَّن أنَّه خطُّه أو خطُّ فلانٍ ـ صحيحةٌ، فكلُّ مَن حصل له العِلْم بشيءٍ جاز أن يَشهد به وإن لم يُشهِده المشهودُ عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦] وقال رسول الله ﷺ: «ألَا أُخبركم بخيرِ الشهداء، خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادتِه قَبْلَ أن يُسْألها» وقد مضى في «البقرة»[١].

الثالثة: اختلف قولُ مالكٍ في شهادةِ المرور، وهو أن يقولَ: مررتُ بفلانٍ فسمعتُه يقول كذا، فإن استوعبَ القولَ شَهِدَ، في أحد قوليه، وفي القول الآخر: لا يَشهدُ حتى يُشهِداه. والصحيحُ أداءُ الشهادةِ عند الاستيعابِ، وبه قال جماعةُ العلماء، وهو الحقُّ؛ لأنَّه قد حصل المطلوبُ، وتعيَّن عليه أداءُ العِلْم؛ فكان خيرَ الشهداء إذا أعلم المشهودَ له، وشَرَّ الشهداءِ إذا كَتَمها، والله أعلم[٢].

الرابعة: إذا ادّعى رجلٌ شهادةً لا يَحتملها عمره، ردَّت؛ لأنَّه ادَّعى باطلاً، فأكذبه العِيَان ظاهراً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ حَقَّقوا بها شهادتَهم عنده، ورَفَعوا التُّهمةَ عن أنفسهم؛ لئلا يتَّهمهم. فقولهم: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» أي: أهلَها؛ فحذف. ويريدون بالقرية مصر[٤]. وقيل: قريةٌ مِن قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل: المعنى: «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» وإن كانت جماداً، فأنت نبيُّ الله، وهو يُنطق الجماد لك، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى إضمارٍ[٥]. قال سيبويه: ولا يَجوز كَلِّم هِنداً، وأنت

---

(١) ٤/ ٤٥٤ وما بعدها، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٠ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٢٩١ وأخرجه عن قتادة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ينظر النكت والعيون ٣/ ٦٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧١ ، وزاد المسير ٤/ ٢٦٨ .

تريد غلامَ هندٍ؛ لأنَّ هذا يُشكل[١].

والقول في العِير كالقول في القرية سواء. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

الثانية: في هذه الآيةِ مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن كان على حقٍّ وعَلِمَ أنَّه قد يُظنُّ به أنَّه على خلافِ ما هو عليه، أو يُتوهَّم، أن يرفعَ التُّهمةَ وكلَّ رِيْبة عن نفسه، ويُصرِّح بالحقِّ الذي هو عليه، حتى لا يبقى لأحدٍ مُتكلَّم. وقد فعل هذا نبيُّنا محمد ﷺ بقوله للرجلَيْن اللذين مرَّا، وهو قد خرج مع صفِيَّة يَقْلِبُها مِن المسجد: «على رِسْلِكُما إنَّما هي صفيَّة بنتُ حُيَيٍّ» فقالا: سبحانَ الله! وكَبُر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يَبلغُ من الإنسان مَبْلَغَ الدَّمِ، وإنِّي خَشِيتُ أن يَقذِفَ في قلوبكما شيئاً» رواه البخاري ومسلم[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ أنَّ ابني سَرَق، وما سَرَق، وإنَّما ذلك لأمرٍ يريدُه الله. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأني صبرٌ جميلٌ، أو صبرٌ جميل أَولى بي، على ما تقدَّم أوَّل السُّورة[٣].

الثانية: الواجبُ على كلِّ مسلم إذا أُصيب بمكروهٍ في نفسِه أو ولدِه أو مالِه أن يتلقَّى ذلك بالصبرِ الجميل، والرضا والتسليمِ لمُجْرِيه عليه وهو العليمُ الحكيم، ويَقتدِي بنبيِّ الله يعقوبَ وسائرِ النبيين، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤١.

(٢) صحيح البخاري (٢٠٣٥)، وصحيح مسلم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها. ويقلبها، أي: يصحبها إلى بيتها. النهاية (قلب).

(٣) عند الآية (١٨).

وقال سعيدُ بنُ أبي عَرُوبة، عن قَتَادة، عن الحسن قال: ما مِن جَرْعتين يتجرَّعهما العبدُ أحبُّ إلى الله مِن جَرْعةِ مُصيبةٍ يتجرَّعها العبدُ بحُسنِ صبرٍ وحُسْنِ عَزَاءٍ، وجَرْعةِ غيظٍ يتجرَّعها العبدُ بحِلْمٍ وعَفْوٍ(١).

وقال ابنُ جُريج عن مجاهد في قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أي: لا أشكو ذلك إلى أحدٍ.

وروى مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ، لم يَصْبِر»(٢). وقد تقدَّم في «البقرة»(٣) أن الصَّبر عند أوَّل الصَّدمةِ، وثوابُ مَن ذَكَرَ مصيبته واسترْجَعَ وإن تقادَم عهدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضَّحَّاك، عن ابن عباس، قال: إنَّ يعقوبَ أُعطيَ على يوسفَ أَجْرَ مئةِ شهيدٍ(٤). وكذلك مَن احْتَسب مِن هذه الأمَّة في مصيبتِه، فله مثل أَجْرِ يعقوبَ عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ لأنَّه كان عنده أنَّ يوسفَ ﷺ لم يَمُتْ، وإنما غابَ عنه خبرُه؛ لأنَّ يوسفَ حُمِلَ وهو عبدٌ لا يَملكُ لنفسه شيئاً، ثم اشتراه الملكُ، فكان في دارِه لا يَظهر للناس، ثم حُبِسَ، فلما تمكَّن، احتال في أن يَعلم أبوه خبرَه؛ ولم يُوجِّه برسولٍ؛ لأنَّه كَرِهَ من إخوته أنْ يعرفوا ذلك، فلا يَدَعُوا الرسولَ يَصلُ إليه.

وقال: «بهم» لأنَّهم ثلاثةٌ؛ يوسفُ وأخوه، والمتخلِّف مِن أجلِ أخيهِ(٥)، وهو

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦٧٢)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥١ عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧ - ٣٢٨ ، والطبري في التفسير ١٣/ ٣١٣ من حديث مسلم بن يسار رفعه إلى النبي ﷺ. وهو مرسل.

(٣) ٢/ ١٧٤ وما بعدها.

(٤) لم نقف عليه من قول ابن عباس، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٠٩ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٦ (١١٨٨٤) عن ليث بن أبي سليم.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢ .

القائل: «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ». ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يقضي.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم؛ وذلك أنَّ يعقوبَ لمَّا بلغه خبرُ بنيامين تَتَامَّ حزنُه، وبَلَغَ جهدَه، وجدَّد اللهُ مصيبتَه له في يوسف، فقال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ونَسيَ ابنَه بنيامين فلم يَذكره؛ عن ابنِ عباس[(١)]. وقال سعيدُ بنُ جُبير: لم يكن عندَ يعقوبَ ما في كتابنا مِن الاسترجاع، ولو كان عنده لما قال: «يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ»[(٢)].

قال قَتَادةُ والحسنُ: والمعنى: يا حزناه[(٣)]! وقال مجاهدٌ والضَّحَّاك: يا جَزَعاه[(٤)]!؛ قال كُثَيِّر:

فيا أَسفاً للقلبِ كيف انصرافُهُ ... وللنَّفْسِ لمَّا سُلِّيَتْ فَتَسلَّتِ[(٥)]

والأسَفُ: شدَّةُ الحُزن على ما فات. والنداء على معنى: تعالَ يا أَسَف فإنَّه من أوقاتِك[(٦)]. وقال الزجَّاج[(٧)]: الأصل: يا أسفِي؛ فأُبدل مِن الياء ألفٌ؛ لخفَّة الفتحة.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٣ عن ابن إسحاق.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٣، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٢٩٥، بنحوه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٢٩٤ عن قتادة، ولم نقف عليه من قول الحسن.

(٤) أخرجه عن مجاهد الطبري ١٣/ ٢٩٤. وأخرج قول الضحاك بلفظ: يا حَزَناه.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٦٩، وهو في الديوان ص٧٧ برواية:

فإن سأل الواشون فيم صَرَمْتَها ... فقل نفسُ حرٍّ سُلِّيت فتسلَّتِ

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٢، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ١٢٥.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ قيل: لم يُبصِر بهما ستَّ سنين، وأنَّه عَمِيَ؛ قاله مقاتل[(١)].

وقيل: قد تبيضُّ العينُ ويَبقى شيءٌ مِن الرؤية، والله أعلم بحالِ يعقوبَ، وإنما ابيضَّت عيناه مِن البكاء، ولكنَّ سببَ البكاءِ الحزنُ، فلهذا قال: «مِنَ الْحُزْنِ».

وقيل: إنَّ يعقوبَ كان يُصلِّي، ويوسف نائماً معترضاً بين يديه، فَغطَّ في نومه، فالتفتَ يعقوبُ إليه، ثم غَطَّ ثانيةً، فالتفتَ إليه، ثم غَطَّ ثالثة، فالتفتَ إليه، سروراً به وبغطيطه؛ فأوحى اللهُ تعالى إلى ملائكته: انظروا إلى صَفيِّي وابنِ خليلي، قائماً في مناجاتي، يلتفتُ إلى غيري، وعِزَّتي وجَلَالي! لأنزعنَّ الحدقتَيْن اللتين التفتَ بهما، ولأفرقنَّ بينه وبين مَن التفتَ إليه ثمانينَ سنةً؛ ليعلم العاملون أن مَن قام بين يديَّ يَجبُ عليه مراقبةُ نظري.

الثانية: هذا يدلُّ على أنَّ الالتفاتَ في الصلاة ـ وإن لم يُبطِل ـ يدلُّ على العقوبة عليها، والنقصِ فيها، وقد رَوى البخاريُّ[(٢)] عن عائشة قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفاتِ في الصلاة فقال: «هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وسيأتي ما للعلماء في هذا، في أوَّل سورةِ «المؤمنون» موعباً إن شاء الله تعالى.

الثالثة: قال النَّحاس[(٣)]: فإنْ سأل قومٌ عن معنى شدَّة حُزْنِ يعقوبَ ـ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ـ فللعلماء في هذا ثلاثة أجوبة:

منها: أنَّ يعقوبَ ﷺ لما عَلِمَ أنَّ يوسفَ ﷺ حيٌّ خاف على دِينه، فاشتدَّ حزنُه لذلك.

وقيل: إنَّما حَزِنَ؛ لأنَّه سلَّمه إليهم صغيراً، فَندم على ذلك.

---

(١) الوسيط ٢/ ٦٢٧، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٤، وتفسير الرازي ١٨/ ١٩٥.

(٢) في صحيحه (٧٥١).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٢.

والجواب الثالث ـ وهو أبْيَنُها ـ: هو أنَّ الحزنَ ليس بمحظورٍ، وإنَّما المحظورُ الوَلْولة وشَقُّ الثياب، والكلامُ بما لا ينبغي. وقال النبيُّ ﷺ: «تدمعُ العينُ، ويَحزنُ القلبُ، ولا نقولُ ما يُسخِط الرَّبَّ»[١]. وقد بيَّن اللهُ جلَّ وعزَّ ذلك بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مكظومٌ، مملوءٌ مِن الحزن، ممسِك عليه لا يبُثُّه؛ ومنه كَظْمُ الغيظِ وهو إخفاؤه، فالمكظومُ: المسدودُ عليه طريقُ حزنِه؛ قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم:٤٨] أي: مملوءٌ كَرْباً. ويجوز أن يكون المكظُوم بمعنى الكاظمِ، وهو المشتملُ على حزنِه.

وعن ابن عباس: كظيمٌ: مغمومٌ[٢]؛ قال الشاعر:

فإنْ أَكُ كاظِماً لِمُصَابِ شَاسٍ ... فإني اليومَ مُنطلقٌ لساني[٣]

وقال ابن جُريج، عن مجاهدٍ، عن ابن عباس قال: ذهبتْ عيناه مِن الحزنِ «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو مكروبٌ[٤].

وقال مقاتلُ بنُ سليمان، عن عطاءٍ، عن ابن عباس، في قوله: «فَهُوَ كَظِيمٌ» قال: فهو كَمِدٌ[٥]؛ يقول: يَعلَم أنَّ يوسفَ حيٌّ، وأنَّه لا يَدري أين هو، فهو كَمِدٌ من ذلك. قال الجوهريُّ[٦]: الكَمَد: الحزنُ المكتومُ؛ تقول منه: كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَميدٌ. النحَّاس[٧]: يقال: فلانٌ كَظِيمٌ وكاظِمٌ، أي: حزينٌ لا يَشكو حزنَه؛ قال الشاعر:

فَحَضَضْتُ قَوْمي واحتسبتُ قِتالَهم ... والقومُ مِن خوفِ المَنَايا كُظَّم[٨]

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٥٨٩) من حديث أسماء بنت يزيد، وهو عند البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ بنحوه.

(٢) الوسيط ٢/ ٦٢٧ .

(٣) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن عطاء الخراساني.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٩٧ عن الضحاك، وكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ .

(٦) في الصحاح (كمد).

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٠ ولم ينسبه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُوا۟ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُا۟ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: قال له ولدُه: «تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ» قال الكسائيُّ: فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعل ذلك، أي: ما زلتُ. وزعم الفرَّاء أنَّ «لا» مضمرة؛ أي: لا تفتأ[1]، وأنشد:

فقلتُ يمينَ اللهِ أبرحُ قاعداً ولو قَطَّعُوا رأسِي لدَيكِ وأوصَالِي[2]

أي: لا أبرحُ؛ قال النَّحاس: والذي قال، حسنٌ صحيحٌ. وزعم الخليلُ وسيبويه أنَّ «لا» تضمر في القسَم؛ لأنَّه ليس فيه إشكال، ولو كان واجباً لكان باللام والنون[3].

وإنَّما قالوا له ذلك؛ لأنَّهم عَلموا باليقين أنَّه يُداوِم على ذلك؛ يقال: ما زال يفعلُ كذا، وما فَتِئَ وَفَتَأَ، فهما لغتان، ولا يُستعملان إلا مع الجَحْد[4]؛ قال الشاعر:

فما فَتِئَتْ حتَّى كأنَّ غُبارَها سُرَادِقُ يومٍ ذي رياحٍ تُرفَّعُ[5]

أي: ما برحتْ، فتفتأ: تَبرحُ. وقال ابنُ عباس: [لا] تزال[6].

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: تالفاً. وقال ابن عباس ومجاهد: دَنِفاً مِن المرض، وهو ما دونَ الموت[7]؛ قال الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٢) قائله امرؤ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٠٥ .

(٤) الصحاح (فتأ).

(٥) قائله أوس بن حجر التميمي، وهو في ديوانه ص٥٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٢٢٩ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٧ (١١٨٩١)، وما بين حاصرتين منهما.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٠ .

سَرَى هَمِّي فأمرضَني ... وقِدْماً زادني مَرَضاً
كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو ... مِ ممَّا يُورِث الحَرَضَا[1]

وقال قَتَادة: هرِماً[2]. الضَّحَّاك: بالِياً داثِراً[3]. محمد بن إسحاق: فاسداً لا عَقْلَ لك[4]. الفرَّاء[5]: الحارضُ الفاسدُ الجسمِ والعقلِ، وكذا الحَرَض. ابنُ زيدٍ: الحَرَض الذي قد رُدَّ إلى أرذلِ العمر[6]. الربيعُ بنُ أنس: يابس الجِلْد على العظم[7]. المؤرِّج: ذائباً من الْهمِّ. وقال الأخفش: ذاهباً. ابن الأنباريِّ: هالكاً، وكلُّها متقاربةٌ.

وأصل الحَرَض: الفسادُ في الجسم أو العقلِ من الحزن أو العشقِ أو الهَرَم، عن أبي عُبيدة وغيرِه[8]؛ وقال العَرْجِيُّ[9]:

إنِّي امرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فأحْرَضَنِي ... حتَّى بَلِيتُ وحتَّى شَفَّنِي السَّقَمُ

قال النحَّاس[10]: يقال: حَرَض حَرَضاً، وحَرُض حُرُوضاً وحُرُوضة: إذا بَلِيَ وسَقِمَ، ورجل حارِضٌ وحَرَضٌ، إلا أن حَرَضاً لا يثنَّى ولا يُجمَع، ومثله قَمِن وحَرِيٌّ لا يثنيان ولا يجمعان.

الثَّعلبيُّ: ومن العرب مَن يقول: حارِض، للمذكَّر، والمؤنثة: حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ، ثَنَّى وجَمع وأنَّث. ويقال: حَرِض يَحرَض حَرَاضَةً، فهو حَرِيض

---

(١) لم نقف عليهما.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٢٧، والطبري ١٣/ ٣٠٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٥) معاني القرآن ٢/ ٥٤.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٤.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤.

(٨) ذكره الطبري ١٣/ ٣٠١، والبغوي ٢/ ٤٤٤ دون نسبة.

(٩) ديوانه ص٥، والعَرْجي هو: عبد الله بن عمر بن عبد الله.

(١٠) إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣.

وحَرِضٌ. ويقال: رجل مُحْرَض[١]، ويُنْشَد:

طَلَبَتْهُ الخيلُ يوماً كاملاً 		ولَوَ ٱلْفَتْهُ لأضْحَى مُحْرَضَا[٢]

وقال امرؤ القيس[٣]:

أرَى المرءَ ذا الأذْوادِ يُصبِحُ مُحْرَضاً 		كإحْرَاضِ بِكْرٍ في الدِّيارِ مَرِيضِ

قال النحّاس[٤]: وحكى أهلُ اللغة: أحرضه الهمُّ: إذا أسقمه، ورجلٌ حارض، أي: أحمق.

وقرأ أنسٌ: «حُرْضاً» بضمِّ الحاء وسكون الراء، أي: مثل عُود الأُشْنان[٥]. وقرأ الحسن: بضمِّ الحاء والراء[٦]. قال الجوهريُّ[٧]: الحُرُض والحُرْض: الأُشْنَان.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: الميِّتين، وهو قول الجميع[٨]؛ وغرضُهم مَنْعُ يعقوبَ من البكاء والحزن شفقةً عليه، وإن كانوا السببَ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ حقيقةُ البَثّ في اللغة: ما يَرِدُ على الإنسانِ من الأشياء المهلكة التي لا يتهيَّأ له أن يُخفيها؛ وهو مِن بثثتُه، أي: فرَّقتُه، فسمِّيت المصيبةُ بَثًّا مجازاً[٩]. قال ذو الرُّمَّة[١٠]:

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٤، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٠١.

(٢) أورده الطبري ١٣/ ٣٠١ ولم ينسبه.

(٣) ديوانه ص٧٧.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٣.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٧، والأشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية، يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي. المعجم الوسيط.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٥، والكشاف ٢/ ٣٣٩.

(٧) الصحاح (حرض).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٧٠.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٣.

(١٠) ديوانه ٢/ ٨٢١.

وَقَفْتُ على رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاقَتي ... فما زِلْتُ أَبْكي عِنْدَه وأُخاطِبُهْ
وأَسْقِيه حتى كاد مما أبثُّهُ ... تُكَلِّمُني أحجارُهُ ومَلاعِبُهْ

وقال ابن عباس: «بَثِّي» هَمِّي[1]. الحسن: حاجتي[2]. وقيل: أشدُّ الحزنِ[3]، وحقيقته ما ذكرناه.

﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ عليه، أعادَه بغير لفظه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أنَّ رؤيا يوسفَ صادقةٌ، وأنِّي سأسجد له. قاله ابنُ عباس[4]. قتادة: إني أعلم من إحسانِ الله تعالى إليَّ ما يُوجِب حسن ظنِّي به[5]. وقيل: قال يعقوب لملَك الموت: هل قبضتَ رُوحَ يوسفَ؟ قال: لا، فأكَّد هذا رجاءه[6]. وقال السُّدِّي: أعلِم أنَّ يوسف حيٌّ، وذلك أنَّه لما أخبره ولدُه بسيرة الملك وعَدْله وخُلُقه وقولِه، أحسَّت نَفْسُ يعقوبَ أنَّه ولدُه، فطمع وقال: لعلَّه يوسف. وقال: لا يكون في الأرض صِدِّيقٌ إلا نَبِيٌّ[7]. وقيل: أعلم مِن إجابة دعاءِ المضطرين ما لا تَعلمون.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدلُّ على أنَّه تيقَّن

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٦، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٣).

(٣) أورده أبو الليث ٢/ ١٧٤ وعزاه إلى القتبي، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٣ وعزاه إلى أبي عبيدة، وهو في مجاز القرآن ص٣١٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٨).

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٨٩ (١١٩٠٦).

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٥، وزاد المسير ٤/ ٢٧٥ وعزاه ابن الجوزي إلى ابن السائب.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٠٧.

حياتَه؛ إما بالرؤيا، وإما بإنطاقِ الله تعالى الذئبَ، كما في أوَّل القصَّة، وإما بإخبارِ مَلَكِ الموت إيَّاه بأنَّه لم يَقْبِض رُوحه؛ وهو أظهر.

والتَّحسُّس: طلبُ الشيء بالحواسِّ؛ فهو تفعُّل من الحِسِّ[١]، أي: اذهبوا إلى هذا الذي طَلب منكم أخاكم، واحتالَ عليكم في أَخْذِه، فاسألوا عنه وعن مذهبِه. ويُروى أنَّ مَلَكَ الموتِ قال له: اطْلُبه مِن هاهنا! وأشار إلى ناحيةِ مصر[٢].

وقيل: إنَّ يعقوبَ تنبَّه على يوسفَ بردِّ البضاعة، واحتباسِ أخيه، وإظهارِ الكرامة؛ فلذلك وجَّههم إلى جهةِ مصر دون غيرها[٣].

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: لا تقنطوا مِن فَرَج الله؛ قاله ابنُ زيد[٤]؛ يريد: أنَّ المؤمنَ يَرجو فَرَجَ الله، والكافر يَقنُط في الشِّدَّة. وقال قَتادةُ والضَّحَّاك: مِن رحمةِ الله[٥]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ القنوطَ مِن الكبائر، وهو اليأسُ، وسيأتي في «الزُّمَر»[٦] بيانُه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي: الممتنع. ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ هذه المرَّة الثالثة من عَوْدِهم إلى مصر؛ وفي الكلام حذفٌ، أي: فخرجوا إلى مصرَ، فلما دخلوا على يوسفَ قالوا: «مَسَّنَا» أي: أصابَنا «وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» أي: الجوعُ والحاجةُ. وفي هذا دليلٌ على جواز الشكوى عند الضُّرِّ، أي: الجوع، بل واجبٌ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣١٤، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ١٩٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٣١٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٣١٤ - ٣١٥.

(٦) عند الآية (٥٣).

عليه إذا خاف على نفسِه الضُّرَّ من الفقر وغيرِه أن يُبدِي حالتَه إلى مَن يرجو منه النفعَ، كما هو واجبٌ عليه أن يشكو ما به مِن الألم إلى الطبيب ليعالجَه، ولا يكون ذلك قَدْحاً في التوكُّل، وهذا ما لم يكن التشكِّي على سبيل التَّسخُّط؛ والصبرُ والتَّجلُّد في النّوائب أحسنُ، والتَّعفُّف عن المسألة أفضلُ، وأحسنُ الكلام في الشكوى سؤالُ المولى زوالَ البَلوى؛ وذلك قولُ يعقوبَ: «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أي: مِن جميل صُنعه، وغريبِ لُطْفه، وعائدته على عبادِه. فأمَّا الشكوى على غيرِ مُشْكٍ فهو السَّفَه، إلا أن يكون على وَجْهِ البثِّ والتَسلِّي، كما قال ابنُ دُرَيْد:

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنِّي ضارعٌ ... لِنَكْبةٍ تَعْرِقُنِي عَرْقَ الْمُدَى
مَارَسْت مَنْ لَوْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ ... جَوَانِبِ الجوِّ عليه ما شَكَا
لكنَّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا ... جَاشَ لُغَامٌ مِن نَوَاحِيها عمى[1]

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ﴾ البضاعةُ: القِطْعة من المال يُقصَد بها شراءُ شيءٍ[2]؛ تقول: أبضعتُ الشيءَ، واستبضعتُه، أي: جعلتُه بضاعةً، وفي المَثَل: كمستبضعِ التمرِ إلى هَجَر[3].

قوله تعالى: ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ صفةٌ لبضاعة؛ والإزجاءُ: السَّوْق بدَفع[4]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:٤٣] والمعنى أنَّها بضاعةٌ تُدفَع؛ ولا يَقبلها كلُّ أحدٍ. قال ثعلب: البضاعةُ المزجاةُ: الناقصةُ غيرُ التَّامَّة.

---

(١) مقصورة ابن دريد ص ٣٩ - ٤٣ بشرح التبريزي، واللُّغام: ما يخرج من فم البعير. وعمى: رمى، يقال: عمى البعيرُ بلعابه: إذا رمى به، ووقع في (م): غما، وكذا في إحدى النسخ الخطية للمقصورة، كما ذكر ذلك محقق شرح المقصورة لابن هشام اللخمي ص٧٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٥ .

(٣) الصحاح (بضع)، والمثل في المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ٢/ ٢٣٣ .

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٧٢ .

اختلف في تعيينها هنا؛ فقيل: كانت قَدِيداً وحَيْساً؛ ذكره الواقديُّ عن عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ.

وقيل: خَلَقُ الغَرَائر والحِبال؛ روي عن ابنِ عباس[١].

وقيل: متاعُ الأعراب صوفٌ وسمنٌ؛ قاله عبدُ الله بنُ الحارث[٢].

وقيل: الحبَّة الخضراء، والصَّنَوبر ـ وهو البُطْم: حبُّ شجرٍ بالشام، يُؤكَل ويُعصَر الزيتُ منه لعمل الصابون ـ قاله أبو صالح[٣]؛ فباعوها بدراهمَ لا تَنفُق في الطعام، وتَنْفُق فيما بين الناس؛ فقالوا: خُذها منا بحسابِ جيادٍ تَنفُق في الطعام.

وقيل: دراهم رديئة؛ قاله ابنُ عباس أيضاً[٤].

وقيل: ليس عليها صورةُ يوسفَ، وكانت دراهمُ مصرَ عليها صورةُ يوسف.

وقال الضَّحَّاك: النعالُ والأدَم. وعنه: كانت سوِيقاً منخلاً[٥]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾.

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون كما تبيعُ بالدراهمِ الجياد لا تَنْقُصْنا بمكان دراهمنا؛ هذا قولُ أكثرِ المفسرين.

وقال ابنُ جريج: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» يريدون الكيلَ الذي كان قد كَالَه لأخيهم[٦]. «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» أي: تفضَّل علينا بما بين سِعْرِ الجِياد والرديئة. قاله سعيدُ بنُ جُبير

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٣١٨ ، والغرائر: جمع الغِرارة: وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه. المعجم الوسيط (غرر).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٣١٩ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٢٠ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢١).

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٣١٧ - ٣١٨ ، وابن أبي حاتم (١١٩٢٢).

(٥) عرائس المجالس ص١٣٨ - ١٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٧٣ .

والسُّدِّيُّ والحسن، لأنَّ الصدقةَ تَحرُم على الأنبياء. وقيل المعنى: «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بالزيادة على حقِّنا؛ قاله سفيانُ بنُ عُيَيْنة. قال مجاهد: ولم تَحرُم الصدقةُ إلا على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ. وقال ابن جُريج: المعنى «تَصَدَّقْ عَلَيْنَا» بردِّ أخينا إلينا. وقال ابنُ شجرة: «تَصَدَّق عَلَيْنَا» تَجوَّز عنا؛ واستشهد بقولِ الشاعر:

تَصدَّقْ علينا يا ابنَ عَفَّان واحْتَسِبْ ... وأَمِّرْ علينا الأشعريَّ لَيَالِيَا[1]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني في الآخرة؛ يقال: هذا مِن مَعَاريضِ الكلام؛ لأنَّه لم يكن عندهم أنَّه على دينهم، فلذلك لم يقولوا: إنَّ اللهَ يَجزِيك بصدقتِك، فقالوا لفظاً يُوهمه أنَّهم أرادوه، وهم يصحُّ لهم إخراجُه بالتأويل؛ قاله النقَّاش[2]، وفي الحديث: «إن في المَعَاريض لمندوحةً عن الكذب»[3].

الثانية: استدلَّ مالكٌ وغيرُه مِن العلماء على أنَّ أجرةَ الكيَّال على البائع[4]؛ قال ابنُ القاسم وابنُ نافع: قال مالكٌ: قالوا ليوسف: «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» فكان يوسفُ هو الذي يَكيل، وكذلك الوزَّان والعدَّاد وغيرهم؛ لأنَّ الرجل إذا باع عِدَّة معلومةً من طعامه، وأوجبَ العقدَ عليه، وجب عليه أن يُبرِزها ويميِّز حقَّ المشتري مِن حقِّه، إلا أنْ يبيعَ منه مُعيَّناً - صُبْرةً أو ما لا حقَّ تَوفيةٍ فيه - فخلَّى ما بينه وبينه، فما جرى على المبيعِ فهو على المبتاع؛ وليس كذلك ما فيه حقُّ تَوفية مِن كيل أو وزن، ألا ترى أنَّه لا يَستحِق البائعُ الثمنَ إلا بعد التوفية، وإن تلف، فهو منه قبلَ التوفية[5].

الثالثة: وأما أجرةُ النقد، فعلى البائع أيضاً؛ لأنَّ المبتاعَ الدافعَ لدراهمِه يقول:

---

(١) ذكر الشعر مع ما سبقه من أقوال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٢٧٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٦٣ ، والبيهقي ١٠/١٩٩ عن عمران ابن حصين مرفوعاً، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، والبيهقي ١٠/١٩٩ عن عمران بن حصين موقوفاً، قال البيهقي عقبه: هذا هو الصحيح الموقوف. وينظر كشف الخفاء ١/ ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٧٧ وللكيا الهراسي ص٢٣٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣ .

إنَّها طَيِّبة، فأنت الذي تدَّعي الرداءةَ، فانظر لنفسك[١]؛ وأيضاً فإنَّ النفعَ يقع له، فصار الأَجْرُ عليه، وكذلك لا يجب على الذي يجب عليه القصاصُ؛ لأنَّه لا يجب عليه أن يقطعَ يَدَ نفسِه، إلا أن يُمكِّن من ذلك طائعاً؛ ألا ترى أنَّ فرضاً عليه أن يَفدي يدَه، ويُصالِح عليه إذا طَلَب المقتصُّ ذلك منه، فأجْرُ القَطَّاع على المقتصّ. وقال الشافعيُّ في المشهور عنه: إنَّها على المقتصِّ منه، كالبائع[٢].

الرابعة: يُكرَه للرجل أن يقول في دعائه: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ لأنَّ الصدقةَ إنَّما تكون ممن يبتغي الثوابَ، والله تعالى متفضِّل بالثواب بجميعِ النِّعَم لا ربَّ غيرُه؛ وسمع الحسنُ رجلاً يقول: اللهمَّ تصدَّق عليَّ؛ فقال الحسن: يا هذا! إنَّ اللهَ لا يتصدَّق إنما يتصدَّق مَن يبتغي الثوابَ؛ أما سمعتَ قولَ الله تعالى: «إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» قل: اللهمَّ أعطني وتفضَّلْ عليَّ[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهامٌ بمعنى التذكير والتوبيخ[٤]، وهو الذي قال الله: «لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا» الآية. ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ دليل على أنَّهم كانوا صغاراً في وقت أَخْذِهم ليوسف، غيرَ أنبياء؛ لأنَّه لا يُوصف

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٣.

(٢) ينظر مغني المحتاج ٢/ ٣٣٧.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٢. وذكر خبر الحسن أيضاً البغوي ٢/ ٤٤٦.

(٤) الوسيط ٢/ ٦٣٠.

بالجهل إلا مَن كانت هذه صفته؛ ويدلُّ على أنَّه حَسُنت حالُهم الآن؛ أي: فعلتم ذلك إذ أنتم صغارٌ جُهَّال؛ قال معناه ابنُ عباس والحسنُ[1]؛ ويكون قولهم: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» على هذا؛ لأنَّهم كَبِروا ولم يُخبِروا أباهم بما فعلوا؛ حياءً وخوفاً منه. وقيل: جاهلون بما تؤولُ إليه العاقبةُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ لما دخلوا عليهِ فقالوا: «مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ» فخضعوا له وتَواضعوا، رقَّ لهم، وعرَّفهم بنفسه، فقال: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ» فتنبهوا فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ» قاله ابنُ إسحاق[2].

وقيل: إنَّ يوسفَ تبسَّم، فشبَّهوه بيوسفَ واستفهموا. قال ابنُ عباس: لما قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» الآية، ثم تبسَّم يوسف ـ وكان إذا تبسَّم كأنَّ ثناياه اللؤلؤَ المنظومَ ـ فشبَّهوه بيوسفَ، فقالوا له على جهةِ الاستفهام: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ». وعن ابنِ عباس أيضاً: أنَّ إخوتَه لم يَعرفوه حتى وضَع التاجَ عنه، وكان في قَرْنه علامةٌ، وكان ليعقوبَ مثلُها، شِبْه الشَّامَة، فلمَّا قال لهم: «هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ» رفَع التاجَ عنه، فعَرفوه، فقالوا: «أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ»[3].

وقال ابنُ عباس: كتب يعقوبُ إليه يَطلُب ردَّ ابنِه، وفي الكتاب: مِن يعقوبَ صفيِّ اللهِ ابنِ إسحاق ذبيحِ اللهِ ابنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ إلى عزيزِ مصرَ ـ أمَّا بعد ـ: فإنَّا أهلُ بيتِ بلاءٍ ومِحَنٍ، ابتلى اللهُ جدِّي إبراهيمَ بنمرود ونارِه، ثم ابتلى أبي إسحاقَ بالذَّبْح، ثم ابتلاني بولدٍ كان لي أحبَّ أولادي إليَّ حتى كُفَّ بصري مِن البكاء، وإنِّي لم أَسرق ولم أَلِدْ سارقاً، والسلام. فلما قرأ يوسفُ الكتابَ ارتعدت مفاصلُه، واقشعرَّ جِلْدُه، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبرُه، فباح بالسِّرِّ[4].

---

(١) ذكر الخبرين الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٠ ، فقال: روي عن ابن عباس: إذ أنتم صبيان، وعن الحسن: شبان.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٤ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٧ .

(٤) ذكره البغوي ٢/ ٤٤٥ بنحوه عن عبد الله بن زيد بن أبي فروة، ولم نقف عليه عن ابن عباس .

وقرأ ابنُ كثِير: «إِنَّكَ» على الخبَر[١]، ويجوز أن تكون هذه القراءةُ استفهاماً كقوله: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ» [الشعراء: ٢٢].

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ أي: أنا المظلومُ والمرادُ قَتْلُه، ولم يقل: أنا هو؛ تعظيماً للقصَّة[٢]. ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بالنجاة والمُلْك.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: يتَّقِ اللهَ ويَصبِر على المصائب وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: الصابرينَ في بلائِه، القائمينَ بطاعتِه.

وقرأ ابنُ كثِير: «إِنَّه مَنْ يَتَّقِي» بإثباتِ الياء[٣]، والقراءةُ بها جائزةٌ على أَنْ تجعلَ «مَنْ» بمعنى الذي، وتدخل «يَتَّقِي» في الصِّلَة، فتُثبت الياءَ لا غير، وتَرفع «ويصبر». وقد يجوز أن تَجزِم «ويصبر»، على أن تَجعلَ «يتقي» في موضعِ جزم، و«مَن» للشرط، وتُثبت الياءَ، وتَجعل علامةَ الجَزْم حذفَ الضَّمَّة التي كانت في الياء على الأصل[٤]، كما قال:

ثم نادِي إذا دَخلتَ دِمَشْقاً ... يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيدِ[٥]

وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي ... بما لاقَتْ لَبُونُ بنِي زيادِ[٦]

وقراءةُ الجماعة ظاهرةٌ، والهاء في «إِنَّهُ» كنايةٌ عن الحديث، والجملة الخبر.

---

(١) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣٠.

(٢) أي: تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته. الوسيط ٢/ ٦٣١، ونسب هذا القول إلى ابن الأنباري.

(٣) السبعة ص٣٥١، والتيسير ص١٣١.

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٤٤٨، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٣٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٧.

(٥) نسب قريش للزبيري ص١٣٠، ونسبه إلى موسى شهوات.

(٦) القائل قيس بن زهير، كما في النوادر في اللغة لأبي زيد ص٢٠٣، والأغاني ١٧/ ١٩٨، وهو في الكتاب ٣/ ٣١٦، والمحتسب ١/ ٦٧ دون نسبة، ووقع في الأغاني: ألم يبلغك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الأصل همزتان، خُفِّفت الثانيةُ، ولا يجوز تحقيقُها، واسمُ الفاعل: مُؤْثِر، والمصدر: إيثار. ويقال: أَثَرْتُ الترابَ إثارةً، فأنا مُثِير؛ وهو أيضاً على أَفْعَل، ثم أُعِلَّ، والأصلُ أَثْيَر، نُقلت حركةُ الياء على الثاء، فانقلبت الياءُ ألفاً، ثم حُذفت لالتقاءِ الساكنين. وأَثَرْتُ الحديثَ على فَعَلْتُ، فأنا آثِرٌ[1]. والمعنى: لقد فضَّلك اللهُ علينا، واختاركَ بالعِلْم والحِلْم والحُكم والعقل والمِلك.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي مذنبينَ، مِن خَطِئ يَخْطَأ: إذا أتى الخطيئةَ[2]، وفي ضمن هذا سؤالُ العَفْو. وقيل لابنِ عباس: كيف قالوا: «وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ» وقد تعمَّدوا لذلك؟ قال: وإن تعمَّدوا لذلك، فما تعمَّدوا حتى أَخطؤوا الحقَّ، وكذلك كلُّ مَن أتى ذنباً تَخطَّى المنهاجَ الذي عليه مِن الحقِّ، حتى يقعَ في الشبهة والمعصية.

قوله تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: قال يوسف ـ وكان حليماً موفَّقاً ـ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» وتمَّ الكلامُ. ومعنى «اليوم»: الوقت. والتثريب: التَّعيير والتوبيخ، أي: لا تعييرَ ولا توبيخَ ولا لَوْمَ عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيرُه[3]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت أَمَةُ أحدِكم، فليجلِدها الحدَّ، لا يُثرِّب عليها»[4] أي: لا يعيِّرها، وقال بشر[5]:

فعَفَوتُ عنهم عَفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ   وتركتهم لعقابِ يومٍ سَرْمَدِ

وقال الأَصمعيُّ: ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنًى، إذا قَبَّحتَ عليه فِعْلَه[6]. وقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٣٣٠.

(٤) سلف ٢/ ٤٨٩.

(٥) هو بشر بن أبي خازم، والبيت في لسان العرب (ثرب)، وقيل: هو لتُبَّع.

(٦) الصحاح (ثرب).

الزجَّاج: المعنى: لا إفسادَ لما بيني وبينكم مِن الحرمة، وحقِّ الأُخوَّة، ولكم عندي العفو والصفحُ؛ وأصلُ التثريبِ: الإفسادُ، وهي لغةُ أهلِ الحجاز[1].

وعن ابنِ عباس أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بعُضادَتَي الباب يومَ فَتْحِ مكَّة، وقد لَاذَ الناسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صَدَقَ وَعْدَه، ونصرَ عبدَه، وهزم الأحزابَ وَحْدَه» ثم قال: «ماذا تَظنُّون يا معشرَ قريش؟» قالوا: خيراً، أَخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، وقد قَدَرتَ. قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسفُ: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» فقال عمرُ ﷺ: ففِضْتُ عَرَقاً مِن الحياء مِن قولِ رسولِ الله ﷺ؛ ذلك أنِّي قد كنتُ قلتُ لهم حين دخلنا مكَّة: اليومَ ننتقمُ منكم ونفعلُ، فلما قال رسولُ الله ﷺ ما قال استحييتُ مِن قولي[2].

﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فعلٌ[3] مستقبلٌ فيه معنى الدُّعاء[4]؛ سأل اللهَ أن يسترَ عليهم ويرحمَهم.

وأجاز الأخفشُ[5] الوقْفَ على «عَلَيْكُمُ»، والأوَّل هو المستعمل؛ فإنَّ في الوقف على «عليكم» والابتداء بـ «الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» جزْمٌ بالمغفرة في اليوم، وذلك لا يكون إلا عن وَحْي، وهذا بَيِّنٌ.

وقال عطاء الخراسانيُّ: طَلَبُ الحوائج مِن الشباب أَسهلُ منه مِن الشيوخ؛ ألم تَرَ قولَ يوسف: «لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ» وقال يعقوب: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»[6].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٥.

(٢) نوادر الأصول ص٩٣، وأخرجه بنحوه البيهقي في الدلائل ٥/ ٥٨، وفي السنن الكبرى ٩/ ١١٨ من حديث أبي هريرة ﷺ، دون قول عمر ﷺ.

(٣) ليست في (م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٩٣.

(٦) عرائس المجالس ص١٤١، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٥.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ نعتٌ للقميص، والقميص مذكَّر، فأما قول الشاعر:

تَدْعو هَوَازِنُ والقَميصُ مُفَاضَةٌ فوق النِّطاقِ تُشَدُّ بالأزرارِ[1]

فتقديره: والقميص دِرْعٌ مُفاضةٌ. قاله النحَّاس[2].

وقال ابنُ السُّدِّي، عن أبيه، عن مجاهد: قال لهم يوسف: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» قال: كان يوسفُ أعلمَ بالله مِن أنْ يُعلم أن قميصَه يَرُدُّ على يعقوبَ بصرَه، ولكنَّ ذلك قميصُ إبراهيم الذي ألبسه اللهُ في النار مِن حرير الجنة، وكان كساه إسحاقَ، وكان إسحاق كساه يعقوبَ، وكان يعقوبُ أدرج ذلك القميصَ في قَصَبة مِن فضَّة، وعلَّقه في عُنُقِ يوسف، لِمَا كان يخافُ عليه مِن العين، وأخبره جبريلُ بأنْ أرسل قميصَك، فإنَّ فيه ريحَ الجنَّة، وإن ريحَ الجنَّة لا يقع على سقيم ولا مُبتلًى إلا عُوفيَ[3].

وقال الحسن: لولا أنَّ اللهَ تعالى أعلم يوسفَ بذلك، لم يَعلم أنَّه يَرجعُ إليه بصرُه. وكان الذي حمل قميصَه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملتُ إليه قميصَك بدمٍ كَذِبٍ فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسرَّه، وليعودَ إليه بصرُه، فحمَله؛ حكاه السُّدِّيُّ[4].

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتتخذوا مصرَ داراً. قال مسروق: فكانوا ثلاثةً وتسعينَ، ما بين رجلٍ وامرأةٍ[5]. وقد قيل: إنَّ القميصَ الذي بعثه هو القميصُ الذي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤، والبيت لجرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٨٩٧ بلفظ:

تدعو ربيعةُ والقميص مفاضة تحت النجاد تشدُّ بالأزرار

وهو في لسان العرب (قمص) بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٤.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٤) عرائس المجالس ص١٤٠، والنكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٥) الوسيط ٢/ ٦٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٧٦، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧.

قُدَّ مِن دُبُرِه[١]؛ ليعلمَ يعقوبُ أنه عُصِمَ من الزنى؛ والقول الأوّل أصحُّ، وقد روي مرفوعاً مِن حديث أنسٍ عن النبيِّ ﷺ؛ ذكره القُشيريُّ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت منطلقةً مِن مصرَ إلى الشام[٢]، يقال: فَصَلَ فُصُولاً، وفَصَلْته فَصْلاً، فهو لازمٌ ومتعدٍّ[٣]. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: قال لمن حضَر مِن قرابته ممَّن لم يَخرج إلى مصرَ وهم ولدُ ولدِه[٤]: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقد يَحتمِل أن يكون خرج بعضُ بَنِيْه، فقال لمن بقيَ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[٥]. قال ابنُ عباس: هاجتْ ريحٌ فحمَلت ريحَ قميصِ يوسف إليه، وبينهما مسيرةُ ثمانِ ليالٍ[٦]. وقال الحسنُ: مسيرة عَشْر ليالٍ[٧]؛ وعنه أيضاً: مَسيرة شَهر[٨]. وقال مالكُ بنُ أنسٍ رضي الله عنه: إنَّما أَوصل ريحَه من أَوصل عَرْشَ بِلقيس قَبْلَ

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٧٦.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٧.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠، وابن أبي حاتم (١١٩٦١).

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٣، وفي تاريخه ١/ ٣٦٠.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

أن يرتدَّ إلى سليمانَ عليه السلام طَرْفُه[١]. وقال مجاهدٌ: هبَّت ريحٌ فصَفَقَت القميصَ، فراحت روائحُ الجنة في الدنيا واتَّصلت بيعقوبَ، فوجدَ ريحَ الجنَّة، فعلم أنَّه ليس في الدنيا من ريح الجنَّة إلا ما كان مِن ذلك القميص، فعند ذلك قال: «إِنِّي لَأَجِدُ»[٢] أي: أَشَمُّ؛ فهو وجود بحاسَّة الشَّمِّ[٣].

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابنُ عباس ومجاهد: لولا أن تُسفِّهون[٤]؛ ومنه قول النابغة[٥]:

إلَّا سُليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ ... قُمْ في البريَّة فاحْدُدْها عنِ الفَنَدِ

أي: عن السَّفَه.

وقال سعيد بنُ جُبير والضَّحَّاك: لولا أن تكذِّبون[٦]. والفَنَد: الكذب. وقد أَفْنَد إفْناداً: كَذَب[٧]؛ ومنه قولُ الشاعر:

هل في افتخار الكريم مِن أَوَدِ ... أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ[٨]

أي: مِن كذب.

وقيل: لولا أن تُقبِّحون؛ قاله أبو عمرو؛ والتَّفنيدُ: التقبيح، قال الشاعر:

يا صاحبيَّ دعا لومي وتَفْنِيدي ... فليس ما فاتَ مِن أمري بمردودِ[٩]

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) عرائس المجالس ص١٤٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٤٨.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٠٨.

(٤) أخرجه عن ابن عباس عبد الرزاق ١/ ٣٢٩، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٨، وعن مجاهد الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٧.

(٥) ديوانه ص٣٣.

(٦) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٧) الصحاح (فند).

(٨) هكذا أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسبه.

(٩) البيت لبشار بن برد، وهو في ديوانه ١/ ٥٤٣، ونسبه في مجاز القرآن لأبي عبيدة ص١/ ٣١٨ إلى =

وقال ابنُ الأعرابي: «لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ» لولا أن تُضعِّفوا رَأْيي؛ وقاله ابنُ إسحاق. والفَنَد: ضَعْفُ الرأي من كِبرٍ[1].

وقولٌ رابع: تُضلِّلون، قاله أبو عبيدة[2].

وقال الأخفشُ: تَلومونِي. والتفنيدُ: اللَّوم وتَضعيف الرأي[3].

وقال الحسن وقَتَادة ومجاهد أيضاً: تُهرِّمون[4]، وكلُّه متقاربُ المعنى، وهو راجعٌ إلى التعجيز وتضعيفِ الرأي.

يقال: فَنَّده تفنيداً: إذا أعجزه، كما قال:

أهلكني باللوم والتفنيد[5]

ويقال: أفند: إذا تكلم بالخطأ؛ والفَنَد: الخطأُ في الكلام والرأي، كما قال النابغة:

فاحدُدْها عن الفَنَدِ[6]

أي: امنعها عن الفساد في العقل، ومن ذلك قيل: اللومُ تفنيدٌ؛ قال الشاعر:

يا عاذليَّ دَعَا المَلَامَ وأَقْصِرَا طالَ الهَوَى وأطلتما التَّفْنِيدا[7]

= هانئ بن شكيم العدوي، وأورده الطبري في التفسير ١٣/ ٣٣٦، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٧٧ ولم ينسباه.

(١) ينظر تهذيب اللغة ١٤/ ١٣٨، والنكت والعيون ٣/ ٧٧.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨، وجاء في مجاز القرآن ص١/ ٣١٨: تسفِّهوني، وتُعجِّزوني، وتلوموني.

(٣) الصحاح (فند).

(٤) أخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٠ - ٣٤١، وعن مجاهد ابن أبي حاتم (١١٩٦٨).

(٥) رجز لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٣، وبعده:

هل بيننا للوصل من مردود

(٦) سلف قريباً، وينظر جمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٢٩٠، ومعجم متن اللغة ٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٧) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣٧، والكلام السابق من معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٧٩.

ويقال: أَفْنَد فلاناً الدهرُ: إذا أَفسدَه؛ ومنه قولُ ابنِ مُقْبِل:

دَعِ الـدَّهْـرَ يَـفْـعَـلْ مـا أرادَ فـإنَّـهُ إذا كُـلِّـف الإفـنـادَ بـالـنـاسِ أَفْـنَـدَا[١]

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: لفي ذهاب عن طريقِ الصواب. وقال ابنُ عباس وابنُ زيد: لفي خَطَئِك الماضي مِن حبِّ يوسفَ لا تنساه[٢]. وقال سعيد بن جُبير: لفي جنونِك القديم. قال الحسن: وهذا عقوقٌ[٣]. وقال قَتَادة وسفيان: لفي محبَّتك القديمة[٤]. وقيل: إنَّما قالوا هذا؛ لأنَّ يوسفَ عندهم كان قد مات[٥]. وقيل: إن الذي قال له ذلك مَن بقيَ معه مِن ولده، ولم يكن عندهم الخبر[٦]. وقيل: قال له ذلك مَن كان معه مِن أهله وقرابتِه. وقيل: بنو بَنِيْه، وكانوا صغاراً[٧] فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: على عينيه. ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ «أنْ» زائدة[٨]، والبشير، قيل: هو شمعون[٩]. وقيل: يَهوذا قال: أنا أذهبُ بالقميص اليومَ كما ذهبت به مُلَطَّخاً بالدَّم؛ قاله ابنُ عباس[١٠]. وعن السُّدِّي أنَّه قال

---

(١) ديوان ابن مقبل ص٦٠ ، والبيت فيه هكذا:

دَعَـا الـدهـر يـفـعـل مـا أراد فـإنـه إذا كُـلِّـف الإفـسـاد بـالـنـاس أفـسـدا

والكلام السابق في تفسير الطبري ١٣/ ٣٣٦ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وأخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧٠).

(٣) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ (١١٩٧١) و(١١٩٧٢).

(٤) أخرجه عنهما الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٢ ، وأخرجه عن قتادة ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٨ - ٢١٩٩ (١١٩٧٣)، والكلام السابق من النكت والعيون ٣/ ٧٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٣ ، وعزاه إلى الحسن، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٤٨ .

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٧٨ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٧٨ ، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦ ونسباه إلى الضحاك.

(١٠) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩ ، وزاد المسير ٤/ ٢٨٦ .

لإخوتِه: قد عَلمتم أنّي ذهبت إليه بقميصِ التَّرحة، فدعوني أذهب إليه بقميصِ الفَرْحة[١]. وقال يحيى بنُ يمان عن سفيان: لما جاء البشيرُ إلى يعقوبَ قال له: على أيِّ دِينٍ تركتَ يوسفَ؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمَّت النعمةُ[٢]. وقال الحسن: لما ورد البشيرُ على يعقوبَ لم يجد عنده شيئاً يُثِيْبه به؛ فقال: واللهِ ما أصبتُ عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سَبْع ليالٍ، ولكن هوَّن اللهُ عليك سكراتِ الموت[٣].

قلت: وهذا الدعاءُ مِن أعظم ما يكون مِن الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلَّت هذه الآيةُ على جواز البذل والهِبات عند البشائر. وفي الباب حديثُ كعب بنِ مالك ـ الطويل ـ وفيه: فلما جاءني الذي سمعت صوتَه يبشِّرني، نزعت ثوبيَّ فكسوتُهما إيَّاه ببشارته، وذكر الحديث، وقد تقدَّم بكماله في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا[٤]، وكسوةُ كعبٍ ثوبَيْه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليلٌ على جواز مثلِ ذلك إذا ارتجى حصولَ ما يستبشر به، وهو دليل على جواز إظهارِ الفرح بعد زوال الغمِّ والتَّرَح. ومن هذا الباب جواز حذَاقة الصبيانِ[٥]، وإطعامِ الطعامِ فيها، وقد نَحَرَ عمرُ بعد حفظه سورةَ «البقرة» جَزُوراً[٦]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذكَّرهم قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٥، وابن أبي حاتم ٧/ ٢١٩٦ (١١٩٥٥).

(٢) أخرجه الواحدي في الوسيط ٢/ ٦٣٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢١٩٩ (١١٩٧٩) عن لقمان الحنفي.

(٤) ١٠/ ٤١٣.

(٥) في النسخ الخطية: حذاق الصبيان، والمثبت من (م). وحَذَق الصبيُّ القرآنَ والعملَ، يَحْذِق حَذْقاً وحَذَاقة وحِذاقاً: إذا مَهَرَ فيه. ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن: هذا يوم حِذاقه. الصحاح (حذق)، ونقل ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٢٤١ عن ابن الصباغ في كتابه «الشامل» قوله: الحِذاق: الطعام الذي يتخذ عند حذق الصبي، وعن ابن الرفعة: هو الذي يصنع عند الختم، أي: ختم القرآن. اهـ

(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٣١، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٤/ ٢٨٦.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ في الكلام حذفٌ، التقدير: فلما رَجَعوا مِن مصرَ قالوا: يا أبانا؛ وهذا يدلُّ على أنَّ الذي قال له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ بَنُو بَنِيْه أو غيرُهم مِن قرابتِه وأهلِه لا ولدُه؛ فإنَّهم كانوا غُيَّباً، وكان يكون ذلك زيادةً في العقوقِ. والله أعلم.

وإنَّما سألوه المغفرةَ؛ لأنَّهم أَدخلوا عليه من أَلَم الحُزن ما لم يَسقط المأثمُ عنه إلا بإحلالِه[١].

قلت: وهذا الحكم ثابتٌ فيمن آذى مسلماً في نفسِه أو مالِه أو غيرِ ذلك، ظالماً له فإنَّه يَجب عليه أن يَتَحَلَّل له، ويُخبِره بالمَظْلِمة وقَدْرِها، وهل ينفعه التَّحليلُ المطلَق أم لا؟ فيه خلافٌ، والصحيحُ أنَّه لا يَنفع؛ فإنَّه لو أَخبره بمظلِمةٍ لها قَدْرٌ وبَالٌ ربَّما لم تَطِبْ نفسُ المظلوم في التَّحلُّل منها. والله أعلم.

وفي «صحيح البخاريِّ» وغيرِه عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كانت له مَظْلِمَةٌ لأخيه مِن عِرْضِه أو شيءٍ، فَلْيَتحلَّلهُ منه اليوم قَبْلَ ألَّا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقَدْر مَظلِمته، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ مِن سيئات صاحبِه فحُمِل عليه»[٢] قال المهلَّب فقوله ﷺ: «أُخذ منه بقَدْر مَظْلِمته» يجب أن تكون المظلمةُ معلومةَ القَدْر، مشاراً إليها مبيَّنة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾ قال ابنُ عباس: أَخَّرَ دعاءَه إلى السَّحَر[٣]. وقال المُثَنَّى بنُ الصَّبَّاح عن طاوس قال: سَحَر ليلةِ الجمعةِ، ووافَق ذلك ليلةَ عاشوراء[٤]. وفي دعاء الحِفظِ ـ من كتاب الترمذيِّ ـ عن ابنِ عباس أنَّه قال: بينما نحن عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ فقال: بأبي أنت وأمِّي،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٧٩.

(٢) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٤١٩) بنحوه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٥، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٤، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩، وزاد المسير ٤/ ٢٨٧، وينظر عرائس المجالس للثعلبي ص١٤١.

تَفَلَّتَ هذا القرآنُ مِن صدرِي، فما أَجِدُني أَقدِرُ عليه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أفلا أُعلِّمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللهُ بهنَّ، ويَنفعْ بهنَّ مَن عَلَّمته، ويُثَبِّتْ ما تَعلَّمتَ في صدرك» قال: أجل يا رسولَ الله، فَعَلِّمني، قال: «إذا كان ليلةُ الجمعة، فإنِ استطعتَ أن تقومَ في ثلث الليلِ الآخِرِ فإنَّها ساعةٌ مشهودةٌ، والدعاءُ فيها مستجابٌ، وقد قال أخي يعقوب لبَنِيْه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلةُ الجمعة»[١] وذكر الحديث.

وقال أيوبُ بنُ أبي تَمِيمةَ السَّخْتِيَاني، عن سعيدِ بنِ جُبير، قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في الليالِي البيض، في الثالثة عَشْرة، والرابعة عَشْرة، والخامسة عَشْرة، فإنَّ الدعاءَ فيها مستجابٌ[٢]. وعن عامر الشَّعبيِّ قال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أي: أَسألُ يوسفَ إن عفا عنكم استغفرتُ لكم ربي[٣].

وذكر سُنَيد بنُ داود قال: حدَّثنا هُشيمٌ، قال: حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ إسحاق، عن محاربِ بنِ دِثَار، عن عَمِّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحَر، فأَمُرُّ بدارِ ابنِ مسعودٍ فأَسمعه يقول: اللهمَّ إنَّك أمرتَني فأَطعتُ، ودعوتَني فأجبتُ، وهذا سَحَرٌ، فاغفِرْ لي، فلقيتُ ابنَ مسعودٍ فقلت: كلماتٍ أسمعكَ تقولهنَّ في السَّحر؟ فقال: إنَّ يعقوبَ أَخَّرَ بَنِيْه إلى السَّحَر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: قَصْراً كان له هناك ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إنَّ يوسفَ بعثَ مع البشير مئتي راحلةٍ وجَهازاً، وسأل يعقوبَ أن يأتيه

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٧٠).

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٠ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٤٩ .

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في التفسير ٥/ ٤١٠ (١١٤٤)، والطبري في التفسير ١٣/ ٣٤٧ ، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٠ (١١٩٨٣)، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٤ (٨٥٤٨) من طرق، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن عمِّه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٥ : وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الكوفي، وهو ضعيف.

بأهلِه وولدِه جميعاً، فلما دخلوا عليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضَمَّ، ويعني بأبويه أباه وخالتَه، وكانت أمُّه قد ماتت في ولادةِ أخيه بنيامين[١]. وقيل: أحيا الله له أمَّه تحقيقاً للرؤيا حتى سجدتْ له، قاله الحسنُ[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة» أنَّ اللهَ تعالى أحيا لنبيِّه عليه الصلاةالسلام أباه وأمَّه، فآمنا به[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قال ابنُ جريج: أي: سوف أستغفرُ لكم ربِّي إنْ شاء الله، قال: وهذا مِن تقديمِ القرآن وتأخيرِه[٤]. قال النحَّاس[٥]: يَذهبُ ابنُ جُرَيج إلى أنَّهم قد دخلوا مصرَ، فكيف يقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾. وقيل: إنَّما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبرُّكاً وجزْماً. ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن القَحْطِ، أو مِن فرعونَ، وكانوا لا يَدخلونها إلا بجوازِه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال قَتادة: يريد السَّرير[٧]، وقد تقدَّمت

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٢ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٠ - ٢٢٠١ (١١٩٨٦) ونسباه إلى السدي، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٨٨ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ . والأظهر أن المراد بأبويه: أبوه وأمه، بحسب اللفظ، إلا إذا ثبت بسند أن أمه ماتت. المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٠ قال الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٥٧ : والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر.

(٣) ٢/ ٣٤٤ . وهذا حديث كذب، فيما نقلناه عن الذهبي ثمة.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥١ ، وينظر كلام الطبري حول هذا المعنى.

(٥) معاني القرآن ٣/ ٤٥٦ .

(٦) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٤٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٢٨٩ ، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١١ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٦ .

محَامله[١]، وقد يُعبَّر بالعرش عن المُلْكِ والمَلِك نفسِه، ومنه قولُ النابغة الذُّبْيَانيِّ:

عُـروشٌ تَـفـانَـوْا بـعـد عِـزٍّ وأَمْـنـةٍ[٢]

وقد تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل: إنَّها تَعودُ على اللهِ تعالى، المعنى: وخَرُّوا شكراً لله سُجَّداً، ويوسف كالقِبْلة، لتحقيقِ رؤياه، ورُوي عن الحسن[٤]، قال النَّقاش: وهذا خطأٌ، والهاء راجعةٌ إلى يوسف، لقوله تعالى في أوَّل السورة: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾. وكان تحيَّتُهم أن يسجدَ الوضِيْعُ للشريف[٥]، والصغيرُ للكبير؛ سجد يعقوبُ وخالتُه وإخوتُه ليوسف عليه السلام، فاقشعرَّ جِلْدُه وقال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾[٦].

وكان بين رؤيا يوسف وبين تأويلها اثنتان وعشرونَ سنةً[٧]. وقال سلمانُ الفارسيُّ وعبدُ الله بنُ شَدَّاد: أربعونَ سنةً[٨]؛ قال عبدُ الله بنُ شَدَّاد: وذلك آخِرُ ما تُبطئ

---

(١) ٩/ ٢٤٠.

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وأورده القرطبي في الأسنى ص١٨٦ ولم ينسبه، وتمامه:

هـووا بـعـدمـا رامـوا الـسـلامـة والـبـقـاء

(٣) لم يتقدم، بل الوارد سابقاً ٩/ ٢٤٠ قول زهير:

تـداركـتـمـا عـبـسـاً وقـد ثُـلَّ عـرشـهـا ... وذبـيـان إذ زلَّـت بـأقـدامـهـا الـنـعـل

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٣ - ٢١٤.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٧، وزاد المسير ٤/ ٢٩٠، ونسباه إلى ابن عباس.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ١٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩ عنهما، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الرؤيا[١]. وقال قَتَادة: خمسٌ وثلاثون سنةً[٢]. وقال السُّدِّيُّ وسعيدُ بنُ جُبير وعِكرمةُ: ستٌّ وثلاثون سنةً[٣]. وقال الحسن وجَسْر بنُ فَرْقَد وفُضَيلُ بنُ عِيَاض: ثمانون سنةً[٤].

وقال وهب بنُ مُنَبِّه: أُلقيَ يوسفُ في الجُبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنةً، وغاب عن أبيه ثمانينَ سنةً، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثاً وعشرينَ سنةً، ومات وهو ابنُ مئة وعشرينَ سنةً. وفي التوراة مئةٌ وستٌّ وعشرون سنةً. وولد ليوسفَ مِن امرأةِ العزيز: إفراييم، ومنشا، ورحمة امرأة أيوب[٥]. وبين يوسف وموسى أربعُ مئةِ سنةٍ[٦].

وقيل: إنَّ يعقوبَ بَقيَ عند يوسفَ عشرينَ سنةً، ثم توفِّي ﷺ. وقيل: أقام عنده ثماني عَشْرة سنةً[٧]. وقال بعضُ المحدِّثين: بضعاً وأربعينَ سنةً. وكان بين يعقوبَ ويوسفَ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً حتى جمعَهم اللهُ. وقال ابنُ إسحاق: ثماني عَشْرة سنةً، والله أعلم[٨].

الثانية: قال سعيدُ بنُ جُبير، عن قَتَادة، عن الحسن، في قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ قال: لم يكن سجوداً، لكنَّه سُنَّة كانت فيهم، يُؤمِئون برؤوسهم إيماءً، كذلك كانت تحيَّتهم[٩]. وقال الثَّوريُّ والضَّحَّاك وغيرُهما: كان سجوداً كالسجود المعهودِ عندنا، وهو كان تحيَّتهم. وقيل: كان انحناءً كالركوع، ولم يكن خُروراً على الأرض، وهكذا

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٩).

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وأخرجه عنهم الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١ ولكن عزاه إلى الحسن، وفيه وفي المعارف لابن قتيبة ص٤١ أن في التوراة أنه عاش مئة وعشر سنين.

(٦) المعارف لابن قتيبة ص٤١ .

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ١٧٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١ .

(٨) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦١ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨١ .

كان سلامُهم بالتَّكفِّي والانحناء، وقد نسَخ اللهُ ذلك كلَّه في شرعِنا، وجعَل الكلامَ بدلاً عن الانحناء.

وأَجمع المفسِّرون أنَّ ذلك السجود على أيِّ وجهٍ كان، فإنَّما كان تحيةً لا عبادةً. قال قَتَادة: هذه كانت تحيَّةَ الملوك عندهم، وأعطى اللهُ هذه الأمَّةَ السلامَ تحيَّةَ أهلِ الجنة[1].

قلت: هذا الانحناء والتَّكفِّي الذي نُسِخَ عنَّا، قد صار عادةً بالديار المصريَّة، وعند العَجَم، وكذلك قيامُ بعضِهم إلى بعض، حتى إنَّ أحدَهم إذا لم يُقَمْ له، وَجَدَ في نفسِه كأنَّه لا يُؤبَهُ به، وأنَّه لا قَدْرَ له، وكذلك إذا التقَوا، انحنى بعضُهم لبعض، عادةٌ مستمرَّة، ووراثةٌ مستقِرَّة، لا سيما عند التقاءِ الأُمراء والرؤساء. نَكَبوا عن السَّنَنِ، وأَعرضوا عن السُّنَن. وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قلنا يا رسول الله، أينحني بعضُنا إلى بعضٍ إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أَفَيعتَنِقُ بعضُنا بعضاً؟ قال: «لا»، قلنا: أفيصافح بعضُنا بعضاً؟ قال: «نعم». خرَّجه أبو عمر في «التمهيد»[2].

فإن قيل: فقد قال رسولُ الله ﷺ: «قوموا إلى سيِّدِكم وخَيْرِكم»[3] ـ يعني: سعدَ ابنَ معاذٍ ـ قلنا: ذلك مخصوصٌ بسعدٍ؛ لما تقتضيه الحالُ المعيَّنة. وقد قيل: إنَّما كان قيامُهم لينزلوه عن الحمار. وأيضاً فإنَّه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسِه، فإن أثَّر فيه، وأُعجب به، ورأى لنفسه حظًّا، لم يَجُزْ عَوْنه على ذلك؛ لقوله ﷺ: «مَن سرَّه أن يتمثَّل له الناسُ قياماً، فليتبوَّأ مقعدَه مِن النار»[4]. وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنَّه لم يكن وجهٌ أكرمَ عليهم مِن وَجْهِ رسولِ الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رَأَوْه؛ لما يعرفونَ مِن كراهتِه لذلك.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٥٥، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٢ (١١٩٩٦).

(٢) ٢١/ ١٥، وأخرجه أيضاً البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٧) من حديث عائشة، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٢٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

الثالثة: فإن قيل: فما تقولُ في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائزٌ إذا بَعُدَ عنك؛ لتعيِّن له به وقتَ السلام، فإن كان دانياً، فلا[١]. وقد قيل بالمنْع في القُرب والبعد؛ لما جاء عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «من تَشبَّه بغيرنا، فليس منا». وقال: «لا تُسلِّموا تسليمَ اليهودِ والنصارى، فإنَّ تسليمَ اليهود بالأكُفِّ، والنَّصارى بالإشارة»[٢].

وإذا سَلَّم فإنَّه لا يَنحني، ولا أن يُقبِّلَ مع السَّلام يدَه، ولأنَّ الانحناءَ على معنى التواضع لا ينبغي إلا للهِ.

وأما تقبيلُ اليدِ فإنَّه مِن فِعْل الأعاجم، ولا يُتَّبعون على أفعالهم التي أحدثوها؛ تعظيماً منهم لِكُبَرائهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «لا تقوموا عند رأسي، كما تقوم الأعاجمُ عند رؤوس أكاسرتها»[٣] فهذا مثلُه.

ولا بأسَ بالمصافحة؛ فقد صافح النبيُّ ﷺ جعفرَ بنَ أبي طالب حين قَدِمَ من الحبشة، وأَمَرَ بها، ونَدَبَ إليها[٤]، وقال: «تصافحوا يذهبِ الغِلُّ»[٥] وروى غالب التَّمَّار عن الشَّعبيِّ أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ كانوا إذا التقَوا تَصافحوا، وإذا قَدِموا مِن سفرٍ، تَعانقوا[٦].

فإن قيل: فقد كَرِه مالكٌ المصافحةَ؟ قلنا[٧]: روى ابنُ وهبٍ عن مالكٍ أنَّه كَرِهَ المصافحةَ والمعانقةَ، وذهب إلى هذا سُحْنون وغيرُه مِن أصحابنا. وقد روي عن

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ . والكلام منه: فلا بأس بالمصافحة. وسيذكر المصنف المصافحة فيما يأتي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٩٥) والنسائي في الكبرى (١٠١٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٩١١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الترمذي: هذا حديث إسناده ضعيف. اهـ

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وابن ماجه (٣٨٣٦) عن أبي أمامة ﷺ بنحوه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٥ ، والحديث أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً.

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ .

(٧) القائل ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٧ .

مالكٍ خلافُ ذلك مِن جوازِ المصافحة، وهو الذي يدلُّ عليه معنى ما في «الموطأ»، وعلى جواز المصافحةِ جماعةُ العلماء مِن السَّلَف والخَلَف.

قال ابن العربي[1]: إنَّما كَرِهَ مالكٌ المصافحةَ؛ لأنَّه لم يَرَها أمراً عامًّا في الدِّين، ولا منقولاً نَقْلَ السلام، ولو كانت منه لاستوى معه.

قلت: قد جاء في المصافحةِ حديثٌ يدلُّ على الترغيب فيها، والدَّأب عليها والمحافظة، وهو ما رواه البَرَاءُ بنُ عازب قال: لقيتُ رسولَ الله ﷺ، فأخذ بيدي فقلت: يا رسولَ الله، إن كنتُ لأحسب أنَّ المصافحةَ للأعاجم؟ فقال: «نحن أحقُّ بالمصافحة منهم، ما من مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدُهما بيدِ صاحبِه مودةً بينهما ونصيحةً، إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما»[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل: من الجُبِّ؛ استعمالاً للكَرَم؛ لئلا يُذكِّر إخوتَه صنيعَهم بعد عَفْوه عنهم بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾[3] [يوسف: ٩٢].

قلت: وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذِكْرُ الجَفَا في وقتِ الصَّفَا جَفَا[4]، وهو قولٌ صحيحٌ دَلَّ عليه الكتابُ.

وقيل: لأنَّ في دخوله السجنَ كان باختياره بقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وكان في الجبِّ بإرادة الله تعالى له. وقيل: لأنَّه كان في السجن مع اللصوص والعُصَاة، وفي الجبِّ مع الله تعالى؛ وأيضاً فإن المِنَّة في النَّجاة مِن السِّجن كانت أكبرَ؛ لأنَّه دخلَه بسبب أَمْرٍ هَمَّ به، وأيضاً دخلَه باختياره إذ قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ فكان الكَرْبُ فيه أكثرَ، وقال فيه أيضاً: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٥ ، وزاد المسير ٤/ ٢٩١ .

(٤) هذا من كلام الجنيد للسَّرِيِّ السَّقَطي، وهو في الرسالة القشيرية ٢/ ١١٨ .

[يوسف: ٤٢] فعُوقبَ فيه[١].

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يُروى أنَّ مسكنَ يعقوبَ كان بأرضِ كنعان، وكانوا أهلَ مواشٍ وبَرِيَّة[٢]. وقيل: كان يعقوبُ تحوَّل إلى بادية وسَكَنها، وأنَّ اللهَ لم يبعث نبيًّا مِن أهل البادية. وقيل: إنَّه كان خرج إلى بَدًا، وهو موضعٌ؛ وإياه عنى جَمِيلٌ بقوله:

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَا إليَّ وأوطانِي بلادٌ سِواهُما[٣]

وليعقوبَ بهذا الموضع مسجدٌ تحت جبل. يقال: بَدَا القومُ بَدْواً: إذا أتَوا بَدًا، كما يقال: غَارُوا غَوْراً، أي: أتَوا الغَوْر، والمعنى: وجاء بكم مِن مكان بَدًا؛ ذكره القشيريُّ، وحكاه الماوَرْديُّ عن الضَّحَّاك عن ابنِ عباس[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابنُ عباس[٥]. وقيل: أفسد ما بيني وبين إخوتي[٦]؛ أَحال ذَنْبهم على الشيطان؛ تكرُّماً منه.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: رفيقٌ بعباده. وقال الخَطَّابيُّ: اللطيفُ هو البَرُّ بعبادِه، الذي يَلطُف بهم من حيث لا يعلمون، ويسبِّب لهم مصالحَهم من حيث لا يَحتسبون؛ كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩]. وقيل: اللطيفُ: العالِم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرامُ والرِّفق.

قال قتادة: لطف بيوسفَ بإخراجه من السجن، وجاءَه بأهله من البَدْو، ونزعَ عن قلبِه نَزْغَ الشيطانِ[٧].

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٨٣، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩١.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٦ ونسبه إلى قتادة، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٢.

(٣) ديوان جميل ص٢٠٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٤، وينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢١٥.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٨٤.

(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ١/ ٣١٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٦٣.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٤، وابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٠٣ (١٢٠٠٣).

ويُروى أنَّ يعقوبَ لما قَدِمَ بأهله وولدِه، وشَارَفَ أرضَ مصر، وبلَغ ذلك يوسف، استأذن فرعونَ ـ واسمه الرَّيَّان ـ أن يأذنَ له في تَلقِّي أبيه يعقوبَ، وأخبره بقدومِه، فأذن له، وأمر الملأ مِن أصحابه بالركوب معه، فخرج يوسفُ والملِكُ معه في أربعةِ آلافٍ من الأمراء مع كلِّ أميرٍ خَلْقٌ اللهُ أعلم بهم، وركب أهلُ مصرَ معهم يتلقَّون يعقوبَ، فكان يعقوبُ يمشي متكئاً على يدِ يهوذا، فنظر يعقوبُ إلى الخيل والناس والعساكر فقال: يا يهوذا، هذا فرعونُ مصرَ؟ قال: لا، بل هذا ابنُك يوسف، فلما دنا كلُّ واحد منهما من صاحبِه، ذهب يوسفُ ليبدأه بالسلام، فمُنع من ذلك، وكان يعقوبُ أحقَّ بذلك منه وأفضلَ، فابتدأ يعقوبُ بالسلام، فقال: السلامُ عليك يا مُذْهِب الأحزان[1]، وبكى وبكى معه يوسفُ، فبكى يعقوبُ فرحاً، وبكى يوسفُ، لِما رأى بأبيه من الحزن. قال ابنُ عباس[2]: فالبكاء أربعةٌ، بكاءٌ من الخوف، وبكاءٌ من الجَزَع، وبكاء من الفَرَح، وبكاءُ رِياءٍ. ثم قال يعقوبُ: الحمد لله الذي أقرَّ عيني بعد الهمومِ والأحزان.

ودخل مصرَ في اثنينِ وثمانينَ من أهل بيته، فلم يَخرجوا من مصرَ حتى بلغوا ستَّ مئةِ ألفٍ ونيفِ ألفٍ، وقطعوا البحرَ مع موسى عليه السلام، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عباس[3]. وحكى ابنُ مسعود أنَّهم دخلوا مصرَ وهم ثلاثة وتسعونَ إنساناً ما بين رجلٍ وامرأةٍ، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئة ألف وسبعون ألفاً[4]. وقال الربيعُ بنُ خثيم: دخلوها وهم اثنانِ وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستُّ مئةِ ألفٍ.

وقال وهبُ بنُ منبِّه: دخل يعقوبُ وولدُه مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجلٍ

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٥٠ ، وتاريخ الطبري ١/ ٣٦٢ ، وعرائس المجالس ص١٤١ - ١٤٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٨١ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٢ ، وأخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٣ بنحوه، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٧٦ ، وفيه أنهم كانوا حين دخولهم ثلاثة وسبعين إنساناً.

وامرأةٍ وصغيرٍ، وخرجوا منها مع موسى فِراراً من فرعون وهم ستُّ مئةِ ألفٍ وخمسُ مئةٍ وبضعٌ وسبعونَ رجلاً مقاتلين، سوى الذُّرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذُّرِّية ألفَ ألفٍ ومئتي ألفٍ سوى المقاتلة[١].

وقال أهلُ التواريخ: أقام يعقوبُ بمصر أربعاً وعشرين سنةً في أغبط حالٍ ونعمةٍ، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنِه يوسفَ أن يَحمل جسدَه حتى يدفنَه عند أبيه إسحاق بالشام، ففعل، ثم انصرفَ إلى مصر[٢]. قال سعيدُ بنُ جُبير: نُقل يعقوبُ ﷺ في تابوت من ساجٍ إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يومَ مات عِيصُو، فدُفنا في قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تَنْقُل اليهودُ موتاهم إلى بيتِ المقدس، مَن فَعَل ذلك منهم؛ ووُلد يعقوب وعِيصُو في بطنٍ واحد، ودُفنا في قبر واحد، وكان عمرُهما جميعاً مئةً وسبعاً وأربعينَ سنةً[٣].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ قال قَتادة: لم يَتمنَّ الموتَ أحدٌ، نبيٌّ ولا غيره إلَّا يوسف عليه السلام؛ حينَ تكاملتْ عليه النِّعمُ، وجُمِع له الشَّملُ اشتاقَ إلى لقاءِ ربه عزَّ وجلَّ[٤]. وقيل: إنَّ يوسفَ لم يَتمنَّ الموتَ، وإنما تمنَّى الوفاةَ على الإسلامِ، أي: إذا جاءَ أَجَلي تَوَفَّني مسلماً[٥]، وهذا قولُ الجمهور.

وقال سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ: لا يتمنى الموتَ إلا ثلاثٌ: رجلٌ جاهل بما بعدَ الموت، أو رجلٌ يَفِرُّ من أقدارِ الله تعالى عليه، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاءِ الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) ينظر عرائس المجالس ص١٤٢ ، والكشاف ٢/ ٣٤٤ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١ ، وينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٦٤ ، والوسيط ٢/ ٦٣٦ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١ . وينظر عرائس المجالس ص١٤٣ ، والمعارف لابن قتيبة ص٣٩ وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٣ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ .

وثبتَ في الصحيحِ عن أنسٍ قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لا يَتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزلَ به، فإن كان لابدّ مُتمنِّياً، فليقل: اللهمَّ أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتَوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي». رواهُ مسلم[(١)] وفيه[(٢)]: عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنَّى أحدُكم الموتَ، ولا يَدْعُ به من قبلِ أن يأتيَه، إنه إذا ماتَ أحدُكم انقطَع عملُه، وإنَّه لا يزيدُ المؤمِنَ عُمُره إلا خيراً». وإذا ثبتَ هذا، فكيفَ يقال: إنَّ يوسفَ عليه السلام تمنى الموتَ، والخروجَ من الدنيا، وقَطْعَ العملِ؟ هذا بعيدٌ! إلا أن يقال: إنَّ ذلك كان جائزاً في شرعِه، أَمَا إنه يجوزُ تمني الموت والدعاءُ به عندَ ظهورِ الفتن وغلبتها وخوف ذهابِ الدين، على ما بيَّناه في كتابِ «التذكرة»[(٣)].

و«مِنَ» من[(٤)] قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ للتبعيض، وكذلك قولُه: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ لأن مُلْكَ مصرَ ما كان كلَّ الْمُلك، وعلمَ التَّعبير ما كان كلَّ العلوم. وقيل: «مِنَ» للجنس كقولِه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقيل: للتأكيدِ. أي: آتيتني الملكَ، وعَلمتني تأويلَ الأحاديث[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نُصِبَ على النعتِ للنداء، وهو «ربِّ»، وهو نداءٌ مضافٌ، والتقديرُ: يا ربِّ. ويجوزُ أن يكونَ نداءً ثانياً[(٦)]. والفاطرُ الخالقُ، فهو سبحانه فاطرُ الموجوداتِ، أي: خالقُها ومُبدِئها، ومُنشِئها ومخترعُها على الإطلاق من غير شيء[(٧)]، ولا مثالٍ سبق؛ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٨)]

(١) في صحيحه (٢٦٨٠)، وهو عند البخاري (٦٣٥١).

(٢) في صحيح مسلم (٢٦٨٢).

(٣) ص٦ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٢٩ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٥ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٠ ، والكشاف ٢/ ٣٤٥ .

(٧) في (ظ): شبه.

(٨) ٢/ ٣٣٥ .

مستوفًى عند قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آية:١١٧] وزِدناه بياناً في الكتابِ «الأسنى في شرحِ أسماءِ الله الحسنى»[(١)].

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي: ناصري ومتولِّي أموري في الدنيا والآخرة. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يريدُ آباءَه الثلاثةَ: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فتوفَّاه الله طاهراً طيباً ﷺ، بمصرَ، ودُفِن في النيلِ في صندوقٍ من رخامٍ؛ وذلك أنَّه لمَّا ماتَ تَشاحَّ الناسُ عليه، كلٌّ يحبُّ أن يُدفَن في مَحلَّتهم، لِما يَرجون من بركتِه؛ واجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال، فرأَوا أن يَدفِنُوه في النِّيل من حيثُ مَفرِقُ الماءِ بمصر، فيَمُرَّ عليه الماءُ، ثم يتفرَّق في جميعِ مصر، فيكونوا فيه شَرَعاً[(٢)]، ففعلوا، فلمَّا خرجَ موسى ببني إسرائيل أخرجَه من النيل، ونقلَ تابوتَه بعدَ أربع مئةِ سنةٍ إلى بيت المقدس، فدفنوه مع آبائِه لدعوته: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكان عُمره مائةَ عامٍ وسبعة أعوامٍ[(٣)].

وعن الحسنِ قال: أُلقي يوسفُ في الجبِّ وهو ابنُ سبعَ عَشْرةَ سنة، وكان في العبوديةِ والسِّجنِ والملك ثمانينَ سنة، ثم جُمِع له شملُه فعاشَ بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة؛ وكان له من الولدِ إفراثيمُ، ومنشا، ورحمةُ زوجةُ أيوب؛ في قولِ ابن لَهِيعة.

قال الزُّهري: ووُلد لإفراثيم بنِ يوسف نونُ بنُ إفراثيم، ووُلِد لنون يوشَعُ، فهو يُوشَعُ بنُ نون[(٤)]، وهو فتى موسى الذي كانَ معه صاحب أمرِه، ونَبَّأه الله في زمنِ موسى عليه السلام، فكان بعده نبيًّا، وهو الذي افتتَح أرِيحا، وقَتل مَن كان بها من

---

(١) ص٣٢٦ - ٣٢٨.

(٢) أي: سواء. الصحاح (شرع)، وفي (ظ): شركاء، وهما بمعنى.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٨٥، والوسيط ٢/ ٦٣٦، وتفسير السمرقندي ٢/ ١٧٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص١٤٤.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٤٥١، وزاد المسير ٤/ ٢٩٢، وتفسير الرازي ١٨/ ٢١٦. وينظر عرائس المجالس ص١٤٥.

الجبابرةِ، واستُوقِفت له الشمسُ حسبَ ما تقدَّم في «المائدة»[١]. ووُلِد لمنشا بنِ يوسف موسى بنُ منشا، قبلَ موسى بنِ عمران، وأهلُ التوراةِ يزعُمون أنَّه هو الذي طلبَ العالمَ ليتعلمَ منه حتى أدركه، والعالمُ هو الذي خَرقَ السفينةَ، وقتل الغُلامَ، وبنَى الجدارَ، وموسى بنُ منشا معه حتى بلغَ معه حيثُ بلغ، وكان ابنُ عباس يُنكرُ ذلك[٢]؛ والحقُّ الذي قالَه ابنُ عباس، وكذلك في القرآن، ثم كانَ بين يوسفَ وموسى أُممٌ وقرون، وكان فيما بينَهما شعيبٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ ثانٍ. قال الزَّجاجُ[٣]: ويجوز أن يكون «ذَٰلِكَ» بمعنى الذي، و«نُوحِيهِ إِلَيْكَ» خبرُه، أي: الذي من أنباءِ الغيب نوحيه إليك. يعني: هو الذي قَصصنا عليك يا محمدُ من أمرِ يوسفَ من أخبار الغيب «نُوحِيهِ إِلَيْكَ» أي: نُعلمك بوحي هذا إليك.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: مع إخوةِ يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاءِ يوسفَ في الجبِّ. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: بيوسف في إلقائِه في الجبِّ. وقيل: «يَمْكُرُونَ» بيعقوبَ حين جاؤوه بالقميصِ مُلطَّخاً بالدم[٤]، أي: ما شاهدتَ تلك الأحوالَ، ولكنَّ الله أطلعك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظنَّ أن العربَ لمَّا سألته عن هذه القصةِ وأخبرَهم يؤمنون، فلم يؤمنوا، فنزلتِ الآيةُ تسليةً للنبي ﷺ[٥]. أي:

---

(١) ٧/ ٤٠٤.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ٣٢٦ - ٣٢٩، وينظر عرائس المجالس ص١٤٥.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٥.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٤، وزاد المسير ٤/ ٢٩٣.

ليس تقدرُ على هدايةِ مَن أردتَ هدايته[١]، تقول: حَرَص يَحرِص، مثل: ضَرَبَ يَضرِب. وفي لغةٍ ضعيفةٍ: حَرِص يَحرَص، مثل حَمِد يَحمَد[٢]. والحِرْصُ طلبُ الشيء باجتهاد[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «مِنْ» صلةٌ، أي: ما تَسألهم جُعْلاً. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، يعني: القرآن والوحي. ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: عِظةٌ وتذكرةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الخليلُ وسيبويه[٥]: هي «أيٌّ» دخلَ عليها كافُ التشبيه[٦]، فصار في الكلام معنى كَمْ. وقد مضى في «آل عمران»[٧] القولُ فيها مستوفًى. ومضى القولُ في آية «السَّماواتِ والأَرْضِ» في «البقرة»[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٩ .

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٢٣٩ .

(٣) في النسخ: باختيار، ولم نقف على هذا المعنى، والمثبت من تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٣ ، ولسان العرب (حرص).

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧١ .

(٥) في الكتاب ٢/ ١٧٠ - ١٧١ . ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٤١٠ و ٢/ ٣٤٦ ، والكلام منه.

(٦) بعدها في (م): وبُنيت معها.

(٧) ٥/ ٣٤٩ وما بعدها .

(٨) ٢/ ٤٩٠ .

وقيل: الآياتُ آثار عقوباتِ الأمم السالفة، أي: هم غافلونَ مُعرِضون عن تأمُّلها.

وقرأ عِكرمةُ وعَمرو بنُ فائد: «وَالْأَرْضُ» رفعاً ابتداء، وخبرُه: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾. وقرأ السُّدِّي «وَالْأَرْضَ» نصباً بإضمارِ فعل، والوقفُ على هاتين القراءتين على «السماوات». وقرأ ابنُ مسعود: «يمشون عليها»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ نزلت في قومٍ أقرُّوا بالله خالقِهم وخالقِ الأشياءِ كلِّها، وهم يعبدون الأوثانَ؛ قاله الحسنُ ومجاهدٌ، وعامر الشعبي[2] وأكثرُ المفسرين. وقال عِكرمةُ: هو قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ثم يصفونه بغيرِ صفته، ويجعلون له أنداداً. وعن الحسن أيضاً: أنَّهم أهلُ كتابٍ معهم شِرْكٌ وإيمان، آمنوا بالله وكفروا بمحمدٍ ﷺ، فلا يصحُّ إيمانُهم؛ حكاه ابنُ الأنباري.

وقال ابنُ عباس: نزلتْ في تلبيةِ مشركي العرب: لبيكَ لا شريكَ لك إلا شريكاً هو لك تَملِكُه وما مَلك. وعنه أيضاً: أنَّهم النصارى. وعنه أيضاً: أنهم المشبِّهةُ، آمنوا مجملاً، وأشركوا مُفَصَّلاً. وقيل: نزلت في المنافقين؛ المعنى: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ» أي: باللسان إلا وهو كافرٌ بقلبه؛ ذكره الماورديُّ[3] عن الحسن أيضاً. وقال عطاء: هذا في الدعاءِ، وذلك أنَّ الكفار يَنْسَون ربَّهم في الرَّخاء، فإذا أصابهمُ البلاءُ أخلصوا في الدعاء؛ بيانه[4]: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] الآية. وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس: ١٢] الآية. وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

---

(١) المحتسب ١/ ٣٤٩ - ٣٥٠، ومختصر في شواذ القرآن ص٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤.

(٢) في (م): والشعبي.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٨٧، وتنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٢ - ٣٧٦، والنكت والعيون ٣/ ٨٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥، وزاد المسير ٤/ ٢٩٤، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤.

(٤) في (ظ): نياتهم، وقول عطاء في تفسير البغوي ٢/ ٤٥٢.

ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]. وقيل: معناها: أنَّهم يدعونَ الله ينجيهم من الهَلَكَةِ، فإذا أنجاهم قال قائلُهم: لولا فلانٌ ما نَجَوْنا، ولولا الكلبُ لدخلَ علينا اللصُّ، ونحوَ هذا، فيجعلون نعمةَ الله منسوبةً إلى فلان، ووقايتَه منسوبةً إلى الكلبِ[1].

قلت: وقد يقعُ في هذا القول والذي قبلَه كثيرٌ من عوامِّ المسلمين، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

وقيل: نزلت هذه الآيةُ في قصةِ الدُّخان؛ وذلك أنَّ أهلَ مكة لمَّا غَشِيَهم الدُّخانُ في سِنيِّ القَحْطِ قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] فذلك إيمانُهم، وشِرْكُهم عَودُهم إلى الكفر بعدَ كشفِ العذاب؛ بيانُه قولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]، والعَودُ لا يكون إلا بعدَ ابتداء، فيكونُ معنى: ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: إلا وهم عائدون إلى الشركِ، والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ قال ابنُ عباس: مُجلِّلة. وقال مجاهد: عذابٌ يغشاهم. نظيرُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقال قَتادة: وقيعةٌ تقعُ لهم. وقال الضحاكُ: يعني الصَّواعق والقَوارِع[2]. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة. ﴿بَغْتَةً﴾ نُصِبَ على الحال، وأصلُه المصدرُ. وقال المبردُ: جاءَ عن العربِ حالٌ بعد نكرة، وهو قولُهم: وقعَ أمرٌ بغتةً وفجأة. قال النحاسُ[3]: ومعنى: بَغتَه: أصابَه[4] من حيثُ لم يَتوقَّع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد[5]. وقوله: «بَغْتَةً» قال ابن عباس: تَصيح الصيحةُ بالناس وهم في أسواقِهم ومواضعِهم[6]، كما قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٨٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٦ - ٣٤٧، وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣١.

(٤) في النسخ: بغتة: إصابة، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٤.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٤٥٣.

[يس: ٤٩] على ما يأتي.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ابتداءٌ وخبر[١]، أي: قل يا محمدُ، هذه طريقي وسُنَّتي ومِنْهَاجي؛ قاله ابنُ زيد. وقال الربيع: دعوتي. مقاتل: ديني[٢]، والمعنى واحد، أي: الذي أنا عليه وأدعو إليه يُؤدِّي إلى الجنةِ[٣]. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين وحقٍّ؛ ومنه: فلانٌ مستبصرٌ بهذا. ﴿أَنَا۠﴾ توكيدٌ. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ عطفٌ على المضمرِ[٤]. ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: وسبحانَ اللهِ. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذونَ من دون الله أنداداً[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ هذا ردٌّ على القائلين: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ﴾ [الأنعام: ٨]، أي: أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأةٌ ولا جِنِّيٌّ ولا مَلَك؛ وهذا يردُّ ما يُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ في النِّساء أربعَ نبيَّاتٍ: حَوّاء وآسية، وأمّ موسى ومريم»[٦]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٧] شيءٌ من هذا.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٧٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣ ، والوسيط ٢/ ٦٣٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٥ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٥ .

(٦) لم نقف عليه.

(٧) ٥/ ١٢٦ - ١٢٩ .

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ يريدُ المدائنَ، ولم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية؛ لغلبةِ الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأنَّ أهلَ الأمصار أعقلُ وأحلمُ، وأفضلُ وأعلمُ. قال الحسنُ: لم يبعثِ الله نبيًّا من أهلِ البادية قطُّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنِّ. وقال قتادة: «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أي: من أهل الأمصار؛ لأنهم أعلمُ وأحلم[1].

وقال العلماءُ: مِن شرطِ الرسول أن يكون رجلاً آدميًّا مدنيًّا[2]؛ وإنما قالوا: آدميًّا تَحرزاً من قولِه: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن:٦]. والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارعِ الأمم المكذِّبةِ لأنبيائهم فيعتبروا. ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۗ﴾ ابتداءٌ وخبرُه. وزعم الفرَّاء[3] أنَّ الدار هي الآخرة، وأضيفَ الشيءُ إلى نفسِه لاختلافِ اللفظ، كيومِ الخميس، وبارحةِ الأولى؛ قال الشاعر:

ولـو أَقْـوَتْ عـلـيـكَ دِيـارُ عَـبْـسٍ عَـرَفْـتَ الـذُّلَّ عِـرْفَـانَ الـيَـقـيـنِ[4]

أي: عِرْفَاناً ويقيناً، واحتجَّ الكسائيُّ بقولهم: صلاةُ الأولى، واحتجَّ الأخفشُ بـ: مسجدِ الجامعِ. قال النحاسُ: إضافةُ الشيءِ إلى نفسِه مُحالٌ؛ لأنه إنَّما يُضاف الشيءُ إلى غيره ليتعرَّف به، والأجودُ الصَّلاةُ الأولى، ومَن قال: صلاةُ الأولى فمعناه: عندَ صلاةِ الفريضة الأولى، وإنَّما سُمِّيتِ الأولى؛ لأنها أوَّلُ ما صُلِّي حين فُرضت الصَّلاة، وأوَّلُ ما أُظهِر، فلذلك قيلَ لها أيضاً: الظهر. والتقديرُ: ولدارُ الحال الآخِرة خيرٌ. وهذا قولُ البصريين[5]، والمرادُ بهذه الدارِ الجنةُ؛ أي: هي خيرٌ للمتقين.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٠، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٣، والوسيط ٢/ ٦٣٨، والنكت والعيون ٣/ ٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٦، وزاد المسير ٤/ ٢٩٥.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٢٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٥ – ٥٦. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٤٧، وما قبله منه.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٣٨٢، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، دون نسبة لقائل.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧، وينظر البحر المحيط ٥/ ٣٥٣.

وقُرئ: «وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ»[١]. وقرأ نافعٌ وعاصم ويعقوب وغيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبرِ[٢].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ تقدَّم القراءةُ فيه ومعناه[٣]. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ وهذه الآيةُ فيها تنزيهُ الأنبياءِ وعصمتُهم عمَّا لا يليقُ بهم. وهذا البابُ عظيم، وخطرُه جسيم، ينبغي الوقوفُ عليه؛ لئلا يزِلَّ الإنسانُ فيكونَ في سواءِ الجحيم. المعنى: وما أرسلنا قبلَك يا محمد إلا رجالاً، ثم لم نعاقب أمَمهم بالعذاب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي: يَئِسوا من إيمانِ قومِهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتشديد؛ أي: أيقنوا أن قومَهم كَذَّبوهم[٤]. وقيل: المعنى: حَسِبوا أنَّ مَن آمن بهم مِن قومهم كَذَّبوهم[٥]، لا أنَّ الْقَوْم كَذَّبوا، ولكنَّ الأنبياء ظَنُّوا وحسِبوا أنهم يُكذِّبونهم؛ أي: خافوا أن يدخلَ قلوبَ أتباعِهم شكٌّ، فيكون «وَظَنُّوا» على بابِه في هذا التأويل[٦].

وقرأ ابنُ عباس وابنُ مسعود، وأبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وأبو جعفر بن القَعْقَاع، والحسن وقَتَادة، وأبو رَجَاء العُطَارِديُّ وعاصم، وحمزة والكسائي، ويحيى بن وَثَّاب والأعمش وخَلَف: «كُذِبُوا» بالتخفيف[٧]؛ أي: ظنَّ القومُ أنَّ الرسل كَذَبوهم فيما

---

(١) قال البنا في إتحاف فضلاء البشر ص٢٦٢ : ولا خلاف في حرف يوسف أنه بلام واحدة لاتفاق الرسوم عليه.

(٢) السبعة ص٢٥٦ ، والتيسير ص١٣٠ .

(٣) عند الآية ٨٠ في هذه السورة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧-٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ .

(٧) ينظر السبعة ص٣٥٢ ، والتيسير ص١٣٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٣٨٣ - ٣٩٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٨ ، والبغوي ٢/ ٤٥٤ ، والوسيط ٢/ ٦٣٨ .

أخبَروا به من العذابِ، ولم يَصدقُوا.

وقيل: المعنى ظنَّ الأممُ أنَّ الرسلَ قد كَذَبوا فيما وَعدوا به مِن نصرهم[١]. وفي رواية عن ابنِ عباس: ظنَّ الرسلُ أنَّ الله أخلف ما وَعدهم. وقيل: لم تصحَّ هذه الروايةُ؛ لأنه لا يُظَنُّ بالرسلِ هذا الظنُّ، ومَن ظنَّ هذا الظنَّ لا يَستحِقُّ النَّصر، فكيفَ قال: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[٢]؟!.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبعدُ إن صحَّتِ الروايةُ أنَّ المرادَ خَطَرَ بقلوبِ الرسلِ هذا من غيرِ أن يتحقَّقوه في نفوسِهم؛ وفي الخبر: «إنَّ الله تعالى تجاوزَ لأمّتي عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به»[٣]. ويجوزُ أن يُقال: قَرُبوا من ذلك الظنِّ؛ كقولِك: بَلغتُ المنزلَ، أي قَرُبت منه[٤].

وذكر الثعلبيُّ والنحاسُ[٥] عن ابنِ عباس قال: كانوا بشراً فضَعُفوا من طولِ البلاء، ونَسُوا وظنُّوا أنَّهم أُخلِفوا، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤][٦]. وقال الترمذيُّ الحكيم: وجهُه عندنا أنَّ الرسلَ كانت تخافُ بعد ما وعدَ اللهُ النصرَ، لا من تهمةٍ لوعدِ الله، ولكن لتهمةِ النفوس أن تكونَ قد أحدثت حَدَثاً يَنْقُض ذلك الشرطَ والعهدَ الذي عهدَ إليهم، فكانت إذا طالت عليهم المدَّة دخلَهم الإياس والظنونُ من هذا الوجه.

وقال المهدويُّ، عن ابنِ عباس: ظنَّت الرُّسلُ أنهم قد أُخلِفُوا، على ما يلحقُ البشرَ، واستشهدَ بقولِ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٨٩ ، وبحر العلوم ٢/ ١٨٠ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢ ، والكشاف ٢/ ٣٤٧ .

(٣) سلف ١٠/ ٣٠٩ .

(٤) قال مثل قول القشيري أبو منصور الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ١٦٨ - ١٦٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٦٣ .

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٣٩٣ ، وفيه: «يئسوا» بدل «نسوا».

[البقرة: ٢٦٠] الآية. والقراءةُ الأُولى أولى.

وقرأ مجاهد وحميد: «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفَّفاً[١]، على معنى: وظنَّ قومُ الرسلِ أنَّ الرسل قد كَذَبوا، لِمَا رأوا من تفضُّل الله عزَّ وجلَّ في تأخيرِ العذاب[٢].

ويجوزُ أن يكون المعنى: ولمَّا أيقنَ الرسلُ أن قومَهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم، جاءَ الرسلَ نصرُنا. وفي البخاريّ[٣]، عن عروةَ، عن عائشةَ قالت له وهو يسألُها عن قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبُوا أم كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقدِ استيقَنوا أنَّ قومَهم كذَّبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أَجَلْ لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا، قالت: معاذَ الله! لم تكنِ الرسلُ تظنُّ ذلك بربها. قلت: فما هذه الآيةُ؟ قالت: هم أتباعُ الرسلِ [الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم، فطالَ عليهم البلاءُ، واستأخرَ عنهم النصرُ حتى إذا استيأس الرسلُ] ممن كذَّبهم من قومِهم، وظنَّت الرسلُ أن أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله[٤] عندَ ذلك.

وفي قوله تعالى: «جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» قولان: أحدُهما: جاء الرسلَ نصرُ الله؛ قاله مجاهد[٥]. الثاني: جاء قومَهم عذابُ الله؛ قاله ابنُ عباس[٦]. ﴿فَنُنْجِي مَن نَّشَآءُ﴾ قيل: الأنبياء ومَن آمنَ معهم[٧]. ورُوي عن عاصم ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ بنونٍ واحدةٍ

(١) القراءات الشاذة ص٦٥، والمحتسب ١/ ٣٥٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن له ٣/ ٤٦٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨، والوسيط ٢/ ٦٣٨.

(٣) برقم (٤٦٩٥)، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ: نصرنا، والمثبت من صحيح البخاري.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٦) النكت العيون ٣/ ٨٩.

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

مفتوحة الياء، و«مَنْ» في موضع رفعِ اسمِ ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ واختار أبو عبيد هذه القراءةَ؛ لأنَّها في مصحف عثمان، وسائرُ مصاحفِ البلدان بنونٍ واحدة[١]. وقرأ ابن مُحَيْصن: «فَنَجَا» فعل ماض. و«مَنْ» في موضع رفع؛ لأنه الفاعل[٢]، وعلى قراءةِ الباقين نصباً على المفعول. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين المشركين[٣].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي: في قصة يوسفَ وأبيه وإخوته[٤]، أو في قَصص الأمم[٥]. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي: فكرةٌ وتذكرةٌ وعظة. ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول.

وقال محمد بنُ إسحاق، عن الزهري، عن محمد بنِ إبراهيم بن الحارث التَّيْميِّ: إنَّ يعقوب عاشَ مئة سنة وسبعاً وأربعين سنة، وتُوفِّي أخوه عِيصُو معه في يومٍ واحد، وقُبِرا في قبر واحد[٦]؛ فذلك قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى آخر السورةِ. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان القرآنُ حديثاً يفترى، أو ما كانت هذه القصةُ حديثاً يُفترى[٧]. ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولكن كان تصديقَ،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٢، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٦٥، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٨٩ - ٩٠، والكشاف ٢/ ٣٤٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨٩، وتفسير الرازي ١٨/ ٢٢٨.

(٦) ينظر تاريخ الطبري ١/ ٣٣٠، والمعارف ص٣٩ - ٤٠. وسلف هذا الكلام ص٤٦٠ من هذا الجزء.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٩٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، والكشاف ٢/ ٣٤٨، وزاد المسير ٤/ ٢٩٧.

ويجوزُ الرفعُ بمعنى: لكن هو تصديقُ الذي بين يديه[١] أي: ما كان قبلَه من التوراة والإنجيل وسائِر كتبِ الله تعالى، وهذا تأويلُ مَن زعم أنه القرآن[٢]. ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ممَّا يحتاجُ العباد إليه من الحلالِ والحرامِ، والشرائعِ والأحكام[٣]. ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

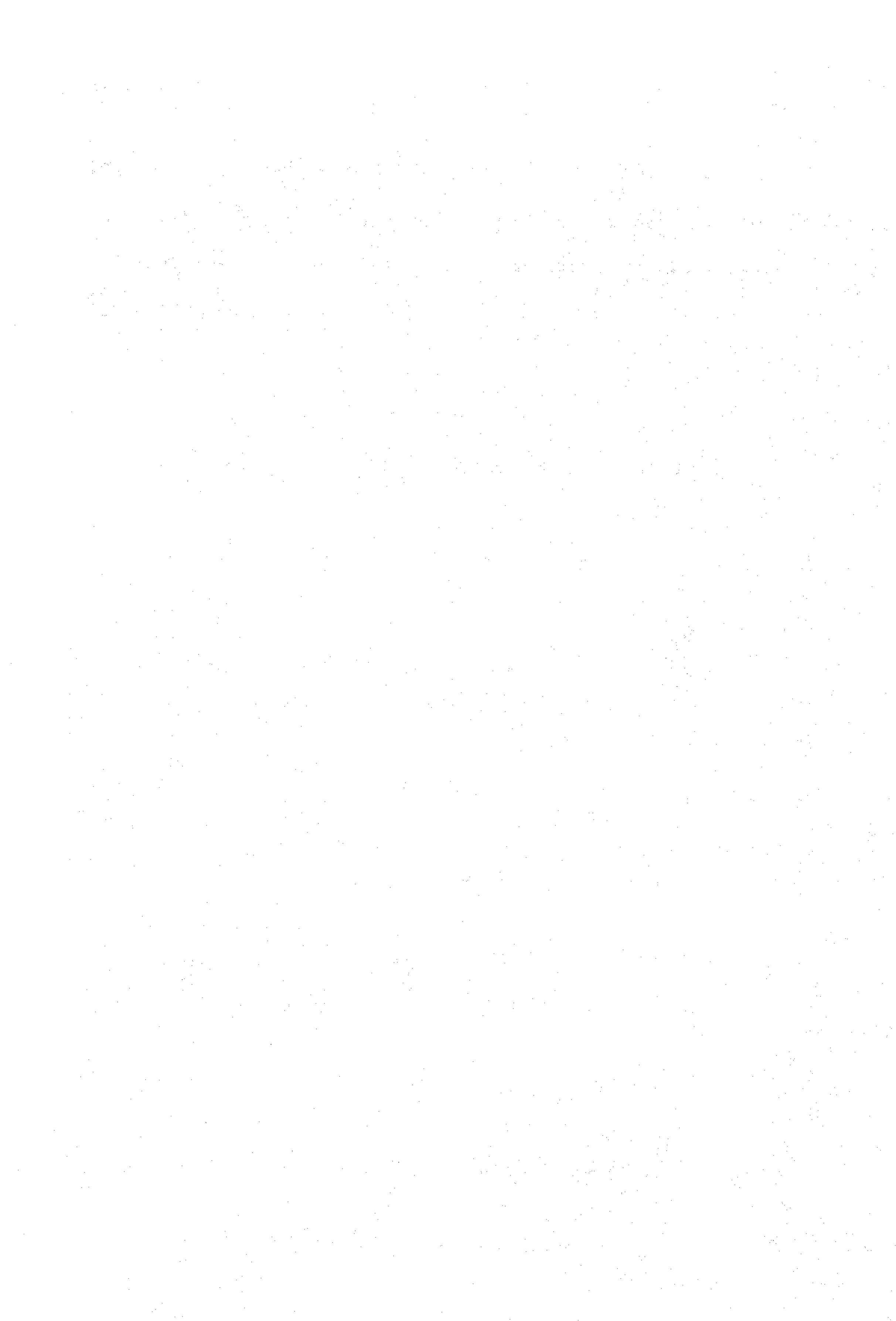
تم الجزء الحادي عشر من تفسير القرطبي، ويليه الجزء الثاني عشر ويبدأ بسورة الرعد

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠٣، والنكت والعيون ٣/ ٩٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٥٦ - ٥٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ١٨٠، والوسيط للواحدي ٢/ ٦٣٩، وتفسير البغوي ٢/ ٤٥٤.



فهرس الجزء الحادي عشر